محمد الأنطاكي

الوجيز في فقه اللغة

الطبعة الثالثة

محمد الأنطاكي

الوجيز
في فقه اللغة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد ، فلعل بيان الغاية من تأليف كل كتاب ، يكون فيه الجواب عن كثير مما قد يثار من الاسئلة حول منهجه وموضوعاته ، لهذا أسارع الى القول :

كانت الغاية من تأليف هذا الكتاب أن يكون نافذة ضيقة يطل منها طلبة الدراسات العربية في الجامعات على أهم الجوانب لنشاط جديد في الدراسات اللغوية يدعى **فقه اللغة** .

ولما كان هذا العلم جديداً عليهم ، وكانت أكثر مباحثه تختلط بما عرفوه من المباحث النحوية والصرفية ـ وهو أمر كثيراً ما أوقعهم في الحيرة والتساؤل عن كنه هذا العلم وحدوده وموضوعه ـ ، ولما كانت الغاية من دراستهم له أن يفهموا ، عن طريقه ، عربيتهم غير الفهم النحوي الصرفي القديم ـ حرصنا على الامور الآتية :

١ ـ أن نعرف الطلبة بهذا العلم وتاريخه وفروعه .

٢ ـ أن نحدد ميادينه ونبين مناهجه حتى لا يختلط ، في أذهانهم ، بغيره من أنواع الدراسات اللغوية الاخرى .

٣ ـ أن نتوسع في كل ما له صلة وثيقة بالعربية ، أو ما يعالج خصيصة من خصائصها .

وأعتقد ، بعد هذا أنه سيكون واضحاً للقارىء سبب إيجازنا في بعض الابواب والفصول ، وإسهابنا في بعضها الآخر ، وإثباتنا لبعض موضوعات هذا العلم ، وإغفالنا ما سواها .

فان كنا قد بلغنا الغاية التي رجونا ، فهذا بفضل الله ومنه ، وإن كانت الاخرى ، فعذرنا أننا حاولنا ونحن مخلصون .

والحمد لله أولاً وآخراً .

حلب أول رجب ١٣٨٩

١٢ أيلول ١٩٦٩ محمد الانطاكي

الباب الأوّل

فقه اللغة

أفقه أم علم ؟

تسلك المباحث اللغوية عند الغربيين تحت أسماء متعددة ، فتجدها مرة تحت اسم « Philologie » وأخرى تحت اسم « Linguistique » ، وثالثة تحت اسم « Grammaire » . فما حكاية هذه الاسماء ، وما مضامينها ؟ .

أما « الغرامير » فهي كلمة أخذها الغربيون عن الاغريق الذين « كانوا يسمون النحو بالغراماطيقا Grammatiké » ، أي فن أو علم استخدام الحروف « Grammata »(١) . ويطلقها الغربيون اليوم على كثير من المباحث اللغوية ، ولا سيا الوصفية والتاريخية والمقارنة والعامة .

وأما « اللانغويستيك » فهي كلمة تؤرخ أغلب الكتب ظهورها لأول مرة بعام ١٨٣٣ ، وإن كان بعضهم يؤكد انها استعملت قبل ذلك بمدة ، وانها ذكرت في بعض الكتب عام ١٨٢٦ (٢) . ومهما يكن فان الكلمة تطلق اليوم على العلم الذي يجعل من اللغة موضوعاً للدراسة ، من

---

١ ـ Perrot : La linguistique , PP . 13 - 14

٢ ـ Ibid . P . 14 .

حيث الاصوات والمفردات والتراكيب ، وما يعتري اللغة من انحطاط ورقي ، وأسباب ذلك وعلله ، وما الى ذلك مما سيأتي تفصيله بعد قليل .

وأما « الفيلولوجيا » فهي « كلمة مركبة من لفظين اغريقيين : أحدهما Philos بمعنى الصديق ، والثاني Logos بمعنى الخطبة أو الكلام[1] ، ومدلول هذه الكلمة قد اختلف كثيراً باختلاف العصور وباختلاف الامم ، ولا يزال العلماء يختلفون في فهمها واطلاقها .

« فأحياناً تطلق ويراد بها ما يشمل معظم بحوث اللنغويستيك ، ويكاد يتعين هذا المعنى اذا وصفت بما يدل على عموم بحوثها فقيل مثلاً : « فيلولوجيا مقارنة Philologie comparée .

« وأحياناً تطلق ويراد بها دراسة لغة أو لغات من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها . وكانت اذا اطلقت في عصر احياء العلوم لا تنصرف إلا الى دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية دراسة قواعد وأدب . ولكنها الآن لا تفيد هذا المعنى الا اذا قيدت فقيل « فيلولوجيا كلاسيكية » « Philologie classique » .

« وأحياناً تطلق ويراد بها دراسة الحياة العقلية ومنتجاتها على العموم في امة ما أو في طائفة من الامم .

« وهي بمعنييها الأخيرين ترادف ما نسميه أدب اللغة وتاريخ أدبها »[2] .

وبعد . فهل تعني هذه الاسماء شيئاً واحداً ، أم تعني أشياء متعددة ؟ واذا كانت بينها فروق فما هي ؟ .

---

١ – صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة . ص ٢٠

٢ – الوافي : علم اللغة ، ص ١٢ مع شيء يسير من التصرف .

الواقع أن لا خلاف بين الغرامير واللانغويستيك سوى أن الاول أخص والثاني أعم . بل إن بعض العلماء يحرص على الاسمين ويستخدمهما معاً (١) . أما الفيلولوجيا فبينها وبين اللانغويستيك فروق دقيقة يعسر في كثير من الاحيان تبينها ، « وجل مباحثها متداخل لدى طائفة من العلماء » (٢) . وهذا التداخل سمح باطلاق كل من الاسمين على مباحث الاسم الآخر « ولا سيا في التعليم ، وان كان العلماء يميلون - بحق - الى تخصيص تسمية الفيلولوجيا بدراسة النصوص ، وتسمية اللانغويستيك بدراسة اللغة والالسن » (٣) .

ولعل خير من حدد معنى الفيلولوجيا وميزها عن اللانغويستيك ماروزو في كتابه « علم اللغة » حيث يقول (٤) :

« إن الصعوبة الأساسية التي يلقاها اللغوي في أبحاثه هي أن اللغة ، وهي موضوع دراسته ، تند في أكثر الاحيان عن الملاحظة المباشرة : فاللسان الحاضر ، في اللحظة الحاضرة ، شيء زهيد بالنسبة إليه ، فاذا رغب في معرفة شيء عن الماضي لم يجد أمامه غير وثائق قد شوهتها الكتابة والأدب (٥) . وقبل أن يستخدم هذه الوثائق عليه أن يستوثق من قيمتها ، عليه أن ينقدها ويحدد قيمة شهادتها . وهكذا ، فان دراسة

---

١ - انظر على سبيل المثال عناوين كتاب ماروزو La linguistique

٢ - صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ١٩ .

٣ - Perrot : La linguistique , PP . 14 - 15 .

٤ - PP . 104 - 105

٥ - من رأي ماروزو ان الادب عامل مهم في اعاقة الكلمات عن ان تأخذ مجراها الطبيعي في التطور . انظر رأيه هذا في الكتاب نفسه ص 67 . وانظر ايضاً ص 7 فيما يتعلق بالكتابة وعدم امانتها في تصوير النطق .

النصوص هي على وجه التدقيق موضوع الفيلولوجيا . ولما كانت دراسة النصوص غير ممكنة بغير دراسة الرجال . ودراسة الأفكار ، والعادات ، والتاريخ ، والفن ، والحضارة ، فقد يحدث أن يسمى عالم ما فيلولوجيا بالمعنى الواسع للكلمة ، إذا باشر في جانب من الجوانب علم الاثريات » .

هذا هو الشأن عند أهل الغرب ، أما عندنا فالفوضى لا تزال تضرب أطنابها ، والعلماء لا يزالون يختلفون في أمر التسمية الصالحة للمباحث اللغوية التي يسميها الغربيون باللانغويستيك : فجرجي زيدان أطلق عليها اسم « الفلسفة اللغوية » (١) ، وعيب هذه التسمية أنها تلصق بالفلسفة مباحث قد تخلصت نهائياً من أوهام الفلسفة ، واتخذت مناهج العلم الحديث وأساليبه . أما الاب مرمرجي الدومينيكي فيطلق عليها اسم « الألسنية » (٢) ويسميها عبد الرحمن أبو صالح باللسانيات (٣) . لكن أشهر التسميات وأكثرها شيوعاً اثنتان : علم اللغة ، وفقه اللغة . ولكل منها متعصبون لا يرضون عن تسميتهم بديلاً :

فأما أصحاب « علم اللغة » فابرزهم محمود السعران (٤) . وحجة هؤلاء أن اللانغويستيك تحدد في الكتب الغربية بأنها : علم اللغة ، بل إن بعضها قد عنون بهذه العبارة : La linguistique ou science du langage (٥) ، أي اللانغويستيك أو علم اللغة . ويرفضون اسم فقه

---

١ ــ انظر كتابه : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية .

٢ ــ انظر كتابه : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والالسنية السامية .

٣ ــ وذلك في محاضرة بعنوان « اللسانيات » القاها في جامعة حلب سنة ١٩٦٩

٤ ــ انظر كتابه : علم اللغة ، مقدمته للقارىء العربي .

٥ ــ ذاك هو عنوان كتاب ماروزو .

اللغة لأنه اطلق في القديم والحديث على مباحث ليست من علم اللغة الحديث في شيء (١) .

وأما أصحاب « فقه اللغة » فيرون أن تسميتهم أصلح لانها التسمية التي شاعت « عند العرب حين ألفوا في هذه الموضوعات ... ولأن كل علم لشيء فهو فقه ، فما اجدر هذه الدراسات جميعاً أن تسمى فقها » (٢)

وهناك باحثون آخرون لا يجدون فرقاً بين التسميتين ، منهم محمد المبارك (٣) ، وعلي عبد الواحد وافي الذي الف كتابين سمى أولهما (علم اللغة) ، والآخر (فقه اللغة) ، وخصص الاول بدراسة اللغة عامة ، والثاني بدراسة اللغة العربية وحدها .

فروع فقه اللغة

لما كانت اللغة تتألف من عناصر عديدة ، ولما كانت طرق تناول كل عنصر منها مختلفة ، ولما كانت أغراض الدراسة متنوعة ـ لهذا كله انقسم فقه اللغة اقساماً كثيرة نما بعضها وازدهر حتى استقل او كاد بنفسه .

وإليك الكلام على كل قسم :

---

١ ـ انظر السعران : علم اللغة ص ٢٢ .

٢ ـ صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ٢٠ .

٣ ـ انظر كتابه : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٣٩ .

١ ـ الفوناتيك : La Phonétique

ويسميه المحدثون من العرب باسم علم الاصوات اللغوية ، كما سماه القدماء بأسماء مختلفة أشهرها اسم علم التجويد .

وهو علم لا يتناول من اللغة إلا عنصر الصوت فقط ، فيحدد مخارج الأصوات ، وصفاتها ، والطرق المختلفة في احداثها ، ويصنفها ، ويدرس ما يتصل بها من اعضاء النطق ، وأثر بعضها في بعض ، وما يعرض لها من تبدلات خلال الزمان ، وسبب ذلك وعلله ، وما الى هذا من مباحث سيرد تفصيلها في مكان آخر من الكتاب .

ويتفرع هذا العلم الى فروع عديدة :

آ ـ فاذا أقبل باحث على لسان ما في فترة معينة من الزمان ، فوصف ما في هذا اللسان من الحقائق الصوتية على ما بيناه آنفاً ، وكان غرضه الوقوف على هذه الحقائق فقط ، اندرج عمله تحت ما يسمى « بعلم الاصوات الوصفي » « La Phonétique descriptive » .

ب ـ وإذا أقبل باحث على لسان ما فتتبع أصواته خلال فترة طويلة من الزمان ، وكان غرضه الوقوف على ما أصاب هذه الاصوات من تطور وتبدل ، والكشف عن القوانين التي خضعت لها في تطورها ، اندرج عمله تحت ما يسمى « بعلم الاصوات التاريخي » « La Phonétique Historique »

ج ـ وإذا أقبل الباحث على لسانين أو أكثر فدرس أصواتها ، وكان غرضه الوقوف على ما بين اللسانين من وجوه الشبه والاتفاق في الاصوات ، والكشف عما بينها من صلات

القربى الصوتيـة ، اندرج عمله تحت ما يسمى « بعـــلم الاصوات المقارن « La Phonétique comparée » .

د ـ وإذا أقبل الباحث على الالسنة جميعاً فدرس أصواتهـا ، وكان غرضه من الدراسة الوقـوف على حقائق الاصوات اللغوية ، والكشف عن القوانين العامـة التي تتحـكم في تطـورها ، اندرج عمله تحت ما يسمى « بعـلم الاصوات العام « La Phonètique générale » .

٢ ـ الفونولوجيا : La Phonologie

هذا العلم حديث نسبياً ، لم يظهر إلا منذ بضعة عقود ، وهـــو مثل الفوناتيك لا يتناول من عناصر اللغة إلا الصوت وحـده . والفرق بينه وبين قسيمه الفوناتيك هو أن الفـوناتيك يدرس الاصوات في ذاتهـا ولذاتها ، دون الاهتمام بالوظائف التي تقوم بها هذه الاصوات في اللغـة ، على حين أن الفونولوجيا يصب جل اهتمامه على وظيفة الصوت في اللغة ، وكل عنصر صوتي لا وظيفة له في التعبير فهو خارج نطاق اهتمام هـــذا العـلم . ولبيان ذلك لا بأس من ضرب الامثـــلة : إذا عرضنا على علم الفوناتيك الكلمات العربية (انفتل ـ إنتبـذ ـ انجزم ـ انقلب) وطلبنـا منه أن يدرس لنا صوت النون فيها فانه يقرر بعد الفحص أن في اللسان العربي أربعـة أنواع من النون . اولها مخرجه الشفة مع الاسنان العليا ، وثانيها مخرجه باطن الاسنان ، وثالثها مخرجه الشجر في الفم ، ورابعهـا مخرجـه اللهاة . أما اذا عرضنا الكلمات السالفة على علم الفونولوجيـا فانه يسألنا : هل لاختلاف مخرج النون في اللسان العربي وظيفـــة تعبيرية ؟ وبعبـــارة أوضح : ان نون (انفتل) شفوية ، ولو قسرنا أفواهنا على نطقها لهوية ، فهل يتغير معنى كلمة (انفتل) ؟ فاذا قلنا له : لا ، قرر أن اللسان العربي لا يشتمل إلا على نون واحدة .

وهكذا يمضي علم الفونولوجيا متتبعاً وظائف الاصوات في اللغة ، كاشفاً عن التقابلات التي يقيمها كل لسان بين أصواته . كالتقابل الذي تقيمه العربية بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة كما في (عَم ـ عام ، عُد ـ عود ، عِد ـ عيد) . وكالتقابل الذي تقيمه العربية بين الترقيق والتفخيم كما في (سال ـ صال ، ثم ـ ظلم ، ترب ـ طرب ، درب ـ ضرب) . وكالتقابل الذي تقيمه بعض الالسن بين الامالة الحادة والامالة المنفرجة .. الخ

هذا ، ومباحث الفوناتيك والفونولوجيا شديدة التداخل بحيث يعسر في بعض الاحيان فصلها وتمييز بعضها من بعض ، ولا يزال بعض العلماء يرفض هذا التفريع الجديد ويدرج مباحث الفونولوجيا تحت اسم الفوناتيك .

ويتفرع علم الفونولوجيا الى الفروع الاربعة التي تفرع إليها علم الفوناتيك ، فمنه الفونولوجيا الوصفية ، والفونولوجيا التاريخية ، والفونولوجيا المقارنة ، والفونولوجيا العامة .

٣ ـ الكسيكوغرافيا : Lexicographie

ويسميه العلماء عندنا بأسماء متعددة ، فهو مرة متن اللغة ، وهو أخرى المعجمية ، وهو ثالثة علم المفردات .. الخ .

وينصب اهتمام هذا العلم على الكلمات فقط ، فيحدد معنى « الكلمة » ويسعى الى تصنيف الكلمات في فصائل (الفعل ـ الاسم ـ الظرف ـ الصفة .. الخ) ، ويبحث عن العلاقة بين الفكرة والكلمة ، وما الى ذلك مما سيأتي تفصيله في حينه .

ويتفرع عن هذا العلم فرعان : أحدهما لا يهتم إلا بشكل الكلمة وصيغتها ، ويسمى علم المورفولوجيا ، والآخر لا يهتم إلا بمعناها ، ويسمى علم السيمانتيك .

٤ ـ المورفولوجيا : Morphologie

ويسميه بعضهم بالصرف ، وذلك لان أغلب المباحث الصرفية عندنا تدخل في نطاق هـذا العلم . كما يسميه آخرون بعلم الصيغة أو البنية ، وذلك لان اهتمام هذا العلم لا ينصب إلا على صيغة الكلمة وبنيتها .

ويعالج هذا العلم شكل الكلمة في حالتي السكون والتصرف : ففي الحالة السكونيـة ينظر أهي مجردة أم مزيدة ؟ وإذا كانت مزيدة فما هي حروف الزيادة ؟ وهل هذه الكلمة جامدة أم مشتقة ؟ وإذا كانت مشتقة فمم ؟ ... الـخ . وأما في حالة التصرف فيـدرس ما يطرأ عليهـا من تغيرات . فان كانت من نوع (الاسم) درس ما يطرأ عليها من تغيرات عند تثنيتها وجمعها وتذكيرها وتأنيثها ... الخ (معلم ـ معلمات ـ معلمون ـ معلمة ـ معلمتان ـ معلمات) وإن كانت من نوع (الفعل) درس ما يطرأ عليها من تغيرات في حالة تصريفهـا مع الضمائر والازمنة (وعد ـ يعد ـ عد ـ وعدت ـ وعدتما ... الخ) .

فاذا درس هذا العلم شكل الكلمة في حالة سكونها وبحث عناصر بنائها سمي بعلم الصيغة البنائي « Morphologie structurelle » وإذا درس شكلهـا في حالة تصرفهـا في الـكلام سمي بعـلم الصيغـة التصريفي « Morphologie f lexionnelle » .

ومن ابرز مباحثه مبحث الطرق التي تخلق بها اللغـة صيغاً جديدة فيها « Procédés de formation » . فعندما يجمع أحدنا كلمة (مدير) على (مدراء) قائساً إياها على (عليم ـ علماء) يكون قد أوجـد في العربية صيغة جمع لـ (مدير) لم تكن فيها . وتسمى هـذه الطريقة في خلق الصيغ الجديدة بالقياس « Analogie » ، وعندما يقول أحدنا : (لم يعـد البرد شديداً) فانـه يفرغ فعـل (عاد) من معناه المعروف له في

العربية ويحوله الى فعل ناقص ، أي الى اداة نحوية . ويكون بذلك قد خلق اداة نحوية جديدة . وهذه طريقة أخرى تسمى بطريقة التقعيد « Grammaticalisation » .

هذا وتقسم المورفولوجيا الى الاقسام الاربعة التي انقسم إليها الفوناتيك ، فهناك مورفولوجيا وصفية ، وأخرى تاريخية ، وثالثة مقارنة ، ورابعة عامة .

٥ - السيمانتيك : Sémantique

ويسمى عندنا بعلم الدلالة . وابرز المشكلات التي يعنى بها هذا العلم مشكلة تحديد معنى الكلمة ، وتعدد المعاني للكلمة الواحدة ، والترادف على المعنى الواحد ، والعلاقة بين الكلمة والمعنى ، وتبدل المعنى وطرقه وقوانينه وأسبابه ، وحياة الكلمات والمراحل التي تمر بها من ولادة ونشأة وشباب وشيخوخة وموت ... الخ .

٦ - السنتكس : Syntaxe

ويسمى بعلم النظم . وجل مباحثه يشبه مباحث علم النحو عندنا . فهو يهتم ببناء الجملة ، والانماط التي تتخذها العبارة في اللغة ، كما يبحث في حروف المعاني التي تربط أجزاء الكلام بعضها ببعض ، وفي اشكال الجمل (الجملة الابتدائية ، الجملة المعمولة ، الجملة الاخبارية ، الجملة الشرطية ، الجملة الاستفهامية ، الجملة الموجبة ، الجملة المنفية ، الجملة التعجبية .. الخ الخ) .

ويقسم هذا العلم أيضاً الى أربعة أقسام : وصفي ، وتاريخي ، ومقارن ، وعام .

٧ - الستيليستيك : Stylistique

أو علم الاساليب ، وهو علم يبحث في أساليب اللغة ، واختلافها باختلاف فنونها (الشعر ، النثر ، الخطابة ، المحادثة ، الكتابة ، المسرح .. الخ) وباختلاف العصور والامم الناطقة بها ، والطرق التي تسلكها الاساليب في تطورها ، والقوانين الخاضعة لها ، وما يتصل بذلك .

ويقسم هذا العلم أيضاً الى اربعة أقسام : وصفي ، وتاريخي ، ومقارن ، وعام .

٨ ـ فقه اللغة الوصفي : Linguistique descriptive

هو مجموع ما مر معنا من فروع فقه اللغة الوصفية : فاذا أقبل باحث على لسان ما فدرس أصواته ومفرداته وتراكيبه دراسة وصفية هدفها مجرد الكشف عن الحقائق اللغوية في هذا اللسان ، وبيان خصائصه في فترة محددة من الزمان ، سمي عمله هذا بفقه اللغة الوصفي .

٩ ـ فقه اللغة التاريخي : Linguistique historipue

هو مجموع ما مر معنا من فروع فقه اللغة التاريخية : فاذا أقبل باحث على لسان ما فدرس عناصره الثلاثة (الاصوات ، والمفردات ، والتراكيب) متتبعاً اياها خلال فترة طويلة من الزمان للكشف عما طرأ على هذه العناصر من التبدل والتغير ، فعمله هذا يسمى بفقه اللغة التاريخي .

وقد نال عنصر المفردات من علماء هذا العلم حظوة لم ينلها العنصران الآخران ، حتى غدت بعض مباحث هذا العنصر علماً قائماً بذاته ، ونعني بذلك علم ((الايتيمولوجيا)) ، وهو العلم الذي يبحث في تاريخ الكلمات والاصول التي انحدرت منها ، وان كان البحث في تاريخ الكلمة يقتضي بالضرورة البحث في تاريخ أصواتها (١) .

---

١ ـ انظر : Marouzeau : La Linguistique , P . 59

ومن ابرز مباحث المفردات في هـذا العلم مبحث الطرق التي بهـا تولد الكلمات الجديـدة ، وهي : الابداع « Création » ، والاستعارة ، او ما نسميه في العربيـة بالتعريب « Emprunt » ومحاكاة الأصـــوات « Onomatopées » ، والاشتقاق « Dérivation » .

١٠ ـ فقه اللغة المقارن : Linguistique comparée

هو مجموع ما مر معنـا من فروع فقه اللغة المقارنة : فاذا أقبـل باحث على لسانين أو أكثر فقارن بين عناصر هذا اللسان وعناصر ذاك ، وكان غرضه الكشف عما بين اللسانين من أوجه الشبه وصلات القربى ، فان عمله هذا يسمى بفقه اللغة المقارن .

ومن أهم النتائج التي توصل إليها هذا العلم الكشف عن وحدة الأصل للغات السامية (العربية ، والآرامية ، والأكّدية ... الخ) وللغات الهندية الأوروبية (السنسكريتية ، والفارسية ، والارمنية ، والسلافية ، والاغريقية ... الخ) .

١١ ـ فقه اللغة العام : Linguistique générale

هو مجموع ما مر معنـا من فروع فقـه اللغة العامـة : فاذا أقبل باحث على مجموعة كبيرة من الالسن فقارن بين عناصرهـا ، وكان غرضه الكشف عن وجوه الاتفاق بينها ، والوصول الى القوانين العامة التي تحكم اللغة ، كان عمله يدخل فيما يسمى بفقه اللغة العام . وبالاضافة الى ذلك ، فان هذا العلم يتناول مشكلات عامة لم ترد في سائر فروع اللغة السابقة : كصراع الالسن ، وانشعابها الى لهجات ، وعوامل انحطاط اللغة وترقيها .. وما الى ذلك من المباحث العامة التي تنطبق على كل لسان .

أما مشكلة أصل اللغة ونشأتها فقد اختلف العلماء المحدثون في أمر بحثها : فمنهم من أخرجها نهائياً من دائرة اختصاص علم اللغة لعدم توفر الوثائق التي تساعد على حلها [1] ، ومنهم من أرجأ البحث فيها الى أن يتم جلاء ما يكتنفها من غموض بمساعدة علم الاجناس البشرية [2] .

وهناك علوم تاريخية وفيلولوجية تمد في فقه اللغة علوماً مساعدة . وأهمها : الفيلولوجيا ، وقواعد الرسم (الاملاء) ، والابجدية وتاريخها ، وتاريخ الكتاب ، وتاريخ الاملاء (Paléographie) ، ونقد النصوص ، وتاريخ الأدب والعروض ... الخ .

فقه اللغة والعلوم الأخرى

إن فقه اللغة كسائر العلوم الانسانية لا يملك الاستقلال التام عن بقية العلوم كما هو الشأن في الرياضيات مثلاً ، بل هو في حاجة الى نتائج طائفة كبيرة من العلوم يستخدمها حسب مناهجه الخاصة للوصول الى اغراضه :

١ ـ فاللغة ظاهرة اجتماعية ، لا ترى إلا حيث ترى المجتمعات الانسانية ، لهذا اهتم بها علم الاجتماع اهتماماً بالغاً ، بل لقد أفرد لها فرعاً خاصاً من فروعه لدراستها هو علم الاجتماع اللغوي . وفقه اللغة لا

---

١ ـ Ibid , P . 10

وانظر كذلك فندريس : اللغة ، ص ٢٩ ـ ٣١ مع الحاشية .

٢ ـ انظر محمود السعران : علم اللغة ، ص ٥٥ ـ ٥٧ .

وكذلك الفصل المتعلق بنشأة اللغة الذي سيرد بعد قليل في هذا الكتاب .

غنى له عن الاستعانة بالنتائج التي وصل إليها علم الاجتماع اللغوي هـذا ، بل ان كثيراً من منجزاته هو مدين بها لهذا الفرع من علم الاجتماع .

٢ ـ ثم ان كثيراً من المعلومات المتعلقة بنشأة اللغة الانسانية ، وبتطورها ، وبصلة ذلك بالمخ الانساني لا يمكن أن يكون حكم الفقيه اللغوي فيها صحيحاً إذا لم يستعن بعلم الأجناس البشرية (الانثروبولوجيا) ، وبعلم الوراثة ، وبعلم الحياة العام .

٣ ـ كذلك فان اللغة المنطوقـة تتألف من أصوات ، ولما كانت دراسة الصوت فرعاً من فروع عـلم الطبيعية (الفيزياء) كان على اللغوي أن يستعين بمعطيات هذا العلم في مجال الصوت .

٤ ـ كذلك فان هذه الأصوات اللغوية لا تصـــدر إلا بمساعدة طائفـــة من أعضاء الجسم ، كالرئتين ، والحنجرة ، واللسان ، والفم ، والانف ، والشفتين ، والاسنان . وعلى هذا فان اللغوي مضطر الى النظر في علمي التشريح ووظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ليرى رأي العلـماء في هذا الموضوع .

٥ ـ ومن موضوعات فقه اللغة التوزع الجغرافي لكل لغة في العالم ولا شك أن هذا يقتضي اللغوي أن يلم بشيء كثير من الجغرافية البشرية .

٦ ـ ثم إن فقه اللغة يدرس الصراع بين الألسن ، ذلك الصراع الذي ينشأ عن الهجرات أو الغزوات ، وعلى هذا فان فقه اللغة محتاج الى علم التاريخ في هذا الشأن .

٧ ـ وأخيراً ، فان العملية اللغوية تقتضي جهوداً عقلية من المتكلم والسامع على حـد سواء ، ومعنى هـذا أن اللغة في بعض جوانبها حادثة

نفسية ، وعلى اللغوي أن يستعين بعلم النفس لفهم هذا الجانب من جوانبها [1] .

قوانين فقه اللغة

أشرنا منذ قليل الى أن فقه اللغة العام يسعى الى الكشف عن القوانين العامة التي تحكم اللغة . فهل معنى ذلك أن فقه اللغة يملك من القوانين مثل الذي تملكه العلوم الطبيعية ؟

الواقع أن فقه اللغة كشف ـ ولا سيما في مجال الصوتيات ـ بعض العلاقات اللغوية التي لها صفة الحتمية والضرورة ، فأمكن اطلاق اسم القانون على العبارة عن هذه العلاقات . من ذلك مثلاً أنه وجد أن الحروف الثلاثة P. T. K. تؤلف منظومة صوتية ، بحيث إذا أصاب تغيرما أحد أفرادها فلا بد أن يصيب هذا التغير نفسه بقية الأفراد . فاذا حدث أن لساناً ما جهر الحرف P فصيره B فلا بد أن يجهر الـ T. K ليصبحا D. G .

وإن ما نراه من الشذوذ في بعض تطبيقات القانون الصوتي يرجع الى ان قانوناً صوتياً آخر عمل عمله . ولتوضيح ذلك إليك المثال الآتي :

هناك قانون صوتي في العربية يقرر ان كل ث في الفصحى تحولت الى ت في اللهجة السورية : ثوب > توب ، ثعلب > تعلب ، ثوم >

---

١ ـ قارن : محمود السعران : علم اللغة ، ص ٧٣ ـ ٧٨

وكذلك : Perrot : Linguistique. PP . 11 - 12

والوافي : علم اللغة ، ص ٢٧ ـ ٣٠

توم .. فاذا مضينا في التطبيـق فسنعثر على كلمات لا تخضع لهذا القانون ، سنجد ان الثاء تحولت في بعض الكلمات الى سين : ثقافـة > سقافة ، ولا يعلل هذا بانه شذوذ ، بل بأن قانوناً آخر أصاب هذه الكلمة فمنع القانون الأول من اخضاعها لحكمه ، هذا القانون الآخر يقول : كل الكلمات الحديثة التي استعارتها العاميـة السورية من الفصحى واشتملت على حرف الثاء تحولت ثاؤها الى سين . فاذا مضينا في التطبيق فسنجد كلمات قـديمة تحولت ثاؤها الى سين وليس الى تاء : ثواب > سواب . وهـذا يفسره قانون ثالث يقول : كل الكلمات القديمة المشتملة على ثاء والتي يكثر ورودها في نصوص دينية كآيات القرآن الكريم ، أو مما يستعمل كثيراً في الخطب على منابر الجمعة تحولت فيه الثاء الى سين .

وهكذا نرى أنه لا شذوذ في اللغة ، وأن القانون اللغـوي له من الحتميـة والضرورة مثل ما لقانون الجاذبيـــة في الفيزياء ، ولقانون العرض والطلب في الاقتصاد . لكن وجود قانون ما لا يمنع وجود قانون آخر يعارضه في العمل : فقانون الجاذبية يقضي بأن الاجسام كلها تسقط نحو مركز الأرض في خط شاقولي ، لكن هذا لا يمنع أن نرى صفحة من الورق تنزلق في خط متمرج ، وأن نرى البالون يرتفع نحو الأعلى . ان القانون في اللغة ، كالقانون في الطبيعة ، لا يمضي دون أن يصطدم بقوانين أخرى ، والشذوذ في قانون صـــوتي ليس شذوذاً إلا عندما لا نكون قد اكتشفنا القانون الجديد الذي يفسره [1] » .

---

١ _ Marouzeau : Linguistique, P. 93

وانظر : الوافي : علم اللغة ، ص ١٨ _ ٢١

والسعران : علم اللغة : ص ٨ _ ١٠

وفندريس : اللغة ، ص ٧١ _ ٧٥

مناهج البحث في فقه اللغة

يراد بمناهج البحث الطرق التي يسير عليها العلماء في علاج المسائل ، والتي يصلون بفضلها الى ما يرمون إليه من أغراض . ولفقه اللغة مناهج يشترك فيها مع سائر العلوم ، ومناهج خاصة به اقتضتها طبيعة مسائله . وأهم هذه المناهج ما يلي :

١ ـ منهج الملاحظة :

وذلك بأن يقبل الباحث على ظاهرة لغوية ما فيراقبها في الظروف الطبيعية للغة أثناء قيامها على وظيفتها ، لا يملك في مراقبته غير حواسه وقواه العقلية .

وفي هذا المنهج يشترك فقه اللغة مع عدد كبير من العلوم الأخرى ، ولا سيما العلوم الطبيعية ، وإليه يرجع الفضل في معظم ما وصلوا إليه .

ولكي تكون الملاحظة صحيحة النتائج يجب أن تكون شديدة التنوع ، كثيرة التعقيد ، بالغة الدقة ما أمكن ، فنحاة العرب الأوائل لم يقرروا أن العربية ترفع الفاعل وتنصب المفعول لمجرد سماعهم جملة واحدة من عربي واحد ، بل انهم استقرؤوا معظم الكلام العربي ، فلما رأوا اطراد هذه الظاهرة وضعوا قاعدتهم .

ويتسع مجال الاستقراء اتساعاً بالغاً عندما ننتقل من مستوى فقه اللغة الوصفي للسان من الألسن الى مستوى فقه اللغة العام لاستنباط القوانين العامة اللغة ، فعند ذلك لا تكفي ملاحظة لسان واحد ـ وهو الخطأ الذي وقع فيه علماء العرب والاعريق من قبل ـ بل لا بد من

ملاحظة كل الألسن في العالم ، ما كان منها حياً لا يزال في أفواه البشر ، وما اندثر منها فلم نعرفه إلا في النصوص والآثار .

ومن أبرز ما يؤخذ على منهج الملاحظة أن آلته الوحيدة التي يستعين بها هي الاذن ، وهذا العضو لا يملك من الدقة ما تملكه أجهزة القياس الحديثة . هذا الى أنه من السهل خداع الأذن في كثير من الأحيان ، كما أنها شديدة التأثر بالحالة النفسية للملاحظ ، ويكثر ان ان تخدعه فتسمعه ما يريد ان يسمع ، لا ما هو حادث في واقع الأمر .

٢ ـ المنهج الآلي :

وهو أن يستعين الباحث بالآلة على تسجيل الظواهر اللغوية وقياسها. ومن الواضح أن هذا المنهج لا يستخدم إلا في مجال الصوتيات ، لأن الصوت هو العنصر الفيزيائي الوحيد في اللغة الذي يمكن للآلة أن تتدخل فيه تسجيلاً وقياساً . والذي حمل علماء اللغة على استخدام هذا المنهج في الصوتيات هو عدم وثوقهم من دقة الأذن الانسانية في تمييز أنواع الصوت وخصائصه ، وادراك نبراته ، وقياس شدته ومدته ، والعوامل الكثيرة المحيطة بها والتي تجعل مدركاتها عرضة للزلل ، ثم التقدم التقني الهائل الذي وضع بين أيدي علماء اللغة آلات شديدة الحساسية ، مأمونة النتائج ، صحيحة الأحكام .

وتنقسم الآلات التي تستخدم في هذا المنهج الى نوعين : نوع يراد منه أن يقفنا على الاعضاء التي تشترك في احداث صوت لغوي ما ، وعلى هيئة هذه الاعضاء أثناء النطق ، ثم على مخرج الصوت الملفوظ ، ونوع يراد منه أن يقفنا على صفات الصوت من حيث المدة والشدة والحدة .

فمن النوع الأول آلة التصوير الشعاعي باشعة رونتجن ، والصور

التي تعطيها هذه الآلة تقفنا على هيئة الفكين واللسان أثناء نطق أحد الأصوات . ولكن عيب هذه الصور أنها غير واضحة بما فيه الكفاية .

ومن هذا النوع أيضاً الحنك الاصطناعي ، وهو آلة شديدة البساطة يستطيع كل طبيب أسنان أن يصنعها محلياً من مادة بلاستيكية ، وبعد صبها في الشكل المناسب لحنك الانسان الأعلى تخطط خطوطاً طولانية وأخرى عرضانية . وحين استخدامها ينثر فوقها قليل من الحكك المطحون الناعم ، ثم تجعل في فم الانسان ملتصقة بحكنه الأعلى ، فاذا لفظ الانسان صوتاً ما كالجيم مثلاً إلتصق لسانه في نقطة معينة بهذا الحنك الاصطناعي ، فأزال من هذه النقطة ما كان علق به من الحكك المنثور . فاذا اخرجنا الحنك من فم الانسان ، ونظرنا الى الأثر الذي تركه اللسان فيه أثناء النطق بالجيم ، وقفنا بدقة على مخرج هذا الصوت اللغوي .

ولا شك أن هذا الحنك الاصطناعي قاصر عن تحديد مخارج الحروف كلها ، إذ ليست كل الاصوات اللغوية مما يخرج من الحنك ، فبعضها يخرج من الشفتين ، وبعضها يخرج من الحلق ، وبعضها مخرجه الحنجرة نفسها ، وبعضها ليس له مخرج أبداً كالواو والياء والالف .

وأما النوع الثاني فآلاته كثيرة متنوعة ، ولكنها جميعاً تتألف من ثلاثة اجزاء أساسية : بوق يتلقى الهواء المنبعث من فم المتكلم ويوصله الى طبلة تتأثر بضغط الهواء وذبذبته ، ثم قلم متصل بهذه الطبلة يتحرك بحركتها ، ثم اسطوانة مغلفة بورق تدور أثناء العمل ليرسم عليها القلم الذبذبات المنتقلة إليه من الطبلة .

وعلى الرغم من دقة النتائج التي امكن الوصول إليها بفضل هذا المنهج الآلي ، فان للعلماء عليه مأخذاً مهماً هو أنه عاجز عن فحص الظواهر اللغوية في حالتها الطبيعية ، فالناس لا يتكلمون وفي أفواههم أحنك

اصطناعيـة ، ولا يتفاهمون وهم يضمون أفواههم في أبواق او تحت آلات تصوير . وهذا الوضع غير الطبيعي في المنهج الآلي حمل كثيراً من العلماء على الشك في قيمة النتائج التي أدى إليها .

٣ ـ المنهج التجريبي :

يقوم هذا المنهج على تغيير الظروف المادية المحيطة بظاهرة لغوية ما ، أو على خلق هذه الظاهرة خلقاً بدل انتظارها حتى تحدث تلقائياً ، وهذا هـو شأن العالم الطبيعي الذي يجمع الاوكسيجين الى الهـدروجين ويعطيها شرارة كهربائيـــة ليصنع منها ماءً ، يفعل ذلك في معمله متى شاء ولا ينتظر الطبيعة لتصنع له الماء على هذه الطريقة ليدرس هذه الظاهرة الطبيعية .

هذا المنهج الذي أدى للعلوم الطبيعية أجل الخدمات لم يتهيأ له أن ينتشر في العلوم الانسانية انتشاراً كبـيراً ، إما لصعوبة تطبيقـه في بعض الأحيان ، واما لتعذر هذا التطبيق في أحيان اخرى ، اذ يتعذر على عالم التاريخ مثلاً ان يصنع في شعب ما ثورة من أجل ان يدرسها ويعرف نتائجها .

ولما كان فقه اللغه من العلوم الانسانية كانت دائرة المنهج التجريبي فيه شديدة الضيق ، والنتائج التي امكن الوصول إليهـا عن طريقه قليلة جداً ، فمن ذلك ما قام به الاستاذ فيرث من تجربة رمى من ورائها الى معرفة ما إذا كان هناك صلة بين الصوت والشكل ، اذ رسم هذا العـالم رسمين ، احدهما يتألف من خط مغلق يجري في تحـدبات كثيرة ، والثاني يتألف من خط مغلق منكسر في شكل نجمي ، ووضع الى جانب هـذين الرسمين كلمتي (اومبوبو وكيكيريكي) ، وهما كلمتان لا تـدلان على معنى معين في أية لغة ، ثم طلب من طلبة مختلفي القوميات واللغات أن ينسبوا الى كل رسم واحدة من الكلمتين ، فلاحظ ان الطلبـة من جميـع الامم

ينسبون كلمة (ارمبوبو) الى الرسم المحدب ، وكلمة كيكيريكي الى الرسم النجمي [1] .

« هذا ، ولم يتح للطريقة التجريبية من ظروف النجاح والانتشار في علم اللغة ما اتيح لغيرها . فهي لا تزال تسير فيه بخطى بطيئة ، بل لا يزال بعض علمائه ينظرون إليها بعين الريبة ، ولا يثقون كل الثقة بما تصل إليه من نتائج وذلك انهم يرون أن تغيير الظروف المادية المحيطة بظاهرة لغوية قد يخرج بها عن طبيعتها ، ويصورها في غير صورتها الحقيقية ، فيتعرض الباحث للخطأ في الحكم إذ يلتبس عليه الطبيعي بالمتصنع [2] .

٤ ـ المنهج المقارن :

ويقوم هذا المنهج على الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من الألسن ، إما للكشف عما بين هذه الألسن من أواصر القربى والرحم ، وهو ما يجري في فقه اللغة المقارن ، واما للكشف عما بين الالسن جميعاً من خصائص مشتركة تؤدي الى الكشف عن القوانين العامة للغة ، وهذا ما يجري في فقه اللغة العام .

ومع أهمية هذا المنهج لعالم اللغة ، ومع لزومه له في كل الميادين اللغوية التي يخوضها ، فانه كثيراً ما أدى الى نتائج غير صحيحة . ولم

---

١ ـ محاضرات الاستاذ فيرث في العام الدراسي ١٩٤٨ ـ ٤٩ ، عن كتاب مناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان ، ص ٢١٧ . انظر فيه الرسمين المذكورين .

هذا ويمكن عد المسألة الزنبورية في النحو العربي وما دار فيها بين سيبويه والكسائي في مجلس البرامكة بحثاً لغوياً يجري على المنهج التجريبي .

٢ ـ الوافي : علم اللغة ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

يكن ذلك عن عيب فيه ، بل كان عن سوء تطبيق له ، ولا سيا عن نقص الاستقراء والتسرع في صوغ القوانين العامة .

تاريخ الدراسات اللغوية

منذ متى ظهرت المشكلة اللغوية ؟

تبدو الاجابة عن هذا السؤال عسيرة بعض الشيء ، لأن هذه المشكلة « قديمة قدم العالم ، فمنذ أن وجد بشر يتكلمون ويكتبون اهتم الناس بأمر التعبير عن الفكر بكل شكل من الاشكال ...

« وكما جرت العادة دائماً ، بدىء بالمشكلات اللغوية الأصعب ، تلك التي تتعلق بأصل اللغة وانشعاب الالسن ، فأما التوراة فتقول لنا إن آدم هو الذي وضع للحيوانات اسماءها ، واما قصة برج بابل فتدعي انها تفسر سبب تبلبل الألسن واختلافها ، واما الاغريق فقد تخيلوا مبدعاً أبدع اللغة والكتابة (١) » .

لكن الانسان لم يكتف بالأسطورة في معالجة مشكلة اللغة ، بل لقد سبق ذلك بمعالجتها عملياً في الكتابة . ذلك أن عملية الكتابة في حد ذاتها هي بوجه من الوجوه بحث لغوي حقيقي ، لانها في جميع أشكالها واطوارها (التصويرية ، والمقطعية ، والهجائية) تقتضي الكاتب أن يقوم بتحليل من نوع ما للسان الذي يكتبه ، فالكتابة التصويرية ، وهي التي

---

١ — Marouzeau : La Linguistique, P. 115

ترمز لكل كلمة من كلمات اللغة برمز خاص ، تقتضي الكاتب أن يقوم بعملية عزل لكلمات اللسان الذي يكتبـه ، وهذا في الواقـع نوع من التحليل اللغوي ، اما الكتابة المقطعية فتقتضي الكاتب تحليلاً لغوياً أبعد إذ تتطلب منه أن يحل كلمات اللسان الذي يكتبه الى مجموعات من الاصوات (مقاطع صوتية) ليرمز الى كل مجموعـة برمزها الخاص . واما الكتابة الهجائيـة فيذهب فيها التحليل الى أبعد من ذلك ، الى الاصوات المفردة الاساسية .

ومع ذلك ، ظل البحث اللغوي بمعناه المعروف امراً مجهـولاً لدى الانسان حتى جد في حياته ما حمله على القيام به ، وقد حدث ذلك في جنوبي العراق ، فهناك ، وحول ٣٥٠٠ قبل الميـلاد كان يسكن شعب مجهول الاصل يسمى الشعب الشومري ، وكان لهـذا الشعب لسان عرفناه عن طريق النصوص المسمارية . ثم جاء شعب من الشعوب الساميـة يسمى بالأكَّديين فغلب الشومريين على ما بايديهم من الأرض ، واتخذ من لسان المغلوبين لسان أدب ودين له . ولما كان هذا اللسان غريباً عن الأكَّديين اضطروا لوضع قواعد له تسهل تحصيله على طالبه ، فكانت الشذرات التي وصلتنا من هذه النصوص النحوية أقدم ما نعرف من البحوث والدراسات اللغوية في العالم (١) .

نرى ممـا سبق أن الحاجة التعليمية كانت أحـد البواعث المهمة للدراسات اللغوية . وهناك باعث آخر لا يقل عنه شأناً إن لم يكن أعظم منه خطراً . ونعني به الكتابة : فبالكتابة قيـد الناس من قـديم الزمان صلواتهم ونصوص قوانينهم ، فاكتسبت الاشكال الأولى لهذه الكتابة قداسة استمدتها من مضمـون ماكتب بها ، وهـذه القداسة حملت الكتبـة الذين أتوا بعـد ذلك على الاحتفاظ بتلك الأشكال على الرغم من أنهـا أصبحت

---

١ ـ انظر Perrot : La Linguistique , P . 12 .

غير دقيقة في تمثيل النطق بعد أن تطور اللسان في أفواه أبنائه وبعد فترة من الزمان شعر الناس بالفرق الواضح بين لسانهم الحاضر الذي يتكلمونه ولسانهم الماضي المثبت في الكتابة ، فكان ذلك دافعاً لبعض علمائهم الى شرح هذه النصوص المقدسة شرحاً نحوياً ، والى وضع القواعد التي تسهل على الناس فهم تلك النصوص . هكذا ، وفي زمن مبكر جداً ، حلل الهندوس بدقة الاشكال والاصوات للسانهم السنسكريتي المقدس ، وكان بانيني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد أبرز نحاتهم على الاطلاق ، وذلك للدقة المدهشة التي صاغ بها القواعد النحوية والصوتية للسنسكريتية .

أما في اليونان فقد كان لفلاسفة الاغريق مشاغل أخرى لا تتعلق بالنصوص الدينية ، كانوا يختصمون على نوع من ميتافيزيكية اللغة : ما اللغة ؟ أين يجب التفتيش عن أصلها ؟ ما الكلمة ؟ هل بين الكلمة والشيء علاقة طبيعية ولازمة ؟ هل العلاقة بين الكلمة ومعناها علاقة طبيعية أم هي علاقة اصطلاح وتواطؤ ؟ بروديكوس وسفسطائيو القرن الخامس قبل الميلاد قالوا بالنظرية الأولى ، فقادهم ذلك الى الاهتمام بالترادف ، لان الكلمة إذا كانت تساوي الشيء بالضبط فلا وجود للمترادفات في مذهبهم ، كما قادهم ذلك الى الاشتغال بالايتيمولوجيا (أصول الكلمات) ، إذ لما كان هناك تلازم بين الشيء والكلمة ، كانت طبيعة الشيء قادرة على تفسير أصل الكلمة . والرواقيون أيضاً اشتغلوا في فقه اللغة الفلسفي . ولما كان هؤلاء يرجعون كل شيء الى منطقهم ، ارجعوا النحو نفسه أيضاً . فالمقولات النحوية يجب عندهم أن توافق المقولات العقلية ، كانوا مثلاً يقولون : هناك تطابق بين علامة الجمع وفكرة الجمع . لكن أصحاب مذهب الشذوذ في اللغة كانوا يردون على أصحاب مذهب القياس هؤلاء بأن في اللسان كلمات هي في صيغة الجمع ولا تعني إلا الفرد ، وبأن الجنس النحوي (التذكير والتأنيث) لا يتطابق مع الجنس الطبيعي ، فما أكثر الكلمات المؤنثة الدالة

على ذكور ، وما أكثر الكلمات المذكرة الدالة على إناث . وإذن ، فليس هناك تطابق لازم بين اللسان والواقع .

هذا هو نوع المجادلات التي ضل في متاهاتها فلاسفة الاغريق واللاتين الذين جاءوا بعدهم .

وحدث في الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ماكان حدث من قبل في الهند . فأشعار هوميروس والشعراء الغنائيين الاول أضحت غير مفهومة بسبب التطور الذي أصاب اللسان من زمن هوميروس الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد الى زمن الفترة التي نتحدث عنها . فنشأ من ذلك تخصص لدى نحاة الاسكندرية في الشرح ، بل لقد ترجموا الى اللسان الاغريقي المشترك اللسان الأيوني القديم الذي كتبت به القصائد الملحمية ، أو اللسان الدوري الذي كتب به الشعر الكورالي . وكان من كل ذلك حركة فيلولوجية نشيطة جداً ، فكثر الشراح الذين شرحوا النصوص ، والمعجميون الذين درسوا المفردات ، والمفسرون الذين اهتموا بشرح الكلمات الغريبة .

غير أن هذه الفيلولوجيا النشيطة لم تؤد الى دراسة منظمة للغة ، وكل الذي فعلته أنها أثارت في مدارس آسيا الصغرى (في برغام ، طرسوس ثم في بيزنطية) حركة ثقافية حفظت المؤلفات القديمة من الضياع .

وقد اسهمت روما في هذا المجال منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، لكن نحاتها انشغلوا بحشر لسانهم في الأطر التي تصورها النحاة الأغريق ، لقد وصفوا لسانهم الخاص بشيء كثير من النقص وعدم الضبط جعلنا لا نعرف شيئاً عن نطقهم ونبرهم وعروضهم إلا في صعوبة كبيرة .

وفي العصور الوسطى خمدت الدراسات اللغوية في الغرب خموداً كبيراً ، واقتصرت على تعلم اللسان اللاتيني . وكان أهم مؤلف له بعض

القيمة العلمية عبارة عن قواعد لاتينية نظمت شعراً في القرن الثالث عشر الميلادي على طريقة ابن مالك في قواعد العربية .

أما في الشرق حيث ظهر الاسلام فقد قامت حركة لغوية نشيطة تقدمت بالدراسة اللغوية اشواطاً بعيدة الى الامام .

بدأ ذلك في أواخر القرن الهجري الأول حين ظهر اللحن على السنة الناس في تلاوة القرآن ، وكما كانت النصوص الدينية الهندوسية والحرص على ضبطها وفهمها سبباً في ولادة النحو السنسكريتي ، كان القرآن الكريم والحرص على ضبط تلاوته وفهم نصوصه سبباً في ولادة النحو العربي .

لكن علماء العربية لم يقفوا جهودهم على النحو فقط ، بل وسعوا نطاق بحوثهم حتى شملت أكثر جوانب اللغة . وسنوجز فيما يلي تاريخ كل فرع من فروع دراساتهم .

١ ـ النحو والصرف :

أما النحو فكان الغرض الاساسي منه في مبدأ الأمر وضع القواعد التي يجري عليها الكلام العربي ليسهل تعلمه وتعليمه ، وليعصم الناس من اللحن الذي أخذ يتفشى منذ صدر الاسلام من جراء اختلاط العرب بالعجم . ثم أخذ نطاق هذا العلم يتسع قليلاً قليلاً ، وأخذ علماؤه يعرضون لكثير من الموضوعات المتصلة باجزاء الجملة وترتيبها وأثر كل جزء منها في الآخر حتى شملت بحوثهم جميع البحوث التي يطلق عليها الفرنجة اسم (السنتكس) . وأما الصرف فموضوعه الكلمة المفردة من حيث الزيادة والتجرد ، والجمود والاشتقاق ، والافراد والتثنية والجمع ، وما الى ذلك مما يسمى عند الغربيين بعلم (المورفولوجيا) .

كان الاهتمام أول الأمر منصباً على البحوث النحوية ، وظل الأمر

كذلك حتى أواخر القرن الهجري الأول ، ثم أخذ العلماء يعالجون بعض مسائل الصرف استطراداً وفي خلال دراستهم لمسائل النحو . ثم أخذت مسائل الصرف تنفصل شيئاً فشيئاً عن مسائل النحو ، وتدرس على حدة ، حتى تكون منها علم متميز . غير أن هذا العلم لم يستقل تمام الاستقلال عن النحو ، فلا تزال طائفة كبيرة من مسائله ممتزجة بمسائل النحو ، ولم ينفك الباحثون الى عهد قريب ينظرون الى الشعبتين نظرتهم الى علم واحد ، ويعالجون مسائلها في مؤلفات واحدة .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن علماء العربية كانوا أول من هجروا صوامع الدراسة ورحلوا الى أبناء اللسان من الاعراب يشافهونهم ويأخذون عنهم لسانهم . بهذه الطريقة الاستقرائية الشاملة قدموا للسان العربي وصفاً شديد الدقة لم يقدمه قوم للسانهم من قبل .

وممن اشتهر بالنحو والصرف أبو الاسود الدؤلي الذي تكاد الروايات تجمع على أنه أول من وضع النحو بارشاد الامام علي بن أبي طالب . ثم عنبسة الفيل ، وعبد الرحمن بن هرمز الاعرج ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وميمون الاقرن ، وعبد الله بن اسحق الحضرمي ، والأخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وأبو جعفر الرؤاسي ، وأبو مسلم معاذ الهراء ، والخليل بن أحمد الفراهيدي الذي يرجع الى عبقريته النادرة أكبر قسط من الفضل في النهوض بعلوم العربية كلها ، ثم تلميذه سيبويه أمام النحو العربي وصاحب (الكتاب) الذي ظل حتى اليوم أهم مرجع للنحاة العرب ، ثم الاخفش الأوسط شارح كتاب سيبويه ، ثم أبو علي الفارسي ، وأبو القاسم الزجاج ، والمازني والسجستاني والمبرد ، والكسائي ، والفراء ، وابن السكيت ، وابن سلام ، وثعلب ، وابن خالويه ، وابن جني ، والزمخشري ، وابن الحاجب ، وابن

معطي ، وابن مالك ، وأبو حيان ، والزنجاني ، والسكاكي ، وابن هشام ، وغيرهم وغيرهم .

وقد انقسم هؤلاء الى مدارس كان أشهرها مدرستا البصرة والكوفة ، وقـد عني المتأخرون منهم بالخلاف بين المدرستين فألفوا في مسائله كتباً كثيرة من أهمها كتاب الانصاف لابن الانباري .

٢ ـ علوم البلاغة :

وتشمل ثلاثة بحوث : المعاني ، وموضوعه بيان ما ينبغي ان يكون عليه الاسلوب العربي ليطابق مقتضى الحال ، وليعبر عن المراد ابلغ تعبير ، ثم البيان ، وموضوعه شرح المناهج التي يسلكها الاسلوب العربي في استخدام التشبيه والمجاز والكناية ، ثم البديع ، وموضوعه دراسة المحسنات المعنوية واللفظية الـتي يحتملها الاسلوب العربي . فموضوعات البحوث الثلاثة ترجـع الى ما يسميه المحدثون من علماء الفرنجة (الستيلستيك) اي علم الاساليب .

ومن اشهر من الف في هذه الشعبة ابو عبيدة ، والجاحظ ، وابن المعـتز ، وقدامـة بن جعفر ، وابو هـلال العسكري والسكاكي والخطيب القزويني .

٣ ـ علوم القراءات :

وموضوعها بيان الوجوه التي قرئت بهـا آي الذكر الحكيم . وقد شملت هذه الشعبة نوعين من الدراسات اللغوية : ففيها مسائل كثيرة تتعلق باللهجات العربية ، كما ان اغلب مسائلهـا عالجت عنصر الصوت في اللسان العربي . وتعتـبر الدراسات الصوتية في علم التجويـد العربي ، وتلك التي وردت في كتاب سيبويـه والمفصل للزمخشري ، وسر الصناعـة لابن جني

اكمل وادق دراسات صوتية عرفها تاريخ الدراسات اللغويه حتى ذلك العهد .

٤ _ الادب وتاريخه والنقد الادبي :

نهضت هذه الفروع نهضة كبيرة في العصر العباسي ، ولم تنفك ، منذ ذلك العهد الى الآن ، موضع عناية الباحثين من العرب وغيرهم ، حتى أصبحت المكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم في هذه الناحية .

٥ _ متن اللغة :

وتنقسم مؤلفاته الى ثلاثة أقسام : معاجم الالفاظ ، وأشهرها كتاب (العين) ثم (الجمهرة) لابن دريد ، و (التهذيب) لابي منصور ، و (المحيط) للصاحب ابن عباد ، و (المجمل) و (مقاييس اللغة) لابن فارس ، و (الصحاح) للجوهري ، و (القاموس المحيط) للفيروز آبادي ، و (اساس البلاغة) للزمخشري ، و (لسان العرب) لابن منظور المصري . ثم معاجم المعاني منها كتاب (الالفاظ) لابن السكيت و (الالفاظ الكتابية) للهمذاني ، و (مبادىء اللغة) للاسكافي ، و (فقه اللغة) للثعالبي ، والمخصص لابن سيده . والاخير منها يقع في سبعة عشر جزءاً ، وهو أدقها دراسة ، وأحسنها تنسيقاً ، وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث . وأخيرا رسائل في طوائف خاصة من الالفاظ او المعاني منها كتاب ابي حنيفة في الانواء والنبات ، وكتب يعقوب في النبات والاصوات والفرق ، وكتب ابي حاتم في الازمنة والحشرات والطير ، وكتب الاصمعي في السلاح والابل والخيل ، وكتب ابي زيد في المطر واللبأ واللبن والغرائز [1] ، وشرح غريب الحديث للجزري ، وكتاب الاضداد في اللغة

---

١ _ ذكر هذه الكتب صاحب المخصص من بين الكتب التي رجع إليها في مؤلفه ، انظر الجزء الاول من المخصص ص ١١ _ ١٢

للانباري . ومن هذا النوع المعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها ، ككشاف اصطلاحات الفنون للتهاوني ، والتعريفات للجرجاني ، والكليات لابي البقاء .. وهلم جرا .

٦ – فقه اللغة :

لم يحظ فقه اللغة بالعناية التي حظيت بها بقية العلوم ، ومع ذلك ، كان لعلماء العربية نظرات مبكرة فيه ، فكثيرا ما يذكر ابن جني في كتابه (الخصائص) آراء عميقة في هذا العلم يعزوها الى أصحابها المتقدمين ، مثل الخليل وسيبويه وغيرهما .

هذا ، وبحوث فقه اللغة موزعة في الكتب الكثيرة ، نجد بعضها في دراسة الاصمعي للاشتقاق في العربية ، كما نجد بعضاً منها في كتاب (الصاحبي : في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) لابن فارس ، وفي معجم (مقاييس اللغة) آراء في فقه اللغة ، بل إن صاحبه ابن فارس بناه على اساس نظرية ثنائية في الالفاظ العربية .

ومن ابرز كتب هذا الباب كتاب (الخصائص) لابن جني ، و (المعرب من الكلام الاعجمي) لابي منصور الجواليقي ، و (المزهر في علوم اللغة) للسيوطي و (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) لشهاب الدين الخفاجي .

وقد نشطت الدراسات الفقهية اللغوية في العصر الحديث نشاطاً ملحوظاً بسبب من تأثرنا بالغرب ، وامتاز أكثر المؤلفات الحديثة بالمنهجية والروح العلمي . ومن أشهر رجال فقه اللغة في العصر الحاضر محمد المبارك ، وعلي عبد الواحد وافي ، ومحمود السعران ، وتمام حسان ، وابراهيم مصطفى ، وابراهيم انيس ، وصبحي الصالح ، وابراهيم السامرائي .. وغيرهم وغيرهم ..

وإذا عدنا الى الغرب لنتبين تطور الدراسات اللغوية هناك وجـدنا أن القرن الثامن عشر الميلادي كان مبدأ لحركة لغوية نشيطة كان من أبرز نتائجها ظهـور المنهجين التاريخي والمقارن في الدراسات اللغـوية في القرن التاسع عشر .

والواقع أن فرصة المقارنة بين اللغات كانت مهيأة للقدماء منذ زمن مبكر : فقـد استطاع الاغريق أن يلاحظوا وجوه التطابق في لهجاتـهم المختلفة ، كما أن القرابة بين اللسان اللاتيني واللسان الاغريقي كانت أمرا معروفاً . لكن القوم كانوا يعتقـدون أنه من الطبيعي وجـود تشابه بين ألسن الاقوام المتحضرة . أما السنة الاقوام المتبربرة فلم يهتم بها أحد .

بعد ذلك أدت الدعوة المسيحية الى أن يتعلم الدعاة ألسن الأقـوام التي دخلها المبشرة : ترجم الكتاب المقـدس الى اللسان القوطي في القرن الرابع ، والى الارمنيـة في القرن الخامس ، ثم كان علماء اللاهـوت في عصر النهضة الاوروبية يتعلمون العبرية ، وكان كتابهم المقدس يعلمهم أن لسان البشر كان واحدا . ومع كل هذا لم يفطن أحد الى وجود القرابة بين كل هذه الالسن ، ولم يظهر المنهج المقارن الا بعد العثور على اللسان السنسكريتي .

في القرن السادس عشر ادعى الايطالي (ساسيتي) أنه وجد في الهند لساناً يشبه اللسان الايطالي . وفي القرن الثامن عشر درست بعض الارساليات ، وبعض ممثـلي الشركة الانجليزية ، وبعض الهنـود الشرقيين ــ درسوا هذا اللسان فاطلعتهم دراستهم له على حضارة قديمة مجهولة ، وقد وجـد الحاكم الانجليزي للبنغال (وليام جونز) شبهـاً عجيباً بين هـذا اللسان السنسكريتي وبين كل من اللسانين الاغريقي والـلاتيني ، وتساءل عما إذا كان لهذه الالسن الثلاثة أصل واحد مشترك .

كان لهذا الكشف خطر كبير في الدراسات اللغوية ، فقد كشف الستار عما بين الالسن الهندية والايرانية من جهة ، والالسن الاغريقية واللاتينية والجرمانية من جهة أخرى من تشابه وصلات قرابة وروابط وثيقة ، ومهد السبيل لانشاء علوم القواعد التاريخية والمقارنة ، ووسع بذلك نطاق الدراسات اللغوية .

وكان من أشهر من افتتح هذه السبيل العلامة الالماني شليغل Schlegel ، فقد نبه أذهان العلماء الى صلات التشابه الكثيرة التي تربط الألسن الأوروبية والهندية والآرية بعضها ببعض ، تلك الألسن التي رجعها العلماء من بعده الى فصيلة واحدة سموها الفصيلة الهندية - الأوروبية كما سيأتي بيان ذلك .

ومن ذلك الحين أخذ العلماء يدرسون هذه الفصيلة دراسة علمية عميقة ، فبلغوا (بفقه اللغة المقارن) شأواً راقياً ، وكان من انبه علماء هذا الفرع من الدراسة الالمانيان بوب Bopp ، وغريم Grimm .

وقد مهدت بحوث (فقه اللغة المقارن) السبيل الى بحوث (فقه اللغة التاريخي) فانتقل العلماء من الموازنة بين الالسن الهندية الاوروبية الى الموازنة بين مظاهر كل لسان منها في مراحله المختلفة . وكان من أشهر من افتتح هذه السبيل (غريم) السابق ذكره و (ديتز) وبراشيه .

ثم انتقل البحث من هذه الدائرة الخاصة المقصورة على الالسن الهندية الاوروبية الى دائرة عامة ترمي الى كشف القوانين التي يخضع لها كل لسان في تطوره وارتقائه ، فولد بذلك فقه اللغة العام ، وكان من ابرز رجاله العلامة الالماني ماكس مولر ، والعلامة الانجليزي سيس .

ثم كثرت الدراسات وتشعبت فروع العلم وظهرت مدارس واتجاهات كثيرة منها المدرسة الالمانية ، والمدرسة الايطاليـة ، والمدرسة الانجليزية ، والمدرسة الاميركية وغيرها (١) .

أوهام حول فقه اللغة

إن فقه اللغة علم حـــديث ، بل لا يزال حتى الآن في عنفوان تطوره . ولهذا السبب يجهل الناس أمره ، حتى المثقفون منهم . والقلة التي تسمع به تدور في رؤوسها أوهام كثيرة عنه . ونحب في هذا الفصل أن نزيل ما علق بالرؤوس من تلك الأوهام :

١ ـ فأولها ما يظنه بعضهم من أن فقه اللغة هو اتقان عدد كبير من الالسن في الكتابة والخطاب ، وأن فقيه اللغة هو ذلك الرجل الذي يتكلم بعدة ألسن غير لسانه القومي .

إن فقه اللغة ليس معرفة لعدد من الألسن ، كما أن كثيراً من فقهاء اللغة الأجلاء لا يتقنون غير لسانهم القومي . ومعرفة الالسن الكثيرة لا تجعل من الانسان فقيهاً لغوياً ، كما أن قيادة عدد كبير من السيارات لا تجعل من الرجل ميكانيكياً بارعاً .

---

١ ـ معظم فقرات هـذا الفصل نقل عن كتب الوافي وماروزو وبيرو . وليس للمؤلف منها غير التنسيق والتعديل اليسير في بعضها بالاختصار او بالاضافـة لزيادة الايضاح . ولم يلجأ المؤلف الى الطريقة العلمية القاضية بذكر المرجع والصفحة لكل اقتباس خشية تضخم الحاشية وكثرة الاقواس بين الكلام ، ومن اجل الامانة العلمية احب ان يشير ههنا الى ما فعل .

إن فقه اللغة هو النظر في اللغة واستنباط قوانينها العامة ، والكشف عن النواميس الخاضعة لها في مختلف أطوارها .

قد يقال : فكيف يتسنى لفقيه اللغة الذي لا يتقن غير لسانه القومي أن ينظر في مختلف الألسن ليصل الى ما يريد من الكشف عن القوانين والنواميس ؟

والجواب : انه يقرأ بلسانه القومي ما كتب من دراسات وصفية لتلك الألسن .

على أن هذا لا يمنع من أن يحصل الفقيه اللغوي عدداً من الألسن ، فان تحصيله لها يساعده أعظم المساعدة في عمله العلمي .

٢ ـ وثانيها ما يظنه بعضهم من أن فقه اللغة هو التبحر في لسان ما ومعرفة كل ما يتعلق بقواعده وغريبه وشوارده .. الخ

إن التبحر في الألسن مما يساعد اللغوي في عمله ، ويوسع من دائرة استقرائه . ولكن التبحر في اللسان شيء ، ومعرفة قوانين هذا اللسان شيء آخر . وفقه اللغة هو الكشف عن القوانين وليس التبحر والاحاطة . إن معرفتك بكل ركن من أركان منزلك ، واحاطتك علماً بكل حجر فيه ، لا تجعلان منك مهندساً يعرف قوانين الهندسة والبناء .

٣ ـ وثالثها اعتقاد بعضهم أن فقه اللغة هو العلم بالاساليب الصحيحة ، والطرق الناجعة في تعليم الألسن .

إن فقه اللغة لا يأبى أن يقدم نتائجه الى القائمين على أمور التعليم ليستفيدوا منها في عملهم ، لكن هذه ليست وظيفته الاساسية ، إنه علم لا يرمي إلا الى كشف الحقائق بعيداً عن كل غاية نفعية .

٤ ـ وأخيراً ، فان بعضهم يعتقد أن فقه اللغة هو العلم بصحيح الكلام وجيده ، وتمييزه من فاسده وسقيمه .

إن فقه اللغة ينظر الى كلا النوعين من الكلام نظرة واحدة ، ويعاملها معاملة واحدة ، وليس عنده كلام يسمى فصيحاً شريفاً ، وآخر يسمى عامياً مرذولاً . ينظر فقه اللغة الى العامية والفصحى على أنها مظهران طبيعيان متساويان لهذه الظاهرة الانسانية التي تسمى باللغة (١) .

---

١ ـ قارن Perrot : La Linguistique , P . 5
ومقدمة الطبعة الاولى من Marouzeau : La Linguistique

الباب الثاني

اللغة والألسن

أنواع التعبير الإنساني

يعبر الانسان عن خوالجه وانفعالاته باسلوبين : أحـــدهما فطري غريزي لا يد له فيه ولا إرادة ، مثل الصراخ والضحك والبكاء والاقشعرار وما الى ذلك من الظواهر الفطرية التي تصحب الحالات النفسانيـة المختلفة كالفزع والسرور والحزن والالم وما إليها . وهذا الاسلوب من التعبير قد تكفل علم النفس بدراسته ، وثانيهما ارادي مقصود ، مثل الاشارة والكلام وما اليها من الوسائل الـتي يستخدمها الناس في التفاهم فيما بينهم . وهـذا الاسلوب الأخير قـد تكفل بدراســـته علم حـــديث النشأة اسمه علم (السيميولوجيا) أي علم العلامات . أما فقه اللغة فقـد حصر اختصاصه في نوع واحد من أنواع التعبير الارادي ، هو التعبير بالكلام .

إن كل نظام من أنظمة التعبير الارادي يسمى لغة ، ولهذا عرف بعضهم اللغة تعريفاً عاماً بقوله : إنها نظام من العلامات [١] .

ولما كانت العلامات تختلف من حيث الحاسة التي تدركهـا ، ومن حيث رمزها للفكرة مباشرة أو بالواسطة ، فقد انقسمت اللغه الى ما يأتي :

١ ـ لغات بصرية :

وهي التي تدرك علاماتها بالعين . ولها عدة أنواع ، فمنهـا الحركات

---

١ ـ فندريس : اللغة ، ص ٣١

التي تصاحب كلامنا ونستعين بها على ايضاح ما لا نقدر على إيضاحه بالكلام ، ومنها اشارات المرور ، ومنها اشارات الصم البكم ، ومنها ما نأتيه من حركات واشارات عندما نتخاطب مع من لا يفهم لساننا .. الخ

هذا النوع من اللغة له مزاياه الخاصة ، إذ يمكن استعماله على بعد بين مكانين لا يقدر الصوت على أن يصل بينهما ، كما أنه وسيلة سهلة للتفاهم بين أفراد ينتسبون الى ألسن مختلفة ، فهو من هذه الناحية لسان عالمي . بل إن قبائل الهنود الحمر في امريكا ، وكذلك بعض القبائل في استراليا وأواسط افريقيا ، قد اخترعت لها لغة من الاشارات تتفاهم بها عند اختلاف القبائل في الألسن .

« وقرر تيلور ، بصدد هذه اللغة ، ان لها قواعد اشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ، وأنها في مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التي تستخدمها ، فهي من هذه الناحية أشبه بلغة دولية ، وانه يمكن أحياناً التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقص حكايات ... فقد جمع الكولونيل مولري بين رجل أصم - أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الاشارات ، فأخذ الاصم - الأبكم يقص عليهم بالاشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده ، فلم يفتهم فهم أي حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية (١) » .

ويذهب بعض العلماء الى أن هذه اللغة قابلة للاصلاح والتهذيب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الانسانية لها لسارت في سبيل الارتقاء والكمال . والواقع يشهد بغير هذا ، إذ أن ترك الشعوب المتحضرة لها ، واستغناءهم عنها بلغة الكلام دليل عجزها عن التطور ومسايرة التقدم

---

١ - عن الوافي : علم اللغة ، ص ٧٨ .

البشري ، فهي باستئثارها بالأيدي وسائر الاعضاء تمنع الجسم من الاتيان باي نشاط حين التعبير ، ثم إنها غير قادرة على التعبير إلا عن الأشياء المحسوسة فقط ، أما المعاني المجردة ، والاحاسيس الدقيقة ، ففيها عجز طبيعي عن التعبير عنها ، هذا الى ما تقتضيه من اسراف كبير في الوقت والجهود .

٢ ـ لغات سمعية :

وهي التي تدرك علاماتها بالاذن . ولها أشكال كثيرة ، فمنها قرعات النواقيس والاجراس ، ومنها صفرات القطر والبواخر ، ومنها لغة الكلام الملفوظ . وهذه الأخيرة هي أجل اللغات شأناً ، وأعظمها خطراً ، لما امتازت به من السهولة والدقة والثراء في التعبير عن مختلف المعاني والمشاعر والاغراض ، وهي وحدها التي اتخذ منها فقه اللغة موضوعاً للدراسة والبحث ، واليها وحدها تنصرف كلمة (اللغة) عند إطلاقها .

٣ ـ لغات مشتقة :

وهي التي لا ترمز علاماتها للفكرة مباشرة ، بل ترمز للاصوات اللغوية المنطوقة التي هي بدورها رموز للفكرة . فبين هذا النوع من اللغات وبين الفكر تتوسط لغة الكلام . ولهذا النوع أشكال ، فمنها لغة الكتابة ، ولغة الاشارات البحرية ، ولغة الاشارات البرقية ، ولغة اشارات الاعلام عند الكشافة .

ولايضاح الفرق بين اللغات المشتقة وبعض اللغات السمعية أو البصرية نورد المثال الآتي :

تنشر المجلات أحياناً قصصاً فكاهية قصيرة على شكل صور متتابعة ليس تحتها كتابة او تعليق . فاذا نظرنا الى هذه الصور بالتتابع فهمنا

المراد مباشرة ، فهذه اذن لغة بصرية ، أما إذا نظرنا الى أحد مقالات المجلة في بقية الصفحات فاننا نري حروفاً مطبوعة ، هذه الحروف ليست رموزاً للافكار ، فهي غير قادرة على اثارتها بصورة مباشرة ، بل هي رموز لأصوات لغوية تثيرها فينا فينطقها لساننا سراً او علانية ، ثم تقوم هذه الاصوات بالرمز للافكار المقصودة . وبهذا تكون الكتابة لغة مشتقة من لغة الكلام لانها رموز لهذه اللغة .

واللغات المشتقة لغات اصطناعية لا طبيعية ، اخترعها الانسان ليتغلب بها على عوائق زمانية (كما في حالة الكتابة) او مكانية (كحالتي الاشارات البرقية والكتابة) او على عوائق ناشئة من اختلاف الالسن بين الأقوام (كحالة الاشارات البحرية) .

لغة الحيوان

هل عند الحيوان لغة كما عند الانسان ؟

إذا أردنا من اللغة مجرد الوسيلة للاتصال بالآخرين كان الجواب بالايجاب . فقد كشف العلماء عن وسائل كثيرة يتوسل بها الحيوان للاتصال بافراد جنسه لتلبية حاجات غريزية متنوعة ، ولا سيما الحيوانات التي تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والوعول وغيرها . فمن ذلك مثلاً ما تفعله النحلة العاملة إذا رأت مادة سكرية في مكان ما ، إذ تعود الى الخلية مسرعة حيث تقوم برقصة تشبه رقصة البطن ، فيفهم عنها سائر النحل الرسالة التي تحملها ، وقد لاحظ العلماء أن هزة البطن الواحدة تعني أن مكان المادة السكرية على بعد ستين متراً من الخلية ، وأن الهزتين تعنيان

بعداً مقداره مائة وعشرون متراً .. وهكذا ، كما أن رأس النحلة عند هز بطنها يشير الى الجهة التي بها المادة (١) .

أما إذا أردنا من اللغة معناها الصحيح وهو التعبير الارادي عن الفكر فليس عند الحيوانات لغة من أي شكل من الاشكال ، فهذا النوع من التعبير شيء اختص به الانسان من بين كل المخلوقات ، أما ما نراه من الحركات والصرخات التي تصدر عن الحيوان مما نعتقد أنه لغة فليس إلا نوعاً من الاستجابات الغريزية لمؤثرات خارجية ، يأتيها الحيوان عن عدم وعي لمعناها ، وهي هي منذ أقدم الازمنة لم تتغير ولم تتطور ، خلقت معه كما خلقت غرائزه المختلفة . وليس الا وهما ما ذهب إليه بعضهم من أن الفصائل العليا من القردة تملك لغة حقيقية ، وكذلك ما أدعوه من أن هذه اللغة تتألف من اثنتين وثلاثين كلمة (٢) .

أصل اللغة

يصر أكثر علماء اللغة اليوم على إبعاد مسألة أصل اللغة من مجال البحث اللغوي . ومع ذلك تجدهم ، وهم مشغولون ببيان عقم البحث في هذه المسألة ، تجدهم ينساقون بغير شعور منهم الى البحث فيها ، والى طرح نظرياتهم الخاصة (٣) .

---

١ ــ عن برنامج تلفزيوني علمي بثته محطة دمشق في ١٩٦٩/٧/٦
وانظر أيضاً : الوافي : علم اللغة ص ٧٩ ــ ٨٨ ، فقد جمع طائفة كبيرة من ملاحظات العلماء في هذه المسألة .

٢ ــ انظر : الوافي : علم اللغة ، ص ٨٥ .

٣ ــ انظر على سبيل المثال فندريس : اللغة ، ص ٢٩ ــ ٤٢

والظاهر أنها مسألة لا تقبل إبعاداً ، كما لا تقبل إرجاء ، إنها إحدى المعضلات (النقاقة) ـ كما يقول كمال يوسف الحاج [1] ـ التي تريد منا جواباً سريعاً .

وفيما يلي سنعرض لتاريخ هذه المشكلة ولأهم ما قيل فيها :

١ ـ عند الاغريق :

بدأت مشكلة أصل اللغة عند فلاسفة الاغريق من هذا السؤال :

« هل يعبر الاسم عن حقيقة الشيء المسمى به بالطبيعة أم بالتواطؤ ؟ » وبعبارة أخرى : إذا لفظنا كلمة (شمس) فهل يستطيع كل سامع لها ، مهما يكن اللسان الذي يتكلمه ، ان يفهم منها ما يفهمه العربي ؟

اجاب هرقليطس عن هذا السؤال بالايجاب مقررا ان الأسماء تدل على مسمياتها بالطبيعة لا بالتواطؤ والاصطلاح ، وان هذه الاسماء قد اعطيت من لدن قوة إلهية لتكون اسماء لمسمياتها .

وسميت هذه النظرية بالنظرية التوقيفية في اللغة .

اما ديمقريطس فقد اجاب بالنفي ، واعتبر منشأ اللغة عملية تواطؤية لان الاسم الواحد ذاته كثيرا ما يقبل عدة مسميات . ولأن الشيء الواحد كثيرا ما يقبل عدة اسماء . او قد يتبدل اسمه ولا يتبدل هو . وتوسعاً بهذا المبدأ انتهى ديمقريطس الى القول بان الاسماء تعطى للاشياء من لدن الانسان . لا من لدن قوة إلهية .

وسميت هذه النظرية بالنظرية التواطؤية في اللغة .

---

١ ـ فلسفة اللغة ، ص ٣٥

ظلت هاتان النظريتان تتجاذبان الفلسفة اللغوية عند الاغريق طوال تاريخهم . وافلاطون نفسه لم يأت بشيء جديد حـــول المشكلة في كتابه « قراطيلس » سوى أنه حاول التوفيق بينهما (١) .

٢ ـ عند الغرب المسيحي في العصور الوسطى :

سيطرت النظرية التوقيفية في اللغة على التفكير المسيحي في القرون الوسطى سيطرة تامة . لكن برهانها لم يعد مستمدا من العقل ، بل من النقل . وكانت حجة القائلين بها ما جاء في الاصحاح الثاني من ســـفر التكوين :

« وقال الرب الاله لا يحسن أن يكون الانسان وحـده فاصنع له عوناً بازائه . وجبل الرب الاله من الارض جميع حيوانات البرية ، وجميع طير السماء ، واتى بها آدم ليرى ماذا يسميها ، فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه . فدعا آدم جميع البهائم وطـير السماء وجميع وحش الصحراء باسماء (٢) .

غير ان هذه الآيات لا تنهض دليلاً قاطعاً على التوقيفية ، بل قـد يكون فيها ما يدل على ضدها ، فظاهر الآية العشرين أن آدم هـو الذي أعطى الحيوانات اسماءها ، ولم يوح الله بها له .

ومع سيطرة التوقيفيـة لم نعدم أن نجد في هـذه الفترة من حاول التوفيق بينها وبين التواطؤية كما فعل افلاطون من قبل . نعني بذلك القديس غريغوريوس حيث يقول :

---

١ ـ انظر المرجع السابق ، ص ٢٠ ـ ٢١

٢ ـ الايات ١٨ ـ ٢٠

« أن يكون الله قد وضع في الطبيعة البشرية كل ملكاتها المألوفة ، فهذا لا يعني أنه علة كل الافعال المباشرة التي نقوم بها . أجل ، لقد وضع فينا ملكة بناء البيت ، كما وضع فينا الملكات المحققة للافعال الأخرى . لكننا نحن البانون لا هو . وهكذا قل عن اللغة . فهي ، قوة ، عمل الذي جبل طبيعتنا . إلا ان خلق الاسماء للاشياء يعود الى الانسان وحده [1] » .

٣ ـ عند العرب :

تراوحت آراء العرب في هذه المشكلة بين التوقيفية والتواطؤية . والتوفيق بينهما .

فابن فارس يعقد أول باب من أبواب كتابه (الصاحبي) على القول على لغة العرب أتوقيف ام اصطلاح ، فيقول [2] : « إن لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قوله جل ثناؤه « وعلم آدم الاسماء كلها » .

إلا أنه لا يكتفي بالدليل النقلي ، بل يحاول ، في سذاجة ، ان يجد لدعواه دليلاً عقلياً يستمده من طريقة قياس الغابر على الحاضر ، فيقول في معرض رده على من قال بالتواطؤ [3] : « وخلة أخرى أنه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه ، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم .

« وقد كان في الصحابة ، رضي الله عنهم ، وهم البلغاء والفصحاء ، من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به ، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو احداث لفظة لم تتقدمهم .

---

١ ـ عن كتاب فلسفة اللغة لكمال يوسف الحاج . ص ٢١

٢ ـ ص ٥

٣ ـ المرجع نفسه ، ص ٦ ـ ٧

« ومعلوم أن حوادث العالم لا تنقضي إلا بانقضائه ، ولا تزول إلا بزواله ، وفي ذلك دليل على صحة ما ذهبنا إليه من هذا الباب » .

وقد ذهبت طائفة كبيرة من علماء العربية الى أن اللغة اصطلاح لا الهام . نعلم ذلك مما جاء في (الخصائص) بهذا الشأن حيث يقول (١) :
« واكثر أهل النظر على أن أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي وتوقيف . . . .
وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا الى الابانة عن الاشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً إذا ذكر عرف به ما مسماه ليمتاز من غيره ويغني بذكره عن إحضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض في ابانة حاله » .

وحاول آخرون - منهم القاضي أبو بكر - التوفيق بين المذهبين ذاهبين الى أن كليهما ممكن وقوعه . فقوله تعالى « وعلم آدم الاسماء كلها » يعني أن التعليم قد حصل بالالهام ، أي بالقوة . لقد وضع الله في الانسان ملكة الخلق ، ثم تركه يخلق على هواه . وإذا سلمنا أن الاسماء قد اعطيت لآدم بالتوقيف ، فان الذين جاءوا بعده لم يوقفوا عليها . لقد اصطلح اولاده من بعده على لغاتهم . والدليل على ذلك قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه (٢) » .

والى جانب هؤلاء واولئك نجد طائفة تقول بنظرية جديدة لم نسمع بها من قبل ، لكن كلام ابن جني يشعر بقدمها وبكثرة القائلين بها .

---

١ - ج ١ ص ٤٠ - ٤٤

٢ - راجع كتاب (الاحكام في اصول الاحكام) لسيف الدين الامدي ، الجزء الاول ، القسم الثاني ، مصر ١٩١٤ .

ملخص هذه النظرية ان اللغة نشأت عن محاكاة الانسان للاصوات الطبيعية التي حوله . يقول ابن جني [1] : « وذهب بعضهم الى ان اصل اللغات كلها انما هو الاصوات المسموعة ، كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل » .

٤ ـ عند الغرب في العصر الحديث :

تناول المشكلة في العصر الحديث طائفتان من الرجال : فلاسفة راحوا يبحثون عن اصل اللغة في علاقة الكلمة بالوجدان والفكر ، لا في علاقتها بالشيء المسمى كما فعل فلاسفة الاغريق من قبل ، ولغويون راحوا يبحثون عن اصل اللغة في مجالات لغوية صرفة .

فأما الفلاسفة فقد انقسموا الى ثلاث فئات :

١ ـ فئة اتجهت الى التواطؤية . ويمثلها الفيلسوف الانكليزي (لوك) . وملخص نظريته ما يأتي :

الكلمات لا تعني (اشياء) بقدر ما تعني (افكاراً) . علاقتها بالباطن لا بالخارج . ولكن من اقام هذه العلاقة بين الكلمات والأفكار ؟ أهو الله ؟ ام هي طبيعة قضت ان يكون لكل فكرة كلمة تدل بجرس حروفها عليها ؟ لا هذا ولا ذاك ، ولو كان شيء منها صحيحاً لتكلم الناس جميعاً لساناً واحدا .. ولأثارت الكلمات عينها ، في اذهان الجميع ، المعاني ذاتها . إذن من اقام هذه العلاقة ؟ إنه الانسان . ولماذا ؟ لأنه

---

١ ـ الخصائص ج ١ ، ص ٤٦ ـ ٤٧

اراد ان يروّح عن نفسه . إنه اعطى افكاره وعواطفه اسماءها لكي ينقلها الى الآخرين فيخفف بذلك من لواعج نفسه .

وهكذا انتهى (لوك) الى امرين : الى ان اللغة تواطؤ ، ثم الى انها وسيلة لنقل الأفكار لا غاية .

٢ ـ وفئة انتهت الى التوقيفية . وهذه يمثلها المفكر الفرنسي (دي بونالد) . وملخص نظريته ما يأتي :

اللغة هي الفكر نفسه وليست شيئاً آخر غيره . اللغة ليست مجموعة كلمات ترمز الى افكار ، بل الكلمات هي الأفكار نفسها . إذا قلنا : نحن نفكر ، فكأننا قلنا : نحن نلغو . ولو ان كائناً سُلب اللغة لسلب القدرة على التفكير ايضاً . وبناء على هذا يستحيل ان يكون الانسان خالقاً للغة . لماذا ؟ لسبب بسيط ، هو انه لكي يخلق الانسان اللغة يجب ان يكون لديه فكرة واضحة عنها ، فلا يعقل ان يخلق خالق شيئاً لا يملك عنه اية فكرة ، ولكي توجد هذه الفكرة عن اللغة عند الانسان يجب ان يكون مفكرا ، اي ان يكون لاغياً ، ومعنى هذا انه لكي يخلق الانسان اللغة يجب أن يكون مالكاً للغة ، وبعبارة أخرى : إن وجود اللغة شرط لخلق اللغة ، أو : ان اللغة واجب وجود لمنشأ اللغة ذاتها . ولما كان هذا مستحيلاً على الانسان فقد وجب أن تكون اللغة هبة من لدن الله .

وهكذا انتهى دي بونالد الى أمرين : الى أن اللغة توقيفية ، ثم الى أنها غاية لا واسطة .

٣ ـ وفئة ثالثة ارجأت الجواب عن هذه المسألة الى المستقبل . وزعيمها الفيلسوف (ليبنتز) الذي رفض التواطؤية والتوقيفية على حد سواء ، ودعا الى القيام باستقراء شامل للالسن قبل الاجابة عن أي سؤال . فهو يقول :

إن الالسن بمثابة كتاب ، علينـــا أن نحسن القراءة فيه ، ولكي نحسن هذه القراءة ينبغي لنا أن نقرأ اولاً . ان الالسن أقدم تركة خلفها لنا التاريخي الانساني . هي أقدم شاهد على حقيقة البشر . لهذا يحسن بنا أن نجيد الاستماع الى هذا الشاهد الناطق . وكيف ذلك ؟ انه يكون بأن نحصي ، قبل كل شيء ، عدد الالسن في العالم ، وبأن نقابل ، بعد ذلك ، بعضهـا ببعض ، بالنسبة الى الماضي ، والى الحاضر ، لكي نعرف المستقبل . ان الالسن كائنات حية تتطور وفق نواميس مخصوصة . هـذه النواميس لا يمكن معرفتها قبلياً . معرفتنا لها يجب أن تكون بمدية ، على غرار معرفتنا للأمور الطبيعية . متى أحصينا الالسن في العالم ، ودرسنـا كل لسان على حدة ، ثم درسناه بالنسبة الى غيره من الالسن ، استطعنا أن نصل الى نتيجة حاسمة في معرفة نشأة اللغـة وعلاقتها بالفكر فهـذه الاسئلة لا يجاب عنها في اول الطريق ، أجوبتها بمدية . عملنا اليوم يجب أن ينحصر في الاستقراء .. استقراء الوقائع اللغـوية واحدة واحدة قبـل التسرع في اعطاء جواب تعسفي (١) .

وأما اللغويون فقد انقسموا هم أيضاً الى طوائف :

١ ـ طائفة ذهبت تبحث عن أصل اللغة في ألسن الأقوام البدائية ، وحجة هؤلاء ، ومنهم الملامة وتني ، أن هذه الألسن التي لم يصبها التطور بتغييرات كبيرة تمثل شكلاً قريباً من لغـة الانسان الاول ، وتستطيع أن تعطينا فكرة عن أصل اللغة ونشأتها . وإذ لاحظ هؤلاء العلماء أن لغات الأمم البدائية تشتمل على مفردات كثيرة تشبه أصواتها أصوات ما تـــدل عليه ، قرروا أن اللغة نشأت عن طريق محاكاة الانسان للأصوات الطبيعية التي كان يسمعها حوله .

---

١ ـ راجع فيما يتعلق بآراء الفلاسفة في اللغة كتاب الفلسفة اللغوية لكمال يوسف الحاج ص ٢٤ ـ ٢٩

وهذه النظرية قديمة ، وقد ذكرها ابن جني قبل الف عام ، لكن القائلين بها اليوم يحاولون اقامة الدليل عليها من بحثهم في ألسن الامم البدائية . ومع ذلك فقد تعرضت لنقد شديد من فندريس الذي يقول [1] : « المتوحشون ليسوا بدائيين ، رغم الاسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب الأحيان . فهم يتكلمون أحياناً لغات على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيداً ، ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة . فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغييرات تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها . وإذا كان هناك من فرق بين لغات الشعوب التي تسمى متحضرة ولغات المتوحشين ، فهو في الافكار التي تعبر عنها أكثر مما هو في العبارة نفسها . فلغات المتوحشين في وسعها أن تفيدنا في معرفة ما بين الكلام والفكر من روابط ، وليس في معرفة ما كانت عليه الصورة البدائية للكلام » .

٢ ـ وطائفة راحت تبحث عن أصل اللغة بالنظر في الالسن القديمة ، أو بمقارنة الألسن المعاصرة ، للوصول عن طريق المقارنة الى الكشف عن الالفاظ المشتركة بينها ، ذاهبين الى أن هذه الالفاظ المشتركة تمثل الرطانة الأولى التي نطق بها الانسان القديم .

ويأتي على رأس هذه الطائفة العلامة الالماني (مكس مولر) الذي بحث في أصول الكلمات في الالسن الهندية ـ الأوروبية . وظهر له بعد البحث أن مفردات هذه الالسن جميعها ترجع الى خمسمائة أصل مشترك ، وان هذه الأصول تمثل الرطانة الأولى التي انشعبت منها السن هذه الفصيلة ، فهي لذلك تمثل اللغة الانسانية في أقدم عهودها . وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية ، وان لا تشابه مطلقاً بين اصواتها واصوات ما تدل عليه من فعل او حالة .

---

١ ـ اللغة ، ص ٣٠

كان لما وصل إليه مولر من تحليله عـدة نتائج : اولها ان اللغـة الانسانية الأولى لم تكن تقليداً لأصوات الطبيعـة ، خلافاً لما ذهب إليـه أصحاب نظرية المحاكاة . إذ لو كان الأمر كما يقول هـؤلاء ، لوجب أن يكون بين هذه الأصول الهندية ـ الأوروبية وبين ما تدل عليه تشابه في الأصوات . فلما لم يكن هذا التشابه حاصلاً بطلت دعوى نظرية المحاكاة . ثانيها أن اللغة الانسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق ، خلافاً لمـا ذهب إليه أصحاب النظرية التواطؤية ، إذ لو كان الأمر كذلك ، وهـو ما تأباه طبيعـة النظم الاجتماعية ، لوجب أن يكون في أيدي المتواضعـين وسيلة للتفاهم فيما بينهم ، ولا يمكن أن تكون هذه الوسيلة اللغة الصوتية ، لأن المفروض أن اللغة الصوتية هي موضوع التـــواضع وأول ما نطق به الانسان ، كما لا يمكن ان تكون لغة الاشارة ، لأن هـــذه الاصول الهندية ـ الأوروبية ، التي يدعى أن التواضـــع حاصل عليها ، تدل على معانٍ كلية ، أي على امور معنوية يتعذر استخدام الاشارة الحسية للدلالة عليها . ثالثها ، وهو الاهم ، أنه إذا بطل أن اللغة الانسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق ، وبطل كـذلك انها نشأت عن محاكاة الانسان لأصواتـه الطبيعية وأصوات الحيوانات والاشياء ، لم يبق إذن إلا تفسير واحد معقول لهذه الظاهرة ، وهو أن الفضل في نشأة اللغـة يرجع الى غريزة زود بها الانسان في الاصل للتعبير عن مدركاته ، وأن هـــذه الغريزة كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصـــدر عنها ، وانه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الانسانية الاولى ، فاستطاع الافراد التفاهم فيما بينهم ، وأنه بعد نشأة اللغة الانسانية الاولى لم يستخدم الانسان هذه الغريزة ، فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت ، كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الانسانية القديمة .

وعلى الرغم مما في نظرية الغريزة هذه من دقـة وطرافة وعمق في البحث ، فقد تعرضت لهجوم عنيف يمكن تلخيصه فيما يأتي :

آ ـ إن هذه النظرية لا تحل شيئاً من المشكلة التي نحن بصددها ، بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخري اكثر منها غموضاً ، وهي مشكلة (الغريزة الكلامية) .

ب ـ ان ما تقوله يعتبر من قبيل تفسير الشيء بنفسه . فكل ما تقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية « ان الانسان الاول نطق اللغة لانه كانت عنده غريزة النطق باللغة » وهذا مجرد تقرير المشكلة في صيغة أخرى وليس حلاً لها .

جـ ـ إن اللغويين مهما اوغلوا في تاريخ الألسن ، فانهم لا يصلون إلا الى السن قد تطورت وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً . وإن فكرة الوصول الى اعادة بناء رطانة بدائية بمقارنة السن موجودة بالفعل سراب خادع . ان اقدم الالسن المعروفة ، حتى تلك التي تسمى (بالأمهات) لا شيء فيها من البدائية . ومهما اختلفت عن السننا الحديثة ، فانها لا تفيدنا علماً إلا بالتغيرات التي طرأت على اللغة ، ولا تدلنا على شيء من كيفية نشأتها (١) .

٣ ـ وطائفة راحت تبحث عن اصل اللغة بدراسة اللغة عند الاطفال وطرق اكتسابهم لألسن والديهم ، او بدراسة حالة الافراد الذين خلقوا صماً بكماً عمياً ، وظلوا صدراً من حيواتهم منقطعين عن العالم الخارجي الى ان تعلموا لغة اللمس (٢) .

---

١ ـ انظر فندريس : اللغة ، ص ٢٩ ـ ٣٠ . والوافي : علم اللغة ، ص ٩١ ـ ٩٤ .

٢ ـ من أشهر هؤلاء الفتاة الاميركية هيلين كيلر . فقد ولدت وليس معها غير حاسة اللمس للاتصال بالعالم الخارجي . ومع ذلك فقد تعلمت عدة ألسن وكتبت بها .

غير ان جهود هذه الطائفة لم تسفر عن نتيجة حاسمة ، لأن الأطفال لا يمثلون الانسان الاول في شيء ، فالانسان الاول (خلق) اللغة مدفوعاً بضرورات اجتماعية ، اما الاطفال فلا يخلقون اللغة في ادوار حيواتهم الاولى ، إنهم يكتسبون لسان الوالدين فقط ، وهو لسان تام متكامل قد مضت عليه قرون من التطور والترقي . وحالة الاطفال تريفا كيف يكتسب اللسان ، ولا تعطينا أي فكرة عن كيفية نشأة اللغة الاولى . أما الصم البكم العمي فهم يشكلون حالة شاذة ، ولا يمكن للحالة الشاذة أن تكون مقياساً لميلاد اللغة الاولى ميلاداً طبيعياً .

وأخيراً ، كيف السبيل الى معرفة أصل اللغة وكيفية نشأتها الاولى ؟

هناك تجربة مضمونة النتائج حاسمة الجواب في هذه المشكلة . يقترح علينا فندريس إجراءها وان كان يحكم بسخف التفكير فيها ، يقول [1] : « في أحضان المجتمع تكونت اللغة . ولدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة الى التفاهم فيما بينهم ، وتنشأ من احتكاك بعض الاشخاص الذين يملكون اعضاء الحواس ويستعملون في علاقاتهم الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرفهم : الاشارة إذا اعوزتهم الكلمة ، والنظرة إذا لم تكف الاشارة . فالاختبار الذي يمكن اجراؤه ... هو أن يوضع طفلان او عدة اطفال بعضهم مع بعض يجهلون جهلاً تاماً كل شيء عن اللغة بعد إقصائهم إقصاء تاماً عن كل مؤثر تعليمي . عندئذٍ ، إذا غضضنا النظر عما قد يكون عندهم من استعدادات موروثة ، فليس من شكٍ ، مهما كانت جنسيتهم ، في أن يخلقوا بفطرتهم لغة لحسابهم الخاص . وهذه اللغة لن تكون [الفرنسية او الانكليزية او غيرها] . ذلك بأن الحاجة توجه العضو حتماً الى العمل . ولا بد أن الاشياء عند البدء وقعت على هذا النحو » .

١ ــ اللغة ، ص ٣٥

الألسن في العالم

كم يبلغ عدد الألسن في العالم ؟

الاجابة الدقيقة عن هذا السؤال عسيرة جداً إذا لم تكن متعذرة . وسبب ذلك عدة أمور أهمها :

١ ـ إن مفهوم (اللسان) مفهوم غير محدد ، فما يعده بعض العلماء لساناً واحداً يعده آخرون مجموعة ألسن ، وهذا هو حال العربية ولهجاتها العاميات . إن رسم حدود لسان ما مشكلة لن يقدر لها أن تحل حلاً مرضياً . وقد صور ماروزو هذه المشكلة وحاول حلها بما يلي [1] : « إن مشكلة حدود اللسان هي كمشكلة كتلة الرمل تقريباً : فحبتان من الرمل لا تصنعان كتلة ، وكذا الثلاث من الحبات والعشر والمائة ، غير أن عشرة آلاف حبة تصنع كتلة ، فعند أي عدد من الحبات تبدأ الكتلة ؟ ليس هناك من جواب غير القول : في لحظة ما من لحظات تزايد عدد الحبات نحس أن ما أمامنا هو كتلة . وكذلك ، هناك أوجه مختلفة من التعبير تجعل الاشخاص المتكلمين يقولون : نحن لا نتكلم (الفرنسية ذاتها) وهناك حد عنده يقول بعض الاشخاص المتكلمين عن بعضهم الآخر : إنهم لا يتكلمون (الفرنسية) . إنها النقطة التي ينقطع عندها التفاهم تقريباً بين المتخاطبين » .

لكن المشكلة لم تحل ، لان التفاهم لا ينقطع فجأة عند نقطة قابلة للتحديد ، فشأن التفاهم كشأن كتلة الرمال تماماً . إذا تخاطبت مع أحد أصدقائي كان التفاهم بيننا تاماً ، أما إذا تخاطبت مع رجل من الأسكيمو فسيكون التفاهم بيننا معدوماً . وبين حالتي التفاهم ، هاتين درجات غير متناهية . فعند اي هذه الدرجات يمكننا القول : ههنا حد بين لسانين ؟

---

١ ـ op . cit , P . 54

٢ ـ يضاف الى ذلك ان كثيراً من السن شعوب افريقيا والسكان الاصليين للأمريكتين لم يدرس بعد . وهاتان القارتان ، مع بعض الجزر في اوقيانوسيا ، من اكثر المناطق تعقيداً من الناحية اللغوية .

لهذا وذاك لم يبق امامنا إلا ان نقبل الاحصاء التخميني الذي يقدمه العلماء في هذا الصدد ، والذي يحصر عدد الألسن المتكلمة في العالم بين رقمي ٢٥٠٠ ـ ٣٥٠٠ لسانٍ .

ويدخل في هذا الرقم ألسن شديدة التفاوت من حيث الأهمية وعدد الناطقين ، فعلى حين يتكلم الصينية ثمانمائة مليون نسمة ، لا نجد للكشدالية ، وهي لسان بعض سكان جزيرة كمشاتكا ، غير ألفين فقط من الناطقين . وقد ظهر من الاحصاء الذي نشره تسنيير عام ١٩٢٨ أن تسعة وعشرين لساناً فقط كان لكل منها ما يزيد على عشرة ملايين ناطق ، أما عدد الألسن التي لها ثقافة من نوع ما فهو لا يزيد عن سابقه إلا قليلاً ، إذ ليس في العالم إلا خمسون لساناً فقط لها أدب مكتوب . وينخفض هذا العدد الى نصفه إذا كنا بصدد الألسن ذات الأهمية من حيث اتساع رقعة الأرض التي تنتشر فيها ، او من حيث الانتاج الأدبي والعلمي الذي يكتب بها (١) .

تصنيف الألسن

في تصنيف ألسن العالم نظريات كثيرة ، لكن أشهرها على الاطلاق اثنتان : نظرية شليغل ، ونظرية مكس مولر .

---

١ ـ انظر Perrot . op . cit . P.P, 26 - 27

١ ـ نظرية شليغل :

نظر هذا العالم الى الألسن من حيث الطرق المختلفة التي تسلكها للتعبير عن الافكار فوجدها على ثلاثة أنواع :

آ ـ ألسن متصرفة أو تحليلية : Flexiomelles, ou Analytipues

وتمتاز هذه الطائفة بان الكلمات فيها متصرفة ، أي تتغـــير ابنيتها فتتغير معانيها ، وبوجود أدوات نحوية تقوم بوظيفة الربط بين أجزاء الجملة ، وتحدد عمل كل جزء فيها ، ونسبته الى الأجزاء الأخرى ، فأما التصرف فمثاله من العربية (كتب ـ يكتب ـ أكتب ـ كتاب ـ مكتوب ـ كتابة كُتِب ـ كُتُب ـ كاتب) ، وأما أدوات الربط فمثالها الواو والباء في قولنا (كتب زيد وخالد كتاباً بالقلم) .

ب ـ ألسن لصقية أو وصلية أو تركيبية :

Agglutinantes, ou, Agglomerrantes, ou, Synthétique

وتمتاز هذه الطائفة بان تغير معاني الكلمات فيها لا يتأتى عن طريق تغيير الصيغة ، بل عن طريق لصق أحرف بأول الكلمة أو بنهايتها ، فما لصق بالأول سمي صدراً Prefixe ، وما لصق بالآخر سمي عجزاً Suffixe وبهذه الصدور والاعجاز تتوصل هذه الطائفة من الالسن الى ربط أجزاء الجملة وبيان علاقة كل جزء منها بالآخر .

حـ ـ ألسن عازلة : Isolantes

وتمتاز هذه الطائفة بان كلماتها غـــير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية والصيغة ولا عن طريق لصق حروف زائدة . فكل كلمة من كلماتها تلزم صورة واحدة لا تتغير ، وتدل على معنى ثابت لا يتبدل . كما ان هذه الالسن محرومة من الادوات النحوية التي تربط أجزاء الجملة وتدل

على علاقة كل جزء منها بما عداه ، وهي تضع كلماتها في الجملة بعضها الى جانب بعض ، أما وظائف الكلمات وعلاقاتها فتفهم من ترتيبها او من السياق .

فمن الطائفة الاولى العربية وجميع الساميات والهنديات ـ الاوروبيات ، ومن الثانية اليابانية والتركية ، ومن الثالثة الصينية وكثير من السن الشعوب البدائية .

وتدعي هذه النظرية ان اللغة الانسانية كانت في اول نشأتها من النوع العازل ، ثم ارتقت فاصبحت من النوع اللاصق ، ثم اوغلت في الرقي حتى صارت من النوع المتصرف ، وان الالسن التي لا تزال حتى اليوم عازلة او لاصقة هي السن وقفت في نموها عند مرحلة من مراحل التطور فلم تتجاوزها .

هذه النظرية لم تلق التأييد الكامل من علماء اللغة ، بل ان اكثرهم يرفضها لكثرة الشواهد الدالة على فسادها ، إذ ظهر لهؤلاء ان التصريف واللصق والعزل طرق ترى في كل لسان ، ولا يختص باحداها لسان دون آخر ، فالعربيـــة ، وهي اكثر الالسن اعتمادا على التصريف ، تلجأ في بعض الاحيان الى اللصق للتعبير عن المعاني الجديدة ، ونظرة واحدة الى الفعلين (جاوز ـ تجاوز) ترينا انه لا فرق بينهما إلا في التاء التي الصقت بالفعل الثاني لتعـــدل بعض التعديل في معناه . كذلك تلجأ في بعض الاحيان الى طريقة العزل مستغنية عن الادوات النحوية بالترتيب لافادة المعنى وبيان العلاقات بين اجزاء الجملة ، فقولنا : (ضرب موسى عيسى) ليس فيه ما يفيد فاعلية موسى ومفعولية عيسى سوى الترتيب الذي جاءت عليه الكلمتان .

وما قيل عن العربية يقال مثله عن سائر الالسن . فكلها تستعمل التصريف واللصق والعزل ولكن بنسب مختلفة .

لهذا السبب لا يمكن قبول هـذا التصنيف ، كما لا يمكن التسليم بان اللغة الانسانية سلكت في تطورها هذا الطريق الذي ذكر .

٢ ـ نظرية مكس مولر :

نظر هذا العالم الى الالسن من حيث وجوه الاتفاق والاختلاف في نواحي المفردات وقواعد الصرف والنحو ، فتبين له ان بعض هذه الالسن يشبه بعضها الآخر شبهاً قوياً كالشبه الذي يكون بين الاخوة في الاسرة الواحدة ، فقرر تصنيفها الى اسر يجمع بين افراد كل اسرة منهـا وجوه من الشبه توحي بوحدة الاصل لافراد هذه الاسرة .

وكان ان قسم ألسن العالم الى اسر ثلاث :

١ ـ أسرة الألسن الهندية ـ الاوروبية :

وهي اكثر الاسر اللغوية عدد السن وناطقـــين ، كما انها حظيت باهتمام خاص من علماء اللغة الغربيين لانتماء السنتهم القومية إليها .

واشهر السنتهـا : الاغريقي ، واللاتيني ، والايطالي ، والفرنسي ، والاسباني ، والبرتغالي ، والروماني ، والارلندي ، والالماني ، والهولندي ، والروسي ، والفارسي ، والسنسكريتي ، والارمني ، والالباني ، والحثي ، والطوخاري .. الخ [١] .

وبعض الشعوب الناطقة بهذه الاسرة هي ارقى الشعوب مدنيـة في العصر الحاضر ، واعظمها نشاطـاً ، واكبرها شأناً ، واكثرها انتاجاً في مختلف فروع الحياة ، واجلها اثرا في الحضارة الانسانية الحديثة .

---

١ ـ انظر جدول الالسن الهندية ـ الاوروبية .

وهذه الاسرة اللغوية هي اكثر الاسر انتشاراً ، إذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوروبا وأمريكا وأستراليا وجنوب افريقيا ما عدا بعض جماعات قليلة من سكان هذه المناطق ، كما يتكلم بها قسم كبير من سكان آسيا كالهنود والفرس والافغانيين والاكراد والارمن .. الخ

ويرجع الفضل في انتشار هذه الاسرة الى عوامل كثيرة أهمها الغزو والاستعمار ، فعلى أثر غزو الآريين للهند انتشرت السنهم في هذه البلاد وقضت على السن السكان الاصليين فيها ، وعلى أثر استعمار الاوروبيين لامريكا واوستراليا وجنوب افريقيا انتقلت الى هذه المناطق الالسن الانكليزية والاسبانية والفرنسية .

أما الوطن الاول لهذه الاسرة فلا يعرف شيء يقيني عنه ، وقد ذهب العلماء بصدده مذاهب كثيرة تعتمد في معظم نواحيها على الحدس والتخمين ، وفي نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن الي مثلها التحقيق العلمي : فمن قائل إنها نشأت باوروبا الشرقية بالمناطق الروسية ، ومن قائل إنها نشأت بمناطق بحر البلطيق .

وتمتاز هذه الاسرة بكثرة شعبها ، واتساع هوة الخلاف بين أفرادها ، وقد سلك كل لسان من ألسنها سبيلاً يختلف عن سبيل غيره ، فكثرت وجوه الخلاف بينها ، وتضاءلت وجوه الشبه ، حتى إن بعضها ليبدو غريباً عن بعض ، ولا تظهر صلة قرابته به إلا بعد تأمل عميق . ويرجع السبب في ذلك الى عوامل كثيرة أهمها اختلاف البيئات التي انتشرت فيها هذه الاسرة ، واختلاف الشئون الاجتماعية التي اكتنفت الناطقين بكل شعبة منها . وقد ترتب على هذه العوامل ان اختلف كل لسان منها عما عداه في درجة رقيه ومبلغ بعده عن أصوله الاولى . فمنها ما لا يزال جامدا على خصائصه القديمة كاللسان الليتواني ، ومنها ما قطع في طريق

الارتقاء أشواطاً بعيدة كالالسن الاوروبية الحديثة (الالماني ، والفرنسي ، والانكليزي) (١) .

٢ ـ الاسرة الحامية ـ السامية :

وتتألف هذه الاسرة من مجموعتين من الألسن : المجموعة السامية ، والمجموعة الحامية .

أما المجموعة الأولى فاشهر ألسنها العربي ، والآرامي ، والعبري ، والكنعاني ، والأكّدي ، واليمني ، والحبشي . وسنتكلم على هذه المجموعة بشيء من التفصيل فيا بعد ، لانها المجموعة التي ينتمي لساننا العربي إليها .

وأما المجموعة الثانية فأشهر ألسنها المصري القديم ، والقبطي ، والبربري ، والكوشيتي وغيرها .

ومن هذا يظهر أن المنطقة التي تشغلها الأسرة الحامية ـ السامية أصغر كثيراً من المنطقة التي تشغلها الاسرة الهندية ـ الاوروبية . كما أن الناطقين بهذه الاسرة لا يتجاوز عددهم اليوم أكثر من مائة وثلاثين مليوناً من البشر . ولكنها تمتاز بان منطقتها متماسكة الاجزاء لا يتخللها أي عنصر أجنبي ، ويتألف من الناطقين بها مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها في أصول واحدة قريبة ، وتتفق في أساليب الحياة ، ونوع الحضارة والنظم الاجتماعية (١) .

٣ ـ الاسرة الطورانية :

---

١ ـ انظر الوافي : علم اللغة ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤

٢ ـ انظر المرجع نفسه ص ١٨٦

وتضم ما بقي من السن آسيا وأروبا مما لا يدخـــل في الاسرة الهندية ـ الاوروبية أو في الاسرة الحامية ـ السامية .

وأشهر أفرادها اللسان الصيني ، والياباني ، والـتركي ، والمغولي ، وهلم جراً .

وليس بين أفراد هـــذه الاسرة وجوه شبه في المفردات ولا في القواعد . وانما جعلت أسرة من قبيل الاصطلاح وتسهيل الدراسة فقط .

هذا التصنيف الثلاثي لم يلق الرضى التام من علماء اللغـة ، لأنـه ضم في الاسرة الحامية ـ السامية مجموعتـــين من الألسن دلت الدراسات الحديثة على أنه لا نسب يربط بينها أبداً ، ولانه ضم في الاسرة الطورانية ألسناً شديدة التباعد ليس بينها وجه واحـــد من وجوه الشبه ، ولانه أهمل كثيراً من ألسن العالم فلم تدخل فيه ، مثل السن كثير من الشعوب الافريقية ، والاسترالية ، والامريكية .

لهذه الاسباب أدخل المحدثون من علماء اللغة تعديلاً طفيفاً على هذا التصنيف ، ثم اتموه باضافة ما بقي من السن العالم فاصبح على الشكل التالي :

١ ـ الاسرة الهندية ـ الاوروبية .

٢ ـ » السامية .

٣ ـ » الحامية .

٤ ـ » اليابانية .

٥ ـ » الكورية .

٦ ـ لسان الاينو .

٧ ـ الاسرة الصينية ـ التيبتية .

هندي - اوربي

حثي

الحثي

عرف فقط عن طريق نصوص مسمارية ذات صفة طقسية أو تاريخية يمكن تحديد تاريخها بالالف الثاني قبل الميلاد، وقد اكتشفت في شرقي انقرة في آسيا الصغرى .

طوخاري

الطوخاري

هو اليوم ميت ، وتمثله نصوص سابقة للقرن العاشر الميلادي ، وهي في جزء منها ادبية ، وقد اكتشفت في التركستان الصينية، وكانت تحتوي على لهجتين: الاولى شرقية (آ ، او أغنية) والاخرى غربية (ب ، او كونشية)

ألباني

الالباني

لم يتأكد إلا منذ القرن الخامس عشر ، وذلك في شكل مضطرب لكثرة الالفاظ الدخيلة عليه من الاغريقية واللاتينية والتركية والسلافية والايطالية .

أرمني

الأرمني

عرف عن طريق نصوص ادبية منذ القرن الخامس الميلادي ، وتمثله اليوم طائفتان من اللهجات .

هندي إيراني

إيراني

تمثله لساتان أدبيان :

أفستي

هو لسان الاسفار المقدسة للأفستا (دين زرادشت) ويحوي قصائد (الغاثا) التي هي أقدم من الفيدا في الهند .

فارسي قديم

هو لسان النقوش العائدة الى سلالة داريوس (من القرن السادس الى القرن الخامس قبل الميلاد)

لهجة من طائفة اخرى ،

الصدغي

وقد عرف عن طريق نصوص من القرن الاول الى القرن الثامن الميلادي اكتشفت حديثاً في التركستان .

الايراني الوسيط

ويمثله لسان شروح الافستا والفهلوي الذي عرف منذ القرن الثالث الميلادي ثم لهجات ايرانية يتكلم بها اليوم في فارس ، وأفغانستان ، والبامير ، والقوقاز ، الخ .

هندي قديم

يمثله لساتان أدبيان :

سنسكريتي

هو لسان الملاحم الهندوسية ، المهابهاراتا والرامايانا ولسان الادب المسمى بالكلاسي ، اللاحق للقرن الثالث قبل الميلاد

فيدي

لسان الكتب المقدسة ، الفيدا ، التي احتفظت في جزء منها بخصائصها القديمة جداً والتي ترجع على الاقل الى رأس الالف الاول قبل الميلاد

الهندي الوسيط

ويمثله البالي ، وهو لسان الادب البوذي في الجنوب ، ثم الالسنة البراكريتية التي اشتقت منها الالسنة الحديثة للهند ، منها الهندوستاني ، والبنغالي ، والمراتي ، الخ .

من Marouzeau: La Linguistique:

بلطيقي - سلافي

السلافي

يشتمل على مجموعة جنوبية (الصربي، والبلغاري الحديثان) والممثل الرئيسي له هو السلافي القديم ، (اليه ترجم الانجيل في القرن التاسع) وكان اللسان الديني للكنيسة الشرقية ، ومجموعة شرقية يمثلها بصورة رئيسية الروسي الكبير الذي هو اللسان المشترك لروسيا الحديثة، ومجموعة غربية اقدم ما يمثلها التشيكي والبولوني .

البلطيقي

وقد عرف منذ القرن السادس عشر في عدة اشكال : البروسي القديم الذي مات اليوم ، والليتواني ، والليتوني ، وهي ألسنة لا تزال تحتفظ حتى عصرنا الحاضر بخصائصها القديمة جداً .

جرماني

الجرماني الغربي

ويمثله منذ حوالي القرن السابع الانكلو - سكسوني الذي اشتق منه الانكليزي الحديث . الالماني الاعلى القديم ، وهو السلف للألماني بالمعنى المفهوم من الكلمة اي اللسان الادبي لألمانيا الحديثة

النثر لا ندي القديم أو الالماني الأسفل ، الذي هو السلف للفلاماندي الحديث .

الشمالي

او الجرماني الشمالي ، وهو لسان النقوش القديمة المكتوبة باقدم الأبجديات الجرمانية والاسكندنافية . ويمثل هذا اللسان بعد القرن الحادي عشر الاسلندي القديم . ولسان الادا ، والنروجي القديم ، والسويدي ، والدانيمركي ، وهي الالسن التي اشتقت منها الالسن الاسكندنافية الحديثة .

القوطي

والأثر الاساسي له هو ترجمة للكتاب المقدس في القرن الرابع . وقد مات منذ زمن بعيد .

ايطالي - كلتي

الكلتي

وتمثله ثلاث مجموعات من اللهجات :

الغالية (١)

وقد ماتت دون ان تخلف تقريباً اي أثر

البريتونية (٢)

وهي لسان اهل الجزيرة البريطانية الكبرى وقد بقيت في اللسان الغالوي (٣) ولسان البريتون الحديث (٤) .

الغائيلية (٥)

والممثل الرئيسي لها هو الارلندي ، الذي تأكد منذ القرن الثامن .

الايطالي

ويمثله عدد من اللهجات (الاوسكية ، الاومبرية ، الخ) واهم هذه اللهجات اللسان اللاتيني الذي ثبت لساناً ادبياً في القرن الثاني قبل الميلاد، وقد وجد مرتبطاً بالاغريقي بكثير من الروابط التاريخية ، والثقافية ، والادبية ، حتى غدت الدراسة المقارنة لهذين اللسانين على جانب عظيم من الاهمية .

ومن اللاتيني العامي الذي كان يتكلم به في ارجاء الامبراطورية المختلفة نتجت الالسن الرومانية : الايطالي ، الفرنسي ، الاسباني ، البرتغالي ، الروماني ، الخ (٦)

١ - Le gaulois
٢ - Le brittonique
٣ - Le gallois
٤ - Le breton
٥ - Le gaélique
٦ - Le roumain وهو لسان رومانيا

إغريقي

الاغريقي القديم

وهو اللسان الذي كتبت به اشعار هوميروس ، وتمثله في العصر الكلاسي اربع مجموعات من اللهجات : الايونية - الاتيكية ، والايولية ، والاركادية - القبرصية ، والاغريقية الغربية (ولا سيما الدورية) .

الاغريقي الوسيط

وهو اللسان المشترك للعالم البيزنطي حتى القرن السادس عشر . ومنه اشتقت اللهجات المختلفة .

الاغريقي الحديث

٨ ـ الأسرة الاسترالية ـ الآسيوية .

٩ ـ 〃 الدرافيدية .

١٠ ـ 〃 القوقازية الشمالية .

١١ ـ 〃 القوقازية الوسطى .

١٢ ـ 〃 الآسيوية القديمة (منها اللسان السومري) .

١٣ ـ 〃 التركية والمغولية والمنشورية .

١٤ ـ 〃 الفينية .

١٥ ـ لسان الباسك .

١٦ ـ الاسرة الهيبيربورية .

١٧ ـ 〃 الملايوية ـ البولينيزية .

١٨ ـ السن سكان استراليا الأصليين .

١٩ ـ السن سكان امريكا الأصليين .

٢٠ ـ السن السودان وغانة .

٢١ ـ الاسرة البنطوية .

٢٢ ـ السن البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين [١] .

---

١ ـ انظر تفصيل ذلك في كتاب علم اللغة للوافي ، ص ١٨٠ ـ ١٩٧

الساميون والألسن السامية

قبل الدخول في البحث عن الساميين وألسنتهم يجب ان ننبه الى ما يأتي : في نظرية تصنيف الالسن الى أسر افتراضان او دعويان : أولاهما أن الالسن التي من أسرة واحدة قد انحدرت عن لسان واحد هو أب لها جميعاً ، أو هو سلف أعلى لها ، والثانية ان الشعوب الناطقة بألسن أسرة واحدة شعوب يجمع بينها وحدة عنصرية دموية .

وإذا كانت الدعوى الاولى مما لا يمكن إقامة الحجة له او عليه ، لبعد العهد بأصول هـذه الالسن وايغالها في الزمن الى ما قبل التاريخ ، فان الدعوى الثانية قد ظهر فسادها بشواهد من التاريخ كثيرة . فما اكثر الشعوب التي تنطق اليوم بالاسبانية في امريكا اللاتينية وليس بين هـذه الشعوب وبين الاسبان صلة من دم او عرق . وما يقال عن الناطقين بالاسبانية في امريكا يقال مثله عن الناطقين بالفرنسية في إفريقية وعن الناطقين بالانكليزية في أقطار متفرقة من العالم . بل ان الشعب الفرنسي نفسه اوضح مثال على فساد هـذه الدعوى : فهذا الشعب ، كما هو ثابت تاريخياً ، ينحدر عن مجموعتين من القبائل ، هما قبائل الفرنك ، وقبائل الكلت ، ويسكن أرضاً لم تكن لاسلافه ، وهي بلاد الغال ، ثم يتكلم بلسان مشتق من اللسان اللاتيني الذي لا علاقة له ببلاد الغال ولا بقبائل الفرنك .

إن اقامة علاقة ضرورية بين الاصل العنصري لشعب ما وبين اللسان الذي يتكلم به لم تعد من الامور المسلمة لدى علماء اللغة اليوم ، فقد ثبت لهم بشواهد كثيرة لا ترد انه يحدث ان يترك شعب لسانه القومي ويتخذ لنفسه لساناً آخر لاسباب سياسية او اجتماعية او غير ذلك .

كانت هذه المقدمة ضرورية لكيلا يفهم القاريء من كلمة الساميين اننا نتحدث عن أقوام تجمع بينهم وحدة النسب . بل نزيد على ذلك فنقول : إن بعض المؤرخين اليوم يشكك في سامية العبريين ، ويعتقد أنهم طرأوا على المنطقة من مكان مجهول ، ثم اختلطوا باهلها وهجروا لسانهم الذي كان لهم من قبل ، وتكلموا بلسان جيرانهم من الكنعانيين ، ثم تطور هذا اللسان الكنعاني في أفواههم فكان منه ما سمي باللسان العبري .

ونحن ـ وإن كنا لا نميل الى الاخذ بهذا الرأي قبل قيام الحجج الكافية والبراهين القاطعة على صحته ـ فاننا نعرضه ههنا لتأكيد أنه لا صلة لازمة بين الأصل العنصري لشعب من الشعوب وبين اللسان الذي يتكلم به هذا الشعب .

★ ★ ★

وبعد ، فمن الساميون ؟ وما ألسنتهم ؟

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الأمم سكنت منذ غابر الأزمان أجزاء من غرب آسيا وشرق إفريقيا ، هي ، على سبيل الحصر ، الجزيرة العربية ، والشام ، والعراق ، وسيناء ، وبلاد الحبشة .

وأول من اطلق هذه التسمية هو العلامة شلوتسر في ابحاثه وتحقيقاته في تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٨٧١ . وقد أخذها من الجدول الخاص بأنساب نوح عليه السلام الوارد في التوراة (١) ، هذا الجدول الذي ينص

١ ـ سفر التكوين ، الاصحاح العاشر .

على ان سام بن نوح هو اب لكل من الأشوريين والآراميين والعرب والكنعانيين ... الخ . ثم تابعه في ذلك من جاء بعده من علماء اللغة والتاريخ . وعلى الرغم من مآخذ بعضهم على هذه التسمية ، فانها « أصلح وأوفق ما اهتدي إليه العلماء لتسمية كتلة الامم التي كانت تقطن في بلاد آسيا الدنيا ، والتي كونت وحدة دموية ولغوية مستقلة (١) .

اما الألسن السامية فهي جملة الألسن التي تكلمت بها الأمم السامية ، سواء منها ما غبر واندثر كالأكدية والسبئية وغيرهما ، وما لا يزال باقياً حتى اليوم كالعربية والعبرية والسريانية . وهي السن تجمع بينها وجوه كثيرة من الشبه توحي بوحدة الأصل لها جميعاً ، وبأنها كانت في غابر الأزمان لساناً واحداً ، او لهجات متعددة للسان واحد . هذا اللسان السامي الاول المفروض لا نعلم عنه شيئاً ، وكل الجهود التي بذلها العلماء لمعرفة شيء يقيني عنه ذهبت ادراج الرياح ، واقتنعوا اخيراً « ان من العبث إطالة البحث في امر غامض مجهول نشأ ونما في عصور سبقت العصور التاريخية (٢) » .

ولما كانت نظرية الاسر اللغوية تفترض وحدة الاصل العرقي للأمم الناطقة بألسن من اسرة واحدة تساءل العلماء عن الوطن الاصلي لهذا الشعب السامي الاول الذي تفرعت عنه الشعوب السامية . وقد ذهب العلماء في الجواب عن هذا السؤال مذاهب شتى :

فبعضهم يزعم ان المهد الاصلي للساميين انما هو ارض ارمينية بالقرب من حدود كردستان . بل يذهب (نولدكه) الى القول إن هذه المنطقة هي المهد الاصلي للأمم السامية والامم الهندية الاوروبية جميعاً .

---

١ ــ ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ، ص ٣ .

٢ ــ المرجع نفسه ص ٤

اما العلامة (غويدي) فيذهب الى ان جنـــوب العراق على نهر الفرات كان المهد الاول للساميين ، ويبرهن على صحة دعواه بسرد طائفة من الكلمات وجدت في كل الالسن السامية وهي ذات علاقة قوية بطبيعة تلك المنطقة . إلا ان نولدكه يعارضه في هذه النظرية معارضة شديدة ويقول إن من العبث ان نعتمد في اثبات حقيقة كهذه على جملة كلمات ليس ما يثبت لنا ان جميع الساميين أخذوها عن أهل العراق ، ثم يذهب في تأييد معارضته الى سرد بعض كلمات عن الحيوان والعمران كانت ولا شك عند جميع الأمم السامية من أقدم الازمنة مثل جبل وصبي وخيمة وشيخ واسود وضرب ، فهـــذه المعاني تختلف تسميتها ، فكل لسان سامي منها يسميها باسم يغاير الاسم الذي يطلقه عليه اللسان الآخر ، مع انهـا أجدر المعاني بان يكون لها لفظ مشترك في كل الالسن الساميـــة لأنها كانت موجودة عند الجميع حين كانوا أمة واحدة وحين تفرقوا أمماً شتى [1] .

ويزعم بعضهم ان بلاد الحبشة هي الموطن الاول للساميين ، كما يزعم غيرهم ان هذا الموطن كان بلاد اليمن او القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب .

غير ان أرجح الأقوال ، والذي يكاد الاجماع ينعقد عليه من اكثر المحققين هو ان جزيرة العرب ـ من غير تحديد لمنطقة من مناطقها ـ كانت الموطن الأصلي لكل الشعوب السامية . ويستدلون على ذلك بأمور منهـا ان التاريخ القديم قد صرح بخروج كثير من الامم السامية من هـــذه الجزيرة مثل الأكديين والآراميين والكنعانيين وغيرهم ، ومنها ان جميع الامم السامية تغلب عليها صفات البداوة ، والأخلاق والطبائع الصحراوية ، ولا تفسير لذلك إلا أن تكون هذه الامم قد عاشت ادوار حياتها الاولى في منطقة صحراوية ، وهذه المنطقة هي جزيرة العرب لا غيرها . ويذهب

---

١ ـ المرجع نفسه ص ٥

بعض أصحاب هذا الرأي الى ان جميع الامم السامية هم من العرب ، وأنهم خرجوا من جزيرتهم الى ما يجاورهم من البـــلاد في شكل موجات بشرية بين كل واحدة وواحدة ما يقرب من ألف سنة ، وان أول هذه الموجات كانت موجة الأكـديين ، وان آخرها كانت موجة العرب المسلمين .

وإليك الآن موجزاً لتاريخ الأمم السامية وألسنتها :

١ ـ الاكديون ولسانهم :

هكذا يسميهم علماء اللغـة ناسبين إياهم الى المنطقة التي سكنوها في جنوب العراق والتي عرفت باسم (اكـد) ، او الى لسانهم السامي الذي كانوا يتكلمونه والذي سمـــوه هم باللسان الأكـدي كما تظهر ذلك بعض النقوش المسمارية . ويسميهم آخرون بالبابليـــين نسبة الى بابل الـتي بنوها وجعلوها عاصمة لهم . كما يسميهم آخرون بالكلدانيين نسبة الى احدى الاسر الـتي حكمت بابل خلال تاريخها الطـــويل . وهناك من يطلق عليهم اسم البابليين ـ الاشوريين جامعين تحت هـذا الاسم كل القبائل الساميـة التي سكنت العراق اثر الموجة السامية الاولى . فأما البابليون فهم سكان بابل والجنوب ، وأما الأشوريون فهم سكان آشور في الشمال .

هؤلاء القوم ، على اختلاف الاسماء التي ذكرناهـا لهم ، هم قبائل سامية خرجت من الجزيرة العربية ، أو من ناحيـة سورية ـ على خلاف في ذلك ـ الى العراق فأقامت فيه . وكان ذلك حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد .

فأما الجنوبيون منهم فقد أسسوا مملكتهم في جنوبي العراق ، ومن أشهر ملوكهم ، وهو سركون الاول (حوالي ٢٨٠٠ قبل الميلاد) عاصمة باب إل (بابل) أي باب الله التي غدت أشهر مدينة في العالم القـديم .

وامتد نفوذ هذه الدولة حتى شمل كل العراق وسورية وفلسطين ، ووصل الى البحر الابيض المتوسط ، وانتقل الى جزيرة قبرص .

ولم تكن منطقة جنوب العراق خالية من السكان قبل مجيء الساميين اليها ، بل كان فيها شعب يسمى الشعب الشومري نسبة الى شومر ، وهي المنطقة الجنوبية من العراق المسايفة للخليج العربي . وهذا الشعب الشومري المقهور لا يعرف عنه العلماء شيئاً : فهو ليس سامياً ولا هندياً ـ اوروبياً وتاريخ هجرته الى هذه المنطقة مجهول ، كما ان لسانـه لايدخل في احدى الاسر اللغوية المعروفة ، لذلك ضمه علماء اللغة الى اسرة الالسن الاسيوية القديمة ، كما ذكرنا سابقاً .

غير ان العلماء عرفوا جوانب اخرى من حياة هذا الشعب الغامض ، فقد ظهر لهم من النقوش المسمارية التي بقيت لنا منه أنه كان ذا حضـارة راقية في الحساب والفلك والتشريع لا تقل عن حضارة قدماء المصريين المعاصرين له ، وان هذه الحضارة كانت الاساس الذي بنى عليه الساميون الوافدون حضارتهم الخاصة .

لم ينقرض الشومريون بمجيء الساميين الى العراق ، بل ترك لهم البابليون الفاتحون منطقة شومر سكناً لهم ، وهي منطقة تمتد من جنوب مدينة بابل الى الخليج العربي ، وفي فترات ضعف البابليين كان نفـــوذ هؤلاء الشومريين يقـــوي ، بل انهم استولوا على بابل نفسها في بعض الاحيان ومدوا نفوذهم حتى الشمال .

هذا ما جرى للساميين في الجنوب ، اما في الشمال فقد اسست قبائلهم مملكة كانت عاصمتها آشور ، وهي بلدة صغيرة تقع في المنطقـــة المسماة باسمها ، والمحصورة بين نهري الزاب الصغير والزاب الكبـــير ، ثم انتقلت

العاصمة الى مدينة كالاح حوالي سنة ١٢٩٠ قبل الميلاد الى ان جاء الملك سركون الآشوري فجعل العاصمة مدينة نينوى التي صارت ذات مكانة عظيمة وشهرة كبيرة .

كانت أشور أول عهدها خاضعة لحكم بابل أو لنفوذها الديني والفكري على الاقل ، وفي عهد ملكها شلمنأسر الاول (حوالي ١٣٠٠ ق . م) استقلت ثم اصبحت المنافس الخطير لبابل ، بل لقد نشبت حروب طاحنة بين المملكتين الاختين دامت مدة الف سنة وانتهت بنصر بابل وخراب مدينة نينوى العظيمة .

★ ★ ★

معلوماتنا عن اللسان الاكدي قليلة جداً اذا ما قورنت بما نعرفه عن ألسن سامية اخرى كالعربي مثلا . وذلك لأن المادة اللغوية التي وصلتنا لهذا اللسان عن طريق النقوش المسمارية قليلة جداً ، فهذه النقوش على كثرة ما اكتشف منها حتى الآن ، ضئيلة المادة بسبب تشابه الموضوعات التي طرقتها . يضاف الى ذلك ان الخط المسماري الذي استعير من اللسان الشومري لكتابة اللسان الاكدي قد اخفى كثيراً من المعالم الصوتية لهذا اللسان الاخير . ومع ذلك يمكننا أن نوجز ما نعرفه عن اللسان الاكدي فيما يأتي :

آ ـ ظل اللسان الاكدي بعيداً عن ميادين الثقافة زمناً طويلاً بعد توغل الاكديين في العراق . وفي اثناء ذلك كان اللسان الشومري هو لسان الثقافة والدين والعلم للشومريين والاكديين على السواء .

ب ـ بعد ان رسخت اقدام الاكديين في العراق ، وشعروا بالعزة في كل ما يتعلق بأمورهم بدأوا يكتبون لسانهم السامي البابلي

بالخط الشومري المسماري . وقد مر هذا الخط في مرحلتين : مرحلة تصويرية كانت فيها العلامة تعني فكرة ، ومرحلة صوتية كانت فيها العلامة تعني مقطعاً صوتياً من مقاطع الكلمة . وعلى الرغم من صعوبة هذا الخط وشدة تعقيده كتب له من الذيوع والانتشار في العصور القديمة مالم يكتب مثله الا للخط اللاتيني والعربي في العصور الحديثة . فقد ظل مستعملاً آلاف السنين عند امم مختلفة منها قبائل عيلم والفرس وارمنيا وفلسطين ، حتى ان فرعون مصر آمون حوطف الرابع كان يراسل امراء فلسطين بهذا الخط ، كما ان اللسان الاكدي ظل يكتب به نحو ثلاثة آلاف سنة على اقل تقدير ، أي الى نحو قرن واحد قبل الميلاد حين اخذ هذا الخط يتوارى عن العيون (١) .

ج ـ تبين من فحص الخط المسماري ان ابجديته لا تحتوي الا على ثمانية عشر حرفاً فقط وهي : ا ـ ب ـ ج ـ د ـ ز ـ ح ـ ط ـ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ س ـ ب ـ ص ـ ق ـ ر ـ ش ـ ت .

أما حروف التضخيم كالطاء والظاء والضاد ، وحروف الحلق كالحاء والعين والغين والهاء ، وهي الحروف التي تعتبر من ابرز خصائص الالسن السامية فلا أثر لها في الابجدية المسمارية .

وهنا يبرز سؤال خطير : هل فقد الاكديون هذه الاصوات السامية بسبب اختلاطهم بالشومريين والتواء السنتهم برطانتهم ؟ أم ان الخط المسماري الذي صنع اول امره ليعبر عن اصوات اللسان الشومري كان اضيق من أن يتسع لأصوات اللسان الاكدي ، فظل الاكديون محافظين

---

١ ـ المرجع نفسه ص ٣٤

على اصوات لسانهم وان كان الخط يضيق عن تمثيل هذه الاصوات ؟
أكثر العلماء يميلون الى ترجيح الامر الثاني (٢)

د ـ ظل اللسان الاكدي في صراع عنيف مع اللسان الشومري مدة طويلة من الزمن . وكان لذلك اثر واضح في انحرافه بصورة محسوسة عن أصله السامي ، ومع ذلك ظل محتفظاً بألفاظ سامية قديمة كثيرة لم يحتفظ بها اللسان العربي . مثل alpo (= بقرة) و pamati (= مكان مرتفع) و quaqudu (= جمجمة) .. وغير ذلك .

هـ ـ ظل اللسان الاكدي محتفظاً ببعض مظاهر الاعراب الذي يعتقد انه كان من خصائص اللسان السامي الاول ، والذي تخلصت منه الالسن السامية ما عدا العربية الفصحى . وحركات الاعراب في الاكدي اثنتان فقط هي الضمة والكسرة .

و ـ يكتب الخط المسماري باتجاه مخالف لبقية الخطوط السامية ، أي من الشمال الى اليمين .

هـ ـ أبرز آثار اللسان الاكدي في الالسن السامية الاخرى هو اسماء اشهر السنة الاثنى عشر :

Nissanu	نيسّانو	نيسان
Iyaru	ايّرو	أيار
Simanu	سيمانو	حزيران
Duzu	دوزو	تموز
Abu	آبو	آب

---

٢ ـ انظر المرجع نفسه ص ٣٩

Ululu	أولولو	ايلول
Tisritu	تشريتو	تشرين الاول
Arah samna	أرح سمنا	تشرين الثاني
Kislimu	كيسليمو	كانون الاول
Tebtu	طبتو	كانون الثاني
Sabatu	شباطو	شباط
Addaru	أدّارو	آذار (١)

٢ ـ الكنعانيون ولسانهم

هم قبائل سامية يغلب الاعتقاد انها خرجت من الجزيرة العربية نحو سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد واستوطنت بلاد الشام التي لايشير التاريخ الى انها كانت مسكونة بأحد قبل وصول الكنعانيين اليها . ومع ذلك فان المؤرخين يميلون الي الظن بأن اقواماً مجهولين كانوا يسكنون هذه المنطقة، لانه لا يعقل ان تكون الشام خالية من السكان قبل الكنعانين وهي الطريق التجارية الوحيدة بين العراق شرقاً ومصر غرباً والاناضول شمالاً . ومهما يكن فليس هناك ما يؤكد ان البلاد الشامية المشهورة مثل صيدا وصور وحيفا والقدس كانت موجودة قبل الغزو الكنعاني .

أسس الكنعانيون مجموعتين من الممالك في الشام : مجموعة داخلية انقرضت سريعاً بوصول العنصر الآرامي والاسرائيلي ، ومجموعة ساحلية ظلت تقاوم حتى القرن الاول الميلادي ، كما أسسوا مستعمرات لهم في في الخارج كان من اشهرها : مملكة قَرْت حَدَشْ (قرطاجنة)

---

١ ــ راجع الباب الثاني من كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون حيث ترى تفاصيل أخرى عن اللسان الاكدي ، ونماذج من النقوش المسمارية .

(= القرية الحديثة) في شمال افريقيا .

تميز الكنعانيون عن سائر اخوتهم من الساميين بروحهم العملي ، وبعدهم عن التفكير الطويل بغير المحسوس . وانصب جل اهتمامهم على الزراعة والتجارة ، بل ان (ارواد ، وجبال ، وصيدا ، وصور) كانت في واقعها ممالك تجارية بالدرجة الاولى ، شديدة الشبه بالجمهوريات التجارية الايطالية التي تأسست بعد ذلك بمدة طويلة في مدن جنوى والبندقية وغيرهما .

★ ★ ★

معلوماتنا عن اللسان الكنعاني قليلة جداً . وذلك بسبب قلة النصوص التي خلفها الكنعانيون . اذ كان هذا الشعب قليل الاهتمام بتدوين حضارته على عكس اشقائه من الساميين . وعلى الرغم من ان قرت حدش(بالقرب من تونس الحالية) تعد أغنى المناطق بالآثار الكنعانية ، فان اقدم نقش عثر عليه فيها لا يعود الى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد . أما اقدم نقش كنعاني كشف في شمال سورية فيعود الى القرن التاسع قبل الميلاد .

على ان كل آثار اللسان الكنعاني ، سواء ما وجد منها في وطنهم ، وما وجد في مستعمراتهم ، تدل على عظم قرب هذا اللسان من اللسان العبري ، وهذا ما ساق بعض العلماء الى الاعتقاد بان العبري ليس إلا لهجة من لهجات الكنعاني ، او ان العبري والكنعاني لسان واحد لا اثنان .

وعلى كل حال ، فان اعظم ما قدمه الكنعانيون الى العالم هي ابجديتهم الصوتية الهجائية التي مثلت كل صوت من اصوات اللغة بعلامة خاصة ، والتي غدت اساساً لجميع ابجديات العالم المتمدن في الشرق والغرب . واقدم

شكل لهذه الابجدية عثر عليه حتى الآن ، هو ما كشف في سنة ١٩٢٦ في رأس شمراء على بعد بضعة كيلو مترات شمال مدينة اللاذقية على الساحل السوري .

ويرتد تاريخ هذه الابجدية الاوغاريتية (نسبة الى المدينة الكنعانية القديمة التي جرى التنقيب في خرائبها) الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد (١) .

٣ ـ العبريون ولسانهم :

يراد بالعبريين جملة الشعوب التي ترقى بأنسابها الى ابراهيم الخليل عليه السلام وهي : بنو يعقوب ، وبنو اسماعيل ، وبنو مدين ، والعمالقة ، وآل آدوم ، واهل موآب وعمون . أما اذا أطلقت كلمة العبريين فلا تنصرف الا الى ابناء يعقوب وحدهم ، أي بني اسرائيل .

وقد اختلف العلماء في معنى كلمة عبري : فمن ذاهب الى انها لقب كان لابراهيم الخليل بعد ان عبر النهر ، ومن قائل انها نسبة ابراهيم الى أحد اجداده الذي عرف باسم عبر (٢) . لكن الاقرب الى المعقول ماذهب اليه اسرائيل ولفنسون (٣) من ان الكلمة كما يدل عليها اشتقاقها في اللسانين العبري والعربي تدل على الرحلة والتنقل ، وانها اطلقت على العبريين لانهم كانوا بدواً لا يستقرون في مكان ، وانهم لما استوطنوا ارض كنعان (فلسطين) ، وعرفوا المدنية والحضارة صاروا ينفرون من كلمة

---

١ ـ للتوسع انظر الباب الثالث من المرجع السابق
٢ ـ سفر التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٥
٣ ـ تاريخ اللغات السامية ص ٧٧ ـ ٧٨

عبري التي تذكرهم بحياتهم الاولى ، حياة البداوة والخشونة ، واصبحوا يؤثرون أن يعرفوا باسم بني اسرائيل فقط .

كانت القبائل العبرية تتجول في صحراء سيناء وشمال الحجاز ، ومن هذه القبائل نجم بنو اسرائيل ، ثم استولوا على فلسطين حوالي نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

ويقسم تاريخ بني اسرائيل الى طورين : طور ما قبل السبي ، وطور ما بعده . ويتألف الطور الاول من عصرين : عصر القضاة ، وعصر الملوك . فأما الاول فكان فيه بنو اسرائيل بداة ،وكانت السلطة في أيدي زعماء القبائل ، وقد انتهى هذا العصر في سنة ١٠٤٠ ق . م . واما الثاني ففيه وحد بنو اسرائيل قبائلهم في دولة واحدة كان أول ملوكها شاؤل ، كما اشتهر منهم داود وابنه سليمان . وينتهي هذا العصر بسنة ٥٨٦ ق . م ، وهي السنة التي هاجم فيها بختنصر البابلي فلسطين وخربها وسبى من بقي من بني اسرائيل حياً واجلاهم الى بابل . وفي هذا العصر دونت أغلب اسفار الكتاب المقدس .

وفي طور ما بعد السبي حاول بنو اسرائيل استعادة ملكهم في فلسطين فاخفقوا أول الامر ، ثم نجحوا بتأسيس دولة المكابيين التي حكمت من سنة ١٤٠ - ٣٦ ق . م حين جاء الفتح الروماني . وفي هذا الطور كملت اسفار العهد القديم ، واعتبر ماالف بعده تأليفاً عادياً لاعلاقة له بالالهام الديني .

وبعد هذا التاريخ لم يعد يسمع عن بني اسرائيل شيء باعتبارهم شعباً ذا قومية وسمات خاصة ، والظاهر انهم انقرضوا كما انقرض ابناء عمومتهم من العمالقة والموآبيين والمديـنيين وغيرهم ، إما بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تجري في أراضيهم بين دول الشرق والغرب ، واما بسبب

امتزاجهم وذوبانهم في الشعوب المجـــاورة ، ولا سيما الآراميين وهـــذا هو الارجح .

أما اليهود في العالم اليوم فليسوا بني اسرائيل الذين تفرقوا في البلاد بعد الفتح الروماني كما تدعي النظرية الصهيونية ، وانما هم امشاج من امم شتى تهودت في أزمان مختلفة من التاريخ .

★ ★ ★

اللسان العبري ـ كما تقدم القول ـ شديد الشبه باللسان الكنعاني ، بل انه في الازمنة القديمة لم يكن يعرف بهـذا الاسم ، فصحف العهـد القديم تسميه مرة باللسان اليهودي (١) واخرى باللسان الكنعاني (٢) ، ولم يعرف باللسان العبري أو اللسان المقدس الا بعد السبي البابلي في كتاب حكم بن سيرا ، وفي مصنفات المؤرخ اليهـــودي يوسف ، وفي المشنا والتلمود (٣) .

هذا ، ووجوه الشبه بين العبري والعربي اكثر منها بين هـــذا الاخير وبين أي لسان سامي آخر . فكثير من قواعـد النحو والصرف ومن المفردات هي هي في كلا اللسانين .

مر اللسان العبري في أطوار كثيرة بدلت كثيراً من سماته وخصائصه: ففي الفترة التي سبقت السبي البابلي تميز بالنقاء التام تقريباً من كل المؤثرات الآرامية ، أما بعد السبي واحتكاك العبريين بالفرس والبابليين والآراميـين واليونان والرومان فقد خضع لتطورات عنيفة ، واحتشد بطائفة كبيرة من الالفاظ التي دخلته من ألسن تلك الامم ، وزاد الطين بلة ان العبريـين

---

١ ـ ملوك ج ٢ إصحاح ٨ آية ٢٦ . واشعيا ، إصحاح ٣٦ آية ١١

٢ ـ أشعيا إصحاح ١٩ آية ٢٠

٣ ـ ولفنسون : المرجـع السابق ، ص ٧٨

بعد سراحهم من السبي اختلطوا بالآراميين واتخـذوا من اللسان الآرامي لسان مخاطبة لهم بدلاً من لسانهم الخاص ، فكان لهذا الواقع اللغـــوي أثر بارز في اللسان العبري .

وفي العصور الاسلاميـــة تمتع اليهود في مصر والاندلس بحرية لم تكن لهم تحت الحكم المسيحي ، فنما الادب العبري وازدهر متأثراً بالادب العربي شعراً ونثراً ، وكان لهذا أثر بالغ في اللسان العبري .

اما عبرية اليهود الآن في اوروبا فتختلف اختلافاً بيناً عن العبرية القديمة ، سواء في ذلك القواعد والمفردات والاصوات . وذلك بسبب من تأثيرات لغوية محلية .

★ ★ ★

كتبت العبرية بخطين : خط قديم مشتق من الخط الكنعاني ، كان يسمى بالخط العبري ، وظل مستعملاً حتى السبي البابلي ، ثم خط حديث يشبه الخط الآرامي اتخذه العبريون بعد السبي . وعرف عندهم بعد ان ارتقى بالخط المربع ، أو الخط الآشوري . وهو المستعمل حتى اليوم .

« وكان اليهود قديماً ـ كجميع الامم السابقـة ـ لا يكتبون الحركات المعروفة الآن ، بل كانت لديهم حروف مجردة من الحركات ، ثم اخذوا يستعملون بعض الحروف كعلامات للحركات تساعدهم على ضبط النطق وحفظ الكلمات من التحريف . وكانت الالف والهاء والواو والياء هي التي تقوم بهذه الوظيفة . فجرّ ذلك الى حـدوث تغيير في هجـــاء الكلمات وزيادة في حروفها باعدت بينها وبين اصل اشتقاقها .

« ... ثم اصبحت هذه الحروف لا تكفي لضبط النطـق في كل

الكلمات ، وخشي اليهود ان تنقرض لغتهم بسبب ذلك فاخترعوا نظام الحركات .

« وقد كان في القرن الخامس والسادس بعد الميلاد جملة نظم كاملة لهذه الحركات ، ولكن الذي اشتهر منها نظامان اثنان ، عرف الأول منها بالنظام العراقي ، وعرف الثاني بالنظام الطبري ، نسبة الى مدينة طبرية بفلسطين . وهو المألوف الى الآن » (١)

٤ ـ الآراميون ولسانهم :

هم قبائل سامية هاجرت من الجزيرة العربية الى نواحي بلاد الشام حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد . أي بعد الف سنة من هجرة الكنعانيين الذين سبقوهم .

« وكما ان اسباب هجرة الارهاط الآشورية والبابلية والكنعانية من بلاد الجزيرة العربية لا تزال مجهولة الى الآن ، كذلك لانعلم شيئاً من تلك الاسباب التي حملت القبائل الآرامية المتوحشة على الخروج من بلادهم المقفرة » (٢) .

ولم يكن الفتح الآرامي اجتياحاً بقدر ما كان تسللاً بطيئاً جداً استمر في مدى قرون طويلة . ولكنه استطاع آخر الامر ، ورغم المقاومة المنيفة التي لقيها من الآشوريين والكنعانيين وبني اسرائيل ـ استطاع ان يسيطر سيطرة تامة على كل المنطقة ، وان يطبعها بطابعه الخاص ، سواء من الناحية اللغوية ، أو من الناحية العنصرية ، وغدا اللسان الآرامي

---

١ ـ ولفنسون : المرجع السابق ، ص ١٠٣

٢ ـ المرجع نفسه ، ص ١١٥

لسان الادب والفكر لكل سكان العراق والشام وجزء من الاناضول لمدة قرون .

★ ★ ★

كان لانتشار الآراميين في بقعة شاسعة من الارض أثر في انقسام اللسان الآرامي الى عدد من اللهجات قسمها المستشرقون الى كتلتين : تشتمل اولاهما على لهجات بلاد العراق الجنوبية والشمالية ، وتعرف بالآرامية الشرقية ، وتشتمل ثانيتها على اللهجات الآرامية في الشام وسيناء ، وتعرف بالآرامية الغربية :

آ - التدمرية :

التدمريون بطون من القبائل الآرامية تميزت بقوة الشكيمة واستطاعت أن تؤسس لنفسها في تدمر دولة قوية ذات نظام جمهوري شبيه بنظام الجمهوريات الاغريقية . وقد بلغت هذه الدولة اوج مجدها بين سنتي ١٣٠ - ٢٧٣ بعد الميلاد . حتى صارت بعد ذلك في ايام اذينة وزوجته زنوبيا ذات شهرة وقوة كبيرة اشاعت القلق في نفس روما .

كان التدمريون يلهجون بلهجة آرامية فيها تأثيرات عربية كثيرة تتمثل في الاعلام خاصة ، اذ كثيراً ما نجد في نقوشهم اعلاماً عربية مثل : زبيد، ومقيم ، واذينة ، ووهب اللاة .. الخ .

ب - النبطية :

اختلف العلماء في نسب النبط ، أعربي هو أم آرامي ؟

قال بعضهم : هم آراميون ، بدليل اتخاذهم الآرامية لغة لهم في نقوشهم .

وقال آخرون : هم عرب بدليل أعلام رجالهم وأصنامهم ، مثل : العزى ، وشيع القوم ، واللات ، وأمة اللات ، وأذينة ، واسد ، وأوس ، وعبدة ، وأوس الله ، ويرغوث ، وبكر ، وحنظل ، ورجب وعمرو ، وعمر، وعميرة ، وعدي ، والطم ، وكعب، ومعن ، وجذيمة، ووهب .. وهلم جراً . أما آرامية نقوشهم فتفسيرها أنهم اتخذوا الآرامية لسان كتابة وأدب على حين كانت العربية لسانهم القومي المستعمل في التخاطب .

ويؤيد هؤلاء رأيهم بدليل آخر ، وهو ان النبط (ويسميهم العرب بالانباط والنبيط ايضاً) انتشروا في بلاد عربية حتى عرفت مملكتهم في سيناء باسم بترا العربية (Arabea petraea)

ويحاول ولفنسون التوفيق بين الرأيين فيقول : (١)

« نحن لا نطمئن الى هذين الرأيين ، لأننا لا نستطيع ان نعتقد أو نرجح أن جميع النبط كانوا عرباً خلصاً أو آراميين صرفاً .

« فلا شك ان هناك عناصر نبطية آرامية اصلية ، كما أن هناك عناصر نبطية عربية . ويظهر ان ارهاط النبط الفاتحين كانوا من الآراميين، ثم بعد استقرارهم في طور سينا اختلطوا بالعرب ، فظهرت هناك طبقتان : واحدة آرامية اصلية ، واخرى عربية كثرت عناصرها الى ان تغلبت بالتدرج على العناصر الآرامية ومحتها محواً تاماً ، وبقيت لغة الحضارة هي اللغة الآرامية التي كانت في تلك العصور لغة العمران عند جميع امم الشرق الادنى » .

---

١ ــ المرجع نفسه ، ص ٣٥

واذا رجعنا الى العرب لنعلم رأيهم في الموضوع لم نظفر بشيء حاسم قاطع . فكل الاخبار تشعر بان العرب كانوا ينظرون الى النبط على أنهم أعاجم لا عرب . وبيت أبي العلاء واضح الدلالة على ذلك :

أين امرؤ القيس والعذارى   اذ مال من تحته الغبيط
إستنبط العُرْب في الموامي(١)   بعدك واستعرب النبيط

غير أن هذه الاخبار نفسها توضح ان اختلاف لهجة النبط عن العربية الفصحى لم يكن اكثر من اختلاف أي لهجة عربية اخرى عنها، فالجاحظ يحدثنا ان النبطي « يجعل الزاي سيناً ، فاذا اراد ان يقول : زورق ، قال : سورق ،ويجعل العين همزة ، فاذا أراد ان يقول : مشمعل ، قال مشمئل .. وقيل للنبطي : لِمَ ابتعتَ هذه الاتان ؟ قال : اركبها وتلَد لي . فقد جاء بالمعنى بعينه ، ولم يبدل الحروف بغيرها ، ولا زاد فيها ولا نقص ، ولكنه فتح المكسور حين قال : تلَد لي ، ولم يقل : تلِد لي (٢) .. »

مهما يكن من أمر جنس النبط فالذي لا شك فيه ان النقوش النبطية التي كشفت في ناحية العلى بالحجاز ، وفي بترا بسيناء ، وفي منطقة بصرى بالشام والتي يرتد اقدمها الى سنة ٣٣ ق . م ، واحدثها الى ما بعد زوال الدولة النبطية في سنة ١٠٦ ب . م - نقول ان كل هذه النقوش قد كتبت بلسان آرامي لا يمت الى العربية بصلة .

* * *

كانت التدمرية والنبطية من اللهجات الآرامية الغربية . أما اللهجات

---

١ - الموامي : جمع موماة ، وهي الفلاة .

٢ - البيان والتبيين ج ١ ، ص ٦٧ . ط مصر

الآرامية الشرقية فهي ثلاث :

آ - اللهجة الآرامية اليهودية :

وكان يستعملها اليهود في جنوب العراق ، في بابل ونواحيها .

ب - اللهجة الآرامية في شمال العراق :

ومركزها مدينة حران . وقد اخذت هذه اللهجة تتدهور وتنهزم امام العربية الى أن انقرضت في القرن التاسع بعد الميلاد .

ﻫ - اللهجة السريانية :

وكان مركزها في مدينة أودسا (واسمها بالسريانية أورهى ،وعرفت عند العرب باسم الرهاء ، واسمها اليوم أورفا) . والسريانيـة اسم أطلقه الاغريق على الآراميين ، وقدرحب الآراميون المسيحيون بهذا الاسم ، وفضلوا ان يعرفوا به بدلاً من اسمهم الاول الذي كان يذكرهم بأيام وثنيتهم .

هذا ولا تزال السريانية حية حتى اليوم على شفاه عدد قليل من سكان سوريا ولا سيما في قرية معلولا القريبة من دمشق .

٥ - الجمزيون ولسانهم :

منذ أزمان بعيدة لا يمكن تحديدها نزحت قبائل سامية من بلاد اليمن الى الحبشة واسست لها ملـكاً عاصمته مدينة أقسوم التاريخيـــة دام حتى سنة ١٢٧٠ بعد الميلاد .

كانت هذه القبائل تسمى بالجمزية - ومعنى اسمهم الاحرار - وكانت تتـكلم بلسان سامي شديد الشبه باللسان السبئي ، حتى إن بعض المستشرقين عد اللسانين لساناً واحداً .

★ ★ ★

اللسان الجعزي إذن لسان سامي . وقد لاحظ المستشرقون أنه حافظ على عناصر سامية قديمة لم يبق لها اثر في جميع الالسن السامية الأخرى ، ولا سيما في الاساليب ، فانها في اللسان الجعزي قديمة في تراكيبها ونظامها . كذلك هناك اشياء اخرى تدل على ان الجعزية حافظت على اقدم الصور السامية في حين قد اضاعها غيرها فمن ذلك عدم وجود تمييز بين المذكر والمؤنث في الاسماء .. كما تنقص الجعزية اداة التعريف (١).

٦ - الاحاريون ولسانهم :

في حوالي القرن الحادي عشر للميلاد ظهر في الحبشة عنصر جديد أمكنه أن يتغلب على دولة أقسوم الجعزية في سنة ١٢٧٠ ، وكون لنفسه مملكة جديدة على انقاض الحكم الغابر تحت اسرة تدّعي نسباً يرقى الى الملك سليمان وملكة سبأ .

كانت هذه الأمة الجديدة تسمى بالاحارية ، وعرفت اسرتها الحاكمة بالسليمانية ، وهي الاسرة التي لا تزال تحكم الحبشة حتى اليوم .

★ ★ ★

اللسان الاحاري من الالسن السامية ، لكن الصبغة الحامية فيه قوية جداً . وقد بقي هذا اللسان بعيداً عن ميدان الثقافة والفكر الذي ظل اللسان الجعزي يحتله مدة طويلة بعد حكم الاحاريين ، ثم استطاع ان يتغلب على هذا الاخير ويحتل مكانه حتى بات هو اللسان الغالب اليوم في الحبشة ، وبه تحرر اليوم صحفها ، وهو اللسان الرسمي

---

١ ـ ولفنسون : المرجع السابق . ص ٢٦٢

للدولة . اما الجعزية فقد توارت وانهزمت وغدت مجهولة حتى بين رجال وعلماء الحبشان .

★ ★ ★

وفي الحبشة اليوم ، الى جانب الامحارية ، لهجات بعضها مشتق من الجعزية القديمة ، وبعضها لهجات من الامحارية نفسها .

فمن لهجات الجعزية اثنتان تسمى اولاهما باللسان التيجري ، وتسمى الثانية باللسان التجرائي . وأهالي هذين اللسانين من المسلمين وكان انتشار الاسلام بين اهالي هذين اللسانين سبباً في مقاومتها للسان الامحاري المسيحي مقاومة شديدة . وقد سادت الامحارية ، او كادت ، جميع مناطق الحبشة إلا منطقة أقسوم ، موطن التيجري والتجرائي ، فلا تزال فيه عاجزة كل العجز .

ومن لهجات الامحارية لهجة أهل مدينة هرر التي يبدو فيها التأثير العربي واضحاً بسبب اسلام اهلها ، ثم لهجة اهل جافات ، وقبائل ارجوبا .

٧ ـ العرب ولسانهم :

العرب هم سكان شبه الجزيرة المعروف باسمهم . ولا نعلم الزمن الذي سكن فيه العرب شبه الجزيرة هذا ، والظاهر انهم كانوا سكانه الاصليين منذ عصور ما قبل التاريخ .

وتطلق كلمة (عرب) على جميع سكان الجزيرة ، سواء الحاضر منهم والبادي ، خلافاً لولفنسون الذي يرى ان الكلمة لم تكن تطلق إلا على البادين وحدهم ، وان أهل الحضر كانوا ينسبون الى قبائلهم أو

أمصارهم ، أو مناطقهم . (١) والذي حمل هـذا المستشرق اليهودي على هذا الظن وجود شبه بين كلمة (عرب) وكلمة (عبر) الــتي تدل على التنقل في العربية والعبرية معاً . ودليلنا على ما ذهبنا اليه أن العرب كلهم لم يكونوا يخصون كلمة (عرب) بقوم منهم دون قوم ، فاذا أرادوا التفريق بين ساكن البادية وساكن الحاضرة قالوا : اعرابي وعربي ، وفوق هـذا ، نجد اقدم المؤرخين من الاجانب لا يعرفون سكان أمصار الجزيرة العربيـة إلا بأنهم عرب ، فشيخ المؤرخين هيرودوت الذي عاش فيما بين ٤٩٠ ـ ٤٢٤ ق . م يسمي اليمن بلاد العرب ، فيقول : وبلاد العرب في نهاية المعمورة الجنوبية . وفيها وحدها يوجد اللبان والمر والدارصيني واللاذن . ويكابد العرب الشدائد في جني هذه النباتات ... ويقول سترابو الروماني : وفي الجنوب تبتدىء بلاد العرب السعيدة ... (٢)

فلو كان الأمر على ما ذهب اليه ولفنسون لما سمى هذان المؤرخان أهل اليمن بالعرب ، وهم كما نعرف ، سكان مدن وامصار ، واهـــل زراعة وصناعة ، لا بدو رعاة متنقلون .

★ ★ ★

ينقسم اللسان العربي الى عدد من اللهجات ، بعضها عاش في الجنوب وبعضها الآخر عاش في الشمال ، وبعضها باد واندثر ، وبعضهـا لا يزال حياً حتى اليوم .

وقد اختلف المستشرقون في أمر قسمة هذه اللهجات ، فأكثرهم يعتمد القسمة الجغرافية الى شمالية وجنوبية ، وبعضهم يفضـــل القسمة

---

١ ـ تاريخ اللغات السامية ص ١٦٤ ـ ١٦٦ .

٢ ـ المرجع نفسه ص ، ٢٣٣ ـ ٢٣٦

التاريخية الى بائدة وباقية . والذي نراه ان كلتا القسمتين صالحة ، فكل هذه لهجات عربية لسان عربي واحد . ولا داعي لخلاف حول ترتيبها لا طائل تحته .

واليك عرضاً لأهم هذه اللهجات مع تاريخ موجز للناطقين بها :

آ ـ اللهجة الثمودية :

ثمود قوم من العرب ذكرهم القرآن الكريم ، وذكر مساكنهم التي حل بها الدمار بسبب كفرهم وعنادهم .

والمعلومات التاريخية عن هؤلاء القوم قليلة جداً ، وهي على قلتها شديدة الغموض كثيرة التضارب ، فروايات المؤرخين من العرب تشعر أن ثمود بادت قبل ظهور الاسلام بأحقاب طويلة ، بينما يقرر آخرون أن جموعاً من الثموديين وجدوا في نواحي العلى الى عهد غير بعيد من ظهور الاسلام (١) . وبينما يقرر بطليموس ان مساكن ثمود هي مدينة (أمن) والاراضي الواقعة في جنوب العقبة الى نواحي شمال ينبع بالقرب من المويلح ، نرى الجغرافي بلينوس الذي سبق بطليموس بنحو (٢٥٠) سنة يقرر ان مساكن ثمود هي في جنوب مكة الى تهامة العسير .

ولا نخرج من هذا التضارب إلا بالقول : إن ثمود كانت في عهد بلينوس تسكن في جنوب الحجاز ، ثم هاجرت الى شمال الحجاز في عهد بطليموس .

وعلى كل حال فان الاخبار تجمع على أن الثموديين كانوا أولي بأس شديد . فقد ذكرت مصادر موثوق بها حروباً طاحنة كانت بينهم وبين

---

١ ـ المرجع نفسه . ص ١٧٥

ـ ركون ملك آشور ، كما تنص كتابات مسمارية على أن هذا الطاغيـــة الآشوري أجلى البطون الثمودية الثائرة من بلاد العرب الى مدينـــة غزة بفلسطين (١) ، ويذكر بعضهم ان الثموديين كانوا يمتازون بالقوة والعظمة ، حتى كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر في حروبهم (٢).

واللهجة الثمودية ، كما تظهر من خلال النقوش الثمودية المكتشفـة في مواطن ثمود (شمال الحجاز) وفي نجد وشبـه جزيرة سينا ، لهجـة عربية صميمة لا تختلف عن لهجة قريش الفصحى إلا في أمـور يسيرة جداً . واليك كلمات نقش وجد على قبر ، ويعود تاريخـــه الي القرن الرابـع الميلادي :

ذن ـ لقض ـ بنت ـ عبد ـ منت

أي هذا (القبر) للقيض بنت عبد مناة .

ب ـ اللهجة اللحيانية :

بنو لحيان بطون من العرب كانت تسكن في عهد بلينوس ـ أي في القرن الاول بعد الميلاد ـ في شمال الحجاز بين ينبع وإيلة الي نواحي العلى وهضبات خيبر. ويقول هذا الجغرافي : إن مدينة العـلى كانت عاصمـة لهم . وقد عثر جلازر ودوتي على نقوش لحيانية كثيرة في هذه المنطقة (٣)

١ ـ Homel : Die Babylonische Assyrische Geschichte,p,702
عن تاريـخ اللغات السامية ص ١٧٤

٢ ـ Geographie Arabiens . Sprenger,p . 8 عن تاريـخ اللغـــات السامية ، ص ١٧٥

٣ ـ ولفنسون : المرجع السابق . ص ١٧٢

ويرى بعضهم ان بطون لحيان كانت منقسمة الى جملة دويلات صغيرة : بعضها في شمال الحجاز، وكان مستقلاً ، وبعضها في مشارف الشام والعراق ، وكان تحت النفوذين الفارسي والرومي . « ويحتمل أن هذه الدويلات كانت النواة الصالحة التي نبتت منها هاتان الدويلتان العربيتان في القرن الخامس والسادس بعد الميلاد في الحيرة على شاطىء الفرات ، وفي نواحي دمشق في سلطان المناذرة والغساسنة (١) .

وقد باد اللحيانيون قبل الثموديين بزمن طويل .

ومعلوماتنا عن اللهجة اللحيانية قليلة جداً، لأن النقوش التي كتبت بها لا تزال عصية على التفسير ، فعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها المستشرقون لحل رموز النقوش اللحيانية وتفسيرها ، ظلت هذه النقوش غامضة في كثير من كلماتها ومصطلحاتها، لأنها اجزاء من نقوش لا نقوش كاملة ، واكثرها لا تتجاوز كلماته الثلاث أو الأربع .

على انه مما لا ريب فيه ان اللهجة اللحيانية عربية بحتة، ففيها حروف الذال والثاء والغين والضاد ، مما لا يرى إلا في اللسان العربي من بين كل الالسن السامية ، كما عثر فيها على أفعل التفضيل وعلامة التنبيه التي هي من الخصائص البارزة للسان العربي (٢)

ج ـ اللهجة الصفوية :

لا نعلم ان هناك قوماً من العرب يسمون بالصفويين ، ولكنها تسمية اصطلاحية من المستشرقين أطلقوها على جملة النقوش العربية التي

---

١ ـ المرجع نفسه ، ص ١٧٣

٢ ـ المرجع نفسه ، ص ١٧٧

لا يعرف شيء عن القوم الذين كتبوها ، والتي كشفت في الحرة الواقعة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفاة .

ويعتقد الاستاذ ليتمان ان الكتابات الصفوية ترجع الى القرون الثلاثة الاولى بعد الميلاد ، ويستدل على ذلك باستعمال الصفويين اسم (أذينة) زوج الزباء الذي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد ، ولم يكن العرب يستعملون هذا الاسم من قبل .

واللهجة الصفوية لهجة عربية خالصة ، بدليل استعمالها كلمات عربية مثل أسد ، ولث (ليث) ، ولبأة (لبؤة) ، وغزالى (غزال) ، وابل ، وجمل ، وبكر ، ومهر ، ومهرة ، وحمار ، وضأن ، وماعز ، وبقر ، ووعل ، وضبع ، وضب ، وقنفذ ، وورل ، واللاة ، وشيع القوم ... الخ. لكن نعثر فيها على شوائب نبطية وآرامية بسبب اختلاط أهلها بالانباط والآرام . ويظهر ذلك من النقش الصفوي التالي :

لبرد ـ بن ـ أصلح ـ أبجر ـ وشتى ـ هدر ـ وذبح ـ فهلت ـ سلم .
أي : لبرد بن اصلح بن أبجر ، وشتىٰ (في) هدار (= هذه الدار ، أي هذا المكان) وذبح (ذبيحة) فهلاة (= فيا ايتها اللاة) سلام .

د ـ اللهجة الجاهلية :

وهذه تسمية اصطلاحية ايضاً نطلقها على لهجة اربعة نقوش عربية كشفها المستشرقون في منطقة غير بعيدة عن منطقة الصفاة . ويرتد تاريخ اقدمها الى سنة ٣٢٨ ب . م ويرتد احدثها الى سنة ٥٦٨ ب . م أي الى قرن واحد فقط قبل ظهور الاسلام .

وأهم هذه النقوش وأقدمها هو نقش النمارة الذي كشف في مدفن امرىء القيس بن عمرو بن ملك العرب . وقد دون هذا النقش في سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين بعد الميلاد كما ذكرنا آنفـــاً . فأما النمارة فكانت قصراً للروم في الحرة الشرقية من جبل الدروز ، وأما امرؤ القيس فكان واحداً من ملوك الحيرة انتشر نفوذه على بادية الشام :

وفيما يلي كلمات النقش مع ترجمتها الى الفصحى

(١) تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب ذو أسر التج

(٢) وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذ حجو عكدي وجا

(٣) بزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه

(٤) الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

(٥) عكدي . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول . بلسعد ذو ولده

أي :

(١) هذه نفس (قـــبر) امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلها ذو (ذو الطائية بمعنى الذي) أسر (= حاز) التاج .

(٢) وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم وهرّب (= هزم) مذ حجاً عكدي (هذه الكلمة غامضة ويقول العلامة ليتسبرسكي إنها تدل على القوة . فيكون المعنى : انه هزم مذحجاً بقوته . أقول : وفي لهجة حلب العامية كلمة تشبهها هي كلمة عكّيد . بالكاف المشددة المجهورة ، ومعنـاها البطل الشجاع) وجاء

(٣) (الى) بزجي في حبج نجران مدينة شمّر وملك معـــداً ونزّل (انزل) بنيه

(٤) الشعوب (نزل بنيه الشعوب أي انزل كل ولد من بنيـــه ملكاً في شعب) . ووكله الفرس والروم . فلم يبلغ ملك مبلغه .

(٥) عكدي (اي في الحول والقوة) . هلك سنة ٢٢٣ (١) يوم ٧ من كسلول (= كانون الاول) ليسعد الذي ولده . (أي والده أو الذين خلّدهم).

ولغة النقش كما ترى عربية خالصة سوى انهـا تحتوي على بعض الكلمات الآرامية مثل (نفس) بمعنى قبر ، وانها تسير على الطريقـة الآرامية باضافة الواو الى نهايات الاعلام مثل نزرو ومـذحجو ومعـدو (نزار ، مذحج ، معد) . وهذا وذاك كان من تقاليد الكتابـة لذلك العهد بسبب سيطرة الثقافة الآرامية على المنطقة كلها يومـذاك . ولا يزال اثر من هذه التقاليد باقياً في قواعد الرسم عندنا ، وذلك في كتابة كلمة (عمرو) التي نضيف اليها واواً تكتب ولا تلفظ .

٥ ـ اللهجات العربية الجنوبية :

وهي المعينية والسبئية والقتبانية والاوسانية والحضرمية وغيرهـا .. واشتهر منها اثنتان : اولاهما المعينية ، وهي أقدم من سائرها ، وهي لسـان مملكة معين التي من مدنها المشهورة قرناو و يثيل ، والثانية السبئيـة ، وهي لسان مملكة سبأ التي عاصمتها مدينة مأرب الشهيرة (٢) .

وتاريخ هذه الاقوام القحطانية شديد الغموض ، ويبين في اكـثر الاحيان تعييناً تقريبياً ، كما يختلف المستشرقون حول أمور كثيرة منه .

ومع ذلك ، اتفق جملة من فحول هؤلاء المستشرقين على ان معين هي اقدم دولة في اليمن ، ويعتقد هومل ان سقوط هذه الدولة كان في الفترة التي بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وكان يعاصر هـذه

---

١ ـ مبدأ هذا التاريـخ هو دمار مملكة النبط سنة ١٠٦ ميلادية . فيكون هلاك امرى القيس سنة ٣٢٩ ب . م

٢ ـ انظر مقدمة كتاب المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمـة . تأليف العلامة اغناطيوس غويدي .

الدولة دول كل من سبأ وحضرموت وقتبان ، الا أن سبأ استطاعت ان تقضي على كل الدول الاخرى ، وظلت السيادة لها في اليمن زمناً طويلاً استغرق عهود بابل وآشور والفرس واليونان والرومان الى ان قوضها الاحباش سنة ٣٧٥ ب . م . لكن سبأ ما عتمت ان اتحدت مع جميع العناصر القومية في اليمن وطردت الاحباش من ديارها تحت قيادة الملك (كرب) . وكان قد تهودت ذريته حوالي سنة ٤٠٠ بعد الميلاد وسميت بالحميرية ، ثم استمر حكم هذه الاسرة الحميرية المتهودة الى عهد ذي نواس الذي انهزم أمام الحبشة سنة ٥٢٥ ب . م

وحكم الاحباش بلاد اليمن من سنة ٥٢٥ الى سنة ٥٧٠ ب . م حين دخلتها الجيوش الفارسية التي بقيت فيها الى حين حررها الاسلام من الحكم الاجنبي .

واللهجات العربية الجنوبية شديدة التشابه ، حتى ليمكن القول انها جميعاً لهجة واحدة ، والفروق بين اكبر اثنتين منها وهما المعينية والسبئية لا تتعدى بعض الالفاظ والضمائر والحاق النون بالفعل ، فعلى حين تجعل السبئية ضمير المفرد الغائب هاء كما في الفصحى ، تجعله المعينية سيناً . (كتابهُ ـ كتابسُ) ، وتعدي السبئية فعلها الثلاثي بزيادة الهاء مثل هراق (أراق) بينما تجعل المعينية ، ومثلها القتبانية والحضرمية ، تجعل التعدية بزيادة السين ، فبدلاً من (هراق) تقول (سراق) .. وهكذا (١)

وعلى كل فاللهجات العربية اليمنية جميعها لهجات عربية صحيحة لا تختلف عن اللهجة الفصحى باكثر مما تختلف فيه لهجتا تميم وقريش أو أسد وهذيل . وسترى جانباً من مفردات هذه اللهجات وقواعدها في الفصل القادم .

---

١ ـ انظر غويدي : المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة .

و ـ اللهجة الفصحى :

وتسمى أحياناً بالقرشية لغلبة خصائص لهجة قريش عليها ، كما تسمى أحياناً أخرى بالحجازية ، وذلك لأن عامة القبائل الحجازية لم تكن تختلف لهجاتها عن لهجة قريش في شيء .

ومهما يكن من أمر التسمية فان ماتعنيه بالفصحى هو هذه اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم ، والتي بها جاء الحديث الشريف ، والشعر الجاهلي ، والتي لا تزال حتى اليوم تتخذ منها لسان ادب وعلم ودين .

وهذه الفصحى ليست لهجة قبيلة عربية معينة وان سميت في بعض الاحيان بالقرشية ، بل هي مزيج لطيف من اختيار انيق لخصائص لهجات عربية كثيرة أهمها القرشية والتميمية .

وفيما يلي جدول لأهم الاختلافات بين هاتين اللهجتين الكبيرتين وما اختارته الفصحى منهما :

الحجازية (القرشية)	التميمية	الفصحى
تَعلم (بفتح حرف المضارعة)	تِعلم (بكسر حرف المضارعة)(١)	ح(٢)
ما هذا بشراً (باعمال ما)	ماهذا بشرٌ (باهمال ما)	ح
ليس الطيب إلا المسكَ (بالاعمال)	ليس الطيب إلا المسكُ (بالابطال)	ح
كم بلدٍ زرتُ !!	كم بلداً زرتُ !!	ح
كاس ، بوس ، بير (بالتسهيل)	كأس ، بؤس ، بئر (بالنبر)	ت
أغضض من صوتك (بفك الادغام)	غض من صوتك (بالادغام)	ح
ولا تمنن تستكثر (= =)	ولا تمنَّ تستكثر (=)	ح
زهَد ، حقَد ... (بفتح العين)	زهِد ، حقِد... (بكسر العين)	حت

١ ـ وهي لغة عامة العرب ما عدا الحجاز

٢ ـ حرف الحاء رمز لموافقة الفصحى لهجة الحجاز ، كما ان التاء رمز لموافقتها لهجة تميم .

الحجازية (القرشية)	التميمية	الفصحى
إتّقى ، إتصل.. (بهمزة الوصل)	تقى ، تصل .. (بطرحها)(1)	ح
يفرُغ فروغاً ... (بضم العين)	يفرَغ فراغاً .. (بفتحها)	ح ـ ت
بَرِأتُ فأنا براء	بَرِئت فأنا بريء	ح ـ ت
قلوت البُرّ أقلوه قلواً (بالواو)	قليت البُرّ أقليه قلياً (بالياء)	ت
لات الشيءَ يَليته (بالتجريد)	ألات الشيءَ يُليته(2)(بالزيادة)	ح ـ ت
تخذتُ ووخذتُ	إتخذت	ت
اوصدت الباب (بالتصحيح)	آصدت الباب (بالاعلال)	ح
وكّد توكيداً	أكّده تأكيدا	ح ـ ت
حِصاد قِطاف ... (بالكسر)	حَصاد قَطاف ... (بالفتح)	ح ـ ت
حِج البيت (بالكسر)	حَج البيت (بالفتح)	ح ـ ت
مِرية (بالكسر)	مُرية (بالضم)	ح
كَراهة بالتخفيف	كراهية	ح ـ ت
الهدْيُ	الهدِيّ (بالتشديد)	ح
الشفع والوِتْر (بكسر الواو)	الشفع والوَتْر	ح
إسوة وقِدوة ... (بالكسر)	أسوة وقُدوة (بالضم)	ت
مبيع ، مدين ...	مبيوع ، مديون ..	ح
ذلك ، تلك	ذاك ، تاك	ح ـ ت
أولاء (بالمد)	أولى (بالقصر)	ح ـ ت
منذ	مذ	ح ـ ت
لفام ، فوم (بالفاء)	لثام ، ثوم (بالثاء)	ح ـ ت
إنّ ، أن .. (بالهمزة)	عِنّ عنّ (بالعين)	ح

١ ـ وفي هذا توافق التميمية اللهجات السبئية والمعينية وغيرها كما سترى في الفصل القادم

٢ ـ معنى لات الشيء وألاته نقصه حقه . قال تعالى : لا يلتكم من أعمالكم شيئاً (الحجرات ١٤) وقال ايضاً : وما ألتناهم من عملهم من شيء (الطور ٢١) .

الحجازية القرشية		التميمية		الفصحى
فاظت نفسه ...	(بالظاء)	فاضت نفسه	(بالضاد) (١)	ت
فحصتُ برجلي	(بالتـاء)	فحصط برجلي	(بالطاء)	ح
ساق	(بالسين)	صاق	(بالصاد) (٢)	ح
كشطت السماء		قشطت السماء		ح
الذين		اللذون		ح
حيث		حوث (٣)		ح

١ ـ يستنتج من الروايات ان الظاء هي لغة الحجاز مطلقاً ، وان الضـاد هي لغة تميم مطلقاً ، إلا ان الفصحى اختارت الظاء في بعض الالفاظ واختارت الضاد في بعضها الآخر .

٢ ـ يلاحظ ان تميماً تميل الى تفخيم الاصوات وتضخيمها على حين تميل قريش الى ترقيقهـا ، وهذا الاختلا فـاثر من اختلاف البيئتين البدوية والحضرية .

٣ ـ للتوسع في هذا الموضوع راجع المخصـص لابن سيده ، والمزهر للسيوطي ، والخصائص لابن جني ، واللهجات العربية لابراهيم انيس ، ودراسـات في فقه اللغة لصبحي الصالح ، والصاحبي لابن فارس ، كما تجد اطرافاً منه في كتب النحو والقراءات ، ولا سيما كتاب سيبويه .

يتبين لنا من الجدول السابق ان الفصحى اخذت من لهجة تميم كما أخذت من لهجة قريش ، الا ان ما اخذته من لهجة قريش كان اكثر . وهي في كل الاحوال كانت تؤثر من كلتا اللهجتين ما هو اكثر رقياً وصقلاً وقرباً من الرقة واللطافة .

ز ـ لهجات عربية اخرى :

وهناك لهجات عربية أخرى ، بعضها قديم مثل لهجات قبائل أسد وطيء وذهل وهذيل وغيرها ، وبعضها حديث كلهجات الشام والعراق ومصر والمغرب وغيرها . ولن نتحدث عن هذه اللهجات بشيء ، لأن ذلك يخرج بنا عن موضوع كتابنا أولاً ، ولأن أغلب هذه اللهجات لم يدرس حتى اليوم دراسة علمية صحيحة .

شبهات حول العربية

حين يتحدث المستشرقون عن اللهجات الجنوبية (المعينية والسبئية وغيرهما) وعن بعض اللهجات الشمالية (الثمودية واللحيانية والصفوية) يوهمون القارىء ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ ان هذه اللهجات ليست من اللسان العربي في شيء ، وانها ألسن سامية مستقلة ليس بينها وبين اللسان العربي المعروف من وجوه الشبه أكثر مما يوجد مثله بين الألسن السامية كلها (١) . بل ان بعضهم يصرح بهذه الدعوى الباطلة التي لا سند

---

١ ـ وقع في هذا الوهم كثير من الادباء ابرزهم طه حسين ، انظر كتابه (في الشعر الجاهلي) في معرض نفيه لشعر امرىء القيس وكل الشعراء المنتسبين الى قبائل جنوبية الاصل . بل لقد وقع فيه بعض علماء اللغة ، ومنهم الدكتور صبحي الصالح . انظر كتابه (دراسات في فقه اللغة ، ص ٥٤ حيث يصف الفرق بين لهجات الجنوب واللسان العربي الشمالي بأنه فرق (عظيم)

لها من الوقائع اللغوية المعروفة ، والتي تتضارب مع ابسط مبادىء علم اللغة ومسلماته .

ويقيم هؤلاء المستشرقون دعواهم على أسس ، منها أن لغة النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية فيها تأثيرات آرامية كثيرة ، فهي الى الآرامية أقرب منها الى العربية ، ومنها ان لغة النقوش المعينية والسبئية تختلف عن اللسان العربي في امور كثيرة تتعلق بالالفاظ والتراكيب ، وقواعد التصريف.

أما نحن فنقول عكس ما يقولون ، ونزعم أن لغات كل هذه النقوش هي لهجات للسان واحد ، وليست ألسناً مستقلاً بعضها عن بعض.
وسنحاول فيما يلي ايراد الادلة الكافية على فساد رأي المستشرقين ثم نعقبها بإيراد البراهين القاطعة بصحة ما نذهب اليه .

آ ـ ادلة نفي :

١ ـ إن النقوش المكتشفة قليلة جداً ، إذ لم يتجاوز ما اكتشفه منها ليتمان ١٤٠٠ نقش صفوي . ونقوش الثمودية واللحيانية أقل من ذلك بكثير . أما نقوش العربية الجنوبية فلم تتجاوز ٣٥٠٠ نقش . وإلى جانب ذلك فهي قليلة المادة اللغوية اذ لم يتجاوز عدد كلمات اكثرها الاربع او الخمس من الكلمات . وكل هذا وذاك يجعل هذه النصوص قليلة الجدوى في معرفة خصائص اللسان الذي كتبت به ، ويمنع الباحث المحقق من اطلاق حكم نهائي في موضوعه .

٢ ـ موضوع كل هذه النقوش واحد ، أو قل ان موضوعاتها شديدة التقارب ، فهي إما إعلان بوفاء نذر ، وإما تمجيد لصاحب ضريح وإما تخليد لعمل عمراني كبير . وهذا مما يضيق دائرة المادة اللغوية في هذه النقوش ويجعل كل حكم يطلق على اللسان الذي كتبت به ناقصاً ان لم يجعله فاسداً .

---

٢ ـ تاريخ اللغات الشاوية ص ١٧٧

٣ ـ ان كثيراً من هذه النقوش لم تحل رموزه حتى الآن ، ويصرح ولفنسون بذلك فيقول : « أما الكتابات اللحيانية فقد جهد في تفسيرها علماء اوروبا ، ولكنهم لم يفلحوا في حل كثير منها ، لانها أجزاء من نقوش لا نقوش كاملة . وجل كلماتها ومصطلحاتها في غاية الابهام . » ويقول عن النقوش الثمودية : (١) « والنقوش الثمودية بصفة عامة موجزة جداً حتى ليكاد المعنى يخفى على القارىء خفاء تاماً أو يصبح عرضة لتفاسير وتأويلات شتى . » وكل هذا يزيد من فقر هذه النقوش بالمادة اللغوية ، ويفرض على الباحث ألا يرى فيها صورة كاملة للسان المكتوبة به ، وبالتالي ، ألا يطلق الاحكام الجازمة النهائية على لسانها .

٤ ـ ان وحدة موضوع النقوش فرضت على لغتها وحدة في الاسلوب . وهذا بالتالي ، جعلها محدودة التعابير . فمن ذلك مثلاً ان العلماء لم يجدوا في النقوش المعينية والسبئية غير صيغة الغائب من الفعل في احواله المختلفة . فهل يجوز لنا ان نستنتج من ذلك ان اللهجتين المذكورتين كانتا خاليتين من صيغ المتكلم والمخاطب ؟! (٢)

٥ ـ لم تكن الكتابة في يوم من الايام تمثيلاً أميناً دقيقاً للفظ ، يصدق هذا على السبئية والمعينية ، كما يصدق على العربية والفرنسية

---

١ ـ المرجع نفسه ، ص ١٨١

٢ ـ بل ان بعض المستشرقين قال بذلك فعلاً . وقد كفانا ولفنسون مؤونة الرد على اصحاب هذا الرأي الاحمق حين قال : أما الاعتقاد بعدم وجود هذه الصيغ فهو امر لا يقبله العقل السليم . فان اقل مايدل عليه ان هاتين اللهجتين كانتا في غاية الانحطاط ، وان اهلها كانوا همجيين . وقد علمنا ان اهل جنوب الجزيرة العربية كانوا من ارقى الشعوب السامية واعرقهم في الحضارة القديمة (المرجع نفسه ، ص ٢٤٨)

والانكليزية . وليس هناك قوم يكتبون ما يلفظون ، أو يلفظون مايكتبون ، ألا ترى اننا نكتب ألفاً بعد واو الجماعة لا نلفظها ، ونلفظ ألفاً بعد هاء التنبيه من غير ان نكتبها . ولابد ان شيئاً من هذا موجود في الكتابات السبئية والمعينية كما هو موجود في كل كتابات العالم قديماً وحديثاً . وما دمنا لا نعرف الصورة اليقينية للفظ السبئية والمعينية لعدم المشافهة وانقطاع الرواية ، فان قراءتنا لكتاباتها يوقعنا في اخطاء جسيمة تشبه اخطاء من يقرأ عبارة فرنسية أو انكليزية محققاً باللفظ كل الاحرف المكتوبة .

بل ان خطأ من هذا القبيل نرجح وقوع المستشرقين فيه ، وهو قراءتهم لهذا العلم العربي (عليو) الذي وجد كثيراً في الكتابات السبئية، بشكل (علياو) ، ونحن لا نعلم ان انساناً عربياً ، جنوبياً كان ام شمالياً، قديماً كان أم حديثاً تسمى بمثل هذا الاسم الغريب الشائه . والذي نراه ان القراءة الصحيحة لهذا العلم (عليو) هي (عليٌ) كما يلفظها الشماليون تماماً ، أما اثبات السبئيين للواو في (عليٌ) فهو للاشارة الى الاصل الاشتقاقي للكلمة . وليس لتحقيقها في اللفظ ، تماماً كما نفعل نحن عندما نلفظ (رمى) بالالف ونكتبها بالياء اشارة الى الاصل الاشتقاقي لها . وعلى هذا يجب ان نقرأ الظرف السبئي (متي) (متى) بالالف لا (متاي) كما يفعل المستشرقون ، و (بـ علي) (بعلى) لا (بعلاي) (١) ... الخ .

١ – قال سيبويه في معرض كلامه عن ابدال الواو : وتبدل مكان الالف في الوقف. وذلك قول بعضهم : (أفعو) و (حبلو) . كما جعل بعضهم مكانها الياء . وبعض العرب يجعل الواو والياء ثابتتين في الوصل والوقف . ا هـ . الكتاب ج ٢ ص ٣١٤

اقول : وفي هذا نظر . ثم انه اذا دل على خلاف ما نذهب اليه من امر الكتابة واللفظ فانه ينهض من جهة اخرى دليلاً على ان اللهجات الشمالية لم تكن تختلف عن اللهجات الجنوبية حتى في هذا النوع الغريب من اللفظ.

هذا الذي نقوله ليس نوعاً من الرجم بالغيب ، أو الظن الذي لا يقوم على اساس ، فقواعد الرسم في كل لسان مبنية على قواعد الصرف والاشتقاق لهذا اللسان . واذا كان الشماليون في جاهليتهم ، وهم اهل البداوة ، قد احسوا بالفارق الاشتقاقي بين (علا) و (رمى) فكتبوا الاولى وكل دوات الواو بالالف . وكتبوا الثانية وكل ذوات الياء بالياء ، فلأن يحس الجنوبيون ، وهم أهل الحضارة والتقدم ، بذلك أولى . بل انا لنميل الى القول ان هذا التحليل اللغوي الذي هدى الشماليين الى التفريق بين الالفات التي اصلها الواو وتلك التي اصلها الياء ليس من عندهم ، بل هو مما أخذه الشماليون عن الجنوبيين في جملة ما اخذوه من مظاهر الحضارة والثقافة . وكلنا يعلم مقدار اثر الحضارة اليمنية في اهل الشمال ، واذا كانت الخطوط الثمودية والصفوية واللحيانية ، وكلها شمالي ، مشتقة من الخط المسند السبئي فليس ببعيد ان تكون قواعد الرسم لكل الشماليين مشتقة ايضاً من قواعد رسم السبئي الجنوبي .

٦ ـ ان عدم وجود رموز للحركات الطويلة (الالف ، والواو ، والياء) والحركات القصيرة (الفتحة ، والضمة ، والكسرة) في هذه النقوش يزيد من قصور كتابتها عن تمثيل النطق الصحيح لها ويجعلنا ، ونحن لا نقرأ إلا ما كتب فيها من الحروف فقط ، نقوم بعملية مسخ وتشويه ، ونلفظ لساناً لا صلة له بلسان هذه النقوش . تماماً كما لو كتبنا بيت ابي العلاء :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل　　　عفاف وإقدام وحزم ونائل

بهذه الصورة :

أل ف سبل المجد م أن فعل　　　عفف وإقدم وحزم ونئل

ثم لم نلفظ إلا ما نراه امامنا من الحروف مثبتاً .

ولو عرضنا هذا البيت بصورته الكتابية المختزلة على ألف من العرب لا علم لهم بقصيدة ابي العلاء ـ حتى لا يكون هذا العلم مساعداً لهم على قراءته الصحيحة ـ لقرروا جميعاً انهم لا يقرؤن لساناً عربياً ابداً ، مع أن ما أمامهم ليس إلا بيتاً لواحد من فحول شعراء العربية لكنه كتب بطريقة مختزلة هي نفسها طريقة كتابة النقوش المعينية والسبئية والثمودية وغيرها من اللهجات العربية .

٧ ـ ومما يزيد في ايهامنا بوجود فروق كبيرة بين اللهجات الجنوبية والشمالية أن قواعد الرسم في تلك تثبت التنوين (والتنوين في العربية الجنوبية هو ميم ساكنة تلحق آخر الاسم لا نون كما في العربية الشمالية) بينما لا تثبته الكتابة الشمالية ، وكذا تفعل مع الضمة في ميم الجماعة وتثبتها واوا . فاذا اردنا ان نكتب عبارة (كتابهم كتاب جميل) بالقواعد السبئية كانت كتابتها على الشكل الآتي : كتبهمو كتبم جملم) . وكل هذا . واشياء اخرى يطول شرحها ، تجعلنا نتوهم ان الجنوبية لسان ، وان الشمالية لسان آخر ، مع انهما لسان واحد هو اللسان العربي .

٨ ـ بعد ان يحل المستشرق رموز نقش ما يقوم بترجمته إلى لسانه القومي (الفرنسي او الالماني او الانكليزي) ليفهم قراؤه ماجاء في النقش ، ثم يأتي الباحث العربي أو أي باحث يكتب بالعربية (١) فينقل عن المستشرق ترجمته للنقش مترجماً اياها الى العربية من غير ان يكلف نفسه مشقة النظر في النص الاصلي للنقش . وطبيعي في مثل

---

١ ـ مثل ولفنسون الذي كتب كتابه (تاريخ اللغات السامية) بالعربية ، واغناطيوس غويدي الذي كتب (المختصر) بالعربية واللاتينية .

هذه الحال ان يحدث فارق بين الترجمة العربية والنص الاصلي ، لانها ترجمة لترجمة . يضاف الى ذلك ان المترجم العربي يختار من الفاظ العربية اكثرها ألفة وشيوعاً لاداء المعاني المترجمة ، حين يكون الغريب في بعض الاحيان أولى من المأنوس لأنه يطابق ألفاظ النص الأصلي معنىً ولفظاً . فمن ذلك كلمة (مقتوي) ، فهذه الكلمة التي وجدت في النقوش السبئية والمعينية ترجمت الى ألسن المستشرقين بالفاظ تدل على معناها في تلك الالسن ، ثم لما نقلها الباحثون الى العربية ترجموا ترجمتها باللفظ العربي المأنوس فكانت الترجمة كلمة (مساعد) . وهكذا حصل الخلاف في اللفظ بين تلك النقوش اليمنية ، وبين ما يساويها من لسان العرب الشماليين، ولو ان المترجم تذكر شطر بيت الشاعر الشمالي عمرو بن كلثوم وهو يتوعد عمرو بن هند بقوله (متى كنا لأمك مقتوينا) ثم ترجم (مقتوي) السبئية بـ (مقتوي) الشمالية لزال قسم كبير من الوهم المسيطر على العقول حول الخلاف (العظيم) بين لسان أهل الجنوب ولسان أهل الشمال .

وما قلناه عن كلمة (مقتوي) يصدق على عشرات ومئات من الكلمات الاخرى .

٩ ـ يحدث كثيراً أن يغمض معنى بعض كلمات النقش على المستشرق ، أو ان لا يفهم معنى تركيب شديد الايجاز ورد في النقش ، وفي هذه الحالة يلجأ إلى استلهام السياق معنى ما غمض عليه من المفردات والتراكيب ، ثم يزيد في الترجمة أو ينقص ليتم له اداء المعنى الذي ظنه هو المقصود . ومن كل ذلك ينشأ خلاف كبير بين ترجمة النقش وصورة حل رموزه . وسترى مثالاً على ذلك بعد قليل .

١٠ ـ إن كلمة (مستشرق) لا تعني دائماً ذلك العالم المحقق المدقق

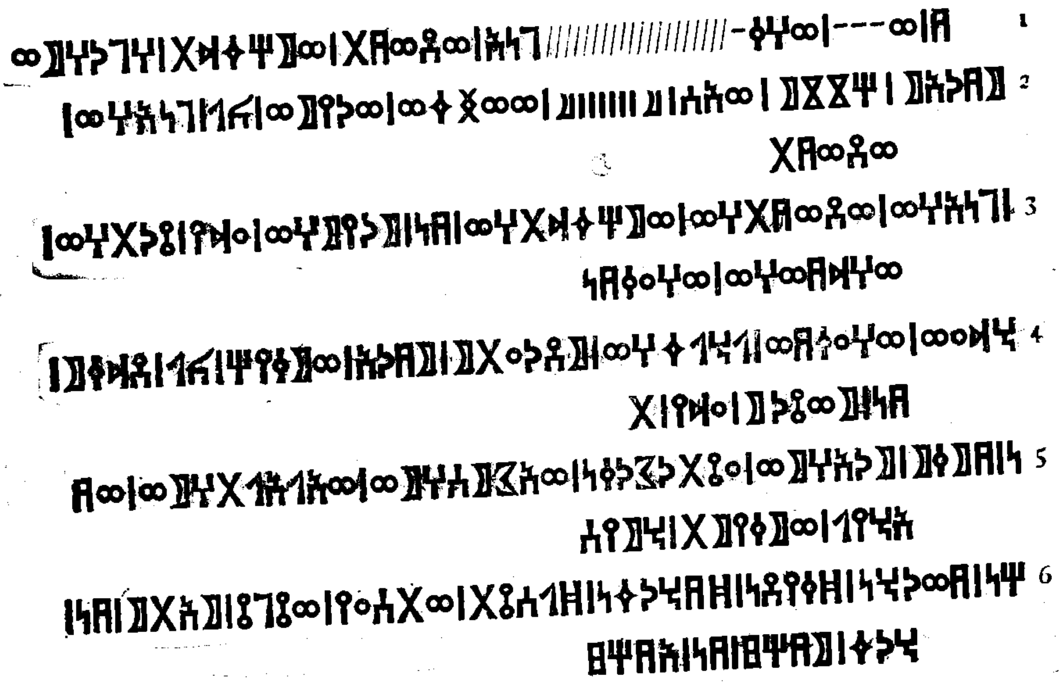
الذي لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا احصاها ، والذي لا يأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه . فكثيراً ما يخطىء هؤلاء المستشرقون حتى في ابسط القضايا واكثرها وضوحاً . وكثيراً ما يطلقون الاحكام العـــامة الخطيرة ولا سند لهم إلا حالة شاذة عثروا عليها هنا أو هنـاك ففرحوا بها وغلبوها على مئات الادلة التي تناقضها ، بل كثيراً ما يحدث أن لا يكون لهم من دليل في احكامهم غير الوهم والظن والهوى .

واغرب من ذلك أن يقعوا فيما لا يجوز المبتدىء ان يقع فيه من الاخطاء وإليك مثالاً على ذلك :

نقل ولفنسون عن ليتسبرسكي النقش السبئي التـالي ، ثم ارفقـه بحل لرموزه ، وترجمة له الى العربيـة . وها نحن أولاء موردون كل ذلك بالحرف الواحد :

النقش الاول

ح ٣ مجلد ١ ص ٩٣ Ephemeris



حل رموز النقش

(١) ب ... وهق... جنا وصوابت ومحفدت وهجر همو

(٢) مبرام حسسم وأ ... م .. م ووسفو وريـو كل جنـاهو وصوبت

(٣) .. جناهو وصوبتهو ومحفدتهو بن مريهو عدى ثرتهو وهدبوهو وهمقبن

(٤) خدءو وهمقبو لخلفهو مصرعتم مبرا ومقيـح كل صـدقم بن موثرم عدى ت

(٥) ... ن بعقم مراهيمو عثتر شرقن واشمسهو والال تهمـو وباخيل ومقيمت خميس

(٦) حن يورخن ذ قيصن ذ بخرف ذ لششت وتسعي وثلث ماتم بن خرف مبحض بن ابحض .

ترجمة النقش

(١) .. (وأصلحوا مرة اخرى) السور و . . ابراج مدينتهم

(٢) بأدوات البناء ووسموا كل سور و ...

(٣) وسورها و ... وابراجها من أعلى إلى اسفل مكان وزينوها ب ... وابراجها للحراسة .

(٤) وعمروا الحلف (؟) على هيئة باب حصن بأحسن ادوات البناء وفن التعمير من أسفل إلى اعلى ...

(٥) بعجد سيدهم عثتر الشرق وآلهة الشمس وسائر الآلهـة وبحول وقوة الخميس (الجيش)

(٦) في شهر ذي قيصن من سنة ثلاثمائة سنة بعد مبحض بن أبحض

ههنا اخطاء كثيرة ، بعضها في النص بحروفه السبئية ، وبعضها في حل الرموز ، وبعضها في الترجمة .

فأما في النص السبئي فقد وردت في السطر السادس كلمة (ثجث) وصوابها (ثلث) كما وردت في حل الرموز . ومن المؤسف أن صورة النقش الاصلية ليست أمامنا . ولو كانت كذلك وعارضناها على النص لكان من غير المستبعد ان نعثر على اخطاء أخرى غير هذا الخطأ الذي هدانا اليه السياق (١)

اما في قسم حل الرموز فالاخطاء كثيرة . ففي السطر الاول سقطت واو بعد الباء المفردة ، كما زيدت الف في كلمة (صوابت) ليست موجودة في النص السبئي . كما زيدت واو قبل كلمة (هجرهمو) وفي السطر الثاني وردت كلمة (حسسم) خطأ ، وصوابها (حززم) ، وفي السطر الخامس كتب (مراهيمو) والصواب (مراهمو) بغير ياء ، وكتب (عتتر) بتاءين ، وصوابها (عثتر) بثاء وتاء ، وكتب (شرقرن) والصواب (شرقن) ، وفصل (الال) عن (تهمو) كأنهما كلمتان ، والصواب وصلها هكذا (الالتهمو) لأنها كلمة واحدة . وفي السطر السادس كتب (يورخن) بالياء ، والصواب (بورخن) بالباء .

واما في الترجمة فهناك اخطاء اخرى ، ففي السطر الاول قال (السور) وصوابها (سور) بغير تعريف ، واهمل كلمة (صوبت) فلم يترجمها ، وقال في السطر الثاني (ووسموا كل سور) وصوابه (ووسموا

---

١ ـ من المهم التنبيه الى ان شكل النص السبئي ليس صورة فوتوغرافية للنقش الاصلي كما قد يتوهم القارىء . بل هي حروف مطبعية كسائر الحروف المطبعية الاخرى . ومعنى ذلك ان الخطأ في كلمة (ثجث) إما ان يكون حاصلا من ليتسبرسكي وهو يكتب بالحروف السبئية ، واما ان يكون من المطبعة . والواقع ان حرفي الجيم واللام شديدا التشابه في السبئية . مما يسهل معه وقوع مثل هذا الخطأ .

كل سورها)، كما أهمل كلمتي (ريو) و (صوبت) فلم يترجمها ، وفي السطر الثالث أهمل مرة ثالثة كلمة (صوبت) ، وقال (من أعلى الى اسفل مكان) وصوابه (من اعلاه الى اسفله) ، وزاد كلمتي (وابراجها للحراسة) ولا مقابل لهما في الاصل ، وكان عليه ان يضعهما بين قوسين ، كما ترك كلمة (همقبن) بغير ترجمة . وفي السطر الرابع عاد فاهمل كلمة (وهمقبو) وتجاوزها ، ثم قال (الحلف) وصوابه (لحلفه) ، وزاد من عنده كلمتي (على هيئة) مما لا وجود له في الاصل ، وكلمات اخرى ايضاً منها (أعلى) الواردة في نهاية السطر . وفي السطر الخامس قال (المشرق) وصوابه (الشارق) (١) . وقال (وآلهة الشمس وسائر الآلهة) وصوابه (وشموسهم وآلهتهم) ، وقال في السطر السادس (ذي قيصن) وصوابه (ذو القيص) أو (ذا القيص (٢) ، وزاد كلمة (بعد) التي احدثت اضطراباً في العبارة . وقال (مبحص بن أبحص) والصواب (مبحض بن أبحض)

وقد اطلع الاستاذ (إنو ليتمان) على كتاب ولفنسون واورد عليه جملة ملاحظات وتحقيقات طبعت والحقت به . ومن العجيب ان هذا المستشرق الكبير لم ينتبه في تحقيقاته هذه إلا الى بعض الاخطاء التي ذكرناها ، وسها عن سائرها . بل إنه صحح بعض الاخطاء باخطاء اخرى من عنده (٣)

---

١ ـ انظر غويدي : المختصر ، ص ٣٦ . ويذكر القاموس ان الشارق اسم صنم ومعناه الطالع في الافق .

٢ ـ انظر المرجع نفسه ص ٦

٣ ـ انظر النقش وحل رموزه في كتاب ولفنسون (تاريخ اللغات السامية) ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠ وانظر ملاحظات الاستاذ ليتمان عليه في نهاية الكتاب ص ٢٨٠

فاعجب بعد هذا لدقة المستشرقين وشدة تحريهم !!

قد يقال : ان بعض هذه الاخطاء تقع مسئوليته على منضد الحروف في المطبعة لا على المؤلف ، وان بعضها الآخر - حيث الاضافة والنقصان - كان بداعي أداء معنى النقش . وهذا صحيـح الى حد ما ، ولكنا لسنا في معرض البحث عن المسؤولية وعلى عاتق من تقع ، وانمـا نحن بصـدد البرهنة على ان هذه الاخطاء - مهما يكن مصدرها - مسؤولة الى حـد كبير عمـا نراه من الفروق بـين لسان النقوش السبئية ولساننا العربي الشمالي .

وقد يقال أيضاً : ولكن كل التصحيحات التي ادخلت على النص وحل رموزه وترجمته لم تساعد على تقريب لسان الجنوب من لسان الشمال ، فلا يزال الفرق بينهما (عظيماً) كما يقول الدكتور صبحي الصالح .

وهنا لا بد من التذكير بأن قواعد الرسم السبئية تختلف عن قواعد الرسم الحالية ، فهي لا تثبت الالفات والواوات واليـاءات ، وعلى عكس ذلك تثبت الضمة بعد ميم الجماعة وتجعلها واواً . ولو أننا كتبنـا نص النقش بحسب قواعد رسمنا الحالية لتغيرت الصورة ، ولبدا التقـارب بـين لهجتي الشمال والجنوب واضحاً .

ولنحاول ذلك في السطر الخامس من النقش :

سبئي : بمقـام امرئهمُ عثتر شارقن وأشمسهمُ وإلالتهمُ وبأخيل ومقيمة خميس .

شمالي : بمقام (بجلال) امرئهم (سيدهم) عثتر الشارق وأشمسهم وإلاهتهم وبحول ومقامة الخميس .

ملاحظـــة حول كلمة (مرا) :

اقترح ان تكون قراءة كلمة (مرا) الواردة في النقـوش السبئية (امرأ) ، أي بالهمز لا بالألف اللينة ، لأن السبئيـة لم تكن ترسم الالف إلا اذا ارادت منها صوت الهمزة ، إلا ان يكون ذلك في الضمائر أو اسماء الاشارة (راجع كتاب المختصر) ، والمستشرقون يصرون على قراءتها بالألف اللينة ، ولا ارى لذلك وجهاً إلا أن يكونوا قد استأنسوا بكلمة (مرا) النبطية التي تعني السيد ، أو بكلمة (مار) السريانية التي تعني السيد أو القديس . وأرى ان الاستئناس بكلمة (امرىء) العربية الشمالية أولى على الرغم مما بين الكلمتين من اختلاف يسير في المعـنى ، اذ كثيراً ما يقع للهجات ان تستعمل الكلمة الواحدة بمعان مختلفة ، فمن ذلك ان قريشا كانت تستعمل كلمة (وعد) بمعنى (هدد) وهو ضد المعنى المعروف لها عند عامة العرب ، وبهذا المعنى استعملها عمر بن ابي ربيعة في قوله :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد   وشفت انفسنا مما تجد

ومع ذلك لست أصر على هذا الافتراح ، لانني ـ من جهة أخرى ـ أميل الى الظن بان الهمز في كلمة (امرىء) امرطارىء ، وان الاصل فيها كان التسهيل، وانهم كانوا يلفظونها (مرا ، مرو ، مري) بحسب الحالات الاعرابية المختلفة قياساً لها على (ذا ، ذو ، ذي) ثم همزوا الالف والواو والياء فيهـا مبقـــين الحركات المناسبة لهذه الاحرف على الراء قبلها . وهذا يفسر لنا سبب ظهور الحركة الاعرابية على حرفين اثنين بدل حرف واحد كما في سائر كلمات العربية ، وما قلناه في كلمة (امرىء) يقال مثله في كلمة (ابنم) ايضاً التي تظهر الحركة الاعرابيـة فيهـا على النون والميم معاً .ومن المعروف ان الميم في نهاية الكلمة هي علامة التنكير في السبئية.

وعلى كل حال فالامر يحتاج الى تحقيق اكثر لا يتسع له المقام ههنا .

والآن قل لي هل تجد فرقاً (عظيماً) بين اللهجتين (١) ؟

١١ ـ ان وجود الفاظ في السبئية والمعينية لاوجود لها في الشمالية لاينهض دليلاً على ان الشمالية والجنوبية لسانان مستقلان . فهذه الألفاظ ليست معدومة تماماً من الشمالية ، بل هي موجودة فيها إما على انها من غريب اللغة ، واما بشكل بقايا لمادة لغوية مهجورة . خذ مثلاً على ذلك كلمة (هجَر) السبئية التي تعني (المدينة) . فهذه الكلمة وان لم توجد في الشمالية بهذا المعنى ، الا ان في مادة (هـ ج ر) كلمات كثيرة قريبة المعنى منها ، فقد قال صاحب القاموس : « والهِجرّ كفلزّ المهاجرة الى القرى . . . والهاجريّ البنّاء او من لزم الحَضَر » انتهى . ومن هذا الباب قول الراجز :

قد لفها الليل بعصلبيّ
أروع خرّاج من الدّوّيّ
مهاجر ليس بأعرابي

١ ـ نقل الدكتور صبحي الصالح حل رموز السطر الخامس مع ترجمته الى كتابه (دراسات في فقه اللغة ص ٥٤) مستشهداً به على وجود فرق عظيم بين لساني الشمال والجنوب . ومن المؤسف ان الاستاذ الصالح احتفظ بكل اخطاء ولفنسون ولتمان دون ان يجشم نفسه مشقة قراءة النص بحروفه السبئية . بل لقد أضاف على اخطائهما خطأين آخرين . أما الاول فهو خطأ مطبعي على ما نعتقد ، وهو سقوط ميم الجماعة من كلمة (أشمسهمو) ، واما الثاني فواضح ان الاستاذ قد قصد إليه قصداً ، وهو انه ترجم (عثتر) بـ (عشتروت) . ولا نرى سبباً لذلك الا ان يكون الاستاذ قد اراد توسيع الفرق لتقوية شاهده على صحة ما ذهب اليه ، او انه ظن ان (عشتروت) هي الترجمة الصحيحة لكلمة (عثتر) مع ان الفرق بينهما واضح : فعثتر إله يمني مذكر ، وعشتروت آلهة آرامية مؤنثة .

وسواء أكان عثتر اليماني هو نفسه عشتار او عشتروت الآرامية ام لم يكن احدهما ، فانه من الواجب علينا ان نحتفظ للاعلام باللفظ الذي هو لها في السنة اصحابها ، والا فليسمح لنا الاستاذ الصالح ان نسمي صاحب ابي حنيفة بـ (ابي هوسيب) لا لشيء إلا لأن الارمنية تلفظ اسم (يوسف) هكذا.

فالمهاجر هو من سكن الهجر أي البلد . أما مايقال من انه اراد بالمهاجر المتمرس بالشدائد فقول لامعنى له ولايفسر شيئاً من كلام الراجز ، فالراجز أراد المطابقة بين الاعرابي والمهاجر كما هـو واضح من عبارته ، ولا يطابق الاعرابي ، وهو ساكن البادية ، إلا ساكن المدينة أي المهاجر .

والذي يبدو لنا أن كلمة (هجر) ـ وهذه الكلمة نتخذها مثالاً لكل الكلمات التي تشبهها في حالتها ـ كانت موجـــودة في اللسان العربي القديم بمعنى (المدينة) ، سواء في ذلك اللهجات الشمالية والجنوبية ، ثم حدث لهذه الكلمة أن خصصت ببعض المدن والقرى[1] علماً لها كما حدث لكلمة (مدينة) التي خصصت فأطلقت علماً على مدينة الرسول (ص) ، فلما جرى لها هذا التخصيص أهملت بمعناها العام حتى نسيت ، وان بقيت آثار لمعناها في كلمات أخرى من المادة نفسها كما مر آنفاً .

وعلى هذا الاساس لانكون امام لسانين متمايزين اختلفا في الفاظهما ، وانما نكون أمام حالتين للسان واحد في فترتين متباعدتين من الزمان ، أي أمام طورين من اطوار لسان واحد .

ومهما يكن فان اختلاف لهجات اللسان الواحد في بعض المفردات أمر معروف في كل لسان ، ولم يقل أحد بأن هذا الاختلاف حد فاصل بين الألسن ، وإلا لكان رجز رؤبة والعجاج من لسان غير اللسان العربي المعروف . ولا نظن أن أحداً قال بهذا في يوم من الايام .

★ ★ ★

كان القصد مما ذكرناه حتى الآن اقامة الدليل على بطـلان مازعمـه بعضهم من وجود فوارق كبيرة بين لهجات الجنوب والعربية الشمالية ، ولكن

١ ــ انظر معجم البلدان لياقوت والقاموس للفيروز آبادي

كل ذلك قد لايكفي، وقد يطالبنا القارىء بأدلة تثبت صحة ماندعيه من ان عربية الشمال وعربية الجنوب ليستا غير لهجتين من لسان واحد .

وهذا مانحن فاعلوه باذن الله .

ب ـ أدلة اثبات :

١ ـ تتفق الجنوبية مع الشمالية في عدد الأصوات اللغوية وصفاتها، فكلتاهما تتألف ابجديتها من ثمانية وعشرين صوتاً لاأكثر ولا أقل[١] هي : ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ . وهذا الاتفاق التام في الأصوات، عدداً وصفات، لايتأتى إلا للهجات شديدة التقارب . أما الألسن المتباعدة فيتعذر ان تتفق في أصواتها، بل ان اللهجات نفسها كثيراً ماتختلف في أصواتها . انظر مثلاً الى لهجات العربية الشمالية قديماً وحديثاً لترى بنفسك مقدار مابينها من اختلاف في الاصوات. فاذا اتحدت الجنوبية والشمالية في عدد الاصوات وصفاتها فعلام يدل ذلك ان لم يدل على ان الاثنتين لهجتان من لسان واحد ؟

٢ ـ كل ماكشف من قواعد الصرف في الجنوبية يتفق تمام الاتفاق مع مثيله من قواعد صرف الشمالية . وإليك جدولاً يبين ذلك[٢] :

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
المجرد	فعل ـ فعلل	فعل ـ فعلل
المزيد بحرف	هفعل ـ فعّل ـ فاعل	أفعل ـ فعّل ـ فاعل
مصادر المزيدات بحرف على الترتيب	هفعال ـ هفعلة ـ تفعيل تفعلة ـ فِعّال ـ فِعال	إفعال ـ إفعلة ـ تفعيل تَفعِلة ـ فِعّال ـ فِعال ـ مفاعلة ـ فيعال

١ ـ رموز الابجدية الجنوبية ٢٩ لا ٢٨ . لأن لصوت السين فيها رمزين اثنين احدهما يسمى سيناً والثاني يسمى سمكت

٢ ـ للتوسع راجع كتاب (المختصر) لنويدي .

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
المزيد بحرفين	نْفَعَلَ(١) ـ فْتَعَلَ(١) ـ تفعَّل ـ تفاعل	إنْفَعَلَ ـ إفْتَعَلَ ـ تفعَّلَ ـ تَفَاعَلَ ـ إفْعَلَّ (٢)
مصادر المزيدات بحرفين على الترتيب	نْفِعال (١) ـ فْتِعال(١) تفعُّل ـ تفاعُل	إنفعال ـ إفتعال ـ تفعُّل ـ تفاعُل ـ إفعلال
المزيد بثلاثة أحرف	سْتَفْعَلَ(١)	إستفعل
مصدر المزيد بثلاثة أحرف	سْتِفعال (١)	إستفعال
اسم الفاعل من الثلاثي	فاعِل	فاعِل
اسم المفعول من الثلاثي	مفعول	مفعول
اسم الفاعل من غير الثلاثي	بابدال حرف المضارعة ميماً مضمومة مع كسر ما قبل الآخر	بابدال حرف المضارعة ميماً مضمومة مع كسر ما قبل الآخر
اسم المفعول من غير الثلاثي	بابدال حرف المضارعة ميماً مضمومة مع فتح ما قبل الآخر	بابدال حرف المضارعة ميماً مضمومة مع فتح ما قبل الآخر
اداة التعريف	نون في آخر الاسم	(ال) في اول الاسم
اداة التنكير	ميم ساكنة في آخر الاسم	نون ساكنة في آخر الاسم
المضاعف	لا يدغم المتماثلان (هَجْدَد)	يدغم المتماثلان (أجدّ)

١ ــ العربية الجنوبية لا تثبت همزة الوصل في الكتابة

٢ ــ هذا الوزن غير مؤكد وجوده في الجنوبيـة ، وان كان ذلك محتملا ، وسبب الشك فيه انه والمجرد الثلاثي يكتبان في الخط المسند على صورة واحدة ، لان هذا الخط يخلو من همزة الوصل والشدة كما علمت .

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
المثال	تسقط واوه في المضارع (يعد)[1]	تسقط واوه في المضارع (يعد)
المثال	تسقط واوه في المصدر وتعوض بتاء في الآخر (وعد ـ عدة)	تسقط واوه في المصدر وتعوض بتاء في الآخر (وعد ـ عدة)
المثال في باب افتعل	تبدل واوه تاء وتدغم في تاء الافتعال (وثق ـ تّثق)	تبدل واوه تاء وتدغم في تاء الافتعال (وثق ـ إتّثق)
الأجوف	ترد ألفه الى اصلها في المضارع (ثاب ـ يثوب، شام ـ يشيم)	ترد الفه الى اصلها في المضارع (ثاب ـ يثوب، شام ـ يشيم)
الاجوف في باب افعل	هثاب ـ يُهثيب	أثاب ـ يُثيب
الاجوف في باب فعّل	ثوّب ـ شيّم	ثوّب ـ شيّم
بعض اوزان الاسم المأنوسة	فَعَل(فرس) فَعِل(ملك) فَعُل(رجل) فِعَل(عنب) فِعِل(إبل) فَعْل(برق) فِعْل(رجل) فُعْل(ثمن) فَعال(ثواب) فِعال(حمار) فُعال(غلام) فاعل(حادث) فعيل(قتيل) إفعل(إصبع)	كل هذه الاوزان موجودة في الشمالية كما هو معروف .
التصغير	على وزن فُعَيْل (سُلَيم)	على وزن فُعَيْل (سُلَيم)
التفضيل	على وزن أفعل (أصنع)	على وزن أفعل (أصنع)
اسم المكان	مفعل (مكرب=هيكل)	على وزن مفعل (مطعم)
النسبة	بزيادة ياء مشددة على آخر الاسم (مشرقيّ)	بزيادة ياء مشددة على آخر الاسم (مشرقيّ)
التثنية	بزيادة الف ونون على صورة المفرد (نمر ـ نمران)	بزيادة الف ونون على صورة المفرد (نمر ـ نمران)

١ ـ صورة المثال في حالة الامر غير معروفة ، لانه لم يعثر في النقوش السبئية على صيغة الامر مطلقاً

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
الجمع المذكر السالم	بزيادة واو ونون في حالة الرفع وياء ونون في حالتي النصب والجر	بزيادة واو ونون في حالة الرفع وياء ونون في حالتي النصب والجر
شرط المجموع جمع مذكر سالماً	ان يكون صفة او اسم فاعل او مفعول . ونـدر فيما سوى ذلك	ان يكون علماً أو صفة لمذكر عاقل خالياً من تاء التأنيث وليس على وزن أفعل فعلاء ولا فعلان فعلى ، وشذ في (أرضون ــ سنون ...)
الجمع المؤنث السالم	بزيادة الف وتاء على صورة المفرد (بعلة ــ بعلات)	بزيادة الف وتاء على صورة المفرد (شجرة ــ شجرات)
بعض اوزان جمع التكسير	فُعول (أسود = جنود والمفرد: أسد[1] بالسكون) فُعّال (شراك = شركاء) فعايل (خرايف = سنوات) فعايلة (جرايبة) فعاولة (اداومة = عبيد . والمفرد أدوم = عبد) فُعلاو[2] (حُوَراو = أعيان اشراف) أفعُل (أحمُر = حمير) أفعال (أثمار) أفعِلة (أخرفة = سنوات) مفاعِل (مصانع = قصور) مفاعلة (مشاعة = ولايات)	كل هذه الاوزان موجودة في العربية الشمالية كما هو معروف.

١ ــ الأسد بسكون السين معناه الجندي في لهجة الجنوب ، فهل بين هذه الكلمة وبين كلمة (الأزد) علاقة ، والازد قبيلة يمنية كما نعرف. وتحول السين الى زاي امر تقره القوانين الصوتية ، لانه ، وهو المهموس ، جهر لمجاورته الدال المجهورة فأصبح زاياً . والزاى هو النظير المجهور للسين . إنه تساؤل فقط على كل حال .

٢ ــ لانزال نصر على رأينا في ان العربية الجنوبية كانت تكتب كلماتها مراعية أصولها الاشتقاقية غير عابئة بما يطرأ عليها من اعلال في اللفظ . ونظن ان هذه الواو في فعلاو كانت تلفظ همزة.

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
التأنيث	بزيادة تاء على آخر الاسم (بعل ـ بعلة)	بزيادة تاء على آخر الاسم (زوج ـ زوجة)
المضاف	لا تلحقه نون التعريف	لا تلحقه (ال) التعريف.
الممنوع من الصرف	يمنع من ميم التنكير كل علم على وزن الفعل وكل علم مركب تركيباً مزجياً، وكل صفة على وزن أفعل، وكل جمع على صيغة منتهى الجموع ...	هذه هي قواعد الممنوع من الصرف في العربية الشمالية تماماً .
الاعراب	ضمة في حالة الرفع وفتحة في حالة النصب وكسرة في حالة الجر[1]	وهذا هو حال الشمالية تماماً
النعت	يتبع منعوته في : الافراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث	يتبع منعوته في : الافراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث

هل تشك بعد كل هذه الوجوه من الاتفاق في القواعد مما لا يوجد مثله حتى بين لهجات اللسان الواحد ـ هل تشك في ان العربية الجنوبية والعربية الشمالية لهجتان من لسان واحد ؟ .

٣ ـ تتفق الجنوبية مع الشمالية في اكثر مفرداتها . ولولا خوف الاطالة والاملال لعرضنا على القارىء مئات من المفردات المشتركة بين اللهجتين . واذا كانت مظاهر الاتفاق في المفردات اقل منها في نظام النحو والصرف فهذا لا ينفي ماذهبنا اليه بل يؤكده ، لأن مظهر الاختلاف بين اللهجات يكون في المفردات قبل كل شيء .

---

١ ـ هذا هو رأي غويدي على الاقل . انظر كتابه (المختصر) ص ١٤ .

٤ ـ كل الروايات والاخبار تشير الى ان لهجات الجنوب كانت قبيل ظهور الاسلام شديدة القرب من لهجات الشمال ، فرجال قريش في رحلة الشتاء لم يكونوا في حاجة الى مترجمين للتفاهم مع اخوانهم من عرب الجنوب ، وحين قدم وفد اليمن على رسول الله ﷺ كان التفاهم بين الطرفين في غاية السهولة ، بل ان الرسول الكريم خاطبهم بلهجتهم[1] . فاذا كانت لهجتا الشمال والجنوب شديدتي التباعد فيما مضى فكيف تهيأ لهما هذا التقارب ؟ أكان ذلك نتيجة تطور طبيعي ؟ لا ! . فان اول قانون من القوانين اللغوية يقـــول : ان اللغة في تفتت دائم ، وانقسام لاينتهي ، يتفتت اللسان الواحد الى لهجات ، ثم تتباعد اللهجات وتتباعد حتى تصير كل منها لساناً مستقلاً يصيبه من التفتت ماأصاب الاول وهكذا ...

فاذا كانت اللهجات لاتتقارب تلقائياً فلا بد ـ من اجل ان يحدث التوحيد اللغوي ـ من ان تتغلب احدى اللهجتين على الاخرى بعامل من العوامل المعروفة في مثل هذه الحالة . فأي اللهجتين ابتلعت الاخرى ؟ الشمالية أم الجنوبية ؟

يقرر المستشرقون ان الغالب كان لهجة الشمال . يقول ولفنسون[2] ـ وقوله تكرير لأقوال كل المستشرقين ـ : « ان لهجات الشمال كانت في العصور القريبة من ظهور الاسلام ذات سلطان قوي ونفوذ واسع ، فكانت تبتلع اللهجات الجنوبية ابتلاعاً ، الواحدة منها تلو الاخرى . فاللهجات التي اصبحت سائدة في اغلب اقاليم الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام انما هي الشمالية بعد ان التهمت اكثر اللهجات الجنوبية وتغذت بها » .

---

١ ـ حديث (ليس من امبر امصيام في امسفر)

٢ ـ تاريخ اللغات السامية ، ص ١٦٧

ولكن المستشرقين لايقولون لنا شيئاً عـــن الأسباب التي جعلت لهجات الشمال تبتلع لهجات الجنوب ، بل يكتفون بالقول : « انها كانت ذات سلطان قوي ونفوذ واسع » فمن اين استمدت لهجات الشمال سلطانها هذا؟

اذا عدنا الى القوانين اللغوية في موضوع الصراع اللغوي وجدنا ما يأتي :

حتى يتغلب لسان على آخر ، او لهجة على أخرى ، يجب ان يتسلح باحدي القوى الآتية أو بها جميعاً ، وهي :

١ً ـ القوة الحضارية

٢ً ـ القوة السياسية

٣ً ـ القوة البشرية

فأما في الاولى فكفة لهجة الجنوب راجحة على كفة لهجة الشمال ، فالتاريخ يحدثنا ان الحضارة بجميع مظاهرها الزراعية والصناعية والعمرانية كانت لأهل الجنوب دون اهل الشمال الذين غلبت عليهم البداوة الا في بعض قرى الحجاز التي لم تخل من تأثيرات بدوية كثيرة .

واما الثانية ، فانه وان لم يكن لأحد الطرفين رجحان فيها على الطرف الآخر ، فان اهـــل الشمال كانوا ينظرون الى دول الجنوب نظرة الاعتزاز المشوب بالحب والاحترام ، وكانوا يجدون في تلك الدول التجسيد السياسي للشخصية العربية ، فبالاضافة الى القبائل التي تنتسب الى اليمن مثل طيء ، ولخم وجذام والأوس والخزرج وكندة تلك التي كانت ترنوا بأبصارها الى الجنوب ، نجد قريشاً ترسل وفداً الى اليمن للتهنئة بتحريره

من سلطة الاحباش ، واذا دل هذا على شيء فانما يدل على ان الشماليين كانوا ينظرون الى دول اليمن على انها دولهم هم وان لم يكن لها عليهم سلطان سياسي مباشر .

ومن هذه الزاوية ترجح كفة لهجة الجنوب كفة لهجة الشمال .

واما الثالثة فهي في مصلحة لهجة الجنوب وفي صفها ايضاً ، فقد حدثنا التاريخ عــــن هجرات كثيرة اتجهت من الجنوب الى الشمال ، ولم يحدثنا عن هجرة واحدة اتخذت الاتجاه المعاكس في سيرها . فمن اليمن لامن غيرها انطلقت القبائل الكثيرة بعد خراب سد مأرب لتملأ فجاج الحجاز وهضاب نجد ومشارف الشام والعراق ، حتى باتت هذه القبائل تؤلف نسبة محسوسة في سكان الشمال .

وهكذا ترى ان القول بابتلاع لهجات الشمال لهجات الجنوب يتعارض مع أشد القوانين صرامة واكثرها اطراداً .

ولكن ، اذا انتفى ان تكون لهجات الشمال قد اثرت في لهجات الجنوب (او ابتلعها الواحدة تلو الاخرى) فكيف نفسر هذا التقارب بينها قبيل ظهور الاسلام ؟

هل هناك معجزة ؟

لا . ان العلم لايؤمن بالمعجزات . انه لايرتاح إلا الى التفسيرات الطبيعية البسيطة للظواهر والاشياء . وابسط تفسير لظاهرة هذا التقارب بين لهجات الشمال والجنوب قبيل الاسلام هو ان يقال : انه لم يكن بين هذه اللهجات خلاف كبير في الماضي كما يزعم بعضهم ، بل كان بينها من

الخلاف اليسير مايوجد دائماً بين كل اللهجات التي تنتمي الى لسان واحد ، وان هـــذا الخلاف اليسير استمر يسيراً حتى ظهور الاسلام ، ثم تلاشى نهائياً بغلبة لهجة القرآن التي ملكت اسباب القوة والتغلب الآنفة الذكر .

* * *

ولنعـــد الآن الى النقوش الشمالية ، وهي : الصفوية والثمودية واللحيانية والجاهلية .

لقد اختلفت آراء المستشرقين في امر لسان هذه النقوش :

قالت فئة منهم : ليست هذه نقوشاً عربية ، بل هي آرامية اونبطية فيها الفاظ وعبارات عربية .

وليس لنا مع هؤلاء حديث ، فلسنا في مقام التنازع في هـــذه النقوش ، ولا في ملكيتها الي اي الالسن تعود . وانما نترك لهؤلاء ان يفسروا لنا سبب وجود الفاظ وعبارات عربية في نقوش آرامية او نبطية .

وقالت فئة ثانية : بل هي نقوش عربية فيها تأثيرات آرامية كثيرة ، بحيث يعتبر اللسان الذي كتبت به لساناً يختلف عن اللسان العربي الذي نعرفه في نجد والحجاز .

وعلى هؤلاء نرد بما يأتي :

١ ـ اذا كان لسان عرب مشارف الشام والعراق ـ وهم اصحاب هذه النقوش ـ مختلفاً اختلافاً كبيراً عن لسان اهل نجد والحجاز اثناء

تدوين هذه النقوش ، فيجب ان نجـــد تفسيراً مقبولاً لتشابه اللسانين المذكورين تشابهاً تاماً قبيل ظهور الاسلام ، هذا التشابه الذي اثبتت كل الروايات التاريخية والاخبار الادبية وجـوده . فكلنا يعلم ان شعراء نجـد والحجاز كانوا يفـدون قبيل الاسلام على ملوك المناذرة في الحـيرة وملوك الغساسنة في الشام ، وانهم كانوا ينشدونهم اشعارهم البدوية ، وان هؤلاء الملوك كانوا يتذوقون هـذه الاشعار ويجيزون عليها . ولامعنى لكل هـذا الا ان يكون لسان الشاعر المنشد ولسان الملك المستمع شيئاً واحداً .

فاذا علل المستشرقون هذا التقارب بالابتلاع فقد وقعوا فيما وقع فيه غيرهم ممن قالوا بابتلاع لهجات الشمال لالهجات الجنوب . وما قلناه في الرد على اولئك يصلح بكل تفاصيله للرد على هؤلاء ايضاً .

٢ ـ ان هـــذه النقوش تشتمل على عبارات لاشك في فصاحتها وسلامتها من كل لكنة اعجمية ، مثل : (ونزّل بنيه الشعوب) و (فلم يبلغ ملك مبلغه)(١) . وهذا اكبر دليل على ان لسان كتبة هذه النقوش لم يكن يختلف في شيء عن لسان نجـد والحجاز كما نعرفه قبيل ظهور الاسلام . فان قيل : فما شأن هذه العبارات الاعجمية في النقوش مثل (تي نفس = هذا قبر) و (عـكدي = في الحول) وغيرها مما لايكاد يخلو منه نقش ؟ قلنا : ان هذه العبارات وماشابهها كانت تقليداً كتابياً يتبعه الكتبة في النقوش فقط دون لسان المحادثة العادية . فكلنا يعلم ان الثقافة الآرامية كانت هي المسيطرة على تلك المنطقة لذلك العهد ، وكلنا يعلم ايضاً ان العرب الشماليين قد اخذوا خطهم عـن الخط الآرامي والنبطي ، فـكان طبيعياً ، والحـالة هـذه ، ان يتأثر الكتبة بتقاليد الكتابة الآرامية

---

١ ـ انظر نقش النمارة الذي سبق ذكره .

وان يضمنوا كتاباتهم عبارات آرامية شائعة في الكتابة تظاهراً منهم بالعلم او تظرفاً . أما القول بتأثيرات آرامية في لسان المحادثة لعرب تلك المناطق فهو مما يتعارض مع ابسط القوانين اللغوية ، فهذه القوانين تقول لنا : انه اذا أصاب التشويه لساناً ما لم يضربه في نقطة دون أخرى ، ولم يصب عبارة من عباراته لتسلم منه عبارة أخرى ، بل هو يصيبه في جميع عباراته واساليبه . انظر الى لهجتك العامية الحديثة - سواء اكنت شامياً ام مصرياً ام عراقياً - وقل لي ، هل تجد في لهجتك عبارة واحدة خالصة الفصاحة لم تَشُبْها شائبة عامية ؟ فاذا كان جوابك بالنفي أيقنت معي ان وجود عبارات فصيحة سليمة في لغة النقوش الجاهلية اكبر دليل على فصاحة اللسان الذي كتبت به ، وانه واللسان العربي الشمالي الذي نعرفه قبيل ظهور الاسلام شيء واحد لاشيئان .

وقالت فئة ثالثة : ان لسان هذه النقوش هو لسان العرب الشماليين الجاهليين ، ولكنه بخصائصه التي تظهر له من خلال النقوش يختلف عن لسان القرآن اختلافاً كبيراً .

وليس لهذا القول إلا إحدى نتيجتين اثنتين لاثالثه لها : فاما ان يقول هؤلاء ان اللسان القرآني بخصائصه المعروفة قد نجم من العدم او اخترع اختراعاً ، واما ان يقولوا ان اللسان الجاهلي القديم قد تطور حتى كانت له هذه الخصائص حين ظهور الاسلام .

١ - فأما القول بالاختراع[1] فهو مردود لسببين : اولهما أن التاريخ بكل رواياته الموثوقة يدحض هذا الزعم الأخرق العجيب ، ولايشير

---

١ - قال بذلك من المستشرقين فولرز وكوهين ، ومن الباحثين العرب الدكتور ابراهيم انيس وسيكون لنا رد اوسع على هؤلاء عند الحديث عن ظاهرة الاعراب في العربية .

ـ حتى في أضعف أخباره ، بل حتى في خرافاته ـ الى ان احداً اخترع هذا اللسان العربي المبين . بل لو لم يكن هناك تاريخ موثوق ، ولو لم يكن هناك تواتر في الرواية ، لكانت المحاكمة العقلية الصحيحة وحدها كافية لرفض فكرة الاختراع ، اذ كيف يعقل ان يخترع فرد أو أفراد قلة لساناً على مثل هذا النظام والتعقيد ثم يفرضوه على معاصريهم ، ويحملوهم عليه حملاً ، وليس لهم سلاح من سلطان اونفوذ ؟ ان فرنسا بكل جيوشها ، وحضارتها وعلمها ، ومدارسها ، وارادتها المصممة ، وحماستها الحارة ، لم تستطع ان تفرض لسانها على الجزائريين خلال مائة وثلاثين عاماً . فكيف استطاع حفنة من النحاة البسطاء ان يفرضوا خصائص لغوية للسان لايعرفها ثم فرضوا مااخترعوا على ملايين من البشر في فترة محدودة من الزمان دون ان تبدر من هذه الملايين اية بادرة من مقاومة او احتجاج ؟ والسبب الثاني هو ان فكرة الاختراع اللغوي مرفوضة بقوانين علم اللغة نفسه ، اذ تعلن هذة القوانين ان الاختراع في اللغة مستحيل ، وان كل المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ـ كلسان الاسبرانتو مثلاً ـ باءت بالاخفاق ، وماتت في مهدها ، ولم يبق منها غير ذكرى ، أو غير شاهد من الشواهد الكثيرة على حماقات الانسان حين يحاول ان يغير من طبائع الاشياء ، وان يتدخل في امر النواميس الكبرى التي تحكم الكون وحياة الانسان .

٢ ـ واما القول بالتطور فلا نرفضه ، بل نحن ممن يقول به ايضاً . لكن نقطة الخلاف بيننا وبين اصحاب هذا الرأي هي في مدى هذا التطور لافي وجوده . فهذه النقوش كتبت في الفترة بين القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد . فاذا كان ظهور الاسلام في القرن السادس الميلادي ، واذا كان اللسان القرآني قد تمت له خصائصه المعروفة قبل

الاسلام بقرن واحد على الاقل - كما تشير الى ذلك الاشعار الجاهلية - فان الفترة التي اجتازها اللسان العربي في تطوره حتى انتقل من مرحلة الى مرحلة أخرى بينها هذا القدر الكبير من الاختلاف المزعوم لاتزيد على قرن او قرنين اثنين من الزمان . وهذه فترة قصيرة جداً ، وغير كافية لانضاج تطور كبير . ويؤيدنا فيما نذهب اليه أمور :

آ - أولها أنه وان كانت كل الألسن خاضعة لقانون التطور ، إلا ان بعضها يبدي من المقاومة لهذا القانون اكثر مما يبديه الآخر ، وقد اتسم تاريخ العربيه خلال كل العصور بشدة المحافظة وعدم الاستسلام للتطور العنيف السريع . يعترف بذلك المستشرقون انفسهم حين يقررون أن العربية أقرب اخواتها الساميات الى الأم ، وانها احتفظت بأشكال قديمة من أمها لاأثر لها في اخواتها . كما يشهد على ذلك ايضاً تاريخ تطورها منذ ظهور الاسلام الى اليوم ، فبعد اربعة عشر قرناً من التطور لم ينقطع التفاهم بين المتكلم بالفصحى والسامع العامي ، هذا الانقطاع الذي يعده علماء اللغة الحد الفاصل بين الألسن . وهذه فترة طويلة تغيرت فيها السن كثيرة عدة مرات .

قد يقال : ولكن الفضل في هذه المحافظة يرجع الي القرآن الكريم وهو عامل لم يكن في الجاهلية . وهذا صحيح ، ولكننا نقول : إنه اذا كان قد تهيأ للعربية بعد الاسلام عامل امساك وكبح جماح يتمثل في القرآن الكريم ، فانها قد تعرضت في الاسلام الى عوامل تسريع في التطور لم تتعرض اليها في الجاهلية ، ونعني بذلك هذا الصراع العنيف الذي خاضته ضد الالسن المحلية في البلاد المفتتحة ، ثم هذا الاتساع الهائل في الرقعة بعد ان صارت لغة المحادثة لكل الاقوام الساكنة مابين حدود

الهند شرقاً وجبال البرانس غرباً . فاذا تساقط العاملان : عامل الكبح وعامل التسريع ، ظل صحيحاً ماقلناه من ان سمة المحافظة وعدم الخضوع للتطور العنيف السريع من أبرز سمات العربية .

ب ـ الثاني ان طبيعة البلاد التي عاشت فيها العربية الجاهلية تمنع من حدوث تطور عنيف سريع في اللغة . اذ يقرر فقه اللغة ان اللغة يتجاذبها دائماً عاملان : عامل توحيد وثبات ، وعامل تفريق وتغيير[1] ، وأن طبيعة الارض تتدخل في كثير من الاحيان فتغلب احد هذين العاملين على الآخر : ففي المناطق التي تشح فيها الطبيعة على الانسان فلا تقدم البقعة المحدودة من الارض مايكفي سكانها يضطر هؤلاء السكان الى الرحلة والنقلة لسد حاجاتهم الحيوية ، فينشأ عن ذلك تمازج واختلاط مستمر بين سكان المنطقة ، وكل ذلك يؤدي الى ثبات اللغة وعدم انقسامها الى لهجات كثيرة ، لأن اي انحراف يظهر فيها على شفاه قبيلة ما سرعان مايتصحح عند انتقال هذه القبيلة واحتكاكها بالقبائل الاخرى ومشافهتها لها . وعلى العكس من ذلك ، اذا كانت الطبيعة سخية ، وكانت كل بقعة من الارض قادرة على كفاية سكانها وسد حاجاتهم الحيوية الضرورية ، انعزل الناس في بقاعهم بعضهم عن بعض لعدم الحاجة الى التنقل ، وسلكت اللغة على شفاههم مسالك متعددة بعدد الوحدات البشرية المنعزلة ، وادى ذلك كله الى تفتت اللسان الواحد الى لهجات كثيرة يزيد البعد بينها كلما تقدم الزمان . فللسبب الاول كان لسان الاسكمو واحداً وعصياً على التطور على الرغم من اتساع بقاعه حول القطب الشمالي ، وللسبب الثاني كان اللسان الفرنسي متعدد اللهجات شديد الاختلاف بينها ، حتى انك

---

١ ـ انظر : ابراهيم السامرائي : التطور اللغوي التاريخي ، ص ٢١ ومابعدها

تحس بالفوارق اللغوية في فرنسا كلما انتقلت من قرية الى اخرى ، بل كلما انتقلت من حي الى حي في القرية الواحدة .

ج ـ الثالث هو ان هـــذا التطور المزعوم للعربية في خلال قرنين من الزمان لم يحـــدث مثله ـ في شدته وعنفه ـ حتى للفرنسية والانكليزية اللتين ضربتا الرقم القياسي في سرعة التطور .

فاذا انتفى ان تكون عربية القرآن اختراعاً وتلفيقاً ، واذا بطل ان تكون قد استكملت خصائصها نتيجة تطور خلال قرنـــين فقط من الزمان ، لم يبق الا شيء واحد ، وهو : ان هذه العربية القرآنية قديمة بخصائصها وان لسان النقوش التي دونت في القرنين الثالث والرابع الميلاديين هو نفسه اللسان العربي الشمالي الذي كان لقريش وسكان نجد والحجـاز بكل مانعرف من صفاته وخصائصه .

★ ★ ★

نريد من كل ماتقدم ان نخلص الى القول :

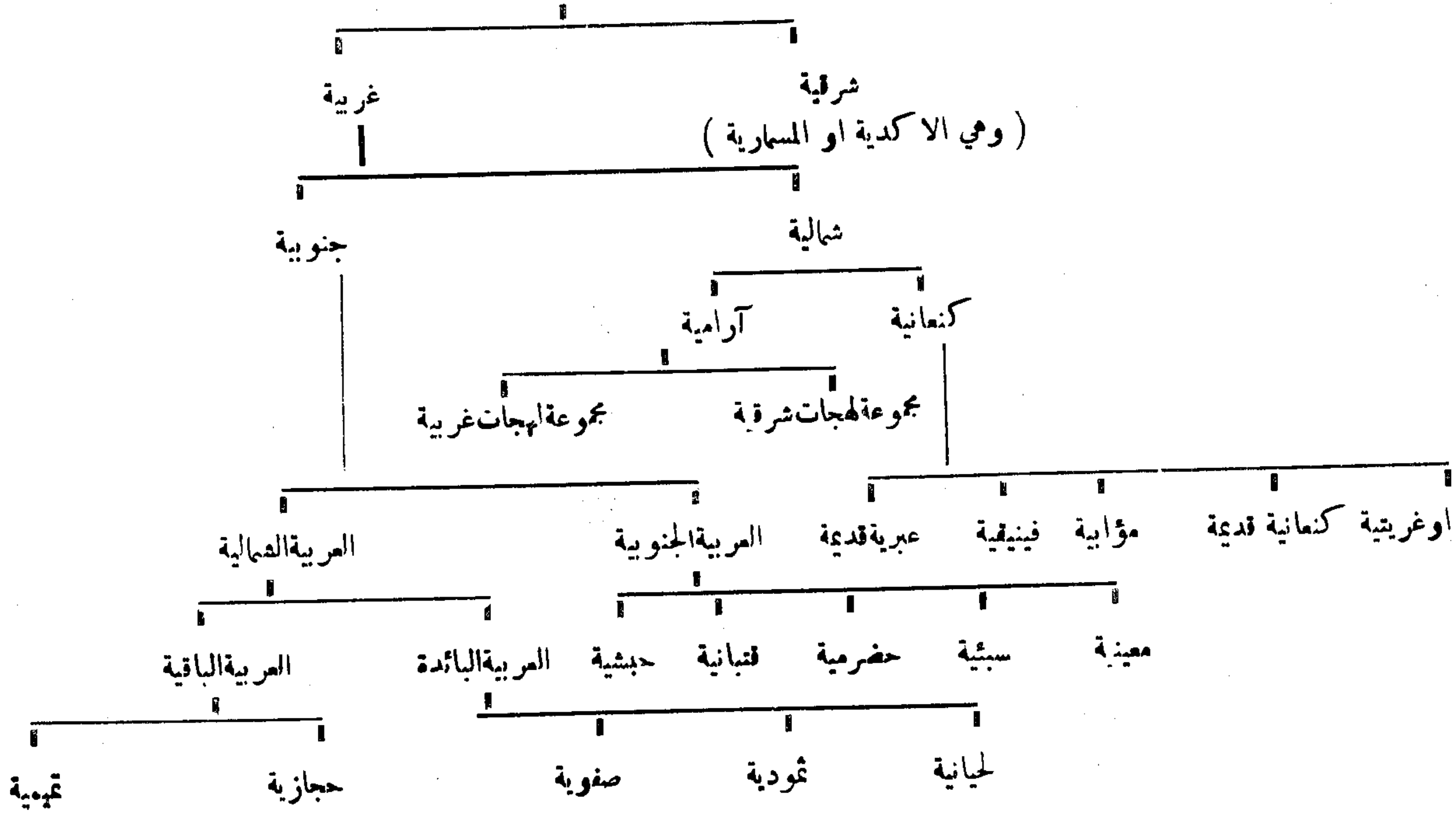
١ ـ إنه لم يكن في جزيرة العرب الا لسان عربي واحـــد يتكلمه اهل الشمال واهل الجنوب على حد سواء ، وان الاختلاف بين لهجاته لم يكن اوسع ممـا تجيزه وتقبله قوانـين اللغة بـــين لهجـات اللسان الواحد .

٢ ـ ان اللسان العربي الذي وصلنا عن طريق القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الجاهلي لسان طبيعي بكل معاني الكلمة ، نشأ نشأة طبيعية ، وتطور تطوراً طبيعياً ، ولا يزال حتى اليوم يسلك خطه الطبيعي في التطور .

٣ ـ ان هذا اللسان العربي بكل خصائصه وصفاته قديم تمتد جذوره في الجاهلية قروناً عديدة اكثر مما يقدره له المستشرقون .

* • • •

شجرة الالسن السامية



عن كتاب : دراسات في فقه اللغة ، ص ٧١

الباب الثالث

الأصوات

علوم الأصوات اللغوية

عنصر الاصوات هو أحد العناصر الثلاثة التي تتألف منها اللغة المنطوقة ، وهي عنصر الاصوات ، وعنصر المفردات ، وعنصر التراكيب .

والعلم الذي يدرس الاصوات اللغوية يدعى بعلم الاصوات اللغوية (La Phonétique) . وهو ينقسم الى اربعة اقسام :

علم الاصوات الوصفي : وهو العلم الذي يتناول بالدراسة عنصر الاصوات للسان ما في فترة ما . فاذا اقبل باحث على لسان من الالسن فدرس عنصر الاصوات فيه ، ايقفنا على مافي هذا اللسان من اصوات ، وعلى مخارجها وصفاتها وخصائصها ، وعلى مايعتري هذه الاصوات من تغير وتبدل لمجاورة بعضها لبعض ... الخ . فعمله يدخل فيا يسمى بعلم الاصوات الوصفي : ومن ذلك مباحث علم التجويد في العربية .

علم الاصوات التاريخي : وهو العلم الذي يتتبع اصوات لسان ما خلال فترة طويلة من الزمن ليقف على التغيرات التي اصابت اصوات هذا اللسان ، وعلى القوانين التي حكمت هذه التغيرات .

علم الاصوات المقارن : وهو العلم الذي يقيم الموازنة بين اصوات

لسانين او اكثر ليكشف عن وجوه الاتفاق والاختلاف بينها .

علم الاصوات العام : وهو العلم الذي يدرس عنصر الاصوات في اللغة عامة ، فيدرس الجهاز الصوتي عند الانسان ، ووظيفة كل عضو في هذا الجهاز ، ويبحث في الطرق المختلفة لانتاج الصوت ، ويصنف الاصوات ويحاول بعد استقراء كل الالسن ان يجد الاسباب التي تتسبب في التبدلات الصوتيه ، الى آخر ما هنالك من المباحث التي تصدق على كل لسان ولاتختص بلسان دون آخر .

هذا . ويتفرع على علم الاصوات اللغوية علم حديث النشأة اسمة علم وظائف الاصوات[1] (La Phonologie) . والفرق بين العلمين ان الاول يدرس الاصوات اللغوية وكأنها مجرد حوادث فيزيائية لاعلاقة لها باللغة التي هي احد عناصرها ، فيهتم بمخارجها وصفاتها ومقادير شدتها وعدد ذبذباتها واطوالها وما الى ذلك . بينما يهتم الثاني بوظيفة كل صوت في اللغة ، فيتساءل عن كثرة ورود هذا الصوت او قلته في هذا اللسان ، وعن امكان وجوده في هذا المقطع او ذاك ، وعن قبول مجاورته لذاك الصوت او عدم ذلك . الى آخر ماهنالك من المباحث التي ترمي الى وضع القواعد الصوتية التي تجري عليها الاصوات في لسان ما ، من غير الحاح على الطبيعة الفيزيائية للأصوات ، هذا الالحاح الذي يميز علم الاصوات من علم وظائف الاصوات .

---

١ ـ ويسميه الدكتور تمام حسان بعلم التشكيل الصوتي . انظر كتابه (مناهج البحث في اللغة) ص ١١١ ومابعدها .

هذا ، وان قولنا عن علم وظائف الاصوات انه علم حديث النشأة ليس صحيحاً كل الصحة ، فالواقع ان كثيراً من مباحث هذا العلم عرفت عند العرب قديماً ، فقولهم عن النون والراء انهما لاتجتمعان في صدر كلمة عربية[1] ، وملاحظاتهم الكثيرة لمــا يستحسن من تراكيب الحــروف ومايستقبــح ، كل هذا وغيره ليس الا من لب المباحث الفونولوجية . بل أن الكنعانيين الذين وضعوا اول ابجدية في العالم لم يستطيعوا ذلك إلا بعد ان اجروا تحليلاً فونولوجياً للسان الكنعاني .

فقولنا ان عـلم وظائف الاصوات حديث النشأة لايقصد منه أنـه خلق حديثاً من العدم ، بل المقصود أن جمـع هـذه المباحث النابعة من وجهة نظر لغوية الى الاصوات تحت اسم واحد هو الامر الحديث ، أما المباحث نفسها فهي قديمة ، عند العرب على الاقل .

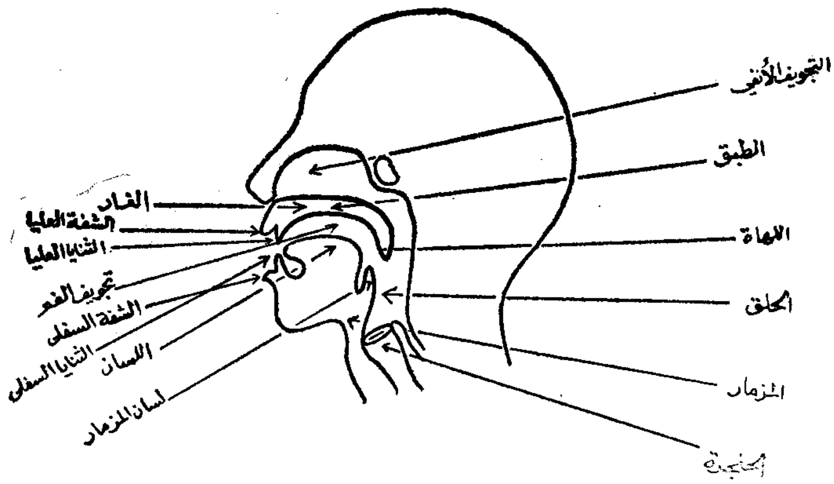
واخيراً لابد من الاشارة الى اننا لن نفرد لـكل من هذه العلوم فصلاً خاصاً ، بل سنجمع بينها جميعاً في باب واحد وذلك لعدة اسباب ، اهمها ان مباحث هـذه العلوم شديدة التشابـك ، ولاسيما علمـا الاصوات ووظائف الاصوات ، وان حجم الكتاب المقدر له لايسمح بذلك . والقارىء نفسه وقد عرف حدود كل علم وميدانه الخاص ، يستطيع ان يميــز من الفقرات بين ماهو من هذا العلم او من ذاك .

---

١ ـ لذلك حكموا بعجمة كلمة (نرجس) وماشابهها لانها ألفت بــين اصوات لاتؤلف العربية بينها في كلماتها .

الجهاز الصوتي

يتألف الجهاز الصوتي في الانسان من الاعضاء الآتية



١ ـ الرئتان :

ويقتصر عملها على امـــداد الجهاز الصوتي بالهواء اللازم لاحداث الصوت .

٢ ـ القصبة الهوائية :

وتسمى بالرغامى . وهي قناة غضروفية تصل مابين الرئتين والحنجرة .

وقد كان يظن قديماً ألا أثر لهـا في الصوت اللغوي ، وانها مجرد طريق للهواء . ولكن البحوث الحديثة برهنت على انها تستغل في بعض الاحيان فراغاً رناناً ذا اثر بيّن في درجة الصوت ، ولاسيا اذا كان الصوت عميقاً .

٣ ـ الحنجرة :

وهي حجيرة غضروفية متسعة بعض الاتساع . ويدعى جزؤهـا البارز من الامام تفاحـــة آدم . وأهم أجزائهـا في عملية التصويت هما الوتران الصوتيان .

٤ ـ الوتران الصوتيـان :

وتسميتهما بهذا الاسم مجازية ، فليسا وترين بالمعنى المعروف من كلمة وتر ، بل هما رباطان مرنان يشبهان كل الشبه الشفتين ، ويمتدان في داخل الحنجرة افقياً من الخلف الى الامام ، حيث يلتقيان عند ذلك البروز الذي نسميه بتفاحة آدم . أما الفراغ الذي بينهما فيسمى بالمزمار . وفوق المزمار زائدة لحمية تدعى لسان المزمار ، وظيفتها الاصلية ان تكون صماماً يحمي طريق التنفس اثنـاء عملية البلع ، اذ تتراجع هـذه الزائدة فتسد فتحة المزمار حين مرور الطعام الى المريء .

اما الوتران فلا يهتزان اذا كانا متباعدين وكانت فتحة المزمار بينهما واسعة ، ولكن اذا تقاربا ولم يتركا للهواء المندفـع من الرئتين غـير ممـر ضيق فان الهواء يضرب بهما فيهتزان ويحدثان الصوت ، ثم تقوم تجاويف

الحنجرة والحلق والفم بتضخيم الصوت المنبعث منها كما يفعل تجويف العود والآلات الموسيقية الأخرى حين تضخم اصوات مايشد عليها من أوتار .

٥ ـ الحلق :

وهو الجزء الذي بين الحنجرة والفم . والى جانب كونـه مخرجاً لعدد من الاصوات اللغوية يستخدم ، كما قلنا ، في تضخيم الصوت المنبعث من الوترين في الحنجرة .

٦ ـ اللسان :

وهو قطعه عضلية شديـدة المرونـة ، ويعد اهم عضو في الجهـاز الصوتي كله . فبأوضاعه المختلفة الـتي يتخذها اثناء التكلم تتباين الاصوات اللغوية وتتمايز . وقد قسمه علماء الاصوات الى ثلاثة اقسام : اولهـا أول اللسان بما في ذلك طرفه ، والثاني وسطه ، والثالث اقصاه .

٧ ـ الحنك الاعلى :

ويسمى بسقف الفـــم ايضاً . وينقسم الى قسمين : الاول امامي صلب يدعى الغار ، والثاني خلفي رخو يدعى الطبق .

٨ ـ اللهاة :

هي الزائدة اللحمية التي ينتهي بها الجزء الخلفي الرخـو من الحنك

الاعلى .

٩ ـ الاسنـان :

وهي قسمان علوية وسفلية .

١٠ ـ أصول الاسنان .

وتسمى اللثة ايضاً .

١١ ـ الفراغ الأنفي :

وهو الفراغ الذي يندفع خلاله النفس اثناء انغلاق طريق الفم .

١٢ ـ الشفتان :

وهما عضلتان مستديرتان ينتهي بهما الفم .

كيف يحدث الصوت اللغوي
(الجهر والهمس)

حين يندفع الهواء من الرئتين ويدخل الحنجرة يجـــد نفسه أمام احدى حالتين : فاما ان يجـد الوترين الصوتيين مشدودين وفتحة المزمار

شديـدة الضيق ، واما ان يجـد الوترين متراخيين وفتحة المزمار واسعة ، ففي الحالة الاولى يحتك بالوترين بعنف فيهزهما عدداً من الهزات في الثانية يكثر اويقل بحسب شدة توترهما اوضعفه ، وينتج من هذا الاهتزاز صوت تقوم الحنجرة والفراغات الاخرى التي سبق ذكرها بتضخيمه . وفي الحالة الثانية يمر الهواء من فتحة المزمار من غير ان يهز الوترين .

وفي كلتا الحالتين يخرج الهواء من الحنجرة ليسلك طريقه في الفم ، وهنا يجد نفسه مرة أخرى امام احدى حالتين : فاما ان يجـــد طريقه مفتوحاً لاتعترضه عقبة من الحنجرة حتى خارج الشفتين ، واما ان يجـد هذا الطريق قد انسد في نقطة منه انسداداً كلياً او جزئياً . ففي الحـالة الاولى يمر حتى يخرج من الشفتين من غير ان يحدث صوتاً ، وفي الحـالة الثانية يحتك بأعضاء النطق عند نقطة الانسداد فيحدث صوتاً مرة اخرى .

وهكذا ترى ان كل صوت لغوي لايخرج عن ان يكون واحـداً من ثلاثـة : فاما ان يعتمد في التصويت على الوترين فقط ، واما على نقطة الانسداد فقط ، وإما على الامرين جميعاً .

وقد اجمع اللغويون حـــتى الآن على تصنيف الاصوات اللغوية الى صنفين : مجهور ، ومهموس .

فالمجهور ماتحرك معه الوتران الصوتيان ، والمهموس مالم يتحرك معه الوتران . وفي رأينا ان هـذا التصنيف ناقص ، لانـه يسقط من اعتباره نقطة الانسداد الفموي ، ويركز نظره على الوترين وحدهما . ويؤدي الامر الى ان يدخل تحـت اسم المجهور صنفان من الاصوات لاصنف واحـد ،

صنف كل تصويته من الوترين فقــــط ، وصنف له الى جانب التصويت الوتري عنصر صـوتي ناتج من احتكاك الهواء باعضــاء النطق عنـد نقطة الانسداد .

لذلك نرى ان تصنف الاصوات اللغوية الى صنفين : أحادية التصويت وثنائيته ، ثم ان تقسم احادية التصويت الى قسمين : وترية ، صوتها من الوترين فقط ، وانسدادية صوتها من نقطة الانسداد فقط .

وهكذا يكون لدينا ثلاثة انواع للصوت اللغوي :

١ ـ احادية التصويت وترية : منها صوتا النون والميم[1] ، واصوات الفتحة والضمة والكسرة وما كان من فصيلتها .

٢ ـ احادية التصويـــــت انسدادية : منهـــا الفاء والسين والحـــاء والخاء . . . وغيرهـــا .

٣ ـ ثنائية التصويت : منها الباء والدال والذال والزاي ... وغيرها ومع هذا سنظل جارين على ماانعقد الاجماع عليه الى ان يعيد اللغويون

---

١ ـ في صوتي الميم والنون يحـــدث انسداد قوي كامـــل . ولكن ليست الغاية من هذا الانسداد احداث صوت في نقطته ، بل الغـــاية منه تحويل مجرى الهواء الى الانف ، فمع هذين الصوتين ينخفض حجاب الحنك ويمـــر الهواء في التجويف الانفي لافي الفم . والدليل على مانقول ان الجهر لو توقف في الميم والنون لم يسمع منها شيء ، وهذا هو شأن اصوات الفتحة والضمة والكسرة .

النظر في تصنيفهم الذي لايصور كل الحقيقة الصوتية الاصوات اللغوية .

تصنيف الأصوات اللغوية

التصنيف الاساسي المتبع للاصوات اللغوية هو قسمتها الى :

١ ـ أصوات طليقة : voyelles

٢ ـ أصوات حبيسة[١] : Consonnes

---

١ ـ الطليقة والحبيسة تسميتان نقترحهما لهذين الصنفين من الاصوات لما فيهما من اشارة الى الفرق الجوهري بين نوعي الاصوات هذين . وللغويين المحدثين من العرب تسميات مختلفة ، وكلها لايفي بالمراد لعدم تضمنه الاشارة الى طبيعة الخلاف بين الصنفين . فالدكتور تمام حسان يسميهما بالصحاح والعلل (انظر كتابه : مناهج البحث) ، والدكتور محمود السعران يدعوهما بالصوائت والصوامت (انظر كتابه : علم اللغة) والاستاذان الدواخلي والقصاص مترجما كتاب فندريس يسميانهما بالسواكن والحركات ، أما الدكتور ابراهيم انيس فيسميهما بالسواكن واصوات اللين (انظر كتابه : الاصوات اللغوية) .

فأما تسمية الدكتور حسان فتصلح في مقام الصرف لا في مقام الاصوات لما فيها من الاشارة الى ثبات بعض الاصوات عند التصريف واختلال بعضها الآخر بالحذف والتغيير ، واما تسمية الدكتور السعران ففيها شيء من الغرابة والتناقض اذ كيف يسمى الصوت صامتاً ؟ ! واما اصطلاح الدواخلي والقصاص ففيه التباس بين الساكن الذي لاتتلوه الحركة والساكن الذي بمعنى (consonne) . ومثل هذا يقال في اصطلاح الدكتور ابراهيم انيس .

والصوت الطليق هو الصوت الذي يجري معه النفس طليقاً لايعترض طريقه عقبة حتى يخرج من الفم .

واما الصوت الحبيس فهو الصوت الذي يحدث معه انسداد جزئي او كلي في نقطة من نقاط القناة الصوتية .

تصنيف الأصوات الحبيسة

في كل صوت حبيس نقطة انسداد للقناة الصوتية . هـــذه النقطة قد تكون في اول القناة ، او في نهايتها ، او فيما بين ذلك .

والانسداد على درجات : فقد يكون تاماً . وقد يكون ناقصاً ، وقد يكون شبه معدوم .

وفي احداث كل صوت حبيس يشترك عـدد من اعضاء النطق ، ويتخذ الفم واللسان اوضاعاً مختلفة تعطي كل صوت حبيس طابعه الخاص .

فعلى هذا يمكن تصنيف الحبيسات ثلاثـة تصنيفات : تصنيفاً ينظر فيه الى مكان الانسداد ، وآخر ينظر فيه الى درجـــة الانسداد وثالثاً ينظر فيه الى الاعضاء المشتركة في عملية النطق ، والاوضاع المختلفة لهذه

الاعضاء . ويسمى ذلك اختصاراً بطريقة النطق (mode d' articulation)

آ - التصنيف بحسب نقطة الانسداد :

تسمى النقطة التي يجـري عندها الانسداد بالمحبس[1] (point d' articulation) . واليك نقاط الانسداد والاصوات الحادثة فيهـا :

١ - محبس الشفتين : وفيـه تلتقـي الشفة السفلى بالشفة العليا . فاما ان تلتحما فتمنعا الهواء من المرور ، وهـذا شأنهما مـع الباء والميم . واما ان تكتفيا بالتقارب الشديد الذي لايمنع من نفوذ الهـــواء من بينهما وهذا شأنهما مع الواو .

الاصوات العربية التي تحدث في هذا المحبس هي الباء والميم والواو ، وبعض الالسن الاعجمية تضيف على ذلك صوت (P) .

٢ - المحبس الشفـوي الاسناني : وفيه يلتقي باطـن الشفة السفلى مع اطراف الثنايا العليا التقاءً يترك بينهما فرجة ضيقة جـــداً ينفذ منهـا الهواء . ولاتملك العربية من هـــذا المحبس إلا صوت الفاء . أما بعض الاعجميات فتحدث فيه صوتاً آخر هو صوت (V) .

محبس مابين الاسنان : وفيـه تتقارب الثنايا السفلى من الثنايا العليا

---

١ - وهذه تسمية اخرى نقترحها بدلاً من كلمة (مخرج) التي اتفق عليها القدماء والمحدثون من اللغويين . وذلك لأن كلمة (مخرج) تدل، كما يشير الى ذلك اشتقاقها ، على المـكان الذي يخـــرج منه النفس او الصوت لاعلى مكان الانحباس . واذا كانت نقطة الانسداد ونقطة الخروج واحدة في كثير من الاصوات ، فانها ليست كذلك مـع بعضها . الا ترى ان نقطة الانسداد مع الميم هي الشفتان ، وان مخرج صوت الميم من الانف ؟

ثم يأتي طرف اللسان ليكون بينهما . والاصوات الحادثة من هـذا المحبس هي الثاء والذال والظاء .

٤ ـ محبس الاسنان واللثة : وفيه يعتمـد طرف اللسان على باطن الثنايا العليا ، ومقدمه على اللثة ، فان كان هذا الاعتماد قوياً وكان الالتحام تاما حدثت اصوات الضاد والدال والطاء والتاء ، وان كان الاعتماد ناقصاً وكانت هناك فرجة حدثت اصوات الزاي والسين والصاد .

٥ ـ المحبس اللثوي : وفيه يلتقي طرف اللسان باللثة . فان كان الالتحام بينهما تاماً وامتنع الهواء من المرور وتحـــول الى مجرى الانف حدث صوت النون ، وان سمـح للهواء بالانسياب على حافـتي اللسان ، او على احـداهما حـدث صوت اللام ، وان تكرر الالتقاء على شكل ضربات من طرف اللسان على اللثة حدث صوت الراء .

٦ ـ المحبس الغاري : وفيه يلتقي مقدم اللسان وجزء من وسطه بمقدم الحنك الاعلى الذي سميناه الغار . فان كان الالتحـام يمنع من مرور الهواء حدث صوت الجيم ، وان كان غير ذلك حدث صوتا الياء والشين .

٧ ـ المحبس الطبقي : وفيه يلتقي اقصى اللسان باقصى الحنك الذي سميناه الطبق . فان كان الالتحام تاماً حدث صوت الكاف ، وان كان غير ذلك حدث صوتا الغين والخاء .

٨ ـ المحبس اللهوي : وفيـــه يلتحم اقصى اللسان باللهاة ، وهي

الزائدة اللحمية التي ينتهي بها الطبق . ومن هذا الحبس يحـــدث صوت القـاف .

٩ ـ الحبس الحلقي : وفيه تتقارب جـدران الحلق حـتى لاتترك بينهـا الا فرجة صغيرة يمر منهـا الهواء . ومن هذا الحبس يحـدث صوتا العين والحاء .

١٠ ـ الحبس الحنجري : وفيه يلتقي احد الوترين الصوتيين بالآخر . فان التحما فلم يسمحا للهواء بالنفوذ حـدث صـوت الهمزة ، وان اكتفيـا بالتقارب حدث صوت الهاء .

ب ـ التصنيف بحسب درجة الانسداد :

ويمكن ان نعكس العبارة فنقول (درجة الانفتاح = degré d' aperture) وإليك هذه الدرجات وما ينتج عنها من اصوات :

١ ـ الانفتاح المعدوم : وفيه تنقبض أعضاء النطق ، ويلتقي بعضها ببعض في الحبس ، في التحـام تام لايسمح للهواء بالنفوذ إلا بعـــد ان ينفصل بعضها عن بعض انفصالاً مفاجئاً . وهذه الآلية في النطق تسمى بالانفجار . وهي تتألف من ثلاث مراحل : مرحلة الحبس ، وفيها يـتم التحام اعضاء النطق في الحبس ، ومرحلة الامساك ، وفيها يستمر الالتحام مدة تطول او تقصر بحسب الصوت المراد احداثه ، بينما يكون الهواء في حالة تراكم وانضغاط خلـف الحبس ، ومرحلة الانفجار ، وفيهـا تنفصل اعضاء النطق بعضها عن بعض في حركة فجائية ، فيندفع الهواء المنضغط

المحبوس محدثاً في اندفاعه فرقعة تشبه صوت الانفجار .

والاصوات العربية المحـــدثة بهذه الطريقة هي : الباء ، والتاء ، والدال ، والضاد ، والطـاء ، والـكاف ، والقـاف ، والهمزة . وتسمى بالاصوات الانفجارية ، والنحاة القدماء ، وبعض اللغويـــين المحدثـــين يسمونها بالشديدة .

٢ ـ الانفتـاح الضيق : وفيه تتقارب اعضـاء النطق في المحبس تقارباً شديداً بحيث لاتترك للهواء الا منفذاً ضيقاً يمر منه محدثاً باحتكاكه باعضاء النطق صوتاً ضعيفاً يشبه صوت الحفيف . وهـذه الآلية في النطق تدعى بالاحتكاك والاصوات المنبعثة بوساطتها هي : الثاء ، والحاء ، والخاء والذال ، والزاي ، والسين ، والشين ، والصاد ، والظـاء ، والعـين ، والغين والفاء . وتسمى اصواتاً احتكاكية ، والنحاة القدماء وبعض اللغويين المحدثين يسمونها اصواتاً رخوة .

هذا وللانفتاح الضيق درجات : فمنه الضيق ، ومنه الأضيـــق . وكلما اشتد الضيق زاد الاحتكاك وارتفع الصوت تبعاً لذلك . وفي حالات التضيق الشديد جداً يتحول الصوت المنبعث الى مايشبه الصفير الحـــاد . ولهذا سميت السين والزاي والصاد بالأصوات الصفيرية .

٣ ـ التراخي : وهي آلية نطقية مزيج من آليـــتي الانفجـار والاحتكاك . ففي مرحلتيها الأولى والثانية تشبه آلية الانفجار تماماً . اي حبس ثم امساك . أما مرحلتها الثالثة فلا يحـدث فيهـا مايحدث في آلية

الانفجار من انفصال مفاجيء لاعضاء النطق ، بل يحدث هـذا الانفصال بصورة تدريجية الى ان ينتهي الى احداث انفتاح ضيق يمر منه الهواء من غير فـرقعة محـدثاً احتكاكاً كالذي رأيناه في آلية الاحتكاك . فالتراخي يبدأ انفجاراً وينتهي احتكاكاً ، او هو - كما قال فندريس[1] - مشروع انفجار فاشل .

ولا تملك العربية من الاصوات المحدثـة بهذه الطريقة غـير صوت واحد هو صوت الجيم .

٤ - تحويل مجرى الهواء : وهذه آلية نطقية أخرى يكون فيها الانسداد الفموي تاماً بحيث لايسمح للهواء بالنفوذ ، ولكن الهواء لايتراكم خلف المحبس لينفجر عنـــد انفصال اعضاء النطق ، بـل يتخذ طريقه في الانف بعد ان يكون حجاب الحنك الأعلى قد ارتخى وفتح له طريق الحفر الانفية . ولاشك ان الفراغ الأنفي مهما كان ضيقاً هـــو ارحب للهواء من الفجوة الضيقة التي تتركهـا له آلية الاحتكاك ، ولهـذا كانت هذه الآلية بعد آلية الاحتكاك في الترتيب .

والصوتان العربيان اللذان يحدثان بهذه الطريقة هما صوتا الميم والنون ويسميان بالصوتين الانفيين .

٥ - الانفتاح الواسع : وفيه لايحـدث حجز كامـل للهواء كما في

---

١ - اللغة ص ٥٠

الانفجار ، ولاتضييق المجرى شديـد كما في الاحتكاك ، وانما يُعترض طريق الهواء في جزء من الفم مع السماح له بالانسراب في جـزء آخـر منه كما هو الشأن مع اللام ، أويحجز الهواء عدة مرات ، وبين كل مرة وأخرى يسمح له بالمرور كما هو الشأن مع الراء .

والصوتان العربيان المحدثان بهذه الطريقة هما اللام والراء ، ويسمى ماينتج بهذه الطريقة من الاصوات عند الافرنج بالحبيسات المائعة :

consonnes liquides

٦ ـ الانفتاح الاوسع : والفجوة مع هـــذه الآلية النطقية أوسع منها مع آلية الاحتكاك ، بل يكاد الانسداد ان يكون شبه معدوم معها . ويكاد الهواء ان يكون طليقاً لايعترض طريقه عقبة ما ، كما هو الشأن في الاصوات الطليقة . ولهذا سميت الاصوات الناتجة بهذه الطريقة اشبـاه الطليقات ، ومنها في العربية صوتان فقط هما الواو والياء .

٧ ـ الانفتاح الشديد السعة : وفيه يكون الجهاز الصوتي في حالة راحة تامة ، فلا حبس للهواء ، ولاتضييق لمجراه ، ولاتحويل لهذا المجرى ولااعتراض لسبيله ، الى آخر ذلك مما مر معنا سابقاً . وانمـا يحـــدث الصوت من دفقة كبيرة من النفس تحدث نوعـــاً ضعيفاً من الحفيف في الحنجرة . ولهذا سمى بعضهم الهاء ، وهو الصوت الوحيد الذي يحـــدث بهذه الطريقة ، النفخة النفسية ، ولم يشأ عده في الحبيسات ، الا ان آخرين يفضلون حسبانه في الحبيسات الاحتكاكية لان فتحة المزمار معه لاتكـون في حالتها الطبيعية تماماً بـل تكون اضيق ويكون الوتران الصوتيان

متقاربين اكثر .

ج ـ **التصنيف بحسب طريقة النطق :**

بعد ان حددنا محابس الاصوات الحبيسة ودرجات الانفتاح لكل منها بقي علينا ان نذكر الطرق المختلفة للنطق التي تعطي بعض الاصوات صفاتها الخاصة .

١ ـ النطق والاوتار تتذبذب : ويسمى تذبذب الأوتار المصاحب لعملية النطق بالجهر ، وتسمى الأصوات الحادثة على هذه الكيفية بالاصوات المجهورة ، ومنها في العربية : الباء ، والجيم ، والدال ، والذال ، والراء والزاي ، والضاد ، والظاء ، والعين والغين ، واللام ، والميم ، والنون والواو ، والياء .

٢ ـ النطق والاوتار ساكنة : وتسمى هذه الكيفية من النطق بالهمس ، كما تسمى الاصوات الناتجة بها الاصوات المهموسة . ومنها في العربية أصوات الهمزة ، والتاء ، والثاء ، والحاء ، والخاء ، والسين والشين ، والصاد ، والطاء ، والفاء ، والقاف ، والكاف ، والهاء .

٣ ـ النطق بالاطباق : والاطباق هو ان يرتفع مؤخر اللسان نحو أقصى الحنك الأعلى في شكل مقعر على هيئة ملعقة بينما يكون طرفه ملتحماً مع جزء آخر من اجزاء الفم مشكلاً محبساً من المحابس الصوتية المختلفة .

هذة الكيفية الخاصة للسان اثناء عملية النطق تعطي الصوت المنطوق طابعاً خاصاً من الضخامة والفخامة ، وتسمى الاصوات المنطوقة بهـــذه الكيفية الاصوات المطبقة ، ويسمى غيرها بالاصوات المنفتحة . والمطبقـات في العربية اربعة هي :

الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء . وماسواها منفتحة .

٤ ـ النطق بحنجرة مفتوحة : وهي كيفية نطقية توجـد عند قوم ولاتوجد عند آخرين ، وتؤدي عند من توجد عندهم الى اتباع الاصوات الانفجارية بما يشبه صوت الهاء ، فالـ P و t و K تبدو في افـــواه الالمـان وكأنها على هذا الشكل P^h - t^h - K^h . أما العرب فـــلم يعتادوا هذه الـكيفية ، ولذا فليس في أصوات العربية شيء من هـــذا القبيل ، إلا ان بعض العاميات تحتوي على شيء منه ، فأهل دير الزور في سورية ينطقون التاء والـكاف وكأنها (تْهٌ ـ كْهٌ) .

ولتفسير هـذه الظاهرة ، او هـذه الكيفية النطقية لابـــد من العودة الى شرح آلية النطق بشيء من التفصيل :

قلنا : إنه ، لانتاج صوت انفجاري ، لابد من اجتياز ثـــلاث مراحل : مرحلة حبس تلتقي فيهـا اعضاء النطق ، ومرحـــلة إمساك يتجمع اثناءها الهواء خلف المحبس ، ومرحلة انفجار تنفصل فيها الاعضاء انفصالاً مفاجئاً سريعاً . ولكننا لم نقل وقتئذ شيئاً عـــن وضع الحنجرة خلال كل هذه المراحل ، وهذا ما سنتداركه الآن : فعند بعض الاقوام

يحدث ان يتقارب الوتران الصوتيان بمجرد البـدء بعملية الحبس ، اما عند آخرين فيحدث ان يظل الوتران متباعدين خلال كل المراحل أو بعضها . ففي الحالة الاولى ـ وتسمى النطق بحنجرة مغلقة ـ تكون كميـة الهـواء المتسرب من الحنجرة الى الفـــم قليلة بسبب تقارب الوترين وضيق فتحة الزمار . ونتيجة لذلك يكون انضغاط الهـواء خلف الحبس قليلاً ، فاذا حدث الانفجار سمعت فرقعة نقية لاشائبة فيهـا . اما في الحالة الثانية ـ وتسمى النطق بحنجرة مفتوحة ـ فان كمية الهواء المتسرب من الحنجرة الى الفم تكون اكثر بسبب تباعد الوترين واتساع فتحة الزمار ، وينتج عن ذلك ان الهواء المتدفق بكميات كبيرة ينضغط خلف الحبس انضغاطـــاً قوياً ، فاذا حدث الانفجار لم يخرج الهواء كله دفعة واحدة بسبب كثرته بل بقي جزء منه يتدفق حتى بعد حدوث الفرقعة . وهذا الجزء المتدفق بعد الفرقعة يحدث الصوت الصغير الذي يشبه الهاء .

٥ ـ اليأيأة : وهي طريقـة في النطق تبـدو معها بعض الاصوات وكأن جزأها الاخير ياء . فمـن ذلك بعض النونات في الفرنسية كما في كلمة (montagne) . وليس من ذلك شيء في العربية .

٦ ـ اللألأة : وهي طريقة أخرى تبدو معها بعض الاصوات وكأنها متبوعة بصوت لام ، وليس من هـذا القبيل شيء في العـربية ، الا ان وصف النحاة القدماء لصوت الضاد يشتم منه ان صوت الضاد كان يلفظ بهذه الطريقة .

٧ ـ الوأوأة : وهي طريقة أخرى تبدو معها بعض الاصوات وكأنها

متبوعـــة بصوت واو صفير . وليس من هـــذا القبيل شيء في العربية مطلقاً .

٨ ـ التشهيق : وهو طريقة في احداث الاصوات لايتخذ معهـا الهواء اتجاهه المعتاد ، اي من الداخل الى الخارج ، بل يتخذ اتجاهـــاً معاكساً ، اي من الخارج الى الداخل .

٩ ـ المصمصة : واتجاه الهواء فيها كاتجاهه في التشهيق ، الا انـه لايصل الى الرئة كما في التشهيق بل يقف خلـف المحبس فقـط . وآلية المصمصة يمكن شرحها بما يلي :

فلاحداث صوت مصمص تلتقي اعضاء النطق في واحد من المحابس المعروفة ، وهذه مرحلة الحبس ، ثم في مرحلة الامساك يقـوم النـاطق بعملية مص نحو الداخل القصد منهـا تفريغ الهواء من المنطقة الـتي تقـع خلف المحبس لاحداث تفاوت في الضغط بـين المنطقة الـتي خلف المحبس والمنطقة التي امامه ، وفي المرحلة الثالثة تتراخى اعضـاء النطق ببـــطء فيندفع الهـواء من الخارج حيث الضغط أعلى إلى الداخـل حيث الضغط اخف ، ومن احتكاك الهـواء المندفع باعضاء النطق يحدث صـوت مصمص مـــتراخ لأن آلية المصمصة لاتسمح الا باحـــداث اصوات من النوع المـــتراخي .

وكلا التشهيق والمصمصة غـــير معـــروف في العربية الفصحى ، أو هذا على الأقل مانعرفه عن طريـق النحاة ، ويغلب علينـا الاعتقـاد

بان العرب كانوا يستعملون بعضاً من اصوات التشهيق والمصمصة في تعبيراتهم المختلفة ، ولكن النحاة اغفلوا ذكرها لعدم دخولها اصواتاً اساسية في تركيب المفردات . وانما يحملنا على هذا الظن ان هذا النوع من الاصوات شائع في جميع الألسن المنطوقة في العالم ، بل يزعم بعض لغويي الافرنج ان اصوات المصمصة اصوات اساسية في السن بعض القبائل الافريقية . يضاف الى ذلك ان هذا النوع من الاصوات شائع اليوم في جميع اللهجات العربية الحديثة . وفي لهجة حلب سلسلة منها هي كما يلي :

١ ـ ياء مشهقة تستعملها النسوة للدلالة على التعجب والاستنكار .

٢ ـ لام ممصمصة يستعملها راكبو الدواب لحث دوابهم على السير .

٣ ـ ميم ممصمصة تستعمل للتعبير عن استحسان جمال شخص .

٤ ـ واو وفاء مشهقتان تستعملان للتعبير عن ألم من لذع حر او برد او لمس جرح او ماشابه ذلك .

٥ ـ باء ممصمصة تستعمل لحث طفل على تناول شرابه .

٦ ـ تاء ممصمصة تستعمل للتعبير عن عدم الرضى أو عن النفي .

هذا وكل أصوات التشهيق والمصمصة مهموسة ماعدا الياء ،

فانهـا في حالات الاستنكار الشديد تجهر ، ولكن جهرهـــا يسمع ضعيفاً جداً ، لأن الهواء المجهور معها يتجه بعد خروجـــه من الحنجرة نحو الرئتين لانحو الفم ، ولذلك يحرم من الفراغات الفموية الـتي تضخمه في حالة جريانه بالاتجاه الطبيعي[1] .

* * *

١ ــ قارن فيما يختص بتصنيف الاصوات بالمراجع الآتية :

1. Cantineau : Cours de Phonètque Arabe ; P.9 - 15
2. = : Etudes de Linguistique Arabe P.9 - 15
3. Marouzeau : La Linguistique , P. 7 - 14

٤ - فندريس : اللغة ، ص ٤٣ ــ ٦١

٥ ــ ابراهيم انيس : الاصوات اللغوية .

٦ ــ تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ٥٩ ومابعدها

الحبسات في العربية

يحتاج الباحث حين يتصدى لدراسة الاصوات في لسان ما الى أحد شيئين : إما ان يشافه ابناء هذا اللسان ويستمع اليهم ، واما ان تكون عنده تسجيلات صوتية على اشرطة او اسطوانات تحتوي على نصوص كثيرة نطقها ابناء هذا اللسان .

ولما كنا ونحن بصدد دراسة أصوات العربية ، فاقدين للشيئين معاً ، لم يبق أمامنا ، للقيام بهذا العمل ، الا واحد من امرين : فاما ان نعتمد دراسات قدماء النحويين للاصوات العربية ، واما ان نعتمد قراءة المجيدين من القراء للقرآن الكريم في عصرنا هذا .

فأما دراسات قدماء النحويين للاصوات العربية فهي ، وان كانت أدق ما كتب في الموضوع لذلك العهد ، تشكو من غموض كثير كما تعاني من اضطراب وتناقض في اغلب الاحيان[1] . واما قراءة المجيدين من القراء فلا يمكن الركون اليها واعتبارها الصورة الصوتية

---

١ ـ انظر الفصل الذي سنعقده للدراسات الصوتية بعد هذا الكلام .

الدقيقة للعربية كما كانت في صدر الاسلام . وذلك لسببين : اولهما ان التبدلات الصوتية امر مطلق وأنه متى تغير صوت واستبدل بـه صوت آخر غدا الصوت الاول أشق الاصوات واعسرها على من يريـد النطق به(١) . يؤكد ذلك مايجده القراء من عسر شديـد في نطق الضـاد على الصفة المعروفـة له في كتب القـراءات . واذا كان الامر كـذلك كان من المشكوك فيه ان تكون اصوات العربية في افواه القراء اليوم هي هي كما كانـت في افواه الصحـابة رضوان الله عليهم . الثـاني ان هؤلاء القراء مهما حاولوا التخلص من عاداتهم النطقية العـامية فهم لا يفلحون . يشهد على ذلك اننـا حـين نسمع احـد القراء يتلو القـرآن الكريم بالمذياع نستطيع ان نعرف ماذا كان هذا القارىء شامياً او عراقياً او مصرياً او حجازياً . وهذا دليل على انهم لاينطقون العربية كما كا ينطقها الرعيل الاول من الصحابة رضي الله عنهـم . اذ لو كانوا يفعلون ذلك لمـا امكن التمييز بينهم .

ومـع كل هـذا يمكن اعتبـار الصورة اللفظية للعربية على شفـاه القراء أقرب الصور الى الصورة اللفظية القديمة للعربية الفصحى . ولهـذا ستكون هي معتمدنا في دراستنا للاصوات العربية . فان وجد بينهـا وبـين الدراسات النحوية القديـمة خلاف نبهنـا اليه وحاولنـا تعليله وتفسيره .

★ ★ ★

١ ـ انظر فندريس : اللغة ، ص ٦٥

يتألف النظام الصوتي للحبيسات العربية من ثمانية وعشرين صوتاً هي[1] :

ب . م . و . ف . ت . ط . د . ن . ث . ظ . ذ . س .
ص . ز . ر . ل . ض . ج . ش . ي . ك . ق . خ . غ . ح .
ع . همزة . هـ .

وقد عد النحاة القدماء هذه الاصوات هي الاصول ، واضافوا اليها ستة هي فروع منها مأخوذ بها في القرآن الكريم وكل كلام فصيح . « وهي النون الساكنة التي هي غنة في الخيشوم نحو (عنك) ، وتسمى النون الخفية والخفيفة ، وألفا الامالة والتفخيم نحو (عالم) و (الصلاة) ، والشين التي كالجيم ، نحو (اشدق) ، والصاد التي كالزاي نحو (مصدر) ، والهمزة بين بين[2] » .

---

١ - لايدخل في هذا العدد اصوات الفتحة والضمة والكسرة وماكان من قبيلها من الاصوات الطليقة التي سنفرد لدراستها فصلاً خاصاً ولاحظ اننا رتبنا الحبيسات بحسب محابسها .

هذا وكتب النحو لم تفرق بين الطليقات والحبيسات فاضافت الى هذا العدد صوت الالف فصارت عدة الاصوات العربية عندهم تسعة وعشرين .

٢ - ابن يعيش : شرح المفصل للزمخشري ، ج ١٠ ص ١٢٥ . وانظر ايضاً سيبويه : الكتاب ، ج ٢ ص ٤٠٤ ، وابن جني : سر صناعة الاعراب ، ج ١ ص ٥١ .

كما أضافوا اليها ثمانية اصوات اخرى عدوها فروعاً غير مستحسنة ، ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ، ولا تكاد توجد الا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبلة . وهي : الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف ، والجيم التي كالشين ، والضاد الضعيفة ، والصاد التي كالسين ، والطاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء ، والباء التي كالميم (١) .

بعض هذه الاصوات الفرعية يمكن معرفة صورته اللفظية مانعرف اليوم من القوانين الصوتية ، فالصاد (التي كالزاي في نحو مصدر) ليست في واقعها غير صاد مجهورة أصابها الجهر لوقوعها بين صوتين مجهورين ، هما : الفتحة قبلها ، والدال بعدها . لكن في المجموعة الفرعية اصواتاً لايمكن معرفة شيء دقيق عن صورتها اللفظية ، فلا الوصف ، ولا القوانين الصوتية تستطيع ان تفسر لنا كيف هي (الضاد الضعيفة)و (الباء التي كالميم) . والظاهر انها عادات نطقية كانت لبعض العرب ، ولا يمكن معرفتها الا بالمشافهة كما صرح بذلك قدماء النحاة .

اذا صنفنا الحبيسات الأصول في العربية بحسب محابسها كانت على الشكل الآتي :

١ ـ ثلاثة اصوات شفوية ، هي : ب ، م ، و .

---

١ ـ المراجع نفسها والصفحات نفسها .

٢ ـ صوت واحد شفوي اسناني ، هو : ف .

٣ ـ ثلاثه اصوات من بين الاسنان ، هي : ث ، ذ ، ظ .

٤ ـ سبعة اصوات اسنانية لثوية ، هي : ض ، د ، ط ، ت ، ز ، ص ، س .

٥ ـ ثلاثة اصوات لثوية ، هي : ل ، ر ، ن .

٦ ـ ثلاثة اصوات غارية ، هي : ش ، ج ، ي .

٧ ـ ثلاثة اصوات طبقية ، هي : ك ، غ ، خ .

٨ ـ صوت لهوي واحد ، هو : ق .

٩ ـ صوتان حلقيان ، هما : ع ، ح .

١٠ـ صوتان حنجريان ، هما : همزة ، ه .

واذا صنفناها بحسب درجة الانفتاح كانت على الشكل التالي :

١ ـ ثمانية اصوات انفجارية او شديدة هي : ب ، ض ، ، د ، ط ، ت ، ك ، ق ، همزة .

٢ ـ ثلاثة عشر صوتاً احتكاكياً او رخواً ، هي : ف ، ظ ، ذ ث ، ز ، ص ، س ، ش ، غ ، خ ، ع ، ح ، ه .

٣ _ صوت متراخٍ واحد ، هو : ج .

٤ _ ستة اصوات متسعة على اختلاف في درجات الاتساع ، هي : اللام الجانبيّة ، الراء التكرارية ، الميم والنون الانفيتان ، الواو والياء الشبيهتان بالطليقات .

واذا صنفناها بحسب طرق النطق كانت على الشكل الآتي :

١ _ خمسة عشر صوتاً مجهوراً + ثلاثة عشر صوتاً مهموساً .
فأما المجهورات فهي : ب ، م ، و ، ض ، د ، ظ ، ذ ، ز ، غ ، ع ، ج ، ل ، ر ، ن ، ي .
واما المهموسات فهي : ط ، ت ، ك ، ق ، همزة ، ف ، ث ، س ، ش ، خ ، ح ، ه ، ص .

٢ _ اربعة اصوات مطبقة + اربع وعشرون صوتاً غير مطبق .
فأما المطبقات فهي : ص ، ض ، ط ، ظ . واما غير المطبقات فما سوى ذلك .

★ ★ ★

وإليك الكلام مفصلاً على كل واحد من الحبيسات العربية :

الباء (ب)

صوت شفوي شديد مجهور منفتح .

حرص القدماء على جهره في جميع حالاته . وخوفاً من همسه اذا وقع ساكناً أضافوا إليه صوتاً طليقاً قصيراً جداً يشبه الكسرة وسموا تلك الظاهرة بالقلقلة .

وقد مر معنا ان سيبويه والزمخشري وابن جني أشاروا الى نطق غريب للباء تصبح فيه كأنها فاء ، وليس لذلك تفسير إلا ان يكون الناطقون له على هذه الصورة قد اعتادوا النطق بحنجرة مفتوحة .

وقد ابدلت العرب من الباء ميماً لغير سبب ظاهر من اسباب الابدال المعروفة : فقد حكى الاصمعي قولهم (بنات مخر) بدلاً من (بنات بخر)[١] .

---

١ - بنات البخر أو بنات البحر سحائب بيض تأتي قبل الصيف .

جدول الحبيسات العربية

المحابس	الصفات												
	انفجاري او شديد				احتكاكي او رخو				متراخ	واسع الانفتاح			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مجهور منفتح			
	مطبق	منفتح	مطبق	منفتح	مطبق	منفتح	مطبق	منفتح	منفتح	حافي	تك(١)	انفي	ش ط(٢)
شفوي		ب										م	و
شفوي اسناني								ف					
بين الاسنان					ظ	ذ		ث					
اسناني لثوي	ض	د	ط	ت		ز	ص	س					
لثوي										ل	ر	ن	
غاري								ش	ج				ي
طبقي				ك		غ		خ					
لهوي				ق									
حلقي						ع		ح					
حنجري				ء				ه					

١ ـ تك = تكراري .
٢ ـ ش ط = شبه طليق .

وحكي عن ابي عمرو بن العلاء (مازلت راتماً على هذا الامر) اي (راتباً) . وحكى يعقوب قولهم (رأيته من كثم) اي (من كثب) . وانشد ابن الاعرابي في نوادره :

فبادرت شأنها عجلى مثابرة حتى استقت دون محنى جيدها نُغَما

وقال : اراد : نُغَباً(١) .

وابعد من ذلك ابدالهم من الباء تاء ، كقولهم : (الذعاليت) بدلاً من (الذعاليب)(٢) .

وقد اجاز القراء ادغام الباء في الميم في عدد من الآيات ، منها قوله تعالى : يعذب من يشاء ← يعذّمن يشاء (البقرة ٢٨٤ - العنكبوت ٢١) ، كما ادغمت في الفاء : قال اذهب فمن تبعك ← قال اذهفّمن تبعك (الاسراء ٦٣) .

احتفظ صوت الباء بجرسه وكل صفاته في اللهجات الحديثة ، إلا أنه في هذه اللهجات ، قد يأتي مهموساً في وسط الكلام ، اذا تلاه صوت مهموس ، وفي آخر الكلام ، اذا سبقه صوت مهموس او

---

١ - ابن يعيش : ج ١٠ ص ٣٥ والنغب جمع نغبة ، وهي الجرعة .
٢ - المرجع نفسه ج ١٠ ص ٤١ . والذعاليب، مفردها الذعلبة اوالذعلوب وهي اطراف الثوب او ماتقطع منه وظل عالقاً .

صوت (طليق) طويل . مثال ذلك :

أبْشع ـ كسبْ ـ كتاب

« ويتم تفجير صوت الباء احياناً من الانف بدلاً من الشفتين ، كحينما تكون الباء في نهاية الكلام ، كما في المثالين الأخيرين من الامثلة السابقة . ويتم هذا التفجير الانفي بابقاء الشفتين على اتصالهما ، ثم فصل الطبق عن الجدار الخلفي للحلق فجأة فيمر الهواء قوياً في المجرى الانفي . ويتم التفجير[1] »

الميم (م)

صوت شفوي متوسط[2] مجهور انفي منفتح .

اختلف القدماء في امر ادغامه في غيره : فالأكثرون على انه لايدغم الا في مثله . ولكن روي عن ابي عمرو ادغام الميم في الباء اذا تحرك ما قبل الميم ، مثل قوله تعالى : وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ← وقولهم على مريبّهتاناً عظيما (النساء ١٥٦) ، وقوله : لكي لايعلم بعد علم شيئا ← لكي لايعلبّعد علم شيئا (النحل ٧٠) .

١ ـ تمام حسان : مناهج البحث ، ص ٩١ ـ ٩٢

٢ ـ جرى اللغويون المحدثون من العرب على تسمية الاصوات التي تزيد درجة انفتاحها على درجة الانفتاح في الاحتكاكي بالمتوسطة ، وذلك لأن انفتاحها وسط بين انفتاح الاحتكاكيات وانفتاح الطليقات . وسنستعمل هذا المصطلح من الآن فصاعداً لخفته ووفائه بالغرض .

لكن ابن يعيش يقول : واصحاب ابي عمرو لايأتون بباء مشددة ، ولو كان فيه ادغام لصار في اللفظ باء مشددة ، لان الحرف اذا ادغم في مقاربه قلب الى لفظه ثم ادغم . قال ابن مجاهد : يترجمون عنه بادغام ، وليس بادغام ، انما هو اخفاء ، والاخفاء اختلاس الحركة وتضعيف الصوت(١) .

احتفظ صوت الميم بجسه وكل صفاته في اللهجات الحديثة .

الواو (و)

صوت شفوي متوسط مجهور شبه طليق .

يبدل من الواو همزة اذا وقعت متطرفة بعد الف زائدة ، مثل : كساو ← كساء ، واذا وقعت عيناً في اسم الفاعل من الثلاثي ، مثل : قاول ← قائل .

واذا وقعت اولاً مشفوعة بواو أخرى لازمة ، مثل : وواصل ← أواصل(٢) . وابدالها في هذه المواقع الثلاثة مطرد واجب .

واذا وقعت الواو موقع الفاء او العين وكانت مضمومة ابدل منها همزة ايضاً مثل : وجوه ← أُجوه ، أنوُر ← أنؤُر . قال عمر ابن ابي ربيعة :

---

١ ــ ج ١٠ ص ١٤٧

٢ ــ أواصل جمع واصلة . والقياس في فاعلة ان تجمع على فواعل ، مثل : قائمة قوائم .

فلما فقدت الصوت منهم واطفئت مصابيح شبت بالمشاء وانؤر

وابدالها في هذين الموقعين مطرد جائز .

ويمكن ابدال الهمزة من الواو اذا وقعت هذه صدراً ولم تكن مضمومة ، مثل : وشاح ← إشاح ، وَناة ← أناة . وابدالها هنا سماعي غير قياسي(١) .

احتفظ صوت الواو بجسه وكل صفاته في اللهجات العربية الحديثة .

الفاء (ف)

صوت شفوي اسناني رخو مهموس منفتح .

اجاز الكسائي ادغامه بالباء في قوله تعالى : ان نشأْ نخسف بهم الارض ← ان نشأ نخسبّهم الارض (سبأ ٩) .

ليس للفاء العربية نظير مجهور كالذي نراه في معظم الألسن الاوروبية والذي يرمز له بالرمز (V) .

احتفظت الفاء في العاميات بجسها وكل صفاتها ، إلا ان هذه العاميات يجهرنها اذا وقعت ساكنة قبل صوت مجهور مثل : يفزع - افغاني - أفظع(٢) .

---

١ - ابن يعيش : ج ١٠ ص ١٤
٢ - انظر مناهج البحث ، ص ٩٨

الظـاء (ظ)

صوت من بين الاسنان رخو مجهور مطبق .

تحول هذا الصوت في بعض العاميات الى ضـاد مرة ، والى زاي مطبقة مرة اخرى : فـأما في الكلـمات القديـة في عاميتها فقد انقلب الى ضـاد ، مثل : ظهر ← ضهر ، أظافر ← أضافير . واما في الكلمات المستعارة من الفصحى وفي الاعلام ، وفي التي يشيع وجودها في الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة فقد تحولت الى زاي مطبقة ، مثل : ظالم ← زالم ظافر ← زافر ، فظاعة ← فزاعة .

الذال (ذ)

صوت من بين الاسنان رخو مجهور منفتح .

الذال هو النظير المرقق للظـاء المفخمة ، اي ان الظـاء مطبقة والذال منفتحة . وقد تطور هذا الصوت في بعض العاميات الى صوتـين اثنـين مثل نظيره المطبق : فاصبـح دالاً في الكلمات القديمة في العامية مثل : ذهب ← دهب ، ذئب ← ديب . وصار زاياً مرققة (منفتحة) في الكلمات القرآنية وفي الأعلام وفي المستعارة من الفصحى ، مثل : ذنوب ← زنوب ، نذير ← نزير ، تذكار ← تزكار .

الثاء (ث)

صوت من بين الاسنان رخو مهموس منفتح .

هو النظير المهموس للذال المجهورة .

وقد تطور هذا الصوت في بعض اللهجات العامية الى صوتين اثنين مثل نظيره المجهور الذال : فقد انقلب الى تاء في الكلمات القديمة في العامية مثل : ثعلب ← تعلب ، ثوم ← توم . أما في الكلمات القرآنية وفي الاعلام وفي المستعارة من الفصحى فقد انقلب الى سين ، مثل : إثم ← اسم ، بثينة ← بسينة ، ثقافة ← سقافة .

الضاد (ض)

صوت اسناني لثوي شديد مجهور مطبق .

هكذا ننطق الضاد اليوم ، وهكذا ينطقها المجيدون للقراءة ايضاً ، ولكن كتب القراءات تصفها لنا وصفاً مغايراً ، فهي عندهم رخوة لاشديدة ، وهي منحرفة مثل اللام . ونفهم من كلام سيبويه انهم كانوا ينطقونها من حافة اللسان اليمنى ، وان بعضهم كان ينطقها من الحافة اليسرى ، وان آخرين كانوا ينطقونها من الجانبين[1] . وهذا حال اللام تماماً . وعلى ذلك فالظاهر ان الضاد القديمة كانت مثل الظاء تماماً ماعدا صفة الانحراف التي تشبه فيها اللام . ولعل هذا هو السبب في اشتباه اللغويين قديماً في طائفة من الكلمات : أهي بالضاد ام بالظاء .

الدال (د)

صوت أسناني لثوي شديد مجهور منفتح .

---

١ ـ الكتاب ج ٢ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥

الدال هو النظير المنفتح للضاد الحديثة المطبقة . فليس بين الدال والضاد إلا صفة الاطباق التي تميز الضاد بالفخامة .

وقد احتفظ هذا الصوت بجبسه وصفاته كلها في العاميات الحديثة .

الطاء (ط)

صوت اسناني لثوي شديد مهموس مطبق .

هكذا ننطقه اليوم ، وهكذا ينطقه المجيدون للقراءة ، بل كل القراء ، المجيدون منهم وغير المجيدين . لكن كتب القراءات والنحو اجمعت على وصفه بالجهر هو وصوتا القاف والهمزة . وقد أدى ذلك الى اوهام كثيرة عند بعض اللغويين المحدثين حول هذه الاصوات الثلاثة ، وسنفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً فيما بعد .

احتفظ هذا الصوت بجبسه وكل صفاته القديمة في اللهجات الحديثة .

التاء (ت)

صوت اسناني لثوي شديد مهموس منفتح .

هو النظير المنفتح للطاء المطبقة ، وهو ايضاً النظير المهموس للدال المجهورة .

احتفظ هذا الصوت بجبسه وكل صفاته القديمة في اللهجات

الحديثة .

الزاي (ز)

صوت اسناني لثوي رخو مجهور منفتح .

احتفظ هذا الصوت بكل خصائصه في اللهجات العربية الحديثة .

الصاد (ص)

صوت اسناني لثوي رخو مهموس مطبق .

احتفظ هذا الصوت بكل خصائصه في اللهجات العربية الحديثة .

السين (س)

صوت اسناني لثوي رخو مهموس منفتح .

هو النظير المنفتح للصاد المطبقة ، وهو ايضاً النظير المهموس للزاي المجهورة .

احتفظ هذا الصوت بكل خصائصه في اللهجات الحديثة .

هذا وتسمى الاصوات الثلاثة الاخيرة (الزاي والصاد والسين) بالأصوات الصفيرية ، ، وذلك لشدة الضيق في محابسها الذي يؤدي الى ارتفاع صوت الاحتكاك وصيرورته الى مايشبه الصفير .

وقد أجاز النحاة القدماء ادغام الحبيسات الاسنانيه اللثوية والتي من بين الاسنان بعضها في بعض ماعدا الضاد لانحرافها. قال الزمخشري(١): « والطاء والدال والتاء والظاء والذال والثاء ستتها يدغم بعضها في بعض ، وفي الصاد والزاي والسين ، وهذه لاتدغم في تلك ، الا ان بعضها يدغم في بعض . والأقيس في المطبقة اذا ادغمت تبقية الاطباق » .

وإليك امثلة لتداغم هذه الاصوات بعضها في بعض :

ط د ← دّ : اضبطْ دالا ← اضبدّالا (مع الاطباق اوعدمه)

ط ت ← تّ : فرطت في جنب الله ← فرتّ في جنب الله (مع الاطباق وهي قراءة ابي عمرو) .

د ط ← طّ : أبعدْ طالباً ← أبعطّالباً .

ت ط ← طّ : إنعت طالباً ← إنعطّالباً .

ت د ← دّ : إنعت دلامة ← إنعدّلامة .

ظ ذ ← ذّ : احفظ ذلك ← احفذّلك . (يحسن اذهاب الاطباق)

ذ ظ ← ذّ : خذ ظالماً ← خذّالماً . (ـــ ـــ ـــ)

ث ظ ← ظّ: ابعث ظالماً ← إبعظّالماً .

---

١ – شرح المفصل ج ١٠ ص ١٤٥

ظ ث ← ثّ : ايقظ ثابتاً ← أيقثّابتاً .

ث ذ ← ذّ : ابعث ذلك ← إبعذّلك .

ز ص ← صّ : أوجز صابراً ← اوجصّابراً .

ص ز ← زّ : افحص زائداً ← إفحزّائداً .

س ز ← زّ : إحبس زردة ← احبزّردة .

ز س ← سّ : رز سلمة ← رسّلمة(1) .

اللام (ل)

صوت لثوي متوسط مجهور حافي منفتح .

ومعنى قولنا (حافي) أنه يخرج من حافة اللسان ، ويسمى بسبب هذه الصفة منحرفاً ، كما يسميه بعضهم بالجانبي ، ويسميه الافرنج (latéral) .

بعض الناس اعتاد اخراج هذا الصوت من حافة اللسان اليمنى ، وبعضهم اعتاد اخراجه من الحافة اليسرى ، وآخرون يخرجونه من كلا الجانبين .

الاصل في اللام العربية الترقيق (الانفتاح) ، ولا تغلظ (تطبق)

---

1 ــ ابن يعيش : ج ١٠ ص ١٤٦

الا بشرطين : الاول ان يسبق اللام أحد اصوات الاستعلاء ، ولاسيما الصاد والطاء والظاء ، ساكناً او مفتوحاً ، والثاني ان تكون اللام نفسها مفتوحة . مثل : وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً (مريم ٣١) ، سيصلى ناراً ذات لهب (المسد ٣) ، سلام هي حتى مطلع الفجر (القدر ٥) ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً (النساء ١١٦) ولا يظلمون فتيلاً (النساء ٤٩) .

على ان جمهور القراء قد أجمعوا على تغليظ اللام في اسم الجلالة بعد الفتح والضم ، مثل : قالَ الله ويقولُ الله ، وعلى ترقيقها بعد الكسر ، مثل : بسم الله .

واللام من حيث الادغام على نوعين : لام معرفة ، ولام عادية كالتي في (هل وبل) . فان كانت الاولى فادغامها في مثلها وفي الطاء والدال والتاء والظاء والذال والثاء والصاد والسين والزاي والشين والضاد والنون والراء ادغام واجب . وان كانت غير معرفة فادغامها في هذه الاصوات المذكورة جائز . الا انه حسن اذا كان في الراء ، مثل : هل رأيت ← هرْأيت ، وقبيح اذا كان في النون ، كقولك : هل نخرج ← هنّخرج ، اما فيما سوى هذين فليس بالحسن ولا بالقبيح . وانشد سيبويه :

فذر ذا ، ولكن هتّعين متيما على ضوء برق آخر الليل ناصب ؟

أراد : هل تعين ؟

وانشد ايضاً :

تقول اذا اهلكت مالاً للذّة   فكيهةُ : هشّيءٌ بكفيك لائق ؟

اراد : هل شيءٌ(١) ؟

احتفظت اللام بكل خصائصها في اللهجات العربية الحديثة .

الراء (ر)

صوت لثوي متوسط مجهور تكراري منفتح .

وسبب تسميته بالتكراري او المكرر هو ان طرف اللسان فيه يطرق اللثة طرقتين او ثلاثاً .

قلنا ان الراء منفتحة (مرققة) لكنها تطبق (تفخم) في كثير من الاحوال . وكتب القراءات تختلف في امر ترقيقها وتفخيمها اختلافاً كبيراً لايتسع المقام لبسطه .

واما ادغامها فقد نص سيبويه على عدم جوازه الا في مثلها . « ولم يخالف سيبويه احد من البصريين في ذلك الا ماروي عن يعقوب الحضرمي انه كان يدغم الراء في اللام في قوله عز وجل (يغفرلكم

١ – هكذا روى ابن يعيش البيتين نقلاً عن سيبويه، ولكنها في الكتاب برواية اخرى: (فدعذا) بدلا من (فذرذا) في البيت الاول ، و (استهلكت) بدلا من (اهلكت) في البيت الثاني .
انظر شرح المفصل : ج ١٠ ص ١٤١ والكتاب : ج ٢ ص ٤١٧ .

← يغفلّكم) . وحكى ابو بكر بن مجاهد عن ابي عمرو انه كان يدغم الراء في اللام ساكنة او متحركة ، فالساكنة نحو قوله تعالى : (فاغفر لنا ، واستغفرلهم ، ويغفر لكم ذنوبكم) وما كان مثله ، والمتحركة قوله : (وسخر لكم ، وهن اطهرلكم) . واجاز الكسائي والفراء ادغام الراء في اللام .

حافظت الراء على خصائصها في اللهجات العربية الحديثة .

النون (ن)

صوت لثوي متوسط مجهور انفي منفتح .

وللنون الساكنة في كتب القراءات والنحو أحكام أربعة :

١ ـ الاظهار : وهو الاحتفاظ لها بجبسها من اللثة . ويكون ذلك اذا وليها أحد الاصوات الستة : الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء .

٢ ـ الادغام : وهو فناؤها فناءً تاماً او جزئياً مع الصوت الذي يليها . فأما مع الراء والميم واللام فتفنى فناءً تاماً فتصير مع الراء راءً ومع الميم ميماً ومع اللام لاماً . واما مع الياء والواو فتفنى فناءً جزئياً ويسمع من الياء والواو شيء من غنة انفية ، وشرح ذلك ان الياء والواو المسبوقين بنون ساكنة تلفظان مشددتين ويتخذ الهواء معها طريقين في جريانه : طريق الانف وطريق الفم معاً . هذه الظاهرة تسمى عندنا بالادغام بغنة ، وتسمي عند الافرنج بـ (nazalisation) .

٣ ـ القلب : وهـو قلبهـا الى ميم اذا وليتها باء . مثل : شنباء ← شمباء .

٤ ـ الاخفاء : ويكون ذلك مع الاصوات الآتيـــة : القاف والـكاف والجـيم والشين والسين والصاد والزاي والضاد والدال والتـاء والطاء والذال والثاء والظاء والفاء . والاخفاء هـو انتقال بمحبس النون من اللثة الى محبس الصوت الذي أخفيت فيه .

احتفظت النون بخصائصها في اللهجات العاميـة ، الا ان هـذه اللهجات لاتراعي كثيراً أحكامها المختلفة وتميل في اغلب الاحيان اما الى اظهارها واما الى ادغامها بغير غنة .

الشين (ش)

صوت غاري رخو مهموس منفتح .

اكثر النحاة على ان الشين لاتدغم الا في مثلها ، ولكن روي عن ابي عمرو ادغامها في السين من قـوله تعالى (الى ذي العرش سبيلا ← الي ذي العـَرِسـَّبيلاً)(١) .

احتفظت الشين بمحبسها وكل صفاتها في العاميات .

الجيم (ج)

صوت غاري متراخ مجهور منفتح .

---

١ ـ المرجع نفسه : ج ١٠ ص ١٣٩

اجاز النحاة ادغامها في الشين ، مثل : أخرج شيئاً ← أخرشّيئاً. وروى اليزيدي عن ابي عمرو ادغامها في التاء في قوله تعالى : ذي المعارج تعرج ← ذي المعارتّعرج(١) .

احتفظت الجيم بتراخيها في بعض العاميات كعاميات حلب والعراق ونجد والحجاز . . الخ . ولكنها في عاميات أخرى صارت رخوة تماماً (شديدة التمطيش) كما في لبنان ودمشق ، وتمطيشها في لبنان اكثر منه في دمشق . وفي لهجات أخرى فقدت كل أثر للرخاوة (التمطيش) وتحولت الى كاف مجهورة كشأنها في لهجة القاهرة وعدن .

الياء (ي)

صوت غاري متوسط مجهور شبه طليق منفتح

ولاتدغم إلا في مثلها .

احتفظت الياء بكل خصائصها في اللهجات الحديثة .

الكاف (ك)

صوت طبقي شديد مهموس منفتح .

يقترب محبسه من منطقة الغار اذا وليه صوت الكسرة أو ماكان قريباً منها . وتدعى هذه الظاهرة بالتغوير .

---

١ – المرجع نفسه ج ١٠ ص ١٣٨

تدغم الـكاف في القاف : نحو قوله تعالى (فاذا خرجـــوا من عندك قالوا ← فاذا خرجوا من عندقّالوا)[1]

احتفظت الـكاف بكل خصائصها في كثير من العاميات ، لكنها في عاميات اخرى تبدو وكأنهـا منفسة (كْهْ) اي منطوقة بحنجرة مفتوحة وهذا هو حالها في لهجة دير الزور في سورية .

الغين (غ)

صوت طبقي رخو مجهور منفتح .

عده القدماء من اصوات الحلق خطأً ، ومن الغريب ان يتابعهم في هذا الخطأ عالم جليل كالدكتور ابراهيم انيس[2] . وكل لغوي حديث لايشتبه في كون محبس الغين من الطبق لامن الحلق .

تدغم الغين في الخاء كقولك (إدمغ خلفاً ← ادمخّلفاً[3]) .

حافظت الغين على محبسها وكل صفاتها في العاميات .

الخاء (خ)

صوت طبقي رخو مهموس منفتح .

هو مثل الغين في المحبس والرخاوة والانفتاح لكنه يختلف عنه في

---

١ ـ المرجع نفسه : ج ١٠ ص ١٣٨
٢ ـ انظر كتابه الاصوات اللغوية ، ص ٧٥
٣ ـ ابن يعيش ج ١٠ ص١٣٧

الجهر ، فالغين مجهورة والخاء نظيرتها المهموسة .

أجاز النحاة ادغام الخـــاء في الغين كقولك (إسلخ غنمك ← اسلغّنمك)[1] .

حافظت الخاء على مخرجها وكل صفاتها في العاميات .

القاف (ق)

صوت لهوي شديد مهموس منفتح .

هكذا ينطق في كثير من العــاميات ، وهكذا أيضاً ينطقه القراء في جميع الاقطار العربية ، لكن كتب النحو والتجويد تعـده في المجهورات كما عدت الطاء والهمزة فيها ايضاً . وسيكون لنا على هذه الاصوات كلام في فصل خاص .

اجاز النحاة والقراء ادغام القاف في الـكاف كقوله تعالى (خلق كل دابة ← خلـكّـل دابة)[2]

تطورت القاف في العاميات الى اشكال عديدة : فهي تلفظ همزة مرققة في دمشق ولبنان والقاهرة وبلاد أخـرى ، وتلفظ همزة مفخمة في حلب وبعض المناطق المجاورة لهـا ، وتلفظ كافـاً مجهورة في الجزيرة العربية والعراق وعنـــد كل القبائل البدوية الضاربة في مختلف البوادي والصحاري في الوطن العربي . ويذكر الدكتور ابراهيم انيس ان القبائل

١ ـ المرجع نفسه ج ١٠ ص١٣٧
٢ ـ = = = ص١٣٨

العربية في السودان تنطقها من اللهاة مجهورة ، وان نطقهم لهـــا يشبه نطقهم للغين ، وان التلميذ السوداني يكثر من الخلط بـــين الغين والقاف في نطقه واملائه .

ويظهر ان تطور القاف الى كاف مجهورة قديم جـــداً ، اذ يحدثنا أبو حيان في كتابـه (ارتشاف الضرب من لسان العـرب)(١) ان القبائل البدوية في المغرب والجزائر كانت تلفظها على هذه الصورة في عهده يقول: « واما القاف المعقودة : وقال السيرافي : رأينـا من يتكلم بالقاف بينهـا وبـــين الـكاف . انتهى . وهي الآن غالبة في لسان من يوجـــد في البوادي والعرب ، حتى لايكاد عربي ينطق إلا بالقاف المعقودة لابالقاف الخالصة الموصوفة في كتب النحويين والمنقولة عن وصفها الخالص على السنة اهل الأدا من أهل القرآن » . إنتهى كلام ابي حيان

العين (ع)

صوت حلقي رخو مجهور منفتح .

تدغم العين في الحاء كقولك (ارفع حاتماً ← ارفحّاتماً) .

اذا اجتمعت العين والهاء جاز قلبها الى حائين وادغامها ، نحو قولك في (معهم ، واجبه عتبة ← محّم ، واجبحّتبة)(٢) .

---

١ - مخطوط في المكتبة الاحمدية بحلب، تحت رقم ٨٩٩ لغة عربية ، ورقة ٢

٢ - ابن يعيش : ج ١٠ ص ١٣٦

احتفظت العين بمحبسها وكل صفاتها في العاميات .

الحـاء (ح)

صوت حلقي رخو مهموس منفتح .

هو النظير المهموس للعين ، فلا خلاف بـين العـين والحاء إلا في صفة الجهر والهمس فقـــط .

حافظت الحاء على محبسها وكل صفاتها في العاميات .

الهمزة (ء)

صوت حنجري شديد مهموس منفتح .

يرى بعض اللغويين الا" يعـد هـذا الصوت في المهموسات ولا في المجهورات لان محبسه هو فتحة المزمار نفسها ، اي انه لتحقيقه يتلاحم الوتران الصوتيان فيسدان فتحـــة المزمار . ومعنى ذلك ان الوترين مشغولان بآلية احداث صوت الهمزة ، فلاهما مهتزان شأنها مع الاصوات المجهورة ، ولاهما متباعدان شأنها مع الاصوات المهموسة ، وهذه هي حجتهم في عدم حسبانه في المجهورات او المهموسات ، ولكنهـا حجـة ضعيفة كما ترى ، لان المجهور في علم الاصوات هـو ماهتز معه الوتران ، والمهموس هو مالم يهتز معه الوتران دون النظر الى سبب عـدم الاهتزاز . وعلى

هذا تكون الهمزة من الاصوات المهموسة دون ريب [1] .

على الرغم من شيوع الهمزة صوتاً أساسياً في الالسن السامية والهندية الاوروبية فليس له رمز في ابجديات هذه الالسن كلها ، ماعدا العربية التي وضعت له رمزه المعروف (ء) في زمن متأخر . وقد اشتقه واضعوه من رمز صوت العين ، فكان يكتب اول الامر رأس عين صغيرة (ع) . وانما فعلوا ذلك لما وجدوا من الشبه بين الصوتين .

ولعدم وجود رمز خاص به في الابجدية الافرنجية فان القوم هناك يسمونه بالحبسة الحنجرية ، كما كان النحاة يسمونه لهذا السبب بالالف اليابسة .

حافظت الهمزة على محبسها وكل صفاتها في العاميات .

الهاء (هـ)

صوت حنجري رخو مهموس منفتح .

ولكن الدكتور تمام حسان يعده في المجهورات ، ويعلل ذلك بأن شيئاً من الذبذبة الوترية يصحبه بسبب تقارب الوترين عند احداثه [2] ؟

اجاز النحاة ادغام الهاء في الحاء اذا وقعت قبلها او بعدها كقولك في (اجبه حاتماً ، واذبح هذه ← اجبحّاتماً ، واذبحّاذه) [3]

حافظت الهاء على محبسها وصفاتها في العاميات .

---

١ ـ انظر ابراهيم انيس : الاصوات اللغوية ، ص ٧٦ ـ ٧٧

٢ ـ انظر مناهج البحث ، ص١٠٣

٣ ـ ابن يعيش : ج ١٠ ص ١٣٦ .

حكاية الأصوات الثلاثة
الهمزة والطاء والقاف

مر معنا ان الهمزة والطاء والقـاف حبيسات مهموسة ، بمعنى ان الأوتار الصوتية لاتهتز معها خلافاً للحبيسات المجهورة التي تهتز معها الاوتار . ولكن كتب النحو والقراءات تجمع كلها على ان هذه الحبيسات الثلاثـة مجهورة . فماذا نفعل ؟

هل نصدق قراءنا المعاصرين الذين أجمعوا عملياً على همس هـــذه الاصوات الثلاثـة في قراءتهم للقرآن ونخطّيء النحاة والقراء القـدماء ، أم نصدق هؤلاء ونتهم قـراءنا اليوم بأنهم يقرؤن القرآن على غـــير الصورة الصحيحة ؟ .

حول هذه النقطة دار جدال طويل بـين علمـاء اللغة المعـاصرين من عرب ومستشرقين . وقبل ان نعرض لك ملخص هـــذا الجدال نحب ان ننقل لك عبارة النحاة في تعريفهم المجهور والمهموس لما لذلك

من علاقة بالموضوع .

قال سيبويه في الكتاب[1] :

« فأما المجهورة (فالهمزة) والالف والعين و (القاف) والجيم والياء والضاد واللام والنون والراءو (الطاء) والدال والزاي والظاء والذال والباء والميم والواو . فذلك تسعة عشر حرفاً. واما المهموسة فالهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء . فذلك عشرة أحرف . فالمجهورة حرف أشبع الاعتماد في موضعه ، ومنع النفس ان يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ، ويجري الصوت . فهذه حال المجهورة في الحلق والفم ، الا ان النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة . والدليل على ذلك انك لو امسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخلّ بهما . واما المهموس فحرف اضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه . وانت تعرف ذلك اذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس . ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه » .

وقال ابن جني في سر الصناعة[2] :

« فمعنى المجهور : انه حرف اشبع الاعتماد في موضعه ، ومنع النفس ان يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ، ويجري الصوت ؛ غير ان الميم

---

١ ـ ج٢ ص ٤٠٥
٢ ـ ج١ ص ٦٩

والنون من جملة المجهورة قد يعتمد لها في الفم والخياشيم فتصير فيها غنة . فهذه صفة المجهور .

« واما المهموس : فحرف أضعف الاعتماد في موضعه ، حتى جرى معه النفس . وانت تعتبر ذلك بأنه قد يمكنك تكرير الحرف مع جري الصوت نحو سَسَسَسَ كككك هَهَهَهَ ، ولو تكلفت مثل ذلك في المجهور لما أمكنك » .

وقال الزمخشري في المفصل[1] :

« والجهر إشباع الاعتماد في مخرج الحرف ومنع النفس ان يجري معه ، والهمس بخلافه . والذي يتعرف به تباينهما أنك اذا كررت القاف فقلت : ققق ، وجدت النفس محصوراً لاتحس معها بشيء منه ، وتردد الكاف فتجد النفس مقاوداً لها ، ومساوقاً لصوتها » .

من ذلك ترى ان تعريفاتهم للمجهور والمهموس واحدة ، بل انها بالالفاظ نفسها . ويمكن تلخيص ماقالوه فيما يلي :

١ - المجهور : حرف اشبع الاعتماد في موضعه فلم يجر النفس معه .

٢ - المهموس : حرف ضعف الاعتماد في موضعه فجرى النفس معه .

وإليك الآن آراء علماء اللغة المعاصرين في هذه المشكلة :

---

١ - شرح المفصل لابن يعيش : ج ١٠ ص ١٢٨

غاردنر وبراقمان(١) :

يري هذان العالمان ان الهمزة والطاء والقاف كانت مهموسة على شفاه العرب منذ أقدم الأزمنة ، وان النحاة عندما وصفوا هذه الاصوات الثلاثة بالجهر لم يكونوا يعنون منه مانعنيه اليوم من ذبذبة الاوتار الصوتية، خلافاً لما اعتقده (شاد)(٢) في بحثه عن سيبويه عندما ترجم المجهور بـ (sonore) والمهموس بـ (sourde) .

والدليل على ذلك من ثلاثة وجوه :

آ ـ ان علماء الاصوات العرب كانوا يجهلون تشريح الحنجرة ولايعرفون شيئاً عن الوترين الصوتيين وعن دورهما في عملية التصويت . فاعتبار مصطلحهم (مجهور) بانه مقابل لـ (sonore) و (مهموس) بأنه يساوي (sourde) خطأ .

ب ـ ان قول النحاة في تعريف المجهور بأنه (الحرف الذي أشبع الاعتماد في موضعه) ، وفي تعريف المهموس بأنه (الحرف الذي ضعف الاعتماد في موضعه) يمكن ان يفهم منه انهم كانوا يعنون بالمجهور الحرف المنفجر او المشرق (éclatante) وبالمهموس الحرف الضعيف أو الخفيف (légére ou faible) . ولاشيء اكثر من ذلك .

---

١ ـ انظر كتاب اولهما : Arab Phonétians . P, 243 - 246 وكتاب الثاني : Materialen und Untersuchungen zu den phontischen Lehren der Araber , P . 27 - 25. عن كانتينو

٢ ـ انظر كتابه Sibawaihi's Lautlehre , P. 13 عن كانتينو .

ج ـ ان الهمزة يستحيل ان تكون مجهورة ، لان الوترين الصوتيين يكونان عند احداثها ملتحمين مما يتعذر معه ذبذبتها . فاذا عدوا الهمزة في المجهورات فذلك دليل على انهم لم يكونوا يعنون بالجهر مانعنيه نحن اليوم .

٢ ـ كانتينو[١] :

أما كانتينو فيعتقد ان النحاة العرب فهموا من كلمتي المجهور والمهموس ما نفهمه منها اليوم بالضبط . ويرد على غاردنر وبراقمان بما يأتي :

آ ـ صحيح ان النحاة كانوا يجهلون تشريح الحنجرة ودور الوترين ، ولكن التمييز بين الصوت المجهور والصوت المهموس لايحتاج الى هذه المعرفة التشريحية ، بل تكفي في ذلك الأذن المرهفة الحساسة ، وهذا كان متوفراً عند النحاة القدماء .

ب ـ لاشك ان عبارة (أشبع الاعتماد في موضعه) يفهم منها (القوي) وأن عبارة (أضعف الاعتماد في موضعه) يفهم منها (الضعيف) ، ولكن ذلك لايمنع من ان يفهم منها أيضاً (المجهور والمهموس) بالمعنى المعروف للكلمتين اليوم .

ج ـ صحيح ان الهمزة لايمكن الا ان تكون مهموسة . ولكن

---

١ ـ انظر كتابه Cours de Phonetique ArabeP. 21 - 22

يعتذر عن النحاة العرب عندما عدوها خطأ في المجهورات بأن علاقاتها بالالف علاقات قوية وكثيرة ، ولما كانت الألف مجهورة فقد سهل على النحاة ان يخطئوا ويعدوا الهمزة مجهورة أيضاً . أما الطاء والقاف فليس مايمنع من انها كانتا مجهورتين ، ولو عند بعض العرب القدماء على الأقل .

٣ ـ ابراهيم انيس[1] :

اما الدكتور ابراهيم انيس فيرى ان مفهوم القدماء من (المجهور والمهموس) ومفهومنا منها شيء واحد . ثم يفصل القول على كل صوت من اصوات المشكلة الثلاثة : الهمزة والطاء والقاف كما يلي :

اما القاف فعنده انها كانت مجهورة . ودليله على ذلك من جهتين : الأولى ان القاف لاتزال مجهورة في لهجات القبائل العربية في السودان ، والثانية ان الصوت عندما يتطور ينتقل بمحبسه اما الى الامام واما الى الخلف ، وقد انتقلت القاف كلا الانتقالين في اللهجات العربية الحديثة ، فلما انتقلت الى الخلف صارت همزة كما في لهجتي الشام ومصر ، لان محبس الهمزة هو اول مايصادف القاف اذا انتقلت من محبسها الى محبس يقع خلفه . صحيح ان محبس العين والحاء يصادف القاف في انتقالها الى الوراء قبل محبس الهمزة ، لكن محبسها ، وهو الحلق ، لايمكن احداث حرف شديد منه ، واذا ارادت القاف الاحتفاظ بصفة الشدة فيها

---

١ ـ انظر كتابه : الاصوات اللغوية ، ص ٧٢ ـ ٧٣ و ٥٣ ـ ٥٤

مع انتقالها فليس لها الا محبس الحنجرة حيث تتحقق على صورة همزة .

ولما انتقلت الى الامام كان اول محبس صادفها هو محبس الكاف ، فنطقت من هنا كافاً مجهورة كما هو الشأن في لهجات البدو المختلفة . وعنده ان نطقها كافاً مجهورة دليل على انها كانت من قبل مجهورة وهي في محبسها اللهوي الخاص بها ، وانها لو كانت مهموسة انطقت كافاً مهموسة عادية .

واما الطاء فيعترف بان وصف القدماء لها بالجهر يخلق مشكلة معقدة ، وذلك لأنه لايجد في اللهجات الحديثة التي أجمعت على همس الطاء مايمكن اعتماده دليلاً على جهرها في السابق . ويحاول الخروج من المشكلة بان كتب الاقدمين « لاتمكن الباحث المدقق من تحديد كل صفات ذلك الصوت ، ولا كيف كان ينطق به على وجه الدقة » ولكنه مع ذلك يستنتج من وصفهم انها كانت صوتاً يشبه الضاد التي نعرفها الآن .

واما الهمزة فيسكت عنها سكوتاً تاماً متجاهلاً أنها جزء مهم من المشكلة . واعتقادنا ان سكوته ناتج عن انه لم يجد شيئاً يفسر به وصف القدماء لها بالجهر مع ان همسها شيء محقق لتعذر نطقها مجهورة فى كل الالسنة وكل الازمان .

٤ ـ تمام حسان(١) :

اما الدكتور تمام حسان فهو مع كانتينو وانيس في ان مفهوم النحاة

---

١ ـ انظر مناهج البحث في اللغة ، ص ٩٤ ـ ٩٥

القدماء من (مجهور ومهموس) كمفهومنا اليوم ، ولكنه يعلل التناقض الواقع بين وصفهم للهمزة والطاء والقاف بالجهر ، وبين التحقيق المهموس لهذه الاصوات الثلاثة على شفاه القراء اليوم تعليلاً آخر اذ يقول :

ان هذه الاصوات الثلاثة كانت مهموسة منذ القدم . لكن النحاة والقراء القدماء اخطأوا عندما عدوها مجهورة لسببين : اولهما انهم وضعوا قاعدة قياسية تقول : ان كل صوت من اصوات القلقلة مجهور شديد . وهذا ماجعلهم يخطئون الصواب في وصف أصوات مهموسة بالجهر كالطاء والهمزة والقاف .

ونحن لانعلم بوجود مثل هذه القاعدة عند النحاة والقراء . ولكن الدكتور تمام حسان يستنتجها من عبارة وردت في كتاب ابن الجزري حيث يقول[1] : « واضاف بعضهم اليها [يقصد الى حروف القلقلة] **الهمزة لانها مجهورة شديدة** » .

والسبب الثاني ، وهذا خاص بصوت الطاء وحده ، ان الطاء كانت تلفظ مهموزة . ومعنى اللفظ المهموز ان يجري الانسداد اثناء نطق الصوت اللغوي في محبسين : المحبس الخاص بالصوت المنطوق ، ومحبس الحنجرة الذي هو للهمزة ، فيخرج الصوت وكأنه صوتان : هو وهمزة معه . ودليله على ذلك ان بعض اللهجات العامية في الصعيد تنطق الطاء على هذه الشاكلة .

---

١ ـ النشر في القراءات العشر ، ص ٢٠٣

ولكننا لانرى في هذا مايسهل على اللغويين القدماء الوقوع في الخطأ بوصف الطاء بالجهر . فسواء الفظت الطاء القديمة صوتاً مفرداً مهموساً ام لفظت صوتاً مزدوجاً مؤلفاً من صوتين اثنين مهموسين ، فليس في الامر مايسوغ خلطهم وعدم تمييزهم بين مهموس ومجهور . هذا اذا سلمنا بان النطق القديم للطاء كان مهموزاً اعتماداً على وجوده كذلك عند قبيلة عربية واحدة قد لايتجاوز عدد افرادها الالفين او الثلاثة من بين مائـــة وعشرين مليون عربي لايعرفون لها إلا لفظاً بسيطاً ليس فيه همز .

هذا ملخص لما دار من جدل حول هذه الاصوات الثلاثة . وفي رأينا ان كلاً من غاردنر وبراقمان وكانتينو وانيس قد أخطأ عندما أقام تلازما بـــين حقيقة هذه الاصوات وبـــين مفهوم النحاة والقراء عن المجهور والمهموس .

فالأولان وجدا الاصوات الثلاثـــة مهموسة فاتهموا النحـــاة والقراء بعدم الادراك الصحيح لمعنى الجهر والهمس ، والآخران اطمأنا الى حسن فهم النحاة والقراء لمعنى الجهر والهمس فانتهيا الى الحكم بان الطاء والقـــاف كانتـــا مجهورتـــين . ولم ينتبه جميعهم الى انه من الممكن ان يكون النحاة قد فهموا معنى الجهر كما نفهمه اليوم ثم أخطأوا فوصفوا بالجهر اصواتاً مهموسة . الوحيد الذي انتبه الى عدم ضرورة التلازم بين شقي المشكلة هو الدكتور تمام حسان ، ولكنه راح يسوغ او يفسر سبب خطأ النحاة بطرق تخمينية تلفيقية تعتمد على الظن لاعلى الواقـــع . فزعم ، كما رأينا ، ان النطق المهموز للطاء اوهم النحاة بوجود الجهر

فيهـا ، ولايستقيم هذا الدليل إلا اذا سلمنا بثلاثة أمور : اولهـا ان النحاة ادركوا دور الوترين في عملية التصويت ، وهذا مالم يقم عليه اي دليل ، وليس في كلامهم مايشير ولو إشارة عابرة إليه ، الثاني ان يكون النطق المهموز للطاء هو النطق العام للعرب آنئذ ، وليس هذا صحيحاً ، ونطق بعض الافراد اليوم للطاء على هذه الصورة لايقوم دليلاً على ان كل العرب كانت تفعل ذلك قديماً ، الثالث ان يكون الهمسان يوقمان الاذن في توهم وجود الجهر ، وهذا مالم يثبت علمياً ايضاً .

ولتفسير خطئهم في وصف الهمزة والقـاف بالجهر راح يزعم امراً اكثر غرابة مؤداه ان النحاة والقراء كانوا يسيرون على قاعـــدة ان كل مجهور شديد هو مقلقل ، وان كل مقلقل هـــو بالتالي مجهور شديـد . ولايستقيم هذا الدليل الا اذا سلمنا ايضاً بأمرين : أولهما ان تكون هذه القـاعدة المزعومة موجودة في كتبهم ، وهـذا خلاف مانعرفـه من هذه الكتب ، فلا سيبويه ولا الزمخشري ولا ابن جني ولاغيرهم صرح بهذه القـاعدة او اشار اليهـا ولو من بعيد ، اما ابن الجزري فبالاضـافة الى تأخره وانفراده في هذا الحـكم لم يصرح بوجود مثل هـذه القـاعدة ، ولـكن الدكتور تمـام حـسان هـو الذي استنتجها من عبـارة لم تسبك سبكاً علمياً صحيحاً . الثاني ان تكون الهمزة معدودة في حـروف القلقلة بالاجمـاع . والذي نعرفه ان الاجمـاع حاصل على حسبانها في المجهورات وليس حاصلاً على حسبانها في المقلقلات .

والرأي عندنا ان تحلل المشكلة الى ثلاثة اجزاء ، وان تصور هذه

الاجزاء بأسئلة ثلاثة على الشكل التالي :

١ - هل كانت الهمزة والطاء والقاف مهموسة كما هي اليوم في افواهنا ، أم كانت مجهورة ؟

٢ - هل كان النحاة والقراء يفهمون من الجهر والهمس مانفهمه نحن اليوم ، ام كانوا يفهمون منها شيئاً آخر ؟

٣ - اذا كان فهمهم كفهمنا فلماذا وصفوا هذه الاصوات بالجهر ؟ ألأنها كانت مجهورة حقاً ، أم لأنهم أخطئوا ؟

والجواب عن السؤال الأول هو ان هذه الاصوات الثلاثة كانت مهموسة كما ننطقها اليوم تماماً . ودليلنا على ذلك من اربع جهات :

١ - ان الهمزة بحكم آلية نطقها لايمكن الا ان تكون مهموسة ، فاذا ثبت بالدليل القطعي ان النحاة أخطأوا عندما وصفوا الهمزة بالجهر فهذا دليل على ان اشراكهم القاف والطاء في هذه الصفة ايضاً كان عن خطأ .

٢ - ان تلاوة القرآن انتقلت الينا جيلاً بعد جيل عن طريق المشافهة والتلقين الدقيق المصحوب بالمران الطويل لتصحيح ماقد يقع من المبتدىء من اخطاء نطقية . ومثل هذه الطريقة الدقيقة لايمكن ان يقع فيها خطأ فادح كجهر مهموس او همس مجهور ، ولو سلمنا بان الخطأ قد حدث ، فكيف نفسر ان يقع كل القراء في كل البلاد العربية والاسلامية

في الخطأ نفسه ؟ ان هذا شيء لايعقل . الاترى ان الطلاب اذا اخطؤا في حل مسألة حسابية تعددت اجاباتهم وتنوعت ، واذا اصابوا كانت اجابتهم واحدة ؟ فاذا ثبت ان الوحدة تعني الاصابة ، وان جميع قراءنا اليوم في كل البلاد العربية والاسلامية ينطقون الهمزة والطاء والقاف مهموسة ، فليس لذلك الا نتيجة واحدة : هي ان هذه الاصوات الثلاثة كانت مهموسة في افواه الصحابة .

٣ ـ ان اجماع الشعوب العربية اللاشعوري على همس هذه الاصوات الثلاثة ، ولاسيما اذا ارادوا تقليد النطق الفصيح دليل على ان هذه الاصوات كانت مهموسة من قديم الزمان ، ولو كان هناك تطور كما يدعي انيس وكانتينو لما كان هذا التطور في جهة واحدة ، فالمعروف ان التطور اذا أصاب صوتاً تعددت مذاهبه واختلفت مظاهره ، ولاسيما اذا كانت رقعة البلاد واسعة وكان الاحتكاك البشري ضعيفاً بين اجزاء الأمة ، كشأن البلاد العربية والامة العربية . الا ترى ان الجيم عندما تطورت انتهت الى اشكال عدة ؟ فهي خالية من التعطيش في لهجة القاهرة وعدن ، وهي شديدة التعطيش في لهجة لبنان ، وهي على شيء غير يسير من التعطيش في لهجة دمشق ، ، وهي نصف معطشة في لهجة حلب ؟

٤ ـ من المعروف لغوياً ان اللسان اذا اخذ من لسان آخر كلمة حافظ على أصواتها ان كانت هذه الاصوات مما هو موجود في اللسان الآخذ . فان كان غير ذلك طرح مافيها من اصوات غير موجودة عنده وعوضها بأقرب اصواته إليها . وفي بعض الاحيان يحافظ اللسان الآخذ على اصوات الكلمة المأخوذة ولكنه يضيف الي هذه الاصوات شيئاً من

التفخيم او الترقيق على حسب خصائصه الصوتية التي ألفها .

وقد اخذ اللسان العربي من الالسن الاعجمية كثيراً من الكلمات، وفخم اصوات هذه الكلمات جرياً على عادته في ايثار الفخامة في الاصوات، فاذا نظرنا في الكلمات المعربة التي توجد فيها الطاء والقاف ونظرنا الى اصواتها الاصلية التي كانت لها في السنها التي أخذت منها ، كان لنا من ذلك مايرشدنا الى حقيقة هذين الصوتين في العربية قديماً .

واليك قائمة صغيرة ببعض الكلمات المعربة مع الصورة اللفظية لها في ألسنها الاصلية :

اقريطش = كريت	ابقراط = ايبكرات
افلاطون = بلاتون	ميخانيقا = ميخانيكا
سقراط = سكرات	طلوشة = تولوز
قسطنطين = كستنتين	قشتالة = كاستيل
ارسطو = ارستو	طرابلس = تريبوليس
قيصر = كيسر	صراط = ستراتا

وانت تستطيع ان تطيل هذه القائمة حتى تملأ بها عدة صفحات . وستجد دائماً ان العرب القدماء احلوا مكان التاء طاءً ، ومكان الكاف

قافاً ، لانه لافرق بين كل زوج من هذه الاصوات الا بالتفخيم والترقيق ، والصفات والمحابس بعد ذلك واحدة . فاذا كان من الثابت ان التاء والكاف مهموستان في الالسن المأخوذ منها فقد ثبت ان الطاء والقاف كانتا مهموستين في العربية أيضاً . اذ لو كانتا مجهورتين لما قابلتا في التعريب التاء والكاف ، بل كانتا تقابلان الدال والـ (g) .

وهنا ايضاً ، لو استعرضنا الكلمات المعربة التي كانت تشتمل في السنها الاصلية على الدال والـ (g) لوجدنا العربية تبقي الدال على حالها لوجود هذا الصوت فيها ، بينما تقلب الـ (g) الى غين لانه أقرب الاصوات اليها ، فهو من محبسها اولاً ، وهو مجهور مثلها ثانياً ، ولافرق بينهما الا ان الغين رخوة ، والـ (g) شديدة .

انظر معي :

غراماطيقا = grammaika

جغرافية = gèographie

فيثاغورس = féthagoras

فراديس = paradis

ولو كانت القاف والطاء مجهورتين لكانتا أصلح واقرب الاصوات لمقابلة الدال والـ (g) لانهما الصورتان التفخيميتان حينئذ لهذين

الصوتين .

ويمكن ايضاً ان نقلب الاية فننظر في الكلمات العربية المشتملة على قاف او طاء ، ثم ننظر في صورتها بعد ان اخذها الافرنج عنا . فان ابدلوا من القاف والطاء صوتين مجهورين دل ذلك على جهرهما ، وان ابدلوا منهما مهموسين كان ذلك دليلاً على همسهما . ونحن ، خوف الاطالة ، نكتفي بكلمة واحدة فيها الصوتان موضوع المشكلة ، ويستطيع القارىء ان يكمل من ذاكرته مااضطررنا الى اهماله هنا . واليك هذه الكلمة : انها كلمة (قطن) التي انتهت عند الافرنج الى صورة Coton . وانت ترى انهم جعلوا مكان القاف والطاء كافاً وتاءً . فاذا عرفنا ان كلا من الكاف والتاء مهموس ، تأكد لدينا ان القاف والطاء كانتا مهموستين ايضاً .

اما الجواب عن السؤال الثاني (هل كان النحاة والقراء القدماء يفهمون من الجهر والهمس مانفهمه اليوم ؟) فلا يمكن الادلاء به الآن ، لان ذلك يتطلب درساً وبحثاً عميقين لم يقم بهما أحد حتى اليوم . وكل مالدينا الآن من نصوص حول هذا الموضوع لايمكن الباحث من الخروج بنتيجة حسمية . فعلى حين نجد نصوصاً تشير بوضوح تام الى حسن فهمهم للمجهور والمهموس كما نفهمها اليوم ، نجد نصوصاً اخرى فيها من الخلط والخطأ مالايجوز وقوعه من المبتدىء في علم الصوتيات .

فمن النوع الاول ذلك التحليل الدقيق الذي ذكره ابن جني في سر الصناعة (للصاد التي كالزاي) . فهذا التحليل البارع ان دل على

شيء فانما يدل على التقدم الكبير الذي حصله النحاة القدماء في علم الصوتيات . فاستمع معي اليه وهو يقول(١) : « واما الصاد التي كالزاي فهي التي يقل همسها قليلاً ، ويحدث فيها ضرب من الجهر ، لمضارعتها الزاي ، وذلك قولك في (يصْدر) : يصْدر ، وفي (قصد) : قصد . ومن العرب من يخلصها زاياً فيقول : يزدر وقزد . وقالوا في مثلٍ لهم : لم يحرم من فُزْدَ له . اي فُصِدَ له » .

والى جانب هذا تجد ابن جني يقع في اخطاء يستبعد وقوعها حتى من المبتدئين . ففي معرض كلامه عن (ذوق الحروف) يقول(٢): الا ان بعض الحروف اشد حصراً للصوت من بعضها . الا تراك تقول في الدال والطاء واللام : إد ، إط ، إل . ولاتجد للصوت منفذاً هناك ، ثم تقول : إص ، إس ، إز ، إت ، إف . فتجد الصوت يتبع الحرف؟»

فهنا ادخل اللام في زمرة الاصوات الشديدة . وهي كما نعرف من الاصوات المتوسطة ، اي التي يتسع معها مجرى الهواء اتساعاً كبيراً ، وكل انسان منا يستطيع ان يلفظ اللام ليجد ان الصوت ينطلق معها ولاينحبس كما يدعي ابن جني .

وقد اعتقدت لبرهة ان (إل) الواردة في العبارة تصحيف من النساخ ، وانها في الاصل (إك) بالكاف ، اذ لايعقل ان يخلط ابن جني ، وهو الطويل الباع في اللغة ، بين حرف شديد وحرف رخو

---

١ ــ ج١ ص ٥٦
٢ ــ المرجع نفسه ج١ص ٧

بله متوسط . ولكن بعد التأمل تبين لي انـــه لاتصحيف في الكلمة .
وذلك لسببين : أولهما ان كلمة (اللام) وردت في العبارة بتمام حروفها ،
واذا كان من الممكن وقـــوع التصحيف بين (ال) باللام و (اك)
بالكاف لتشابه الحرفين في الصورة ، فليس من المحتمل وقوع تحـــريف
بين كلمة (اللام) وكلمة (الـكاف) لتباعـد الصورتين تباعـداً كبيراً .
والثـاني ان النسخ التي اعتمدها المحققون للكتاب ، وهي تبلغ خمساً ،
قد اجمعت على (ال) ولم تشذ منها واحدة فتثبت (اك) مكان (ال) .
هذا وبعض النسخ قد روجعت على نسخة المؤلف التي هي بخط يـــده
وصححت عليهـا ، كما تضمنت تعليقات بقلم النحوي المصري الكبير العلامة
ابن هشام الانصاري .

فاذا ثبت ألا تصحيف في (ال) لم يبق الا ان نقول : ان ابن
جني خلط خلطاً شائناً بـين الصوت الشديد والصوت الرخـــو . ومن
المعجيب حقاً ألا يشير الاساتذة المحققون للكتاب الى هذا الخطأ من ابن جني ،
وفيهم من لايشك في تبحرهم باللغة وطول باعهم في الدراسات اللغوية مثل
مصطفى السقا والاستاذ ابراهيم مصطفى .

واذا رجعنا الى تعريفات النحاة المجهور والمهموس لم نظفر بما ينير
لنـا السبيل ، بل وجدنا على العكس ابهاماً وغموضاً لايمكن معها القول
انهم فهموا الجهر والهمس فهماً صحيحاً . فتعريفهم للمجهور لايختلف كثيراً
عن تعريفهم للشديد . وتعريفهم للمهموس هو نفسه تعريف الرخو :

آ ـ المجهور : مامنع النفس ان يجري معه حتى ينقضي الاعتماد

عليه ويجري الصوت .

ب ـ الشديد : مامنع الصوت ان يجري فيه .

آ ـ المهموس : ماجرى النفس معه .

ب ـ الرخو : ماجرى فيه الصوت[1] .

اما الجواب عن السؤال الثالث (لماذا أخطأ النحاة والقراء القدماء فوصفوا بالجهر ماهو مهموس) فليس أمراً ضرورياً فيما نعتقد . لان المهم عندنا ان نعرف حقيقة اصوات لساننا ، وليس المهم ان نعرف لماذا اخطأ المخطئون في وصفها . واذا كان لابد من قول في هذا الصدد فيجب الايكون فيه تكلف أو تمحل ، كما يجب ان يعلل خطأ الاقدمين بما يعلل به خطأ المحدثين . وقد تبين لي من خلال تدريسي لمادة فقه اللغة ان الطلبة كثيراً مايخطئون في تمييز المجهور من المهموس اذا كان الصوت المفحوص من الاصوات الشداد ، وذلك بسبب قصر زمن الجهر في المجهور لامتلاء الفم بالهواء المحبوس ، بينما يندر ان يخطئوا في التمييز بين المجهور والمهموس اذا كان الصوت المفحوص من الاصوات الرخوة ، وذلك بسبب طول زمن الجهر لقدرة الناطق على مد الصوت بقدر ماتسمح به رئتاه من الهواء . فاذا كان هؤلاء الطلبة يخطئون التمييز بين الجهر والهمس في الاصوات الشداد بعد ماعرفوا من امر الجهر ودور الوترين الصوتيين والطرق المختلفة للاستيثاق من امر الجهر ، فلأن يخطىء القدماء ، وهم الذين جهلوا امر الاوتار الصوتية ، في ذلك أولى .

---

١ ـ انظر سيبويه : الكتاب، ج ٢ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ . وعبارة ابن جني والزمخشري في تعريفاتهما للمجهور والمهموس والشديد والرخو لاتختلف في شيء عن عبارة سيبويه بل انهما في كثير من الاحيان يستعملان الفاظ سيبويه نفسها .

نسب الحبيسات العربية

ان الاصـوات الحبيسة لاتتساوى في نسب ورودها في الـكلام ، فبعضها يكثر وروده في هذا اللسان ، بينما يندر وروده في لسان آخر. يشعر بذلك الرجل العادي عندما يسمع انساناً يتكلم امامه بلسان لايفهمه ، فتراه اذا ماطلب منه ان يقلد هذا الانسان في كلامه ـ تراه ينطق بالفاظ مرتجلة لامعنى لها ولكنها مشتملة على حشد من الاصوات الشائعة في لسان هذا الانسان. وهناك اسطورة لطيفة تقول : ان ملـكاً بعـث رجلاً يـدرس له ألسن العالم ، فلما عاد الرجـل العالم من بعثته راح الملك يسأله عـن الألسن ، فـكان كلما سأله عن لسان ذكر له خصائصه ومميزاته وصفاته . فلما سأله عن الجركسية سكت ولم ينطق ، ثم اتى بكيس مملوء بالجوز فهزه هزاً عنيفاً ، فسمع من داخله قرقعة عالية ، فقال العالم للملك : هـذا هـــو اللسان الجركسي .

وقـد علمت ذلك أيضاً شركات صنع الآلات الـكاتبة ، فـلا تقوم بصنع آلة كاتبة للسان ما قبل ان تجري احصاء لأصوات هـذا اللسان . تطلع من خلاله على مايكثر وروده من هـذه الاصوات لتجعل ازراره في وسط الآلة ، وعلى مايقل وروده منها لتجعل ازراره في الاطراف .

وقد قام الدكتور ابراهيم انيس باحصاء من هـــذا النوع ليكشف عن نسب شيوع كل صوت من اصوات العربية واليك ماانتهى اليه :

قال في كتابه (الاصوات اللغوية)[1] :

« ولقـد حصرت عـدد كل منهـا [اي الاصوات الحبيسة] في عشرات من صفحـــات القرآن الكريم الذي لاشك انـــه يمثل اصدق الاساليب العربية ، وقد اتخذت هذه الصفحات كنماذج يقاس عليهـا . ثم استعنت بأهـل الرياضة فأجروا لي تلك العملية الرياضية الـتي تستخدم في علم الاحصاء ، وفي كثير من العلوم الحـديثة ، لتغنينا عن استقراء جميع افـراد الاصوات الساكنة [اي الاصوات الحبيسة] في القرآن الكريم التي تزيد على ثلاثمائة الف من الاصوات . وقد كانت النتيجة التي وصلت اليهـا ان نسبة شيوع [الحبيسات في كل الـــف صـوت حبيس هي كما يلي :]

ل ـ ١٢٧	هـ ـ ٥٦
م ـ ١٢٤	و ـ ٥٢
ن ـ ١١٢	ت ـ ٥٠
همزة ـ ٧٢	ي ـ ٤٥

---

١ ـ ص ١٧٠ ـ ١٧١

ب - ٤٣

ك - ٤١

ر - ٣٨

ف - ٣٨

ع - ٣٧

ق - ٢٣

س - ٢٠

د - ٢٠

ذ - ١٨

ج - ١٦

ح - ١٥

خ - ١٠

ص - ٨

ش - ٧

ض - ٦

غ - ٥

ث - ٥

ز - ٤

ط - ٤

ظ - ٣

أنواع النسج الصوتية في العربية

تبلغ عدة الاصوات الحبيسة في العربية ثمانية وعشرين صوتاً كما رأينا . وقد اجرى الخليل قديماً عملية حسابية بسيطة ليعلم مقدار الكلمات التي يمكن ان تتألف من هذه الاصوات ، فتبين له ان عدد هذه الكلمات الممكنة يتجاوز اثني عشر مليوناً . ولكن المستعمل منها في الواقع لا يكاد يتجاوز الثمانين الفاً . فما معنى ذلك ؟

معناه ان لكل لسان نظاماً خاصاً في تأليف الفاظه ونسجها ، فما يقبله هذا اللسان من نسج صوتية معينة ويكثر منه ، قد يرفضه لسان آخر أو يندر وجوده فيه . هذا المزج للاصوات ـ كما يسميه ابن جني[1] ـ يسمى بالنسج الصوتي . ولكل لسان اساليبه الخاصة في نسج كلماته صوتياً .

ان الدراسة المتعمقة للنسج الصوتية العربية لا تزال تنتظر من يقوم بها . ولكن القدماء من النحويين واللغويين لهم بعض الملاحظات في هذا الشأن ، وهي على جانب كبير من الاهمية على الرغم من قلتها .

---

١ ـ انظر سر الصناعة : ج ١ حاشية الصفحة ٧٧

ويمكن تقسيم هذه الملاحظات الى ثلاثة اقسام :

آ - نسج تأباها العربية اباء تاماً ، سواءً اكانت في كلماتها ام كانت في كلمات معربة . وتلك هي النسج المؤلفة من اصوات من جنس واحد ، مثل : ببب ، تتت ، ججج . . الخ .

ب - نسج تأباها العربية في كلماتها ، ولا تأباها في الكلمات الاعجمية المعربة . فان وجدت هذه النسج دل ذلك على عجمة الكلمة الموجودة فيها وهذه النسج هي :

١ - اجتماع الجيم مع الصاد ، مثل : صولجان . جص . صنجة . [١]

٢ - « الجيم مع القاف ، مثل : منجنيق . جوق . جرندق . [٢]

٣ - تقدم النون على الراء ، مثل : نرجس . نرس . نورج . نرجة . [٣]

٤ - تقدم الدال على الزاي ، مثل : مهندز .

٥ - تقدم اللام على الشين ، مثل : بلشّ. [٤]

٦ - اجتماع السين مع الذال ، مثل : ساذج .

٧ - اجتماع السين مع الزاي ، مثل : سوزان . [٥]

---

١ - الصنجة : كفة الميزان

٢ - الجوق : جماعة من الناس ، وجرندق علم لرجل .

٣ - النرجس زهر معروف ، والنرس علم لقرية في سواد العراق ، والنورج ، ويقال النيرج ايضاً هو ما يداس به الطعام ، حديداً كان خشباً ، والنرجة الخشبة التي تقلب بها الارض .

٤ - باش كلمة عامية بمعنى ابتدأ .

٥ - سوزان : اسم زهر معروف . والعرب تنطقه : سوسان او سوسن .

٨ ـ اجتماع الصاد والطاء ، مثل : مصطول .[١]

٩ ـ اجتماع الراء مع اللام إلا في النادر ، مثل : رلى .[٢]

١٠ ـ خلو كلمة رباعية او خماسية من احد حروف الذلاقة (الميم والنون والراء واللام والباء والفاء) ، مثل : عفجش[٣] .

ج ـ نسج تقلها العربية ، لكنها متفاوتة في الفصاحة والخفة . وقد احصى الشيخ بهاء الدين صاحب عروس الافراح اثني عشر من هذه النسج للكلمة الثلاثية ، ناظراً في ذلك الى مناطق الجهاز الصوتي لا الى الاصوات بالتفصيل .

واليك هذه النسج وما قاله في مراتب فصاحتها وخفتها :

١ ـ الانحدار من المخرج الاعلى الى الاوسط الى الادنى ، نحو : ع د ب[٤]

٢ ـ الانتقال من الاعلى الى الادنى الى الاوسط نحو : ع ر د .

٣ ـ من الاعلى الى الادنى الى الاعلى ، نحو : ع م هـ .

---

١ ـ مصطول : عامية معناها : ذاهل .

٢ ـ رلى : علم لقبيلة عربية .

٣ ـ عفجش كلمة لا معنى لهـا مثل الجواليقي بها لنوع من النسج تأباه العربية في كلماتها . قارن فيما يتعلق بهذه النسج الجواليقي : المعرب ، ص ١١ ـ ١٢ ، والخفاجي : شفاء الغليل ، ص ٧ ، وابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ، ص ٧٢ ـ ٧٣ . هذا وقد ذكر ابن جني في سر الصناعة (ج ١ ص ٧٧) انه عقد فصلاً في آخر كتابه لما حسن من تركيب الحروف وما قبح . ومن المؤسف ان الجزء الثاني من الكتاب لم ينشر حتى اليوم لنعرف ما قاله ابن جني في هـذا الفصل . ولكن يظهر مما نقله السيوطي عنه (المزهر ج ١ ص ١١٧) انه لم يأت بشيء اكثر مما اتى به المتأخرون عنه

٤ ـ يقصد بالمخرج الاعلى المحبس الذي يقع في المنطقة الخلفية من القناة الصوتية ، وبالاوسط المحبس الواقع في وسط الفم ، وبالادنى المحبس الواقع في مقدم الفم .

٤ - من الاعلى الى الاوسط الى الاعلى ، نحو : ع ل ن. (١)

٥ - من الادني الى الاوسط الى الاعلى ، نحو : ب د ع .

٦ - من الادني الى الاعلى الى الاوسط ، نحو : ب ع د .

٧ - من الادني الى الاعلى الى الادني ، نحو : ف ع م .

٨ - من الادني الى الاوسط الى الادني ، نحو : ف د م .

٩ - من الاوسط الى الاعلى الى الادني ، نحو : د ع م .

١٠ - من الاوسط الى الادني الى الاعلى : نحو : د م ع .

١١ - من الاوسط الى الاعلى الى الاوسط ، نحو : ن ع م

١٢ - من الاوسط الى الادني الى الاوسط ، نحو : ن م ل .

ويقول الشيخ بهاء الدين ان احسن هذه التراكيب الأول ، فالعاشر ، فالسادس . واما الخامس والتاسع فهما سيان في الاستعمال ، وان كان القياس يقتضي ان يكون ارجحهما التاسع (٢) . وأقل الجميع استعمالاً هو السادس (٣) .

---

١ - لا حظ خلط القدماء في الاصوات . فالمعروف ان اللام والنون من محبس واحد ، والشيخ بهاء الدين يجعلهما من منطقتين مختلفتين في الفم . كما خلط في المثال الثاني عندما جعل الدال ادخل في الفم من الراء مع ان الصحيح هو العكس .

٢ - يقصد بالقياس ما نصوا عليه من انه كلما تباعدت محابس اصوات الكلمة خفت في اللفظ . ولا شك ان التاسع فيه بعد لا يوجد في الخامس ، وهو الانتقال من الاعلى الى الادني .

٣ - عن المزهر للسيوطي ، ج ١ ص ١١٩

تصنيف الأصوات الطليقة

الطليقات خلاف الحبيسات . وهي اصوات لايجد الهواء معها عقبة تعترض طريقه في اي نقطة من نقاط القناة الصوتية . ومنها الفتحة والكسرة والضمة وما كان من قبيلها .

فلاحداث صوت طليق يخرج الهواء من الرئتين فيسلك طريقه في القصبة الهوائية . ثم يدخل الحنجرة فيجد الوترين الصوتيين متقاربين ، وفتحة المزمار ضيقة ، فيحتك بالوترين الصوتيين فيهزهما . ثم يخرج من الحنجرة فيسلك طريقه في الحلق ، فاذا وصل الى الحفر الانفية فهو امام احد امرين : إما ان يجد حجاب الحنك قد ارتفع فسد هذه الحفر ، واما ان يجده منخفضاً وطريق الحفر مفتوح . ففي الحالة الاولى يسلك طريقه في الفم وحده ، وفي الحالة الثانية يتخذ طريقه في المجريين الفم والانف معاً .

ويجب التنبيه هنا الى ان الاصوات الطليقات مجهورة كلها . وتعليل ذلك بسيط : فالطليقات ، وقد فقدت الانسداد الكامل الذي ينشأ عنه صوت الانفجار ، والانسداد الجزئي الذي ينشأ عنه صوت

الاحتكاك ، لم يبق لها الا الوتران الصوتيان لتعتمد عليها في تصويتها . فهي لذلك اصوات احادية التصويت وترية[1] .

وقد يرد الآن السؤال التالي : اذا كان الهواء لايجد أمامه في الاصوات الطليقة عقبة في اي نقطة من القناة الصوتية ، فكيف يتأتى لهذه الطليقات ان تمايز وتتنوع حتى تبلغ الخمسين عدداً ، كما يقر بذلك علماء اللغة ؟

والجواب : ان اعضاء النطق ليست على صورة واحدة مع جميع الاصوات الطليقة ، فقد يرتفع مقدم اللسان نحو الحنك الأعلى وقد ينخفض ، وقد يحدث هذا الارتفاع وذلك الانخفاض من وسطه او من اقصاه ، وقد تكون الشفتان مضمومتين او منفرجتين ، وقد يمر الهواء من الفم وحده او من الفم والانف معاً . فهذه الاوضاع المختلفة لاعضاء النطق هي عناصر التمايز والتنويع في الاصوات الطليقة . وعلى ذلك يمكن تصنيف هذه الاصوات على اسس ثلاثة : اساس درجة الانفتاح الحاصل من قرب اللسان في جزء من اجزائه من الحنك الاعلى ، ثم اساس الجزء المرتفع من اجزاء اللسان مع وضع الشفتين ، وأخيراً طريقة النطق .

آ - التصنيف بحسب اجزاء اللسان :

اذا ارتفع مقدم اللسان نحو الحنك الاعلى حتى بلغ أقصى مايمكن

---

١ - انظر ماقلناه آنفاً في صدر هذا الباب حول التصنيف المقترح الى اصوات احادية التصويت واصوات ثنائية التصويت .

الوصول اليه دون ان يرتطم بالحنك ، اويصل الى درجة تجعل الهواء المار يحدث احتكاكاً ، اذا وصل الى هذا الارتفاع الاقصى انبعث صوت طليق يسمى الكسرة (ـِـ) كالكسرة بعد العين في كلمة (عيد) .

واذا انخفض مقدم اللسان حتى بلغ أقصى مايستطيعه من الانخفاض حدث صوت طليق يسمى الفتحة المرققة (ـَ) ، كالفتحة الواقعة بعد الباء في قولنا (باب) .

وبين الارتفاع الاقصى لمقدم اللسان الذي يعطي الكسرة ، والانخفاض الاقصى لمقدمه الذي يعطي الفتحة المرققة ، توجد عدة نقاط تعطي كل واحدة منها صوتاً طليقاً يختلف عن غيره . ويمكن ان نميز من هذه النقاط الكثيرة اثنتين : واحدة قريبة من نقطة الكسرة تعطي صوتاً نسميه الامالة الحادة نحو الكسر . مثل الامالة المسموعة بعد الباء في كلمة (بيت) منطوقةً نطقاً عامياً ، واخرى قريبة من نقطة الفتحة المرققة تعطي صوتاً طليقاً نسميه بالامالة المنفرجة نحو الكسر ، مثل الامالة المسموعة بعد الباء في قول اللبنانيين (شوباك = ماذا بك) .

فهذه السلسلة من الاصوات الطليقة : الكسرة ، الامالة الكسرية الحادة ، الامالة الكسرية المنفرجة ، الفتحة المرققة ، تدعى بالاصوات الطليقة الامامية ، لانها تنتج عن تكتل اللسان في مقدم الفم تحت مقدم الحنك الاعلى ، اي الغار .

واذا ارتفع وسط اللسان الى الاعلى ، كما فعل مقدمه ، انتج

أصواتاً طليقة عديدة ليس في العربية منها غير صوت طليق قصير يسمع بعد حروف القلقلة ، وليس له رمز خاص نرمز به له . وتسمى هذه السلسلة من الاصوات بالاصوات الوسطي . ومنهم من يعد الفتحة بأنواعها المرققة والمفخمة من الاصوات الوسطى ، لان اجزاء اللسان المتحركة تقترب من نقطه الوسط في انخفاضها لانتاج الفتحة(١) .

واذا ارتفع اقصى اللسان نحو اقصى الحنك (الطبق) ، فأقصى مايستطيع ان يبلغه يؤدي الى احداث صوت طليق هو الضمة (ُ) ، كالضمة المسموعة بعد الباء في كلمة (بؤس) . واذا انخفض اقصى اللسان حتى بلغ أقصى مايستطيعه انتج صوتاً طليقاً يسمى الفتحة المفخمة (َ) كالفتحة الواقعة بعد الصاد في كلمة (صالح) .

وبين نقطتي الضمة والفتحة المفخمة توجد نقاط كثيرة تعطي كل منها صوتاً طليقاً يختلف عن غيره . ويمكن ان نميز من بين هذه النقاط الكثيرة اثنتين : احداهما قريبة من نقطة الضمة . وتعطي صوتاً طليقاً نسميه الامالة الضمية الحادة . مثل الامالة الضمية المسموعة بعد الكاف في كلمة (الكون) منطوقة نطقاً عامياً . والاخرى قريبة من نطقة الفتحة المفخمة ، وتعطي صوتاً طليقاً نسميه الامالة الضمية المنفرجة . ولاوجود لهذا الصوت في الفصحى ، ولا في العاميات على مانعلم .

فهذه السلسلة من الاصوات الطليقة : الضمة ، الامالة الضمية

---

١ ـ انظر : Cantineau : Cours de Phonétique Arabe . P,89

الحـــادة ، الامالة الضمية المنفرجة ، الفتحة المفخمة ، تـدعى بالطليقات الخلفية ، لانها تحدث عـن ارتفاع مؤخر اللسان نحـو أقصى الحنك[1] ، اي الطبق .

انشغلنا حتى الآن باللسان وحده ، ولم نذكر شيئاً عـن الشفتين ومايمكن ان يكون لهما من دور في تنويـع الاصوات الطليقة بما تتخذانه من اوضاع مختلفة . والواقـع ان للشفتين وضعين مختلفين ، ولـكل منهـما درجات متعددة . فأحدهما هو وضع الضم ، واقصى درجانه ان تصل الشفتان الى استدارة تامة مع بروز الى الامام ، وذلك هـو وضعهما اثنـاء نطق كلمة (بوم) ، والثاني هو وضع الكسر والخفض ، واقصى درجاته ان تصل الشفتان في تراجعهما الى الخلف على صفحتي الوجـــه الى وضـع يشبه وضع من غلبه الابتسام العريض . وذلك هـــو وضعهما اثناء نطق كلمة (كيس) .

وانما سمي الوضع الاول ـ وضع الاستدارة ـ بوضع الضم لانـــه يصاحـب النطق بالضمة والاصوات الخلفية ، كما سمي الوضع الثاني ـ وضع الانفراج والتراجع ـ بوضع الكسرة لانه يصاحب نطق الكسرة والاصوات الامامية . وهـــذا هو الشائع في الاصوات الطليقة في اغلب الالسن ، لكن هذا لايمنع ان السنا أخـرى تتضمن اصواتـاً طليقة خلفية يصحبهـا

---

١ ـ يفضل كانتينو عبـارة (تكتل اللسان في الخلف أو في الوسط او في الامام) على عبـارة (ارتفاع اقصى اللسان اووسطه اومقدمه) وقد استعملنا العبارتين معـاً زيادة في الايضاح ، وان كانـت عبارة كانتينو اصدق في التعبير عن واقع آلية اللسان مع الاصوات الطليقة . انظر كانتينو : المرجع السابق ، الصفحة ذاتها .

انفراج الشفتين ، واخرى امامية يرافقها ضم الشفتين . وبذلك يتضاعف عدد الاصوات الطليقة الممكنة .

بعد هذا يمكن ان نصنف الاصوات الطليقة بحسب اوضاع اللسان والشفتين الى ما يأتي :

١ ـ طليقات أمامية منكسرة : منها الكسرة ، والامالة الكسرية الحادة ، والامالة الكسرية المنفرجة ، والفتحة المرققة .

٢ ـ طليقات امامية منضمة : منها صوت (u) الفرنسي ، والذي يسمى في العربية بالاشمام بالضم[١] .

٣ ـ طليقات وسطيات منكسرة (منها الفتحة بكل انواعها[٢]. والقلقلة)

٤ ـ طليقات وسطيات منضمة (ـ ـ ـ ـ ـ ـ)

٥ ـ طليقات خلفية منكسرة : منها صوت (i) التركي بغير نقطة ، والذي يسمى في العربية بالاشمام بالكسر[١] .

٦ ـ طليقات خلفية منضمة : منها الضمة ، والامالة الضمية الحادة ، والامالة الضمية المنفرجة ، والفتحة المفخمة[٣] .

---

١ ـ انظر ابن جني : سر الصناعة . ج ١ ص ٥٩ .
٢ ـ هذا على رأي من يعد الفتحة بانواعها من الاصوات الوسطى . انظر كانتينو : المرجع السابق ص ٨٩ .
٣ ـ امك لاحظت اننا نعني بالطليقات المنضمة ماتنضم معه الشفتان ، وبالمنكسرة ماتنفرج معه الشفتان .

ب ـ التصنيف بحسب درجة الانفتاح :

رأينا فيما سبق ان ارتفاع اللسان او تكتله في جزء من اجزاء الفم يؤدي الى تضييق مجرى الهواء ، واحـداث درجات متعددة في الانفتاح الفموي . فعلى اساس درجات هذا الانفتاح يمكن تصنيف الأصوات الطليقة الى مايأتي :

١ ـ طليقات حادة : وافرادها الكسرة والضمة وما قرب منها .

٢ ـ طليقات منفرجة : وافرادها الفتحة المفخمة والفتحة المرققة وما قرب منها .

ج ـ التصنيف بحسب طريقة النطق :

ابرز طرق النطق التي تمايز بها الاصوات الطليقة اثنتان :

١ ـ الاطالة والتقصير : فبعض الاصوات الطليقة طويل يبلغ في طوله ضعفي مايلمنه القصير . وبعض الالسن يستعمل اربع درجات من الطول . والعربية واحدة من هذه الالسن ، وان كانت لاتعترف بغير درجتين اثنتين فقط : قصيرة منها الفتحة والضمة والكسرة . وطويلة منها الفتحة الطويلة والضمة الطويلة والكسرة الطويلة(١) . غير ان ابن

---

١ ـ لاحظ اننا قلنا (الفتحة الطويلة) ولم نقل (الالف) وقلنا (الكسرة الطويلة) ولم نقل (الياء) وقلنا (الضمة الطويلة) ولم نقل (الواو) وذلك خشية ان يفهم من (الواو والياء) الصوتان الشبيهان بالطليقات . هذا ، وليس هناك خلاف بين الفتحة والالف الا في الطول ، فالاولى

يتبع ←

جني ينبهنا في سر الصناعة (ج ١ ص ١٩ - ٢٠) الى وجود طول مفرط للفتحة والضمة والكسرة اذا وليتها الهمزة او الادغام . يقول : « الا ترى ان الالف والياء والواو اللواتي هن حروف توامّ كوامل قد تجدهن في بعض الاحوال اطول واتم منهن في بعض . وذلك قولك يخاف وينام ، ويسير ويطير ، ويقوم ويسوم ، فتجد فيهن امتداداً واستطالة ما ، فاذا اوقعت بعدهن الهمزة او الحرف المدغم ازددن طولاً وامتداداً ، وذلك نحو : يشاء ويداء ، ويسوء وينوء ، ويجيء ويفيء . وتقول مع الادغام : شابّة ودابّة ، ويطيبْ بّكر ، ويسيرْ رّاشد ، وتمودّ الثوب ، وقد قوصّ زيد بما عليه . أفلا ترى الى زيادة المد فيهن بوقوع الهمزة والمدغم بعدهن ؟ »

والى جانب هذا الطول المفرط نجد قصراً مفرطاً فيما كانوا يسمونه بالرَوْم . وهو الوقف على اواخر الكلمات بحركاتها الاعرابية مقصرة تقصيراً كبيراً حتى لايكاد يدركها السمع . ومن هذه الدرجة من درجات الطول صوت القلقلة ايضاً .

قصيرة والثانية طويلة ، وكذا الامر مع الضمة والواو ، والكسرة والياء . وقد انتبه الى ذلك القدماء ، فقال ابن جني في سر الصناعة (ج ١ ص ١٩) : اعلم ان الحركات ابعاض حروف المد واللين ، وهي الالف والياء والواو ، فكما ان هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهي الفتحة ، والكسرة ، والضمة ، فالفتحة بعض الالف ، والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو . وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الالف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة . وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة .

٢ ـ الغنة وعدمها : فالغنة ان يفتح مجرى الانف ومجرى الفم ليسلكهما الهواء اثناء نطق الصوت الطليق ، وعدم الغنة ان يسد مجرى الانف فلا يجد الهواء غير مجرى الفم يسلكه . فمن النوع الثاني طليقات العربية كلها ، ومن النوع الاول الطليقات الفرنسية الغناء التي يرمز لها بالرموز (in , un , an , on ...)

* * *

الطليقات في العربية

١ ـ الفتحة المرققة القصيرة :

هي صوت طليق امامي منفرج قصير غير أغن .

تقصر في الروم حتى تصير الى نصفها .

لاترى الا بعد الاصوات الحبيسة المستفلة ، وهي : ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، د ، ذ ، ز ، س ، ش ، ع ، ف ، ك ، ل ، م ، ن ، ه ، و ، ي .

٢ ـ الفتحة المرققة الطويلة :

هي صوت طليق امامي منفرج طويل غير أغن .

تبلغ في طولها ضعفي طول القصيرة . وقد يزيد طولها حتى يبلغ الضعفين ، وذلك اذا وليها الادغام او الهمز .

ولا ترى الا بعد الاصوات المستفلة .

٣ ـ الكسرة القصيرة :

هي صوت طليق أمامي منكسر حاد قصير غير أغن .

تقصر في الروم حتى تصير الى نصفها .

اذا سبقتها اصوات الاستعلاء (ص ، ض ، ط ، ظ ، خ ، غ ، ق .) انفرجت قليلاً ، ولاسيما اذا كان الصوت السابق من المطبقات (ص ، ط ، ض ، ظ) . وهذا الانفراج ليس مقصوداً لذاته ، بل يحتمه انتقال اللسان من وضعه الامامي الضيق الى ماتتطلبه اصوات الاطباق من صعوده نحو الحنك الاعلى متخذاً شكلا مقعراً[1] .

٤ ـ الكسرة الطويلة :

هي صوت طليق امامي منكسر حاد طويل غير اغن .

تبلغ في طولها ضعفي طول القصيرة . وقد يزيد طولها حتى يبلغ الضعفين ، وذلك اذا وليها الادغام اوالهمز .

يصيبها من الانفراج مايصيب الكسرة القصيرة ، وللاسباب نفسها .

٥ ـ الامالة الكسرية الحادة القصيرة :

هي صوت طليق امامي منكسر حاد قصير غير اغن

تقصر في الروم حتى تبلغ نصفها .

---

١ ـ ابراهيم انيس : الاصوات اللغوية ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

لها احكام كثيرة معقدة لايتسع المجال لذكرها . ويمكن الاطلاع عليها بالرجوع الى كتب النحو والقراءات . والامالة على العموم ، لغة نجد، اما الفتح فهو لغة الحجاز .

٦ ـ الامالة الكسرية المنفرجة القصيرة :

احكامها كأحكام سابقتها ، ولا تختلف عنها الا في درجة انفراجها.

٧ ـ الامالة الكسرية الحادة الطويلة :

احكامها كأحكام الامالة الكسرية الحادة القصيرة ، ولا تختلف عنها الا في درجة الطول الذي قد يبلغ حد الافراط اذا وقعت بعد ادغام اوهمز.

٨ ـ الامالة الكسرية المنفرجة الطويلة :

احكامها كأحكام سابقتها ، ولاتختلف عنها الا في درجة انفراجها .

٩ ـ الفتحة المفخمة القصيرة :

ويسميها القدماء بالامالة نحو الضم ، وهذا صحيح ، الا اننا نفضل وصفها بالمفخمة لنحتفظ بمصطلح (الامالة الضمية) لطليقات أخرى هن اكثر إمالة نحو الضم من الفتحة المفخمة . وهؤلاء لايوجدن في الفصحى ، ولكنهن موجودات في العاميات وفي السن اعجمية كما رأينا سابقاً .

والفتحة المفخمة صوت طليق خلفي منضم منفرج قصير غير اغن .

لاترى هذه الفتحة الا بعد اصوات الاستعلاء (ص ، ض ، ط ،

ظ ، غ ، خ ، ق) ومعها الراء ايضاً .

يصيبها من القصر في الروم مايصيب كل الطليقات القصار .

١٠ ـ الفتحة المفخمة الطويلة :

احكامها كاحكام سابقتها ، ولا تختلف عنها الا في درجة الطول الذي يبلغ حد الافراط اذا وليها الادغام او الهمز .

١١ ـ الضمة القصيرة :

هي صوت طليق خلفي منضم حاد قصير غير اغن .

يصيبها من القصر في الروم مايصيب كل الطليقات القصار . ولا تنفرج بتأثير اصوات الاستعلاء كما يحدث للكسرة .

١٢ ـ الضمة الطويلة :

احكامها كاحكام سابقتها ، ولاتختلف عنها الا في درجة الطول الذي يبلغ حد الافراط اذا وليها الادغام او الهمز .

١٣ ـ الاشمام بالضم القصير :

هو صوت طليق أمامي حاد منضم قصير غير أغن .

وبعبارة اخرى : هو كسرة تنضم معها الشفتان بدل ان تنفرجا .

١٤ ـ الاشمام بالضم الطويل :

احكامه كأحكام سابقه ، ولا يختلف عنه الا في درجة الطول .

١٥ - الاشمام بالكسر القصير :

هو صوت طليق خلفي حاد منكسر قصير غير أغن .

وبعبارة أخرى : هو ضمة تنفرج معها الشفتان بدل ان تنضما .

١٦ - الاشمام بالكسر الطويل :

احكامه كأحكام سابقه ، ولايختلف عنه الا في درجة الطول .

* * *

الطليقات المركبة

اذا التقى في الكلام صوتان طليقان فان احدهما لايلفظ كما يلفظ الطليق ، او بعبارة اخرى ، فان احدهما لاينال من الاشباع في اللفظ ماينالهُ الطليق عادة ، انظر الى كلمة (بَيْت) تجد فيها صوتين طليقين ، هما الفتحة ثم الياء (الكسرة) . والآن الفظ هذه الكلمة وانتبه الى لفظك تجد انك لاتكاد تبدأ بالفتحة حتى ينزلق لسانك انزلاقاً سريعاً الى الكسرة . قد تقول : ولكن هذه السرعة في لفظ الفتحة سببها كونها فتحة قصيرة ، والياء بعدها كسرة طويلة ، وليس الامر كذلك . لأنك ، في كلمات اخري تقوم بمثل هذا الانزلاق ولو كان الصوت الطليق الاول طويلاً : الفظ معي كلمة (يُسر) تجد انك تنتقل من الياء في حركة ازلاقية الى الفتحة ، ولو شئت الا تقوم بهذة الحركة الانزلاقية لكان عليك ان تلفظ الكلمة كما لو كانت مكتوبة هكذا (ي ـُ سر) من غيرَ ان تبدأ الطليقات بهمزة قطع .

هذا التركيب ـ ولا بد انك لاحظت ذلك ـ يخرج أحد الطليقين عن كونه طليقاً ، ويدخله في زمرة الحبيسات ، فالياء في كلتا الكلمتين (بيت ـ يسر) لم تبق صوتاً طليقاً ، بل اصبحت من الحبيسات التي

سميناها باشباه الطليقات ، وهي تقوم بوظيفة الصوت الحبيس في المقطع الذي هي فيه .

وللطليق المركب (diphtongue) نوعان : صاعد ، وهابط .

لكن اللغويين يختلفون في مفهومي الصاعد والهابط . فابراهيم انيس[1] يطلق كلمة الصاعد على الطليق المركب الذي اصبح جزؤه الاول شبه طليق ، أو قل على الذي قام جزؤه الإول مقام الحبيس في المقطع ، مثل (يسر) ، ويطلق كلمة الهابط على ماأصبح جزؤه الثاني شبه طليق ، أو قل على الذي قام جزؤه الثاني مقام الحبيس في المقطع ، مثل : (بيت) . بينما يقول محمود السعران[2] : « يسمى هابطاً او نازلاً ان كان طرفه الاول ابرز او اشد جهارة من طرفه الثاني (اي انه سمي بذلك باعتبار مايصير اليه) ، ويسمى صاعداً او طالعاً ، ان كان طرفه الثاني ابرز واشد جهارة من طرفه الاول » .

والذي يهمنا هنا ان نستعرض الاشكال المختلفة للطليقات المركبة في العربية . وهذه هي :

١ ـ فتحة + كسرة = بيْت . (هابط)
٢ ـ فتحة + ضمة = كَوْن . »
٣ ـ كسرة + فتحة = يا . (صاعد)
٤ ـ كسرة + ضمة = يوسف . »
٥ ـ كسرة + كسرة = كاِئن . »
٦ ـ ضمة + فتحة = واحد . »
٧ ـ ضمة + كسرة = وِصال . »
٨ ـ ضمة + ضمة = داوود . »

١ ـ انظر كتابه : الاصوات ، ص ٨٩
٢ ـ علم اللغة ص ٢٠٤

وقد تخلصت اكثر العاميات من الشكلين الاول والثاني . فحولت الاول (فتحة + كسرة) الى طليق بسيط يقع بينهما ، هــو الامالة الكسرية الحادة . وحولت الثاني (فتحة + ضمة) الى طليق بسيط يقع بينهما ، هو الامالة الضمية الحادة .

* * *

يحسن . بنا وقد انتهينا من تصنيف الاصوات العربية وصفتهـا ، ان نلقي عليها جميعاً نظرة عامة ، وان نبدي بعض الملاحظات الضرورية .

فأول مايلفت النظر ان نظام الحبيسات في العربية يمتـاز بالغـنى والثراء ، وحسن التوزع على طـول القناة الصوتية كلهـا . فالعربية تملك ثمـانية وعشرين حبيساً ، وهو عدد يحسدها عليه كثير من السن العالم ، ولايكاد يفوقها فيه الا قـلة من الالسن كالارمنية مثلاً . ثم انها وزعت هذه الحبيسات الثمانية والعشرين توزيعاً عادلاً على طول القناة الصوتية من الشفتين الى الحنجرة ، فاكسبها ذلك انسجاماً صوتياً جميلاً لايرى مثله في كثير من الالسن . نعم ، قد نرى في السن اخرى غـير العربية اصواتاً اكثر عدداً ، ولكنها محصورة محابسهـا في نطاق ضيق ، وفي مــدرج أقصر ، قد تجدها مجتمعة متكاثرة في جانب الشفتين ، وماوالاهما من الفم والخيشوم في الالسن الكثيرة الغنة ، اوتجدها مـتزاحمة في جهة الحلق ، وفي كلا الحالين ضيق في الافق الصوتي ، واختلال في الميزان الصوتي ،

وفقدان لحسن الانسجام بسبب سوء توزيع الاصوات(١) .

والى جانب هذا الثراء الذي تتمتع به العربية في نظام حبيساتها ، نجد نظام الطليقات فيها يعاني من فقر مدقع شديد . وتتجلى مظاهر هذا الفقر فيما يلي :

١ - لاتستعمل العربية غير درجتين اثنتين من درجات الانفتاح : درجة حادة تقع فيها الكسرة والضمة ، ودرجة منفرجة تقع فيها الفتحة . بينما نجد في السن اخرى ، كالتركية مثلاً ، اربع درجات : شديدة الحدة ، (وتقابل الحادة عندنا) ، وحادة ، ومنفرجة ، وشديدة الانفراج (تقابل المنفرجة عندنا) .

٢ - لاتستعمل العربية من مناطق الفم لانتاج الطليقات غير منطقتين : أمامية تقع فيها الكسرة ، وخلفية تقع فيها الضمة . بينما نجد ألسناً أخرى تستغل منطقة الوسط استغلالاً جيداً .

٣ - لاتستعمل العربية الخلفيات إلا وهي منضمة ، ولاتستعمل الاماميات الا وهي منكسرة ، على حين نجد السناً أخرى كالفرنسية والتركية ، تستعمل الخلفيات منضمة ومنكسرة ، كما تستعمل الاماميات منضمة ومنكسرة ايضاً(٢) .

---

١ - محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ الطبعة الثالثة ١٩٦٨ .

٢ - يرجى من القارىء ان يتذكر ان الخلفي المنكسر هو مادعوناه بالاشمام بالكسر ، وان الامامي المنضم هو مادعوناه بالاشمام بالضم اي (الضمة المشوبة بالكسرة ، والكسرة المشوبة بالضمة) .

٤ ـ تخلو العربية خلواً تاماً من الطليقات الغنّاء .

٥ ـ لاتملك العربية غير درجتين من درجات الطول : القصير، والطويل ، بينما نجد ألسناً اخرى تملك ثلاث درجات او اربعا[١] .

والنتيجة انه ليس في العربية غير ستة طليقات ، ثلاثة منها قصيرة هي الفتحة والضمة والكسرة ، وثلاثة منها طويلة هي الفتحة والضمة والكسرة الطوال .

قد يقول قائل : فأين الاشمام بانواعه ، والامالة بانواعها ، والقلقلة ، والفتحة المفخمة ؟

والجواب : ان هذه الطليقات كلها ليست أساسية ، وانما هي فروع أو انواع من الفتحة والضمة والكسرة . والفرق بين الاساسي والفرعي من الاصوات ، ان الاساسي اذا حل مكان صوت آخر غير معنى الكلمة ، والفرعي بخلافه . ألا ترى انك لو قلت في الفرنسية (par) ثم املت الفتحة فقلت (pére) لتغير المعنى ، اذ معنى الاولى (بوساطة) ومعنى الثانية (أب) ؟ وليس الامر كذلك في العربية ، فاذا قلت (الضحى) بالفتح او بالامالة لم يتغير المعنى . وانما يتغير اذا ابدلت صوتاً طليقاً اساسياً بآخر اساسي ايضاً ، وذلك نحو قولك (باع وبيع) .

---

١ ـ اذا قيست العربية في هذه الناحية بأكثر الالسن بدت غنية لافقيرة ، فاكثر الالسن لايملك الا درجة واحدة من الطول ، مثل الفرنسية والانكليزية والايطاليه والاسبانية وغيرها .

مدة الصوت اللغوي

مما عني به المحدثون في تجاربهم معرفة مدة الصوت اللغوي ، سواء أكان طليقاً أم حبيساً . ونعني بطول الصوت الزمن الذي يستغرقه النطق بهذا الصوت مقدراً عادة بجزء من الثانية . فقد قدروا ان الدال المتطرفة في الكلمات الانكليزية تستغرق في النطق بها حوالي ٠,٠٥ من الثانية ، في حين ان صوت (a) يستغرق مدة الطول هي حوالي ٠,٤٣ من الثانية[1] .

وطول الصوت إما ان يكون طبيعياً فيه او مكتسباً . فالطول الطبيعي هو الطول الناشىء عن طبيعة الصوت وآليته النطقية الخاصة به (طليق - حبيس - شديد - رخو - شبه طليق ... الخ) ؛ والطول المكتسب هو الطول الذي يكتسبه الصوت من مجاورته للاصوات الاخرى ، او من موقعه الذي يحتله في الكلام .

وهذه مراتب الطول الطبيعي في الحبيسات مرتبة بالاطول فالاقصر:

١ - الانفيات : وهي النون والميم .

---

١ - ابراهيم انيس : الاصوات اللغوية ص ٨٠

٢ ـ الجانبيات : وتسمى الحـافيات ايضاً كما مر معنا . ومنها اللام .

٣ ـ المكررة : وهي الراء .

٤ ـ الرخوة : ومنها الفاء والحاء والثاء والهاء ... الخ .

٥ ـ الشديدة : ومنها الباء والتاء والدال ... الخ .

وهذه مراتب الطول الطبيعي في الطليقات :

١ ـ الطليقات الطويلة : مثل : عاد ، بيع ، يعود .

٢ ـ الفتحة : مثل : ضَرَبَ .

٣ ـ الضمة والكسرة : مثل : ضُرِب .

٤ ـ القلقلة : وهو الطليق القصير جداً الذي يسمع بعد حروف القلقلة (ق ـ ط ـ ب ـ ج ـ د) ، مثل : يقتل .

أما العوامل الـتي تكسب الصوت طولاً لم يكن له من طبيعته فأهمهـا :

١ ـ النبر : فالطليق في مقطع منبور أطول منه في مقطع غـير منبور ، كما في كلمة (قاتلات) حيث نجد الالف الـتي بعد اللام أطول من الالف التي بعد القـاف . وانما اكتسبت طولها هذا من وقوعهـا في مقطع منبور .

٢ ـ اذا ولي المقطع المنبور مقاطع غـير منبورة قلت من طول صوت المنبور . فالالف في كلمة (كتاب) وحدها اطول منها في الكلمة نفسها بعد ان تليها مقاطع غير منبورة كما في (كتاب تلميذ) .

٣ ـ اذا ولي الطليقات الطوال همزة زادت في طولها ، مثل : صحراء ، يسوء ، يجيء .

٤ ـ اذا ولي الطليقات الطوال ادغام زاد في طولها زيادة مفرطة، مثل : مدهامّتان ، بطيشّكر ، قوصّ زيد .

٥ ـ اذا تطرفت الالف قصرت ، مثل : عسى ، رحا .

٦ ـ يقصر الحبيس اذا وليه طليق ، ويطول اذا وليه حبيس مثله . وبعبارة قديمة : الحرف الساكن اطول من الحرف المتحرك ، فالسين في كلمة (اسمع) اطول منها في كلمة (وسيع) .

٧ ـ تطول النون اذا اخفيت ، اي اذا وقعت ساكنة قبل حروف الاخفاء ، وهي (ت ـ ث ـ ج ـ د ـ ذ ـ ز ـ س ـ ش ـ ص ـ ض ـ ط ـ ظ ـ ف ـ ق ـ ك) كما تطول اذا وقعت ساكنة قبل الميم (ظاهرة الاقلاب) .

٨ ـ الروم : وهو الوقف على نهاية الكلمة بحركة الاعراب مع تقصيرها . والروم كما رأينا يصل بالطليق القصير الى نصف طوله الطبيعي .

★ ★ ★

كل الذي سبق هو الطول مدروساً من وجهة نظر علم الاصوات

(phonétique) ، اما من وجهة نظـــر عـــلم وظـــائف الاصوات (phonologie) - وهو لايهتم الا بالظواهر الصوتية الـــتي لها اثر في المعنى - فان العربية لاتعترف إلا بمرتبتين اثنتين من مراتب الطول :

١ - قصيرة : ويدخل ضمنهـا الفتحة والضمة والكسرة القصار ، وكل الحبيسات المخففة .

٢ - طويلة : ويدخل فيها الفتحة والضمة والكسرة الطوال ، وكل الحبيسات المضعفة .

شدة الصوت اللغوي

مما يمكن ملاحظته بالاذن المجردة ان الاصوات اللغوية لاتنطق كلها على درجة واحدة من الشدة والقوة ، فبعضها اشد من بعض . الاترى ان الساكن اشد من المتحرك ، والمضعف اشد من المخفف ؟ وانما يتدخل في شدة الصوت عوامل عدة ، منها درجة توتر اعضاء النطق ، ومنها كميـة الهواء المتدفق اثناء النطق به .

ولاتزال دراسة الشدة في الاصوات العربية تنتظر من يقوم بها .

حدة الصوت اللغوي

من المعروف في علم الفيزياء ان الصوت ناتج عن ذبذبة لجسم ما في وسط ما ، كذبذبة وتر في وسط هوائي مثلاً . وانه كلما زاد عـدد الذبذبات في الثانية الواحـــدة ارتفع الصوت واحتد ، والعكس بالعكس ايضاً .

فالحدة التي نعنيها هي نسبة ارتفاع الصوت وانخفاضه .

واصوات اللغة لاتنطق كلها على درجة واحدة من الحـدة في اثناء الـكلام . بل ترانا نرفع باصواتنا طوراً ، وننخفض بها طوراً آخر . واليك مثالاً على ذلك في كلمتي (هذا كتابك) منطوقتين في سياقات مختلفة :

١ ـ هذا كتابك ؟ (في معرض الاستفهام)
٢ ـ هذا كتابك (في معرض التقرير)
٣ ـ هذا كتابك (في معرض الاجابة)
٤ ـ أهذا كتابك ؟ ! (في معرض السخرية)

ففي المثال الاول ننطق الكلمة الاولى منخفضة ثم نرفع الحـدة في

الثانية . اما في المثال الثاني فننطق الاثنتين منخفضتين ، واما في الثالث فننطق الاولى مرتفعة والثانيـة منخفضة ، واما في الرابع فننطق الكلمتين مرتفعتين .

ان الطرق المختلفة التي يسلكها لسان ما في درجات الحدة ارتفاعاً وانخفاضاً في كلماته وتعبيراته تسمى بالتنغيم (intonation) . ومعرفة تنغيم كل لسان أمر ضروري في تعلمـه ، لأن من يتكلم لساناً أجنبياً عنه ، ولايتبع في تكلمه اياه قواعد تنغيمه الخاصة به ، تبدو غربته عن هـذا اللسان واضحة ، كما يشعر ابنـاء اللسان بالنفرة من طريقته في الـكلام . هذا اذا كان اللسان مما لايقيم وزناً فونولوجياً للتنغيم . كالعربية مثلاً ، أما في الالسن التى تجعل للتنغيم وظيفة في تغيـير المعـنى فالأمر أدهى وامر . اذ قد يلفظ المتعلم كلمة بتنغيم خاص فيفهم منها ابناء اللسان معنى غير الذي اراده المتكلم . وهذا النوع من الالسن شائع في الجنوب الشرقي لآسيا . والصينية واحدة من هذه الالسن التي تعتمد على التنغيم في تحديد معـاني مفرداتها ، فكلمة (فان) في هذا اللسان تؤدي ستة معان لاعلاقة بينها ، هي : (نوم ـ يحرق ـ شجاع ـ واجب ـ يقسم ـ مسحوق) ، وليس هناك من فرق سوى النغمة الموسيقية في كل حالة[1] .

ان قواعد التنغيم في العربية قديماً مجهولة تمـاماً ، لان النحاة لم يشيروا الى شيء من ذلك في كتبهم ، اما التنغيم في العربية حديثاً فـلا يزال ينتظر من يقوم بدراسته دراسة شمول واستقصاء . ومحاولة الدكتور تمام حسان في هذا الموضوع محاولة ابتدائية محدودة . بالاضافة الى انهـا تعتمد على استقراء ناقص ، بل ضيق جداً[2] .

---

١ ـ ابراهيم انيس : الاصوات اللغوية ، ص ١٠٣

٢ ـ انظر محاولته لوضع قواعد تنغيم العربية الحديثة : مناهج البحث في اللغة ص ١٦٤ ـ ١٧٠

المقاطع

لاحظ اللغويون - كما يمكن لكل امرىء ان يلاحظ - ان الكلام لايمكن ان يتألف كله من اصوات طليقة فقط ، اذ لايمكنك ان تتلفظ بالاصوات الآتية : (آيْ وْ يْ آ وْ آيْ) ، كما لايمكن ان يتألف الكلام كله من اصوات حبيسة فقط ، اذ من المتعذر علينا جميعاً ان نلفظ هذه الاصوات : (شْفْخْشْدْ كْرْزْفْتْ) . الكلام اذن يتألف من حبيسات تتلوها طليقات تتبعها حبيسات ... وهكذا . والفم اثناء الكلام ينفتح وينغلق ، ففي انفتاحاته تحدث الطليقات ، وفي انغلاقاته تحدث الحبيسات ، ولايمكنه ان يظل منفتحاً ، ولا ان يظل منغلقاً .

وقد حلل اللغويون الكلام الى وحدات صوتية اكبر من وحدات الاصوات المفردة دعوها المقاطع . فالمقطع هو مجموعة من الاصوات المفردة تقع بين كل انفتاح من انفتاحات الفم اثناء الكلام وبين الانفتاح الذي يليه . وبعبارة اخرى : المقطع هي مجموعة من الاصوات المفردة تتألف من صوت طليق واحد معه صوت حبيس واحد او اكثر . ففي كلمة (قالْ) مقطع واحد يتألف من صوت طليق واحد هو الفتحة

الطويلة (الالف) ، وعلى جانبيه حبيسان اثنان همـا القاف والـلام . وفي كلمة (هاتي) مقطعان : اولهما (هـــا) الذي يتألف من الفتحة الطويلة (الالف) ومعها الهـاء ، والثاني (تي) الذي يتألف من الكسرة الطويلة (الياء) ومعها التاء . اما الكلمة (ضَرَبَ) فتتألف من ثلاثة مقاطع ، كل منهـا مؤلف من فتحة قصيرة مع حبيس واحـــد وهي على الترتيب (ضَ ـ رَ ـ بَ) .

حتى هنا بدا تقسيم الـكلام الى مقاطـع امراً ميسوراً ، لكن الصعوبة تنشأ في مثل كلمة (دَحْرَجْ) ، فهـــذه الكلمة تتألف من الاصوات الآتيـة : (د) حبيس + (ـَ) طليق + (ح) حبيس + (ر) حبيس + (ـَ) طليق + (ج) حبيس . اي تتألـف من طليقين واربعة حبيسات ، اي انهـا تتألف من مقطعين اثنين ، لان كل طليق واحد يعتبر محوراً لمقطع واحد . والصعوبة هي في توزيـــع الحبيسات الاربعة على هذين المقطعين . نعم انه لاخلاف في تبعية الحبيس الاول ، وهو الدال ، المقطع الاول . كما لا اخـــلاف في تبعية الحبيسين الثالث والرابع ، وهما الراء والجيم المقطع الثاني . ولكن الخـلاف يتركـز في امر الحبيس الثاني ، وهو الحاء . فهل نضمه الى المقطع الاول فيكون المقطعان على الشكل الآتي : (دَحْ + رَجْ) ، أم نضمه الى المقطـع الثاني فيكون المقطعان على الشكل الآتي : (د + حْرجْ) ؟ إن كلا الامرين جائز ، وليس هناك مايرجح احدهما على الآخر(١).

١ ـ في العربية يمكن ترجيح الامر الاول ، لان العربية ترفض البدء بحبيسين قبل الطليق . وبعبارة نحوية : لايجوز البدء في العربية بالساكن . ولهذا فليس فيها مقطع من نوع (حبيس + حبيس + طليق) ، كما سترى بعد قليل .

ان التمييز بين حدود المقاطع مما اختلف فيه اللغويون كثيراً ، ووضعوا من اجله نظريات كثيرة ، بعضها يعتمد على امور صوتية بحتة ، وبعضها مستمد من معطيات علم النفس . ولايتسع المجال لذكر هذه النظريات وشرحها ، كما ان حدود المقاطع العربية - وهي مايهمنا من هذا البحث - تمتاز بالوضوح خلافاً لمقاطع الالسن الاخرى .

ويحسن بنا ، قبل الدخول في بحث انواع المقاطع ، ان نشير الى ان التحليل الصوتي الى مقاطع ليس شيئاً اعتباطياً ناشئاً عن ترف لالزوم له في الابحاث الصوتية ، بل هو أمر موجود فعلاً في ابسط اشكال الحس اللغوي ، فأنت اذا سمعت كلاماً لاتفهمه ، تعذر عليك ان تحلله الى كلماته ، ولكنك تستطيع بسهولة ان تحلله الى مقاطعه التي يتألف منها . والكتابة بدأت مقطعية قبل ان تكون هجائية ، فالأكديون كانوا يرمزون الى كل اصوات المقطع الواحد برمز واحد في كتابتهم المسمارية ، ولم يكونوا قد اهتدوا بعد الى الصوت المفرد الذي اهتدى اليه الكنعانيون فيما بعد بكتابتهم الهجائية . وقد عثر علماء اللغة على نقوش لألسن قديمة لاتقيم فواصل بين كلماتها ، بل تقيم هذه الفواصل بين مقاطعها . كما يحدثنا علماء النفس عن امراض نفسية اذا اصابت الانسان افقدته القدرة على تذكر الكلمة ، ولم تفقده القدرة على تذكر عدد المقاطع التي تتألف منها هذه الكلمة . هذا الى ان موازين الشعر في كل لسان تعتمد التحليل المقطعي قبل اي شيء آخر(١) .

★ ★ ★

١ - انظر فندريس : اللغة ، ص ٨٤ - ٨٥

تنقسم المقاطع من حيث موضع الطليق فيها الى ثلاثة اقسام :

١ ـ مفتوح : وهو المقطع الذي ينتهي بالطليق ، مثل : بَ ـ بِ ـ بُ ـ با ـ بي ـ بو .

٢ ـ مغلق : وهو ماانتهى بالحبيس ، مثل : عَنْ مِن ـ قُلْ ـ باب ـ عيد ـ عود .

٣ ـ مضاعف الاغلاق : وهو ماتلا الطليق فيه حبيسان ، مثل : َبحر ـ قِرد ـ ـ ثُـكل .

وتنقسم من حيث الطول والقصر الى ثلاثة اقسام ايضاً :

١ ـ قصير : وهو ماتألف من طليق قصير مع حبيس واحـد : بِ ـ وَ ـ فَ .

٢ ـ متوسط : وهو ماتألف من طليق طويل مع حبيس واحد ، مثل : يا ـ فو ـ في ، أو من طليق قصير مع حبيسين ، مثل : عَنْ ـ مِن ـ قُم .

٣ ـ طويل : وهو ماتألف من طليق طويل مع حبيسين او اكثر ، مثل : باب ـ كيس ـ عود ، أو من طليق قصير مع ثلاثة حبيسات ، مثل : بَدْر ـ قُرْب ـ عِنْدْ .

أشكال المقطع في العربية

المقطع العربي خمسة اشكال ، هي :

١ - حبيس + طليق قصير = بِ (قصير مفتوح*)

٢ - حبيس + طليق طويل = يا (متوسط مفتوح)

٣ - حبيس + طليق قصير + حبيس = مِن (متوسط مغلق)

٤ - حبيس + طليق طويل + حبيس = بابْ (طويل مغلق)

٥ - حبيس + طليق قصير + حبيس + حبيس = بحر
(طويل مضاعف الاغلاق)

والاشكال الثلاثة الاولى شائعة في العربية كثيراً ، اما الشكل الرابع فقليل . ويرى غالباً في نهـايات الكلمات ، ووجوده في حشوها نادر جداً ، مثل : مدهامّتان (هامـ) ، والضالّين (ضالـ) . اما الشكل الخامس فلايرى الا في نهايات الكلمات عند الوقف عليها بالسكون .

النسيج المقطعي

نعني بالنسيج المقطعي الاشكال المقطعية التي تنسج منها كل كلمة . والكلمة العربية يمكن ان تنسج من مقطع واحد او اثنين او ثلاثة او اربعة او خمسة او ستة او سبعة . وليس بعد ذلك شيء .

فأما بنات الواحد فقد يكون مقطعها قصيراً مفتوحاً ، اي من الشكل الاول ، مثل : (بَ - وَ) ، وقد يكون متوسطاً مفتوحاً ، اي من الشكل الثاني ، مثل : (يا - ذا - ذو) ، واغلب مايأتي على هذه الصورة هو ادوات نحوية ، وما كان من غير الادوات فهو قليل ، مثل : (قِ - عِ - فِ) افعال أمر من (وقى - وعى - وفى) . وقد تكون بنات الواحد من مقطع متوسط مغلق ، اي من النوع الثالث ، مثل : (يد - دم) ، ويكثر هذا النوع في الادوات النحوية ، مثل : (من - عن - بل - هل - كم - لو ...) ، وقد تكون من مقطع طويل مغلق ، اي من الشكل الرابع ، مثل : (باب - عيد - فول ...) ، وقد تكون من مقطع طويل مضاعف الاغلاق ، اي من النوع الخامس ، مثل (درب - عمر ...) .

اما بنات الاثنين والثلاثة والاربعة والخمسة والستة والسبعة ، فلا يمكن ههنا حصر انواع نسجها ، فنكتفي بالتمثيل لكل واحدة منها :

من بنات الاثنين : (هاتوا) = (ها ـ تو)
« « الثلاثة : (ضَرَبَ) = (ضَ ـ رَ ـ بَ)
« « الاربعة : (شجرةٌ) = (شَ ـ جَ ـ رَ ـ تن)
« « الخمسة : (شجرتك) = (شَ ـ جَ ـ رَ ـ تُ ـ كَ)
« « الستة : (شجرتكما) = (شَ ـ جَ ـ رَ ـ تُ ـ كُ ـ ما)
« « السبعة :فسيكفيكهمو =(فَ ـ سَ ـ يَكْ ـ في ـ كَ ـ هُ ـ مو)

ان دراسة النسج المقطعية للسان ما تقتضي ان نذكر مايقبله هذا اللسان من النسج وما لايقبله . ولما كان ماتقبله العربية كثيراً يضيق المقام عن استيفائه ، كان الاكتفاء بما لاتقبله ضرورياً .

فما لاتقبله العربية في نسج كلماتها مايأتي :

١ ـ كلمة مؤلفة من ثمانية مقاطع او اكثر .

٢ ـ كلمة في صدرها او حشوها مقطع من النوع الخامس .

٣ ـ كلمة مجردة من اللواحق مؤلفة من اربعة مقاطع من النوع الاول ، اما المؤلفة من ثلاثة مقاطع من هذا النوع فكثيرة ، مثل : (ضَرَبَ ـ أكلَ ـ شَرِبَ ... الخ) . واذا لحق الكلمة شيء من الضمائر جاز ان تشتمل على اكثر من ثلاثة من هذا النوع . ولكن ذلك قليل ومكروه ، مثل (شجرتك) .

٤ ـ كلمة مجردة من اللواحق مؤلفة من ثلاثة مقاطع من النوع الثاني ، فاذا وجدت كلمة منسوجة على هذا المنوال فهي لاشك اعجمية ، مثل (قاديشا ـ عامودا) . اما الكلمات العربية ذات اللواحق فلا تأبى ثلاثة من هذا النوع ، مثل (باعوها) .

٥ ـ كلمة مؤلفة من مقطعين : اولهما من النوع الثاني ، وثانيهما من النوع الخامس . فان وجدت كلمة على هذا النسج كانت ولاشك اعجمية ، مثل : (جُوْمَرْتْ)(١) .

٦ ـ كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع : اولها من النوع الثالث ، والثاني والثالث من النوع الثاني ، فان وجدت كلمة من هذا النسيج فهي اعجمية ، مثل (سَرْغايا)(٢) ، الا ان بعض الكلمات اذا وقف عليها بالالف بدل التنوين المنصوب غدت من هذا النسيج ، وذلك مثل (قنطاراً) .

٧ ـ كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع : اولها من النوع الثاني ، والثاني والثالث من النوع الثالث . فان وجدت كلمة من هذا النسيج فهي اعجمية ، مثل : (شابَنْدَرْ)(٣) .

والواقع ان مالاتقبله العربية من انواع النسج كثير ايضاً ، فنكتفي بما ذكرناه منها .

★ ★ ★

---

١ ـ يقال في لهجة حلب : رجل جومرت ، اي كيس . والكلمة اعجمية . ولعلها فارسية او تركية .
٢ ـ سرغايا : علم لقرية في سورية . واصل اللفظ سرياني .
٣ ـ شابندر او شاهبندر التجار : نقيب التجار . واصل الكلمة فارسي .

النَبر

النبر هو نشاط فجائي يعتري أعضاء النطق اثناء التلفظ بمقطع من مقاطع الكلمة . ويؤدي هذا النشاط الى زيادة في واحد او اكــثر من العناصر الآتية : مدة المقطع ، اوشدتـــه ، اوحدته . فيسمي نبر مدة ان ادى الى زيادة طول المقطع المنبور بالنسبة لمـا يجاوره من المقاطع ، ويدعى نبر شدة اذا ادي الى زيادة شدة المقطع المنبور بالنسبة لما يجاوره من المقاطع .

ويتجلى هذا النشاط في امور عدة : منهـا ان الحجاب الحاجـز ينشط حين النبر نشاطاً كبيراً ، كما تقوي حـركات الوترين الصوتيـين ، ويقترب احدهما من الآخر حتى لايسمحا الا بتسرب اقل مقـــدار من الهواء ، فتعظم لتوترهما الذبذبات ، ويترتب على ذلك زيادة في حـــدة الصوت المنطوق . هذا في حالة الاصوات المجهورة ، اما مـع الاصوات المهموسة فيبتعد الوتران الصوتيان احدهما عن الآخر اكثر من ابتعادهمـا في حالة الصوت غير المنبور فيتسرب مقدار اكـــبر من الهـــواء يجعل الاحتكاك او الانفجار اقوى ، واوضح في السمع .

كذلك يلاحظ مع المقطع المنبور نشاط في اعضاء النطق الاخرى ، كأقصى الحنك (الطبق) ، واللسان ، والشفتين . والامر على العكس من ذلك كله مع المقطع غير المنبور .

وتختلف الالسن من حيث مواقع النبر ، فمنها مايخضع نبره لقواعد صارمة لايحيد عنها ، كالعربية مثلاً ، وكالفرنسية التي يقع النبر فيها على نهايات كلماتها دائماً ، ومنها مالايخضع النبر فيها لأية قاعدة ، بل يحفظ موقع النبر لكل كلمة على حدة ، وهذا هو حال الانكليزية .

ثم ان الالسن تختلف من حيث قيمة النبر المنوية ، فمنها مالا يقيم للنبر اي وزن او أثر في المعنى ، فسواء أوقع النبر موقعه الصحيح ام وقع غير ذلك ، لم يتغير معنى الكلمة ، ومنها مايجعل لموقع النبر اثراً في تحديد معنى الكلمة ، فاذا نبرت في اولها دلت على شيء ، واذا نبرت في مكان آخر دلت على معنى آخر . فمن النوع الاول العربية ، ومن النوع الثاني الانكليزية .

★ ★ ★

النبر في العربية

لم يذكر لنا النحاة القدماء شيئاً عن النبر في العربية ، على الرغم من حرصهم الشديد على دراسة كل جوانبها ما عظم منها وما دقّ . ويظهر ان اغفالهم لهذا الجانب ناشيء عن عدم شعورهم بأي أثر للنبر في تحديد معاني الكلمات العربية . لذلك نجهل اليوم كل شيء عن النبر كما كان على شفاه العرب الاوائل . واذا اعتبرنا نطق قراء القرآن اليوم ممثلاً اميناً للنطق العربي كما كان في صدر الاسلام ، جاز لنا القول : ان قواعد النبر في العربية هي على الشكل الآتي :

١ ـ اذا كانت الكلمة مؤلفة من مقطع واحد فالنبر عليه اطلاقاً ، اياً كان شكل هذا المقطع . وهذا طبيعي ما دام لا يوجد في الكلمة مقطع غيره .

٢ ـ اذا كانت الكلمة مؤلفة من مقطعين فالنبر على ثانيهما اطلاقاً ، (ويجري العد بصورة عكسية أي من الشمال الى اليمين) لان الاول لا ينبر في العربية مطلقاً اياً كان شكله .

٣ ـ اذا كانت الكلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع فأكثر ، نظر الى المقطع الثاني ، فان كان من الانواع المتوسطة أو الطويلة فالنبر عليه ، والا

كان النبر على الثـالث اطلاقاً . ولا يتعدى النبر المقطـع الثالث في حال من الاحوال .

وإليك امثلة على ذلك :

١ ـ كلمات احادية المقطع ، النبر فيها على مقطعها الوحيد : صهْ ـ مهْ ـ قمْ ـ عدْ ـ لا ـ لم ... الخ .

٢ ـ كلمات ثنائية المقطع ، النبر فيها على المقطع الثاني لان الاول لا ينبر اطلاقاً : قـام[١] ـ عـودا ـ بهـا ـ لـكُمْ ... الخ .

٣ ـ كلمات كثيرة المقاطع ، النبر فيها على المقطع الثاني لانه متوسط أو طويل : فداكم ـ يستهدي ... الخ .

٤ ـ كلمات كثيرة المقاطع ، النبر فيها على المقطع الثالث لان الثاني قصير : استغفرَ ـ يتعلّمُ ـ مقـاتلٌ ـ ضرَبَ ـ شرِبَ ... الخ .

٥ ـ كلمات فيها نبران أحدهما رئيسي والآخـــر ثانوي : فسيكفيكهُمو ـ متعلّمتان[٢] .

هذا ، ويجب الانتباه الى ثلاثة اشياء :

١ ـ لا تحسب (ال) التعريف في مقاطع الكلمة .

٢ ـ كل ما يلحق الكلمة من ضمائر متصلة ، او ما يسبقهـا من حروف المضارعة داخلة فيها اثناء عد المقاطع .

---

١ ـ اشرنا الى المقطع المنبور بخط افقي تحته .

٢ ـ اشرنا الى النبر الرئيسي بخطين ، والى النبر الثانوي بخط واحد .

٣ ـ يحدد موقع النبر على اساس ان الكلمة منطوقة كما في درج الكلام، وبعد التحديد لا يهم ان تنطقها مدروجة او موقوفاً عليها بالسكون لان النبر لا يتغير مكانه (١) .

اما نبر السياق في العربية فلم يدرس حتى اليوم دراسة كافية . ومع ذلك يمكن القول ان نبر التوكيد أقوى من نبر التقرير ، وان نبر التوكيد يقع في الكلمة التي هي موضع الشك : فاذا كانت هناك عدة كتب يشك السامع في ايها هو كتابه ، قلت له : هذا كتابك . فتوقع النبر السياقي على كلة (هذا) اما اذا كان هناك كتاب واحد ، ويشك السامع في نسبة هذا الكتاب له أو لغيره ، قلت له : هذا كتابك . فتوقع النبر السياقي على كلة (كتابك) . وما يقال في التوكيد يقال مثله في الاستفهام أيضاً .

---

١ ـ يذكر كانتينو في كتابه (Cours de Phonétique Arabe. P, 119-120) قواعد تختلف عما ذكرنا اختلافاً يسيراً . ويمكن تلخيص قواعده التي أتى بها على الشكل التالي :

١ ـ لا ينبر المقطع الاول اطلاقاً اياً كان شكله .

٢ ـ يتم النبر على اول مقطع غير قصير يلي المقطع الاول .

٣ ـ اذا لم يوجد في الكلمة مقطع غير قصير فالنبر على آخر مقاطعها (العد يجري دائماً من الشمال الى اليمين) . مهما يكن شكل هذا المقطع الاخير .

وذكر الدكتور ابراهيم انيس في كتابه (الاصوات اللغوية ص ٩٩ ـ ١٠١) قواعد تختلف عما ذكرنا وذكر كانتينو ؟! والوحيد الذي اتفقت قواعده مع قواعدنا هو الدكتور تمام حسان . انظر كتابه (مناهج البحث في اللغة ص ١٦١ ـ ١٦٣) .

الإيقاع

الايقاع هو النظام الذي تتوالى بموجبه المقاطع المنبورة بعضها خلف بعض . فمن الالسن ما لا يسمح بأكثر من اربعة مقاطع غير منبورة بين كل مقطعين منبورين ، ومنها ما لا يسمح باكثر من وجود ثلاثة غير منبورة بين كل نبرين ، ومنها ما يسمح باقل من ذلك أو بأكثر منه .

والايقاع في العربية هو من الجوانب التي لا تزال تنتظر من يقوم بدراستها دراسة جدية معتمدة على استقراء واسع للنصوص العربية .

التبدلات الصوتية

لاحظ العلماء ان اصوات اللغة لا تثبت على حال ، بل هي في تطور مستمر ، وتبدل لا يهدأ . تتغير مرة مخابسها فتنتقل من نقطة الى اخرى من مناطق الفم ، أو تتغير واحدة أو اكثر من صفاتها التي كانت لها .

وقد قسم اللغويون هذه التبدلات الى قسمين : تبدلات تركيبية تصيب الاصوات نتيجة تماسها واحتكاك بعضها ببعض في الكلام ، وتبدلات تاريخية تصيب الاصوات نتيجة التطور الذي تخضع له خلال الزمان .

التبدلات التركيبية

يحدث في الكلام ان تجتمع أصوات لا انسجام فيما بينها بحيث يشعر المتكلم بثقلها على لسانه ، أو يجد مشقة في تحقيقها ، فيهرب من ذلك بتغيير بعض الاصوات ببعض ، أو بتعديل بعض صفات الاصوات لتوفير الانسجام في اصوات الكلام ، ولجعلها أسهل في النطق على نفسه .

ويتم ذلك باحدى طرق ثلاث :

١ ـ التماثل : اذا اجتمع في الكلمة صوتان يتصف كل منها بصفة تناقض صفة الآخر ، كالجهر والهمس ، والاطباق والفتح ، وكان في تحقيق الصفتين للصوتين المتجاورين مشقة وعسر ، مال المتكلم الى خلع صفة احدهما على الآخر توفيراً للجهد وتحقيقاً للانسجام . ونقول عندئذ إنه حصل تماثل بين الصوتين .

فمن ذلك مثلاً أن الطاء والظاء والصاد والضاد تتنافر مع تاء الافتعال ، لأن هذه الأصوات مطبقة مفخمة ، وتاء الافتعال منفتحة مرققة ، فيجد المتكلم عسراً في الانتقال من تفخيم الى ترقيق ، فيفخم المرقق ليحدث التناسب والانسجام ، فيبدل تاء الافتعال طاء ، فيقول في (اظتلم وإطتلع واضترب واصتدم) اظطلم واطّلع واضطرب واصطدم .

ومن ذلك ايضاً ان الدال والذال والزاي تتنافر مع تاء الافتعال ، لان هذه الاصوات جميعاً مجهورة ، وتاء الافتعال مهموسة ، ويجد المتكلم مشقة في الخروج من جهر الى همس ، فيجهر المهموس ليحقق التناسب ويزيل المشقة ، فيقول في (از تهر و اذ تكر و اد تمى) ازدهر واذدكر وادعى ، مبدلاً بالتاء دالاً ، لان الدال هي مجهور التاء نفسها .

هذا مثال واحد لهذه الظاهرة الصوتية التي دعوناها بالتماثل . وفيه رأينا ان احد الاصوات يؤثر في صوت آخر فيخلع عليه صفة واحدة من صفاته . لكن للتماثل مظاهر أخرى لا تقتصر على تبديل صفة من صفات الاصوات ، بل تتناول المحابس بالتقديم الى الامام او التأخير الى الوراء لتوفير الانسجام والتلاؤم بين اصوات الكلمة المتجاورة .

فمن ذلك مثلاً ان الكاف تتقدم بمحبسها قليلاً في اتجاه الغار اذا وليها صوت الكسرة . وتفسير ذلك أمر هين ، فقد عرفنا أن الكاف تحدث من التحام أقصى اللسان بالطبق ، وان الكسرة تحدث من ارتفاع مقدم اللسان نحو الغار ، ومعنى ذلك ان على اللسان اذا أراد النطق بهذين الصوتين متتابعين ان يقوم بحركتين متتاليتين احداهما بأقصاه والاخرى بمقدمه . ولا شك ان هذه العملية فيها جهد ومشقة تجعل اللسان – على الرغم من مرونته الزائدة – يحاول التخلص منها بتقريب محبس الكاف من منطقة الغار ليجعل جزءاً واحداً منه يقوم باحداث الصوتين المتتابعين .

ومن ذلك أيضاً ان الباء اذا تلت نوناً ساكنة جرت محبسها من اللثة ، فجعلته من الشفتين حيث محبس الباء . فتتحول النون بذلك الى ميم . كما في قولك (انبعث) = (امبعث) ، وهذا ما سماه علماء التجويد بالاقلاب .

على ان التماثل في بعض الأحيان يتناول المحابس والصفـات معاً ، فيبدل صوتاً بآخر ، وليس بين الصوتين المبدل والمبدل منه أي علاقة على الاطلاق . فالذال اذا اجتمعت مع تاء الافتعال قلبتها الى ذال مثلهـــا ثم اندغمت فيها ، فتقول بدلاً من (اذ تكر) (اذّكر) ، وليس بين تاء الافتعال وما صارت إليه من ذال علاقة ما ، فتاء الافتعال اسنانية مهموسة شديدة ، والذال من بين الاسنان مجهورة رخوة .

حتى هنا كانت الأمثلة التي عرضناها امثلة لتماثل جرى بين صوتين متلاصقين . لكن التلاصق ليس ضرورياً لاتمام عملية التماثل ، فقد يحدث ان يؤثر صوت في صوت آخر عن بعد . فيقيم بينه وبين ذلك الصوت شكلاً من اشكال التماثل . مثال ذلك ان الكسرة تؤثر في ضمة ضمير الغائب فتحولها الى كسرة مثلها ، فنقول (في كتابِهِ) بدلاً من (في كتابِهُ) ، و (في كتابِهِم) بدلاً من (في كتابِهُم) بل قد يتعدى التأثير الصوت الواحد فيقع على صوتين اثنين ، كما لو قلت : (في كتابِهِمِ) بدلاً من (في كتابِهُمُ) .

وفي جميع الاحوال يقسم التماثل الى قسمين :

١ - تقدمي : وفيه يجري تأثير الصوت الأول في الثاني ، كتأثير الصاد والضـــاد والطاء والظاء في تاء الافتعال ، وككل ما سقناه من الامثلة السابقة .

٢ - رجعي : وفيه يجري تأثير الصوت الثاني في الاول ، ومثاله في العربيـــة تأثير تاء الافتعال في الواو والياء اذا وقعتا في فاء الفعل ، فانها تحولهما الى تاء مثلها ثم تندغم فيها ، فتقول : (اتّسر و اتّصل)

بدلاً من (ايتسر و اوتصل)(١) .

٢ ـ التخالف : هو ضد التماثل . فنحن هنا لسنا أمام صوتين متنافرين في المحابس والصفات يجد التكلم عسراً ومشقة في تحقيقها ، بل نحن امام صوتين من جنس واحد ، ولكن التكلم يجد في تحقيقها العسر والمشقة نفسيها اللذين وجدهما في تحقيق الصوتين المختلفين محبساً وصفات ، فيسعى الى التخلص من هذا العسر ، وتلك المشقة ، بأن يبدل من احدهما صوتاً آخر يختلف عنه في صفاته .

والامثلة على ظاهرة التخالف قليلة في العربية ، فلا نجد منها غير ابدالهم الألف ببعض الاصوات المكررة مثل قولهم : (تظنّى) بدلاً من (تظنّن) و (تمطّى) بدلا من (تمطّط) . كما يمكن ان نجد مثالاً آخر في كلة (عنوان) التي صارت في بعض العاميات (علوان) .

وسبب قلة الامثلة للتخالف في العربية يعود في رأينا الى امرين :

١ ـ أولهما ان العربية من الأصل لم تتورط في تراكيب عسيرة تحتاج الى التخالف . وقد اشار الى ذلك اللغويون العرب القدماء حين قالوا : واعلم أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة احرف من جنس واحد في كلة واحدة ، لصعوبة ذلك على السنتهم (٢) .

٢ ـ الثاني أن العربية تتخلص من التقاء المتماثلين بطريقتين تفضلهما على طريقة التخالف : فأولاهما الادغام ، فتقول : (شدّ ومدّ وفرّ)

---

١ ـ يرى بعض اللغويين ان مصطلح (التماثل) لا يصدق إلا على تأثير الواقع بين الاصوات المتباعدة . انظر فندريس : اللغة . ص ٩٣

٢ ـ السيوطي : المزهر . ج ١ ص ١١٥ .

بدلاً من (شدد و مدد و فرر) ، وثانيتهما الحذف ، فتقول : (تمايلُ الاشجار) بدلاً من (تمايلُ الاشجار) .. وهكذا .

وينقسم التخالف الى ما انقسم إليه التماثل ، فمنه التقدمي ، ومنه الرجعي . فالتقدمي ما ثبت فيه الصوت الأول وتغير الثاني ، مثـــل : (تمطط ← تمطى) ، والرجعي ما ثبت فيه الثاني وتغير الأول ، مثل : (عنوان ← علوان) .

٣ ـ الانتقال المكاني : وهو ان يتبـادل صوتان من كلمة واحدة مكانيهما من هذه الكلمة . وأمثلة ذلك اندر في العربية من أمثلة التخالف، فمنـــه : (جذب ـ جبذ) و (انى ـ آن) و (أيس ـ يئس) و (اضمحل ـ امضحل) و (اكفهر ـ اكرهف) (١) .

غير ان العاميات تستطيـع ان تمدنا بامثلة كثيرة في هذا الموضوع ، فمن ذلك قول العامة في حلب : (إجا) بدلاً من (جاء) و (قعل) بدلاً من (عقل) ، ولعل في العاميات الأخرى امثلة كثيرة من هـذا القبيل لم تبلغنا .

ان التماثل والتخالف والانتقال ليست كل الاسباب التي تؤدي الى تغيير الهيئة الصوتية للكلمة ، فهناك اسباب أخرى نذكر منها واحداً اعتبر مبدأ عاماً تجري عليه كل الالسن في العالم . يدعى هذا المبدأ بمبدأ الخور العام . وينص على ان عجز الكلمة اضعف في النطق من صدرها ، وان الصوت الواقع في نهاية الكلمة يكون عرضة للحذف والالغاء في كثير من الأحيان إلا ان يعترض هذا المبدأ معترض من امور اخـــرى ، كقصر

---

١ ـ الخصائص : ج ١ ص ٦٤ و ج ٢ ص ٦٩ ـ ٨٨ . وقارن بسيبويه : ج ٢ ص ٣٧٩ .

الكلمة او شيء آخر يمنع معه حذف نهايتها . بهذا المبدأ يمكن ان نفسر سبب ضياع الحركات الاعرابية من العاميات ، وبه ايضاً نفسر سبب سقوط الدال من كلمة (ولد) في بعض اللهجات المصرية التي تقول (يا وَلَ) بدلاً من (يا ولد) ، وبه ايضاً نفسر قصر الممدود في الفصحى ، حيث يقال : (الصحرى) بدلاً من (الصحراء) ، بل ان اللغويين يعزون الى هذا المبدأ وحده سبب تكون كل الادوات النحوية في الالسن من كلمات كانت اسماء أو افعالاً فيما مضى . واذا كان التحقق من ذلك عسيراً فيما يتعلق بادوات الفصحى ، لبعد العهد بأصولها ، فان ذلك ميسور فيما يتعلق بادوات عامية لا تزال اصولها ماثلة في ذاكرتنا ، من ذلك مثلاً كلمة (عم) التي تجعلها عامية حلب صدراً في الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار في الحال . تقول : (عم بكتب) اي (انني مستمر في الكتابة الآن) . فهذه الاداة هي ولا شك بقية من كلمة (عمَّال) ، بل ان بعضهم لا يزال ينطق بالكلمة تامة من غير حذف .

وهكذا ترى ان الكلمة لا تثبت على صورة صوتية واحدة ، بل هي في تغير دائم لا يهدأ ، تماثل بين اصواتها ان اختلفت . وتخالف بينها اذا تماثلت ، وتبدل في مواضع اصواتها ، وتحور نهايتها فتسقط ... وهكذا .

التبدلات التاريخية

تختلف التبدلات التاريخيـــة للاصوات عن التبدلات التركيبية في امرين :

١ ـ التبدلات التركيبية سريعة تحدث للصوت بمجرد ان يدخل تركيباً بينه وبين احد اصواته تنافر ، فتاء الافتعال تتحول الى طاء بمجرد ان يكون فاء الفعل صاداً او ضاداً او طـاء او ظـاء . اما التبدلات التاريخية فلا تحدث الا ببطء شديد ، وخلال قرون واجيال . بل انها لشدة بطئها لايمكن لابناء الجيل الواحـــد ان يشعروا بها خـــلال كل حياتهم .

٢ ـ التبدلات التركيبية مشروطـة بالتركيب ومحدودة به ، فما يكاد الصوت يخرج منه حتى يسترد شكله الذى كان له ، فتاء الافتعال تعود تاء بمجرد ان يـنزع ماقبلها من اصوات الاطباق . كما ان بقية تاءات اللـسان العربي تظل هي هي من غـير تغيير . اما التبدلات التاريخية فمطلقة ، بمعنى انها اذا اصابت صوتـاً ما فانهـا لاتصيبه في تركيب دون تركيب ، بل تصيبه في كل تركيب من تراكيب اللغة ، فالثاء والذال والظاء اللواتي اصابهن التبدل في اللهجات الحـديثة لم يتبدلن في تركيب ويبقين في

تركيب آخر ، بل اختفين كلياً من جميع تراكيب اللغة ، وحلت محلهن اصوات أخر هي الدال والزاي والتاء والسين والزاي المفخمة .

ولكن كيف يتم التبدل التاريخي ، وماهي القواعد التي يسير عليها؟

ليس للتبدل التاريخي قواعد يسير عليها ، ولا يمكن التنبؤ به ، او بالشكل الذى سيتم عليه . ان التبدلات الصوتية التاريخية نتيجة عوامل عديدة شديدة التشابك ، منها الاجتماعية ، ومنها النفسية ، ومنها الفيسيولوجية ، ومنها غير ذلك مما لايمكن حصره . والعالم اللغوي لايستطيع ان يفعل شيئاً في هذا المجال . ان عليه ان ينتظر ويلاحظ ، فاذا رأى تطوراً صوتياً حدث في لسان ما سجله في شكل قانون صوتي ، كالقانون الصوتي الذى يقول : ان الثاء فى الفصحى تحولت في بعض العاميات الى تاء او سين . لكن هذا القانون الصوتي لايفسر كيف تم هذا التطور ، ولا لماذا حدث ، ولايشير الى المراحل التي مر بها هذا الصوت في تطوره ، إنه مجرد تسجيل لنتيجة تطور مجهول المراحل والاسباب ، أو قل : هو مجرد تقرير عما حدث .

ولكن لماذا لاتسلم اصوات اللغة من شر هذا التطور الحتمي ؟

في الاجابة عن هذا السؤال نظريات كثيرة سنحاول اعطاء فكرة موجزة عن كل واحدة منها :

١ ـ النظرية الجغرافية .

من المحدثين من يجعلون للطبيعة الجغرافية لبيئة اللغة أثراً كبيراً في نوع التطور الذي قد يصيب اصواتها . وعلى رأس هؤلاء المحدثين (كوليتس) الذي عزا تطور الاصوات الشداد في الالمانية الى نظائرها الرخوة ـ عزا

ذلك الى الطبيعة الجغرافية في بعض جهات المانيا . وقد اكد في مقالاته ان الجهات الجبلية تميل الى التخلص من أمثال الاصوات g . d . b . فتهمسها اولاً ، فتصير K . T . P ، ثم تقلب هذه الى نظائرها الرخوة ، وهي الفاء والثاء والخاء على الترتيب . وعلل ذلك بأن البيئة الجبلية تتطلب نشاطاً كبيراً في عملية التنفس ، ويتبع هذا ميل بالاصوات من الشدة الى الرخاوة(١) .

وقد تصدي لهذا العالم علماء آخرون فندوا دعواه ، وبينوا ان هذا التطور الذي اشار اليه قد حدث مثله في البيئات السهلية ، وان سببه ليس الجبال وما تتطلبه من متسلقها من نشاط تنفسي كبير ، وانما سببه ينحصر في الحنجرة وحدها : « فاذا اعتاد شعب على النطق مع فتح الحنجرة كما يفعل الجرمانيون ، تعرضت الانفجاريات المجهورة والمهموسة لسلسلة من التغيرات ناجمة عن التأخر في وضع الذبذبات الحنجرية في حالة الحركة . فمن جهة ، لما كان تذبذب الاوتار الصوتية لايبدأ بعد الحبس مباشرة في مجموعة مثل با ba أو da ، صار جزء من الحبس مهموساً ، سواء اكان هذا الجزء صغيراً او كبيرا . واخيراً ينتهي هذا الميل بتحويل المجهور كله الى مهموس . ومن جهة اخرى ، في مجموعة مثل تا ta با pa ، يوجد بين انفجار الانفجاري وانتاج الفتحة التي تليه وقت ، طويلاً كان أم قصيراً ، ولكن الانفجار يترك للهواء حرية المرور ، ومن هنا يجيء الميل الطبيعي نحو تحول الانفجاري الى تنفسي أو حتى الى متراخٍ اذا كان الانفجار على درجة شديدة من الحدة ولم تستطع الاعضاء ان ترجع مباشرة الى وضعها في حالة الاستراحة رغم اندفاع الهواء المفاجيء باحثاً عن سبيل للخروج . وعندئذ يتحول النطق الى تها tha ،

---

١ ـ ابراهيم انيس : الاصوات . ص ١٦٤ .

بها pha أو الى تسا tsa ، pfa ، والمآل الطبيعي للتنفسية والمتراخية أن تصير الى الاحتكاكية (فا ، ثا) اذا كان دفع الهواء بحمل الانفجار غير تام »[١] .

٢ ـ النظرية النفسية :

بعض العلماء يعزون تطور الاصوات من شدة الى رخاوة ، او العكس ، الى الحالة النفسية التي يكون عليها الشعب ، فاذا مال الشعب الى الدعة والاستقرار مالت اصوات لسانه الى الرخاوة ، واذا اعتز بجبروته وقوته مالت اصوات لسانه الى الشدة . واصحاب هذا الرأي يتلمسون ادلتهم من التطور التاريخي الذي مر به الشعب الالماني ، ومارافق ذلك من تطور في اصوات لسانه . غير ان هذه النظرية متهافتة لاتجد مايؤيدها من تواريخ الشعوب الاخرى ، بل ان في هذه التواريخ ماينافضها على طول الخط .

٣ ـ النظرية العضوية :[٢]

يزعم اصحاب هذه النظرية ان تبدل الاصوات من جيل الى جيل ، ليس الا نتيجة تطور عضلي في اعضاء النطق . لكن هؤلاء لم يجدوا من علم التشريح تأييداً لهم ، بل وجدوا العكس ، فقد برهن علماء التشريح ان اعضاء النطق عند الانسان متحدة في جميع تفاصيلها ، وان حنجرة اشهر المغنين لاتمتاز عن حنجرة الرجل العادي في شيء . والفرق

---

١ ـ فندريس : اللغة ، ص ٦٦ ـ ٦٧

٢ ـ صاحب هذه النظرية روسلو

بين المغني صاحب الصوت الذهبي او الفضي وبين غـيره ، ان الاول يملك زمام تنفسه ، ويسيطر على مايندفع من الرئتين من هواء سيطرة تامـة . ومثله في ذلك مثل صاحب الخط الجميل ، لافرق بين عضلات يديـه من الناحية التشريحية وبين عضلات اي رجل عادي ، سوى ان صاحب الخط الجميل مسيطر على حركات أصابعه سيطرة تامة هي مصدر جمال خطه .

ومن النتائج غير المعقولة لهذه النظرية أن كل انسان غير قادر الا على نطق أصوات لسانه القومي ، لانهـا الاصوات الوحيدة الـتي تلائم تطور اعضاء نطقه ، مع انه ثبت بمـا لايدع مجالاً للشك ان كل انسان قادر على نطق اي صوت من اصوات اللغة اذا مامرن عليه وتدرب . ومما هـو مشاهد كثيراً ان الطفل اذا دفـع الى مربيات يتكلمن ألسناً مختلفة نشأ وهو يجيد نطق كل الالسن التي كانت مربياته يكلمنه بها .

٤ ـ نظرية السهولة (١)

تنادي هذه النظرية بأن الانسان في نطقه لاصوات لسانه يميل الى الاقتصاد في المجهود العضلي ، وتلمس اسهل السبل ، مـع الوصول الى مايهدف اليه من ابراز المعاني وايصالها الى المتحدثين معه . فهو لهـذا يميل الى استبدال السهل من اصوات لسانـه بالصعب الشاق الذي يحتـاج الى مجهود عضلي اكبر . ومثل الانسان في هـذا مثله في كل الظواهر الاجتماعية ، فهـو يحاول الوصول الى غرضه عـن أقصر الطرق كلما أمكن ذلك .

---

١ ـ من ابرز القائلين بها مكس مولر ووتني

ويمكن الرد على هذه النظرية من عدة وجوه : أولها انه لايمكن بالضبط معرفة ماهو سهل وماهو صعب ، ثانيهـا ان امر الصعوبة والسهولة أمر نسبي ، فما هو صعب عند هؤلاء القوم سهل عند غـيرهم ، الاترى ان العين والحاء من اصعب الاصوات على الأعاجم ، في حين انها من اسهل الاصوات عند ابناء العربية ؟ ثالثها ان التطور لو كان يجري في اتجاه السهولة لوجب ان تكون اصوات اللغات اليـوم كلها من نوع المـيم والنون والفاء فقط ، لانهـا اسهل الاصوات ، ولأن مئات من القرون قـد مرت على الالسن الانسانية ، وهي مـدة كافية للوصول باصوات هـذه الالسن الى الاكتفاء بهذه الاصوات الثلاثة التي ذكرناهـا ، رابعها ان تاريـخ الالسن المعروف يسجل في كثير من الاحيان تطوراً صوتياً جـرى في الاتجاه المعاكس ، اي في اتجاه الصعوبة لاالسهولة .

٥ - نظرية الشيوع :

تنادي هذه النظرية بأن الاصوات التي يشيع تداولها في الاستعمال ، ويكثر ورودها في كلمات اللسان ، تكـون اكـــثر تعرضاً للتطور من غيرها .

وفساد هذه النظرية ممـا لايحتاج اثباته الى جدال ونقاش طويلين . وفي العربية وحدها مايضرب هذه النظرية في الصميم ، فقـــد رأينا في احصاء مضى ان اكثر الاصوات العربية شيوعاً هي اللام (١٢٧) والميم (١٢٤) والنون (١١٢) والهمزة (٧٢) والهـاء (٥٦) والواو (٥٢) والتاء (٥٠) ... وكلها ممـا هو باق على حاله منذ اربعة عشر قرناً او يزيد ، وعلى العكس من ذلك ، نجد ان الاصوات الـتي تعرضت

للتطور هي اقل الاصوات شيوعاً ، كالقاف التي لاتزيد نسبة شيوعها عن (٢٣) مرة في الالف ، والذال ، ونسبتها (١٨) والجيم ، ونسبتها (١٦) والضاد ، ونسبتها (٦) والثاء ، ونسبتها (٥) والظاء التي لاتزيد نسبتها عن (٣) فقط ! !

٦ نظرية الخطأ في التقليد :

قال بهذه النظرية كل من روسلو و مييه ، ويمكن تلخيص ماقالا فيما يلي :

يكتسب الطفل اللغة عن طريق ابويه ، وذلك بتقليده لهما فيما يسمعه منهما . وبعد ان تنتهي مرحلة التقليد ويستقر النظام الصوتي الخاص به ، يكون من النادر جداً ان يماثل نظامه نظام ابويه تماماً ، بل ان من علماء الصوت من يذهب الا ان ذلك لايقع مطلقاً .

ولكن لماذا لاتتطابق اصوات الابن مع اصوات والديه ؟

يجيب فندريس[1] عن ذلك بأنه قد يحدث لأحد أعضاء الابن ان يبالغ او يقصر في أداء عمله ، ولو بقدر ضئيل ، او قد يعرض لعضلة شيء من التراخي او الابطاء في انتاج أحد الأصوات ، أو قد يعرض لها ، على العكس من ذلك ، زيادة في القوة اوالسرعة . ومن ثم يجيء الاختلاف في النظام الصوتي بين جيلين متتابعين . هذا الاختلات قد يضؤل ، وقد لايثير لدى السامع اي تغير محسوس ، ومع ذلك فهو خطير النتائج ، لانه لايبشر بشيء أقل من انقطاع التوازن في النظام . هذا الى

---

١ ـ اللغة ص ٦٥

ان الاختلاف قد يلحظ بوضوح في بعض الاحيان : الطفل ينطق مختلفاً عن ابويه ، فيحلّ سلسلة جديدة من الأصوات محل السلسلة التي كان يلكها ابواه . وهكذا نرى الطفل الذي يضغط بطرف لسانه على قمة أصول الاسنان بدلاً من الضغط على الاسنان نفسها يصدر سلسلة الاسنانيات الانكليزية d , t بدلاً من السلسلة الفرنسية »

وبعبارة مختصرة : ان الجيل الاول يخطىء في تقليد سلفه خطأً طفيفاً لايشعر به ، ثم يأتي الجيل الثاني فيعمق خطأ الجيل الاول ، ثم يفعل الثالث مافعله الثاني والاول ، وهكذا الى اجيال متعددة حتى يغدو الفرق كبيراً بين ماينطقه السلف الاول وبين ماينطقه الجيل المتأخر .

وعلى الرغم مما في هذه النظرية من جدة وطرافة ، وعلى الرغم من لهجة العلم التي تصطنعها ، فان فيها هنات كثيرة . واهم مايمكن ان يعترض به عليها هو انها تقتضي - لكي يتم التطور في اتجاه معين - شيئين غير معقولين : ان يقع كل افراد الجيل الاول في الخطأ ذاته ، ثم ان يتابع افراد الاجيال التالية كلهم هذا الخطأ الاول ويزيدوا فيه . وليس ذلك مما يجوز عقلاً . اذ نلحظ في كل شيء ان الناس اذا أخطأوا تعددت وجوه الخطأ بتعددهم ، فهل يعقل ان يقع افراد جيل برمته قد يعدون الملايين في خطأ واحد ؟ ولنفرض جدلاً ان هذا مايحدث بالفعل ، أفلا يكون أمراً غريباً يحتاج الى تفسير ؟

وهكذا نري ان نظرية الخطأ تخرجنا من مشكلة لتوقعنا في اخرى أدهى من الاولى وامر ، وانها تحل لغزاً بلغز آخر اعقد منه واشد غموضاً .

وبعد ، فأي النظريات أجدر بالتصديق ؟ وما السر الحقيقي وراء هذا التطور الصوتي الذي لاتسلم منه اصوات اي لسان ؟

الواقع ان العوامل التي تتدخل في التبدلات الصوتية كثيرة جداً ، ومتشابكة جداً ايضاً ، والاكتفاء بعلة واحدة لتفسير أمر في غاية التعقيد ، لايدل الا على قصر نظر ، لذلك أخفقت كل النظريات التي حاولت تفسير التبدلات الصوتية بعامل واحد ، إننا - لكي نعلل تطور صوت واحد - قد نحتاج الى الاحاطة التامة بتاريخ اللسان الذي فيه هذا الصوت ، ثم الاحاطة بتاريخ الشعب الذي ينطق بهذا اللسان ، ثم الاحاطة بكل شيء عن البيئات الاجتماعية والجغرافية والنفسية والمناخية لهذا الشعب ، وقد نحتاج الى اشياء أخرى اكثر من ذلك . ولاشك ان هذا أمر في غاية الصعوبة ان لم يكن متعذراً ، ولكن ماالعمل ؟ ان الامور الانسانية ، واللغة واحدة من أعقدها ، لايمكن ان تفسر بمثل البساطة التي تفسر بها الامور والظواهر الطبيعية .

★ ★ ★

حول ثبات أصوات الفصحى

يرى بعض المحدثين[1] من أولي الغيرة على العربية والاعتزاز بها أن أصوات العربية الفصحى ثابتة لم ينلها التطور ، واننا ننطقها اليوم كما كان العرب ينطقونها منذ اربعة عشر قرناً على الأقل . وينتهون من ذلك الى ان ما استنبطه علماء الغرب من قانون التطور الحتمي الذي يصيب أصوات اللغة لا ينطبق إلا على السنهم وحدها .

ونحب ان نقول لهؤلاء إن الغيرة على عربيتنا ليست مسوغاً لنا ان نخرج عن جادة العلم الصحيح ، فليست العربية شيئاً فذاً بين الألسن ، إنها لسان من السن خلق الله جميعاً ، ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها ، وتخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الألسن جميعاً . أما اننا ننطق الفصحى كما كان ينطقها اجدادنا الاولون فليس برهاناً على شيء ، لان اليوناني اليوم قادر على ان ينطق اشعار هوميروس كما خرجت من فم هوميروس ، والهندي اليوم يستطيع ان يقرأ النصوص السنسكريتية كما كان ينطقها الهندوس من عشرات القرون ، ومع ذلك لم يقل أحد في الشرق أو الغرب ان اصوات الاغريقية والسنسكريتية ثابتة لا تخضع لقانون التطور . إن العلماء عندما استنتجوا قانون التطور لم ينظروا الى الالسن القديمة ويوازنوها

---

١ – منهم الاستاذ محمد المبارك . انظر كتابه : فقه اللغة وخصائص العربية . ص ٢٥١ وما بعدها .

بصورتها اليوم محققة على صورتها القديمة ، ولو فعلوا ذلك لانتهوا في كل الالسن الى ما انتهى إليه أصحابنا من نفي التطور . ولكنهم نظروا الى الالسن القديمة كما كانت على شفاه الناس في حياتهم العادية ، ثم نظروا اليها اليوم كما هي على شفاه الناس في حياتهم العادية ، ووازنوا بين الصورتين فتبين لهم أن التطور والتغير أمر حتمي . ولو طبقنا ذلك على الفصحى التي كانت لسان القوم العادي ، ثم على العاميات التي هي اليوم لساننا العادي لما تغيرت النتيجة . قد يقول قائل : ولكن فصحى الفرنسيين اليوم لا تشبه اللاتينية التي كانت فصحاهم فيما مضى . بينما فصحانا اليوم هي عربية العرب القدماء نفسها ، وهذا صحيح . ولكن الجواب عنه ان فصحى الفرنسيين اليوم كانت في يوم من الايام عامية اللاتينية ، ثم اتخذها الفرنسيون لسان ادب وعلم وثقافة . ولو فعلنا مثلهم فاتخذنا من عاميتنا لغة علم وادب لكان شأن العربية كشأن اللاتينية تماماً ، ولكننا لا نفعل ذلك لاسباب دينية وقومية معروفة . والفرنسيون انفسهم ، لو ظلوا متمسكين باللاتينية لسان ادب وعلم حتى اليوم لكان شأنهم كشأننا تماماً .

كل هذا مع التسليم جدلاً بأن نطقنا لاصوات الفصحى اليوم مطابق لنطق العرب القدماء لها . مع ان الواقع يناقض ذلك ، فنحن ننطق الضاد اليوم منطقاً يختلف كل الاختلاف عما ذكره النحاة لهذا الصوت من صفات : ننطقها شديدة وقد اجمع النحاة على انها رخوة ، ونلفظها من طرف اللسان وقد ذكر النحاة أنها كانت من حافة اللسان اليمنى أو اليسرى أو من كلتا الحافتين .

ونحن ننطق الضمة والكسرة منفرجتين اذا وقعتا في آخر مقاطع الكلمة ان كان هذا المقطع مغلقاً ، مثل : كتابهُم ـ كتابهِم . أي نحوّل الضمة الى امالة ضمية حادة ، والكسرة الى امالة كسرية حادة ، والعرب لم يكونوا ينطقون في هاتين الحالتين إلا ضمة وكسرة صريحتين .

ومع ذلك فاننا لا نرفض دعوى هؤلاء برمتها ، فنحن معهم في ان العربية محافظة ، وانها تميزت خلال تاريخها الطويل بشدة المراس وعدم الانقياد والاستسلام للتطور العنيف ، وان ما اصابها من التغير خلال عمرها الطويل لا يعد شيئاً مذكوراً اذا نسب الى ما أصاب غيرها من الالسن . ولكن الثبات الذي يزعمونه شيء ، والمحافظة التي نقول بها شيء آخر يختلف عنه .

الباب الرابع

النحو

المورفيمات

تأتي دراسة النحو في المناهج الحديثة بعد دراسة الاصوات مباشرة وما نعنيه بالنحو هنا ، هو ما كان يعنيه أوائل النحاة : أي مجموعة القواعد النحوية والصرفية ، أو كما يقول أبو حيان : احكام الكلم في حالة الافراد وحالة التركيب [1] .

ويفضل المحدثون دراسة نحو كل لسان عن طريق ما يسمى بالمورفيم . فما المورفيم ؟

تعال نقرأ معاً هذه العبارة :

[ضرب الرجل حماراً بعصاه]

وحاول معي أن تحللها معنوياً ، فاذا فعلت فستجد فيها نوعين من المعاني :

١ ـ معانيَ هي من نوع الماهيات . وهي هنا ماهيات (الضرب والرجل والحمار والعصا) .

٢ ـ معانيَ هي لواحق الماهيات أو تربط بعضها الى بعض . وهي

---

١ ـ انظر مقدمة الارتشاف . مخطوط بالمكتبة الاحمدية رقم ٨٩٩ لغة عربية .

هنا كون الضرب قد حدث في الزمن الماضي ، ثم كون الضرب صادراً عن الرجل ، ثم كون الرجل معروفاً ، ثم كون الحمار مجهولاً ، ثم كون الحمار الذات التي وقع عليها فعل الضرب ، ثم كون العصا أداة الضرب ، ثم كونها تابعة للرجل ... الخ ...

ان هذه المعاني ضرورية في العمل اللغوي ، ولولا هي لما حصل فهم على الاطلاق . تصور اني القيت إليك بالماهيات وحدها من غير ان اربط بعضها ببعض بهذه المعاني . فقلت لك : (رجل عصا ضرب حمار) ، فهل يمكنك ان تفهم منها ما فهمته من العبارة ؟

تعال الآن نحلل عبارتنا لفظياً . ستجد ان فيها نوعين من الالفاظ :

١ ـ الفاظاً تدل على الماهيات : رجل ، حمار ، ضرب ، عصا .

٢ ـ الفاظاً تدل على المعاني الرابطة بين الماهيات : الالف واللام اللتان دلتا على ان الرجل معروف . والتنوين في الحمار الذي دل على تنكيره ، والباء التي دلت على واسطة الضرب ، والهاء التي دلت على تبعية العصا للرجل ... الخ .

إذن في كل عبارة لغوية عناصر أربعة :

١ ـ ماهيات .

٢ ـ الفاظ تدل على هذه الماهيات يسمى كل منها سيمنتيم (Sémantéme) [1] .

٣ ـ معان تربط بين الماهيات تدعى الفصائل النحوية ، أو المقولات

---

١ ـ سماها الاستاذان الدواخلي والقصاص في ترجمتها لكتاب فندريس بدوال الماهية. انظر الكتاب المذكور ص ١٠٥ .

النحوية ، أو الابواب النحوية [1] (Catégorie grammaticale) .

٤ ـ الفاظ تدل على المعاني الرابطة بين الماهيات تسمى بالمورفيمات [2] (Morphéme) .

فأما الماهيات وألفاظها الدالة عليها فستدرس في باب آخر ، هو باب الدلالة ، أو باب المفردات ، واما المقولات النحوية ومورفيماتها فهي موضوع هذا الباب .

ونحب قبل كل شيء ان ننبه الى امرين : أولهما اننا لن نقوم بدراسة شاملة للنحو العربي عن طريق المورفيمات ، لأن هذا امر لا جدوى منه ، ولا سيما ان النحو العربي قد درس دراسة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، فضلاً عن ان حجم كتابنا وموضوعه لا يسمحان بذلك . وثانيهما ان دراسة النحو عن طريق المورفيمات ليست شيئاً جديداً كل الجدة في الدراسات اللغوية بل هو امر قد عرفه النحاة العرب من قديم ، ويمكن اعتبار كتاب المغني لابن هشام الانصاري من خير الامثلة واجودها على هذا النوع من الدراسة .

اذن ، كل الذي سنفعله هو استعراض سريع لاهم المورفيمات والمقولات النحوية العربية ، محاولين في ذلك اعطاء فكرة عن هذا النمط من الدراسة ، ومصححين بعض ما وقع فيه نحاتنا من أخطاء ، او قل وجهات نظر لا تتفق مع المناهج الحديثة في الدراسات اللغوية .

---

١ ـ هكذا دعاها الدكتور تمام حسان في كتابه : مناهج البحث ص ١٧٢ .

٢ ـ سماها مترجما كتاب فندريس بدوال النسبة . انظر الكتاب المذكور ص ١٠٥ .

أنواع المورفيمات

يمكن ان نقسم المورفيمات الى ثلاثة أقسام : مورفيمات تتألف من اصوات زائدة على اصوات السيمنتيمات . ومورفيمات تتألف من تحوير لاصوات السيمنتيمات ، ومورفيمات تتألف من ترتيب الماهيات في الجملة .

وإليك الكلام على كل واحد من هذه الأقسام :

آ - **المورفيمات الصوتية :**

تتألف هذه المورفيمات - كما قلنا - من اصوات تضاف الى العناصر الصوتية المعبرة عن الماهيات ، وهي على انواع :

١ - مورفيمات تتألف من صوت واحد فقط ، مثل الضمة القصيرة في قولنا (جاء أحمدُ) التي تدل على المقولة النحوية التي نسميها الاسناد . والاسناد الذي جرى هنا هو إسناد المجيء الى أحمد .

هذا النوع من المورفيمات شائع جداً في العربية ، وهي تعتمد عليه اعتماداً كبيراً في التعبير عن مقولاتها النحوية المختلفة . فمنه الضمة القصيرة المعبرة عن الاسناد كما في المثال المذكور ، ومنه الضمة الطويلة المعبرة عن

الاسناد اذا كان المسند اليه واحداً من الاسماء الخمسة ، مثل (جاء ابوك) و (ابوك مسافر) . ومنه الضمة الطويلة في (ضربوا) الدالة على وقوع الحدث من جماعـــة الغائبين ، ومنه الكسرة الدالة على التبعية في قولك (كتاب زيدٍ) ، ومنه النون الساكنة التي نسميها تنويناً ، والتي تدل على التنكير ، كما في قولك (جاء رجلٌ) ومنه التاء في قولنا (جاءت) التي تدل على وقوع الحدث من المفردة المؤنثة الغائبة .

ويستطيع القارىء ـ وقد عرف مانعنيه بالمورفيم المؤلف من صوت واحد ـ ان يرجع الى معلوماته النحوية والصرفيـة ليستخرج منها كل مايدخل في هذا الباب .

٢ ـ مورفيمات تتألف من مقطع واحد . وهذا النوع كثير ايضاً في العربية . واليك نماذج منه :

(من) ويدل هذا المورفيم على مقولات نحوية كثيرة تجد تفصيلاً لها في كتاب المغني.
(عن) ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ
(في) ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ
(أو) ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ
(ب) ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ
(ك) ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ
(لم) ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ
(ما) ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ
(لا) ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ
(هم) الدال على التبعية كما في قولك (كتابهم) .
(إن) الدالة على المطاوعة كما في قولك (انقسم) .

٣ ـ مورفيمات تتألف من عدة مقاطع . وهذا النوع كثير ايضاً في العربية . فمنه الهمزة والسين والتاء الدالة على الصيرورة ، كما في قولك (استحجر الطين) ، أو على الطلب ، كما في قولك (استغفر العبد ربه) ، ومنه الهمزة والتاء الدالتان على المطاوعة كما في قولك (اجتمع القوم) . ومنه كل الافعال الناقصة والاحرف المشبهة بالفعل . فهذه الافعال الناقصة (كان ـ صار ـ اصبح ـ أضحى ـ ظل ـ امسى ـ بات ... الخ) ليست في واقعها غير ادوات اومورفيمات تدخل الجمل لتدل على معانٍ نحوية مختلفة . فقولنا (زيد مسافر) ، ثم قولنا (كان زيد مسافراً) لايختلفان إلا في الزمن الذي جرته (كان) الى الماضي في العبارة الثانية . أما الذي حمل النحاة القدماء على عدها أفعالاً فهو انهم رأوها تتصرف كما تتصرف الافعال . لكن التصرف هنا لايعنينا . الذي يعنينا فقط هو الوظيفة التي يقوم بها اللفظ في العبارة . واذا كانت الافعال الناقصة لاتعبر الا عن مقولات نحوية فهي اذن مورفيمات كسائر المورفيمات الاخرى .

واخيراً فقد يكون المورفيم مؤلفاً من عناصر صوتية متباعدة . فهناك مورفيمات « تنتج من كلمتين منعزلتين يجمع بينهما العقل ، وتكون لهما ، رغم انفصالهما ، وحدة لاتقبل التمزيق . ففي الفرنسية يعبر عن النفي بعنصرين لايكادان يتجاوران مطلقاً في الجملة : ومع ذلك فان (je ne mange pas) « لا آكل » في الفرنسية لها من الوحدة مال « nitoimlim » في الارلندية »[1] .

وهذا النوع موجود في العربية ، واكثر مايكون في زيادات

١ ـ فندريس : اللغة ، ص ١٠٧

الافعال ، فمنه الهمزة والتاء في (افتعل) ، والهمزة والواو وتكرير العين في (افعوعل) ، والهمزة والنون في (افعنلل) ... الخ .

ب - المورفيمات التحويرية :

ونعني بها المورفيمات التي تتألف من تحوير او تحريف لاصوات السيمنتيمات نفسها من غير زيادة شيء عليها . ولتوضيح ذلك يمكنك النظر الى الكلمتين الآتيتين : (حِمار - حَمير) . فالكلمة الاولى تعني المفرد ، والكلمة الثانية تعني الجمع . وللحصول على معنى الجمع - وهو من المقولات النحوية - لم نحتج الى اضافة عناصر صوتية زائدة ، بل اكتفينا بالتلاعب باصوات المفرد نفسها : فنقلنا الكسرة القصيرة التي بعد الحاء في (حمار) الى مابعد الميم مع إطالتها ، ثم نقلنا الفتحة الطويلة التي بعد الميم في (حمار) الى مابعد الحاء مع تقصيرها . فأصبحت الكلمة (حَمير) التي تعني جمع (حمار) . بهذا التلاعب والتحوير في في اصوات السيمنتيم (حمار) عبرنا عن مقولة الجمع النحوية ، فكان تحويرنا هذا نوعاً من انواع المورفيم .

الا ان هذا القسم من المورفيمات لاينحصر فيما ذكرنا فقط ، بل له انواع كثيرة . واليك الكلام على كل نوع منها :

١ - مورفيم يقوم على تغيير مكان الاصوات ، مثل (حمار - حمير) . ويكثر هذا النوع فيما يسمى بجمع التكسير في العربية ، مثل (عريض - عراض) .

٢ - مورفيم يقوم على ابدال صوت بصوت آخر ، مثل

(feet - foot) في الانكليزية ، حيث ابدلت الضمة بكسرة للحصول على معنى الجمع ، ومثل (أسَد ـ أُسود) في العربية حيث ابدلت الفتحتان بضمتين للحصول على معنى الجمع ايضاً .

وهذا كثير ايضاً في العربية ، ولاسيما في جموع التكسير ، مثل : (خروف ـ خراف) و (جمل ـ جمال) ... الخ .

٣ ـ مورفيم يقوم على تغيير مكان النبر في الكلمة . وهذا النوع لاوجود له في العربية ، لان النبر في العربية ليست له وظيفة فونولوجية . اما في الانكليزية فالامر مختلف ، « لان بعض الكلمات الانكليزية يختلف معناها بمجرد اختلاف موضع النبر فيها . فأمثال الكلمات الانكليزية augment , torment لافرق بينها حين تستعمل فعلاً أو إسماً الا في اختلاف موضع النبر »(١) .

٤ ـ مورفيم يقوم على اطالة صوت من اصوات السيمنتيم ، مثل : (كَذَبَ ـ كذّب) ، اذ لافرق بين الفعلين الا في ان ذال الاول قصيرة ، وذال الثاني طويلة . ومن ذلك (رجع ـ راجع) و (عدل ـ عادل) و (رفع ـ رافع) ... الخ . حيث لافرق بين كل فعلين إلا في طول الفتحة التي تلي الحرف الاول .

٥ ـ مورفيم يقوم على تقصير صوت من اصوات السيمنتيم ، مثل (حاذر ـ حذر) فاولهما فعل أمر ، وثانيهما صفة ، ولافرق بينهما إلا في طول الفتحة التي بعد الحاء .

---

١ ـ ابراهيم انيس : الاصوات . ص ٩٩ .

٦ ـ مورفيم يقوم على درجة الحدة في الصوت ، أي على نغمته ، وهذا النوع مفقود في العربية الفصحى ، أو هذا ـ على الاقل ـ مانعرفه عن طريق النحاة القدماء . اما النغم في العاميات فله وظيفة نحوية هامة . فبه وحده نعرف ماذا كانت الجملة اخبارية او استفهامية او تعجبية في هذه اللهجات . كما انه « يلعب دوراً في لغات الشرق الاقصى ، حيث العناصر النحوية قليلة العدد . فهذه اللغات استغلت مرونة النغمات التي تحتملها اصواتها ، واتساعها وتنوعها للغايات [النحوية] خير استغلال . وتوجد هذه الظاهرة نفسها في بعض اللغات الافريقية . ففي اللغة الفهلية يعبر التنغيم عن النفي : [ففي] مجموعة مثل : مِيْ وَرَتَ mi warata معناها « سأقتل » (أو « أقتل » في الحاضر الدال على العادة) اذا نطقت الفتحة النهائية بنفس النغمة التي لباقي الجملة ، ويصير معناها « لن اقتل » اذا نطقت الفتحة النهائية بنغمة أعلى . فارتفاع الصوت له إذن من القيمة مالأي [مورفيم آخر][1] .

وقد رأينا في باب الاصوات ان الصينية تعبر بكلمة (فان) عن ستة معانٍ لاعلاقة بينها ، هي (نوم ـ يحرق ـ شجاع ـ واجب يقسم ـ مسحوق) ، وليس من فرق هناك سوى النغمة الموسيقية في كل حالة .

فاذا كانت الصينية تستخدم التنغيم للتعبير عن مختلف الماهيات ـ كما رأينا ـ فما أجدرها ان تستعمل التنغيم للتعبير عن مختلف المقولات النحوية .

٧ ـ المورفيم الصفري : وهو ان لايوجد في الكلمة اي

---

١ ـ فندريس : اللغة ص ١٠٩ ـ ١١٠

مورفيم من الانواع المذكورة سابقاً ، فعدم وجود المورفيم هو في حـــد ذاتـــه مورفيم يـــدل على مقولة نحوية . ولبيان ذلك نورد القائمـــة التصريفية الآتية :

أكلتُ
أكلنـا
أكلتَ
أكلتِ
أكلتما
أكلتم
أكلتن
أكل ←
أكلت
أكلا
أكلتا
أكلوا
أكلن

فالذي دل على ان (أكل) حدثٌ وقع من مفرد مذكر غائب هو عدم وجود اي لاحقة في نهايته كاللواحق الموجـــودة في نهـايات الصيغ الاخرى . اي انه تحلى ـ اذا صح التعبير ـ بلاحقة الصفر الـتي دلت على وقوع الحدث من مذكر مفرد غائب .

على ان المورفيم الصفري ليس محصوراً في ميدان الاصوات فقط ، بل يوجـــد في ميدان التنغيم ايضاً ، واليك مايقوله فندريس في

شأن المورفيم الصفري صوتياً ونغمياً :

« من النغمات المختلفة ذات القيمة [النحوية] نغمة لها أهميـة في بعض اللغات ، وهي نغمة الصفر ، اي عـــدم وجـــود النغمة . ففي السنسكريتية مثلاً يكون الفعل منغماً او غـير منغم ، تبعاً لبعض شروط الاستعمال في الجملة . ولكنه بالطبـع في استعمالاتـه المختلفة يتميز تمـــيزاً واضحاً بغياب النغمة كما يتميز بوجودها .

« وهذا يؤدي بنا الى ان نضيف الى [المورفيمات] المشار اليها فـيما سبق نوعاً من هذه [المورفيمات] اكثر من غيرها دقة ، ولكنها ليست اقل منها تعبيراً . ونعـني تلك التي يصح ان نطلق عليها [المورفـيمات] الصفرية . ففى الميدان [النحوي] تلعب درجـــة الصفر دوراً هاماً . والقيمة التي تملكها هي قيمة تقابل على وجه الخصوص ، ولكن ذلك لا ينقص من خطـــرها . فكثيراً مايكون للصمت في الموسيقا من التعبير ماللميلودية التي يعترض طريقها ويقطع تدرجها . وفي الحـديث لحظات من من الصمت البليغ . في اللغة يعتبر [المورفيم] الصفري مورفـيماً كغيره من المورفيمات . فقد كان في الهندية الاوروبية بعض الاسماء الـتي لايحمل مرفوعها اية لاصقة مميزة ، اي انها كانت تحمل في هـــذه الحالة لاصقة الصفر . فعدم وجود اللاصقة يكفي ، في مقابلة اللواصق المتنوعـة الـتي تتمتع بها الحالات الاخرى ، لتمييز المرفوعات التي نحن بصددها . بـل ان هنـاك حالة من حالات الاعراب في الهندية الاوروبية تتميز دائمـاً بتلك الصورة ، في الفترة القديمـــة على الاقـل : ألا وهي المنـادى . وتقابلنـا هـــذه الخاصة ايضاً في صيغة فعلية قريبة من المنـادى . وهي صيغة الشخص الثـاني المفرد في حالة الامر . فـدرجـة الصفر تلعـب

دوراً لايقل عن دور غيرها في تبادل الحركات في اللغات الهندية الاوروبية والسامية »[1] .

ج - المورفيات الترتيبية :

واخيراً نصل الى نوع آخر من المورفيات أقل تشخصاً مما سبقه ، ويتكون فقط من المكان الذي يحتله كل واحد من السيمنتيات .

وهذا النوع نادر في العربية ، لانها تعتمد في اداء معانيها النحوية على المورفيات الصوتية ، لاعلى الترتيب . ولهذا تتمتع كلماتها بحرية كبيرة من حيث مواقعها في الجملة ، وعلى الضد من ذلك ، نجد الالسن التي « فقدت اعراب الحالات على وجه عام ، استعاضت في تأدية العلاقات التي كان يعبر عنها بالاعراب إما بكلمات مساعدة (حروف جر ، أدوات ... الخ) وإما بوضع كل كلمة بالنسبة للكلمات الاخرى »[2] .

فاذا قلنا في العربية (ضرب زيد عمراً) أو (زيد ضرب عمراً) أو (عمراً ضرب زيد) لم يختلف المعنى ، وبقي زيد هو الضارب وعمرو هو المضروب ، وذلك لان التعبير عن فاعلية زيد ومفعولية عمرو قامت بها الضمة التي في زيد والفتحة التي في عمرو ، لاموقع كل من الكلمتين في الجملة . اما لو قلنا في الفرنسية : (Pierre frappe Paul) ثم عكسنا فقلنا Paul frappe Pierre لتغير

---

١ ـ اللغة ص ١١٠
٢ ـ المرجع نفسه ص ١١١

المعنى تماماً ، ولاصبح الفاعل مفعولاً والمفعول فاعـــلاً ، وذلك لان مايحدد فاعلية كلمـــة في الفرنسية او مفعوليتهـا انمـا هو مكانهـا الذي تحتله من الكلمات الاخرى في الجملة .

من الالسن التي تشبه العربية في اعتمادهـا على الاعراب لتأدية المعاني النحـوية لاعلى الترتيب اللسان اللاتيني . فاذا قلنـا في الـلاتينية (Petrus caedit Paulum) = (بطـــرسُ يضرب بولصَ) ، او (Paulum caedit Petrus) = (بولصَ يضرب بطرسُ) ، لم يتبدل المعنى ، لان الذي حدد فاعلية بطرس هو علامـة الرفـع (us) ، والذي حدد مفعولية بولص هو علامة النصب (um) .

أما مايشبه الفرنسية في اعتمادها على الترتيب مورفـياً لاداء المعاني النحوية فهي العاميات العربية . فهذه العاميات بعد ان فقدت الاعراب الذي كان يحدد وظيفة كل كلمة في الجملة دون النظر الى موقعها ، عوضت عنه بالترتيب الذي يحدد هذه الوظائف . فقولنا اليوم : (سمير ضرب خالد) يختلف في معناه عن قولنا : (خالد ضرب سمير) ، لان سميراً في الجملة الاولى فاعل ، وفي الثانية مفعول ، والذي أشار الى فاعليته في الاولى تصدره ، كما ان الذي دل على مفعوليته في الثانية تأخره .

سلوك المورفيمات مع السيمنتيمات

بعد ان عرفنا الانواع الاساسية الثلاثة للمورفيمات يجدر بنا ان نبحث مسلك هذه المورفيمات بالنسبة للسيمنتيمات .

قلنا إن السيمنتيم هو المنصر الصوتي الدال على الماهية وحدها ، وان المورفيم هو المنصر الصوتي الدال على المعاني النحوية أو ما سميناه بالمقولات النحوية . هذان المنصران لا يريان في العربية منفصلين ، بل هما متحدان اتحاداً قوياً في كل كلمة تقريباً . انظر كلمة (قَتَلَ) تر أنها مؤلفة من اصوات حبيسة ثلاثة (ق ت ل) تؤلف المنصر الصوتي الدال على ماهية القتل ، ثم تجد فيها ثلاث فتحات (ـَ ـَ ـَ) تؤلف المنصر الصوتي الدال على ان القتل قد حدث في الزمان الماضي ، وأنه قد صدر عن مفـــرد مذكر غائب . وهكذا ترى ان هذه الكلمة الصغيرة (قتل) تشتمل على ماهية واحدة هي القتل ، وعلى مقولات نحوية عديدة هي الزمن المـاضي والافراد والتذكير والغيبة . والآن انتساءل : هل يوجد في العربيـــة سيمنتيم ـ أي عنصر صوتي دال على الماهيـــة ـ مستقل لا يصحبه أي مورفيم ـ اي عنصر صوتي دال على مقولة نحوية ـ ؟ . وبعبارة أخرى : هل توجد الاصوات الثلاثة (ق ت ل) في العربية لتدل على القتل وحده

دون ان تصحب بحركات تدل على معان نحوية ؟ . إن هذا غير ممكن ، اذ لا وجود لهذه الاصوات وحدها إلا في مخيلة اصحاب علم الاشتقاق والمعاجم . أما في الواقع اللغوي فالسيمنتيم مصحوب دائماً بالمورفيم .

المجرد اذن في العربية ، هذا الذي يعبر عن الماهية وحدها ، ليس له وجود في واقع الاستعمال اللغوي ، بل هو مصحوب دائماً باصوات طليقة قصيرة او طويلة تقوم بدور المورفيات للتعبير عن المعاني النحوية المختلفة . يقول مييه (1) : « الاصل في العربية لا يتميز إلا بحبيساته ، اما عن الطليقات فكل حبيس من حبيسات الأصل يمكن ان يتبع بالفتحة القصيرة أو الطويلة ، او بالكسرة القصيرة او الطويلة ، او بالضمة القصيرة أو الطويلة ، او بالصفر (يعني السكون) ، فعندنا سبع صور ، وكل واحدة من هذه الصور السبع تستخدم للدلالة على الوظيفة ، مثل : قَتَلَ (فعل ماض صادر عن مفرد مذكر غائب) قُتِلَ (فعل ماض مسند الى مفعول مفرد مذكر غائب) قَتْل (مصدر = اسم للحدث) قاتِل (اسم فاعل مذكر مفرد) قتيل (اسم مفعول مذكر أو مؤنث مفرد) قِتال (اسم حدث لقتل فيه مشاركة) قتول (مبالغة لاسم الفاعل) ... الخ .

ومع ذلك فان الأصل ـ اي المجرد ـ ولو لم يكن له وجود في واقع الاستعمال اللغوي ، فان له وجوداً وحقيقة حساسة بالنسبة للمتكلم ، وذلك من جهة انه الهيكل الذي ينتظم الحالات المختلفة لهذا التبادل بين الاصوات الطليقة (الحركات) . وحقيقة الأصل ترجع الى قبوله للتنوع .

---

١ ـ نقلاً عن فندريس : اللغة ص ١١٢

ومبدأ التبادل يجعل هذه العناصر تلعب دور التعارض ، وهو لعب في غاية اللطف والدقة اعتادته عقول الساميين والهنديين الأوروبيين [1] ممن الفت السنتهم هذه الطريقة في صياغة كلماتها .

إن تبادل الاصوات الطليقة مع الاصوات الحبيسة ليس المسلك الوحيد للمورفيم مع السيمنتيم في العربية واخواتها الساميات والالسن الهندية الاوروبية ، بل يحدث ـ ويكثر ذلك في الهنديات الاوروبيات ـ ان يضاف الى تبادل الاصوات زيادات مورفيمية تلحق الاصل في أوله فتسمى صدوراً prèfixes ، أو تلحقه في آخره فتسمى اعجازاً suffixes ، أو تلحقه في وسط فتسمى أحشاءً infixes .

فمن الصدور همزة التعدية في (أفعل) ، مثل (أدخل) ، والهمزة والنون في (انفعل) ، مثل : (انفتح) والهمزة والسين والتاء في (استفعل) ، مثل : (استخرج) ، والميم في (مفعول) مثل : (مأكول) ، ومن الاعجاز الالف والتاء في (شجرات) ، والواو والنون في (زيدون) ، والالف والنون في (ولدان) ، ومن الاحشاء التاء في (افتعل) ، مثل (اجتمع) والواو في (افعوعل) ، مثل : (اخضوضر) ... الخ .

هذه اللواحق ـ صدوراً كانت ام اعجازاً ام احشاء ـ ليس لها وجود مستقل ، فهي مثل الاصوات الطليقة (الحركات) ترى دائماً مع الاصل لا تنفك عنه كما لا ينفك عنها . وهكذا تؤلف اللواحق مع الحركات واصوات المجرد كلاً واحداً لا يتجزأ .

---

١ ـ فندريس : اللغة ص ١١٤

هناك نوع آخر من اللواحق لا يرى في الكلمة دائماً في جميع حالات استعمالها ، بل يرى في استعمال ، ويرى غيره في استعمال آخر . هذا النوع يسمى في الفرنسية désinenes ويسميه الدكتور السمران بالخواتيم (جمع خاتمة) . ومن ذلك ما يلحق الافعال حين تصريفها الاشارة الى الاشخاص القائمين بالحدث . مثل :

ضرب

ضربــــتْ

ضربــــا

ضربتــــا

ضربــــوا

ضربــــنَ

ضربــــتَ

ضربــــتِ

ضربــــتما

ضربــــتم

ضربــــتن

ضربــــتُ

ضربنــــا

فكل ما ورد بعد الباء هو من الخواتيم ، ولبيان الفرق بين الخاتمة والصدر أو العجز أو الحشو نقول إن الهمزة والتاء في (اجتمع) واولاهما صدر ، وثانيتها حشو تريان في هذا الفعل في جميع استعمالاته ، اما تاء

التأنيث الساكنة ، وهي خاتمة ، فلا ترى إلا اذا اسند الفعل الى الغائبة المفردة ، أما اذا اسند الى غيرها فانها تسقط وتأتي خاتمة أخرى .

لكن الخواتيم لا تأتي دائماً في نهاية الكلمة كما قد يفهم من اسمها [1]. بل تأتي في بعض الاحيان في بداية الكلمة ، وتسمى عند ذلك باللواحق (جمع لاحقة) [2] ، كما تسمى في الفرنسية باسم augments .

وإليك مثالاً من العربية لمجيئها في اول الكلمة :

أضرب

نضرب

تضرب

يضرب

فكل ما سبق الضاد من همزة ونون وتاء وياء هو من نوع اللواحق .

ومهما يكن من امر هذه المورفيمات ، وسواء أكانت من الصدور او الاعجاز والاحشاء او الخواتيم او اللواحق ، فانها تعطينا صورة عن

---

١ ـ اقترح الدكتور السعران ، كما قلنا ، ان تترجم كلمة desinence بكلمة خاتمة، (انظر كتابه : علم اللغة ص ٣٥ الحاشية) لأن اشتقاق الكلمة في الالسن الأجنبية هو من كلمة لاتينية تعني الانهاء . جاء في معجم لاروس :
désinence : (du lat. desinere finir)

٢ ـ هذا ايضاً من اقتراح السعران ، لكن معنى augment في الالسن الاجنبية لا يشير الى معنى اللحاق ، بل الى معنى الزيادة والنماء . جاء في لاروس :
augment : (du lat. augmentum, accroissement)

نوع واحد من انواع سلوك المورفيات في الكلام ، وهو سلوك تبدو فيه شديدة الارتباط بالسيمنتيات لا تكاد تنفصل عنها ليكون لها وجود مستقل .

هذا هو سلوك اكثر المورفيات في العربية والساميات والهندديات الاوروبيات عموماً ، إلا ان طائفة اخرى من الالسن ترينا سلوكاً لمورفياتها يختلف عن هذا السلوك اختلافاً تاماً . فالصينية مثلاً ليس فيها زيادات تضاف الى المجرد للدلالة على المعاني النحوية . بل ان زياداتها - اذا صح التعبير - كلمات مستقلة كل الاستقلال عن المجردات . الكلمات في الصينية نوعان : كلمات تدل على الماهيات يسمونها بالكلمات المليئة ، وتقابل ما نسميه نحن بالسيمنتيم او المجرد ، وكلمات تدل على المقولات النحوية يسمونها بالكلمات الفارغة ، وتقابل ما نسميه نحن بالمورفيات او الادوات النحوية .

هذا الاستقلال الذي يتمتع به المورفيم (الكلمة الفارغة) في الصينية له ما يماثله في جميع الالسن . فكل ما في العربية من حروف الجر والوصل والعطف ، والافعال الناقصة ، والاحرف المشبهة بالفعل ، يعد من المورفيات المستقلة ، أو ما يسميه الصينيون بالكلمات الفارغة . بل ان النحاة العرب قد اشاروا الى مثل ما عناه الصينيون بالكلمات الفارغة والكلمات الملآى حين ميزوا بين الاسم والحرف بقولهم : إن الاسم (والفعل معه ايضاً) هو ما دل على معنى في نفسه ، وإن الحرف هو ما دل على معنى في غيره .

استقلال المورفيم اذاً ليس مسلكاً تنفرد به الصينية ، بل هو شيء تعرفه الالسن كلها . والفرق بين الصينية وغيرها ان الصينية جعلت من هذا الاستقلال مسلكاً عاماً لجميع مورفياتها ، أما غيرها، ولا سيما الساميات والهنديات الاوروبيات ، فانها ، على الرغم من وجود مورفيات مستقلة فيها ، تتألف

كلماتها دائماً من سيمنتيم واحد معه مورفيم واحد أو اكثر ، وليس بين هذا السيمنتيم ومورفياته اي تخلخل او انفصام .

هذا التخلخل بين المورفيات والسيمنتيات يبدو في بعض الالسن على شكل حرية ممنوحة للمورفيم ليكون حيث يشاء من عناصر الجملة . وتعطينا التركية مثلاً واضحاً عنه في كلمتها sevmishlerdir « احبوا » التي يمكن ان ترتب عناصرها ترتيباً آخر sevmishdirler دون ان يتغير المعنى . ويمكن توضيح ما تفعله التركية بمثال من العربية :

في العربية تستطيع ان تقول : (شجراتك) ، واضعاً الالف والتاء ، وهما مورفيم الجمع ، بعد السيمنتيم (شجرة) مباشرة ، ثم خاتماً الكلمة بالخاتمة (ك) مورفيم التبعية للمخاطب المفرد . ولكنك لا تستطيع ان تعكس الآية فتقول : (شجرتكات) ، ولكن التركية تفعل شيئاً شبيهاً بذلك :

معنى هذا ان العربية تفرض لكل مورفيم مكانه الخاص الذي لا يجوز ان يتجاوزه الى غيره ، على حين ان السنا أخرى تمنح مورفياتها حرية التنقل بين عناصر الجملة كيف تشاء .

تختلف الالسن ايضاً في شأن تكرار المورفيم او عدم تكراره . فبعضها يكرر المورفيم في كل كلمة ، مثل السوبية (واحدة من السن البنتو) التي اذا ارادت معنى الافراد في الجملة ذكرت المورفيم الدال على الافراد مع كل كلمة ؛ فتقول ما يمكن تمثيله بما يأتي : واحد رجل واحد يمشي ، اي رجل واحد يمشي . وعلى العكس من ذلك تماماً ، نجد السنا اخرى اذا اتفقت فيها كلمات متعددة في اداء وظيفة واحدة لم يذكر إلا مورفيم

واحد يلحق آخر هذه الكلمات . ولتوضيح ذلك نورد المثال الآتي :

اذا وصفنا في العربية معرفة بصفات متعددة ادخلنا مورفيم التعريف ، لاتمام المطـابقة بين الموصوف وصفته ، على كل الصفات ، فنقول : جاء الرجل الطيب الصالح الطويل العالم .. الخ . اما في المجرية فانهم بدلاً من ذلك يقولون : جاء الرجل طيب صالح طويل العالم (١) .

وهناك مسلك للمورفيات في بعض الالسن أغرب من كل ما ذكر . فقد حدث بعض الباحثين ان بعض السن الهنود الحمر في امريكا تضع كل مورفيات الجملة في طرف ، وكل سيمنتياتها في طرف آخر . فاذا أرادت ان تقول : ذهبتم أمس الى المدرسة ، قالت : تم أمس الى الـ || ذهب مدرسة .

فكل ما تقدم الخطين الرأسيين انما يشتمل على مورفيات ، أما السيمينتيات فلا تذكر إلا بعد .

ويقول فندريس (٢) : لا ينبغي ان ندهش من بنية على هـذا النحو من الغرابة . فلغة الكلام في الفرنسية فيهـا حالات من التركيب تقـرب من تلك الحـالات كل القرب . فنحن نسمع من الشعب : elle n'y a encore pas || vayagè , ta cousine , en Afrique « هي لم

١ ـ ليس هذا ما تفعله المجرية بالضبط ، ولكنه مثل لتوضيح طريقتها في الاكتفاء ، بمورفيم واحد للكلمات المشتركة في وظيفة واحدة .

٢ ـ اللغة : ص ١٣١ ، وقارن كل ما جاء في هذا الفصل مع فندريس ص ١٠٤ ـ ١٢٢ .

فيها بعد || تسافر قرينتك الى افريقية » أو il l'a - ti jamais || attrapé
le gendarme, son voleur ? « هو ألم إطلاقاً || يمسك الشرطي سارقه ؟
فكل ما هو سابق على الخطين لا يشتمل ايضاً إلا على مورفيمات : اشارات الى الفاعل او الى المفعول (مباشراً كان او غير مباشر) او الى النوع او الى العــــدد او الى الزمن او الى صفة الجملة اهي استفهام ، أم نفي : فلدينـــا هنا ، وقبل ان نعرف عمن وعماذا يدور الأمر ، جميع العناصر النحوية للجملة ، فلا يبقى إلا تعيين الاشخاص والحدث الذي ساهموا فيه ، وبالاختصار الوقائع والفاعلين ، وهكذا توضع المعاني التجريدية في رأس الجملة، والمشخصات في ذيلها » .

حكاية الإعراب (١)

من المعروف ان للاسم في العربية ثلاث حالات : حالة الرفع وعلامته الضمة ، وحالة النصب وعلامته الفتحة ، وحالة الجر وعلامته الكسرة .

---

١ ــ للتوسع في موضوع هذا الفصل انظر المراجع الآتية :
احمد بن فارس : الصاحبي . ص ١٦١
ابن جني : الخصائص . ج ٢ ص ٣٢
ابراهيم السامرائي : دراسات في اللغة ص ٩٦ ــ ١٠٢
ابراهيم مصطفى : إحياء النحو
مهدي المخزومي : في النحو العربي . ص ٦٥ وما بعدها
ابراهيم انيس : من اسرار اللغة العربية ، الفصل الخامس ، قصة الاعراب .
يوهان فك : العربية . ص ٢ ــ ٦
السيوطي : الاشباه والنظائر ج١ ص ٧٦ ــ ٧٩ ، ٢٦١
سيبويه : الكتاب ج ٢ ص ٣١٥
اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١٥

Carl Brockelmann : Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen . Berlin 1908 . I. S. 5

مهدى المخزومي : مدرسة الكوفة ص ٢٨٣
على عبدالواحدوافي : فقه اللغة
برجمتراسر : التطور النحوي . ص ٧٥ يتبع

وقد اختلف الباحثون قديماً وحديثاً في امر هذه الحركات : أهي مورفيات تدل على مقولات نحوية ، ام هي مجرد تحريك لأواخر الكلمات لوصل بعضها ببعض كراهية التقاء السواكن ، وان العرب لم تكن تقصد منها الى شيء من المعاني النحوية ؟

وسنعرض عليك فيما يلي مجملاً لأقوال كل من الفريقين ، بادئين بالفريق الذي نفى ان تكون هذه الحركات دوال على شيء :

١ ـ وزعم الخليل ان الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به .

(سيبويه)

٢ ـ إنما اعربت العرب كلامها لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون ، فجعلوه في الوصل محركاً حتى لا يبطئوا في الادراج . وعاقبوا بين الحركة والسكون ، وجعلوا لكل واحد أليق الاحوال به ، ولم

تابع

Vollers : Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien. Strassburg 1960 .

Nöldeke : Neue Beiträge zur semitschen Sprachwissenschaft, Strassburg 1910 , 1 - 5

Kahle : The Cairo Geniza, London 1947, P. 78 - 84

Kakle : The arabic Readers of the Koran (Journal of Near Eastern Studies 8, 1947, P. 65 - 71 .

Wright : Lectures of the comparative grammar of the Semitic languages, Cambridg 1890 .

يلتزموا حركة واحدة لانهم ارادوا الاتساع ، فلم يضيقوا على انفسهم وعلى المتكلم بحظر الحركات إلا حركة واحدة .

(محمد بن المستنير المعروف بقطرب)

٣ - ليس في اللغات السامية اثر لادغام كلة في أخرى حتى تصير الاثنتان كلة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلتين مستقلتين كما هي الحال في غير اللغات السامية ، وهذا هو سبب ظهور الاعراب في اللغة العربية . وهناك شيء من بقايا الاعراب في اغلب اللغات السامية .

(اسرائيل ولفنسون)

٤ - إن اصل لواحق الاعراب لا تعرف معرفة يقين ، ولكن يمكن ان يرى ان الفتحة اصلها ha ، وهي ضمير اشارة مستعمل في اللغات السامية ، ولم يزل في الحبشية يلحق بالاعلام في حالة النصب اذا وقع عليها فعل ذو اتجاه مثل : أقبل وقصد ، واصل معناها في هذا الاستعمال الاتجاه الى شيء او شخص معين . واذا صح هذا جاز ان نرى ان الضمة مشتقة من ho أي (هو) ، أما علامة الجر فظاهر مشابهتها لياء النسب ، وهي تفيد الكلمة معنى الوصفية . وفي اللغات الهندية الغربية نرى لواحق الخفض مشتقة من لواحق دالة على الوصفية . ويساعد على هذا في العربية ان الصفة تجيء بعد الموصوف ، فيقال : البيت الملكي . وباتحاد الموصوف بالصفة في المعنى واللفظ بها مرة واحدة استغني عن اعراب التالي ، وخفضت الياء فنشأ الخفض ، وهو اعراب جديد .

(بروكلمان ورايت)

٥ - كان القرآن يقرأ في بادىء الأمر بلسان محمد ، يعني بلهجة مكة الخالية من ظواهر الاعراب ، وهو يدين باسلوبه المعرب الذي وصل

إلينا ، الى تنقيح خاضع للقواعد التي اعتمدت في العربية فيما بعد ، ولا سيما من حيث الاعراب .

(فولرز)

٦ ـ كان القرآن يقرأ في بادىء الامر بغير اعراب . ثم ان القراء الاولين في المدن الاسلامية الكبرى ، رحلوا لمخالطة عرب البادية المخيمين في جوارهم ، قصداً الى دراسة رواياتهم عن شعراء البدو ، ووضع قواعد مستنبطة من لغة الشعر لقراءة النص القرآني على مثالها . وهذه الضرورات العملية هي التي اوجدت الباعث الى جمع شعر الجاهلية وكتابته في اوائل العصر الاسلامي . وعلى أساس هذه المادة التي تم جمعها ، وضعت لغة نموذجية ، كان الاعراب من مميزاتها ، ومن ثم ادخل الاعراب في قراءة القرآن .

(كاله)

٧ ـ ان هذه القواعد المتشعبة الدقيقة ، وخاصة قواعد الاعراب ، لم تكن مراعاة الا في اللغة الفصيحة الادبية ، أما لغة التخاطب فلم تكن معربة .

(مرسيل كوهين)

٨ ـ ليس للحركات الاعرابية مدلول ، وان الحركات لم تكن تحدد المعاني في أذهان العرب الاقدمين ، وهي لا تعدو ان تكون حركات يحتاج اليها في كثير من الاحيان لوصل الكلمات بعضها .

ان النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الاعراب ، وقاسوا بعض

الاصول رغبة منهم في الوصول الى قواعد مطردة منسجمة .

ولعلهم تأثروا بما رأوه حولهم من لغات كاليونانية ، ففيها يفرق بين حالات الاسماء التي تسمى cases . ويرمز لها في نهاية الاسماء برموز معينه .

ان الاعراب قصة . وما اروعها قصة ! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ، ثم حيكت وتم نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الاول الهجري أو اوائل القرن الثاني ، على يد قوم من صناع الكلام نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية . ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الاعراب حصناً منيعاً ، امتنع حتى على الكتّاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية ، وشق اقتحامه الا على قوم سموا فيما بعد بالنحاة .

(ابراهيم انيس)

واليك الآن اقوال الفريق الثاني :

١ ـ ان الاسماء لما كانت تعتورها المعاني ، وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ، ولم يكن في صورها وابنيتها أدلة على هذه المعاني ، جعلت حركات الاعراب تبين عن هذه المعاني وتدل عليها ، ليتسع لهم في اللغة مايريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة .

(ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي)

٢ ـ ألا ترى ان من لايعرب فيقول : ضربْ أخوكْ لأبوكْ .

قد يصل بالإم الى معرفة الفاعل من المفعول ، ولا يتجشم خلاف الاعراب ليفاد منه المعنى ؟

(ابو الفتح عثمان بن جني)

٣ ـ من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب ـ الاعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدْر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد .

يقع ذلك (يعني الافهام والفهم) من وجهين : احدهما الاعراب ، والآخر التصريف . هذا فيمن يعرف الوجهين ، فأما من لا يعرفهما ، فقد يمكن القائلَ إفهام السامع بوجوه يطول ذكرها من اشارة وغير ذلك ، وانما المعوّل على ما يقع في كتاب الله ، جل ثناؤه ، من الخطاب ، أو في سنة رسول الله ﷺ ، أو غيرها من الكلام المشترك في اللفظ .

فأما الاعراب فبه تميز المعاني ويوقف على اغراض المتكلمين . وذلك ان قائلاً لو قال « ما احسنْ زيدْ » غير معرب ، أو « ضربْ عمرْ زيدْ » غير معرب ، لم يوقف على مراده ، فاذا قال : « ما أحسن زيداً» أو « ما أحسنُ زيدٍ » أو « ما احسَنَ زيدٌ » ابان بالاعراب عن المعنى الذي اراده . وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها : فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني .

(أحمد بن فارس)

٤ ـ لقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل ، وتضحية جديرة بالاعجاب ، بعرض اللغة الفصحى وتصويرها

في جميع مظاهرها ، من ناحية الاصوات ، والصيغ ، وتركيب الجمل ، ومعاني المفردات على صورة محيطة شاملة ، حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد ، ولا تزال كتب القواعد الاساسية المذكورة تمد اللغة العربية لغة متصرفة بمعنى الكلمة ، محافظة على علامات الاحوال والتصريفات المختلفة ، مثل الضمة في حالة رفع الاسم والفعل ، والكسرة في حالة خفض الاسم ، والفتحة في حالة نصب الاسم والفعل الخ .

لقد احتفظت العربية الفصحى ، في ظاهرة التصرف الاعرابي ، بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية - باستثناء البابلية القديمة - قبل عصر نموها وازدهارها الادبي .

(يوهان فك)

٥ - ان اللغة العربية لها منهج آخر مخالف لمناهج اللغات الغربية في الاعراب وفي التصريف . فان العربية تدل بالحركات على المعاني المختلفة من غير ان تكون تلك الحركات اثراً لمقطع ، او بقية من أداة . ويكون ذلك في وسط الكلمة واولها وآخرها .

فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل : مكرِم ومكرَم ، ومستخرِج ومستخرَج . وبين فعل المعلوم وفعل المجهول ، نحو : كتَبَ وكُتِبَ ، واستفهم واستُفهِمَ ، وبين الفعل والمصدر ، في مثل : عَلِمَ وعِلْم ...

وهذا من الشيوع والكثرة في اللغة العربية بحيث لا نستطيع جمعه ، وبحيث نراه اصلاً من اصولها ، سارياً في كثير من تصرفاتها ، ظاهراً في

سبيل الاداء وتصوير المعاني . ومن العناء الضائع ، والتكلف المبعد عن الحق ان نتلمس لكل حركة من هذه الحركات أصلاً ، لانا نحاول ان نكلفها نظام غيرها من اللغات . وانما هي صورة ألفها الباحثون في اللغات الاجنبية ، فغلبت عليهم حين يفكرون في فقه العربية .

فأما الضمة فانها عَلَم الاسناد ، ودليل ان الكلمة المرفوعة يراد أن يُسند إليها و يُتحدّث عنها .

واما الكسرة فانها عَلَم الاضافة ، واشارة الى ارتباط الكلمة بما قبلها ، سواء كان هذا الارتباط بأداة او بغير اداة ، كما في (كتاب محمد)، و (كتاب لمحمد) .

ولا تخرج الضمة ولا الكسرة عن الدلالة على ما اشرنا إليه ، إلا ان يكون ذلك في بناء وفي نوع من الاتباع .

اما الفتحة فليست علامة اعراب ولا دالة على شيء ، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب ، التي يراد ان تنتهي بها الكلمة كلما امكن ذلك ، فهي بمثابة السكون في لغة العامة .

(ابراهيم مصطفى)

٦ ـ وللاعراب علامات تدل عليه ، وهي الحركات . والحركات في العربية ثلاث : الضمة والكسرة والفتحة . وقد اعتدت العربيـــة بالضمة والكسرة اعتداداً خاصاً ، فجعلت الضمـــة علماً للاسناد ، والكسرة علماً للاضافة ، اما الفتحة فعلم لما ليس باسناد ولا إضافة .

(مهدي المخزومي)

٧ ـ ان رأي الاستاذ مصطفى في الفتحة [وانها ليست دالة على شيء] غريب في بابه ، ولا يستند الى سند علمي . فقد دلت المقارنات الى ان الفتحة وجدت في حالة النصب في كثير من اللغات السامية ، ولم يكن هناك سبب للفتحة المستحبة .

(إبراهيم السامرائي)

٨ ـ العرب ورثوا لغتهم معربة . وليس الاعراب قصة .

(صبحي الصالح)

★ ★ ★

بعد ان عرضنا عليك أقوال الفريقين يحسن بنا ان نعرض عليك ايضاً حجج كل منها .

وإليك ملخصاً لحجج الفريق الأول(١) :

١ ـ إن الخلافات الاعرابية بين لهجة مكة ولهجات البادية كثيرة، وكذا الخلافات بين لهجات البادية فيما بينها . وكل هذا يدل على أن الحركات لم تكن تـــدل على معـانٍ نحوية ، اذ لو كانت كذلك لما كان هنـاك خلاف فيها .

٢ ـ ان قراءة ابي عمرو امتازت دائماً بالادغام الذي يقع بين الكلمتين، ادغام آخر حرف من الكلمة الأولى بأول حرف من الكلمة الثانية . وهذا لا يتهيأ إلا اذا كانت الكلمات ساكنة الاواخر .

---

١ ـ سيلاحظ القارىء ـ ولا شك ـ ان حجـج هـذا الفريق في غايـة الوهن والضعف ، وان استدلالاتهم لا تختلف كثيراً عن استدلالات الصبيان .

٣ ـ اختلف القراء كثيراً في اعراب كثير من الآيات . فقد قرأ بعضهم : « انما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ [١] » برفع (الله) ونصب (العلماء) . ولو كانت حركات الاعراب دوال على معان نحوية لانقلب معنى الآية بهذه القراءة ولاصبحت كفراً .

٤ ـ ان القدماء اختلفوا في اعجاز القرآن : فقال بعضهم : هو في لفظه ، وقال آخرون : بل هو في معناه . والذي حمل الآخرين على ذلك ، انهم كانوا يرون كمال الفصاحة في لغة عرب البادية لا في القرآن . وهذا دليل على أن القرآن لم يكن يقرأ بالحركات الاعرابية كما كان الامر في لغة البادية .

٥ ـ رويت عن الرسول (ص) أحاديث يفهم منها جواز قراءة القرآن بغير اعراب . فقد روي عنه أنه قال : « من قرأ القرآن باعراب فله أجر شهيد » ، وانه قال : « من قرأ القرآن فلم يعربه وُكّل به مَلَك يكتب له كما انزل بكل حرف عشرَ حسنات ، فان اعرب بعضه ولم يعرب بعضه وُكّل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة ، فان اعربه كله وكّل به اربعة املاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة » .

٦ ـ رويت عن الرسول (ص) احاديث يفهم منها ان اللحن وعدم التقيد بقواعد الاعراب كان امراً معروفاً مألوفاً لذلك العهد . فمن ذلك قوله : « انا من قريش ، ونشأت في بني سعد ، فأنىّ لي اللحن ! » .

٧ ـ ان قواعد هذا شأنها في التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما

---

١ ـ سورة فاطر ٢٨ .

تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقة بعضهـــا ببعض ، كل هـــذا غير ممكن في لغة التخاطب ، وانما هو من اختصـاص اللغـــة الفصيحة المهذبة .

٨ - ان العاميـات العربية خالية جميعها من ظاهرة الاعراب ، ولو كانت العربية الفصحى معربة لبقي من هـذا الاعراب شيء ولو يسير في العاميات .

٩ - يكفي للبرهنة على ان لا علاقة بين معـاني الكلام وحركات الاعراب ان نقرأ خبراً في الصحف على رجل لم يتصل بالنحو أي نوع من الاتصال ، فسنرى انه يفهم معناه تمـام الفهم مهما تعمدنا الخلط في اعراب كلماته ، برفع المنصوب ونصب المرفوع أو جره .

وهذه حجج الفريق الثاني :

١ - ليس الاعراب في العربية بدعاً حتى يظن به الاختـــلاق والاختراع ، بل هو شيء كان في السامية الأولى ، وقـــد احتفظت به العربية ، على حين فقدته أخواتها ، ولم يبق منه فيهن إلا آثار قليلة تدل على قدمه ، لقد اجمع المستشرقون تقريباً على ان الاعراب ظاهرة سامية عامة . فقد وجدوا في الاكدية ضمة للرفع ، وفتحة للنصب ، وكسرة للجر ، لكن الاكدية لم تحتفظ بهذه الحركات جميعاً كما احتفظت العربية بها ، بل انتهى بها الأمر الى ضمة لحالة الرفع ، وكسرة لحالـــتي النصب والجر ، ثم لم يبق فيها غير إمالة كسرية لجميـع الحالات . ويرى المستشرق ليتمان ان أواخر الكلمات في اللهجة النبطية قـد يحدث فيهـا تغيـير بحسب موضعها في الاعراب . كما ان للاعراب اثراً في العبرية يتبينه الباحثون في حالتي المفعول به ، وفي ضمير التبعية . على ان هذا الأثر ضئيل جداً ،

فقد اوشكت تخلو من الاعراب لغة العهد القديم . غير ان علامة النصب في العبرية القديمة هي الفتحة الطويلة التي نشأ عنها حرف الهاء . والهاء المتطرفة في هذه اللغة تشبه الالف اللينة ، ومن أجل ذلك تعامل معاملة أحرف العلة . وتظهر هذه في آخر الاسم المنصوب بنزع الخافض ، كما تظهر في آخر الظرف المنصوب (ليلا) وتمني (ليل) و (عتا) وتمني (حين) . وكما تلحق هذه العلامة الظروف فانها تلحق المصدر فينصب كما هي الحال في المفعول المطلق في العربية ، ولكنها في هذه الحالة تكون متلوة بميم زائدة (للتمييم) الذي يقابل التنوين في العربية . مثال ذلك (يومام) وتمني (يوماً) و (حنام) وتمني (مجاناً) . والمتتبع لشوارد النصوص في اللغة العبرية ربما وجد آثاراً تشير الى شيء يشبه الضمة والكسرة لعلها بقايا لضمة وكسرة كانتا مستعملتين في العبرية القديمة .

٢ ـ إن اشعار عرب البادية ، في الجاهلية والاسلام ، تريناً علامات الاعراب مطردة كاملة السلطان ، فأوزان هذه الاشعار وقوافيها لا تستقيم إلا اذا كانت معربة .

٣ ـ هناك حقيقة تاريخية ثابتة ، وهي ان النحاة واللغويين الاسلاميين كانوا ، حتى القرن الرابع الهجري على الاقل ، يختلفون الى عرب البادية ليدرسوا لغتهم . وهذا لا يدل إلا على ان التصرف الاعرابي كان بالغاً أشده حتى ذلك العهد .

٤ ـ ان مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك اثراً للشك في وجود الاعراب . انظر مثلاً الى قوله تعالى : انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ(١) ،

---

١ ـ سورة فاطر ٢٨

وقوله : « ان الله بريءٌ من المشركين ورسولَه [1] » ، وقوله : « واذ ابتلى ابراهيمَ رَبُّهُ [2] » ، وقوله : « واذا حضر القسمةَ أولو القربى [3] » ، فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات لا يمكن ان يكون إلا في لغة لا يزال الاعراب فيها حياً صحيحاً . يضاف الى ذلك شهادة القرآن نفسه ، مثل قوله : « وهذا لسان عربي مبين [4] » . وصريح من هذا انه لم يقم عند محمد (ص) ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب ، أي قبائل البدو .

٥ ـ لقد وصل القرآن إلينا معرباً بطريق التواتر ، ولا يكذب الخبر المتواتر الا كل احمق يجهل ابسط القواعد العلمية في التحقيق .

٦ ـ لقد وصل الحديث الشريف الينا معرباً أيضاً . ونحن نعلم مقدار حرص رواته على نقله بضبط وأمانة .

٧ ـ أما ما قيل عن اختلاف القراء في اعراب بعض الآيات فسببه ان القرآن نزل على سبعة احرف ، وأهم هذه الاحرف جميعاً هو اختلاف اللهجات .

٨ ـ اما الحديث الذي وردت فيه كلمة (اللحن) ، فليس فيه دليل على وجود اللحن لعهد الرسول (ص) ، لان هذه الكلمة لم يكن لها في ذلك العهد معنى الخروج على القواعد ، وكيف يكون ذلك ولم يكن

---

١ ـ سورة التوبة ٣

٢ ـ سورة البقرة ١٢٤

٣ ـ سورة النساء ٨

٤ ـ سورة النحل ١٠٣

النحاة قد وُجِدوا لا هم ولا قواعدهم ؟ ان (اللحن) كما ورد في الحديث كان يقصد منه سوء النطق وعدم وضوحه .

٩ ـ ان ما ورد من الاحاديث التي فيها حض على اعراب القرآن ليس فيها دليل على شيء ، لان كلمة (الاعراب) التي وردت فيها لم تكن تعني تحريك اواخر الكلمات ، وكيف تعني ذلك ولم يكن الاعراب ولا النحو قد خلق بعد ؟ لقد عنى الرسول (ص) بكلمة (الاعراب) وضوح المنطق وظهور المخارج ، وخلو التلاوة من عيوب اللسان التي تذهب بالكثير من حلاوة القرآن .

١٠ ـ ومع ذلك فان كل هذه الاحاديث موضوعة ، واذن فلا يمكن اتخاذها شواهد على شيء .

١١ ـ اما ما قيل عن دقة القواعد الاعرابية وصعوبة تطبيقها في لغة الخطاب فليس بشيء ، لان دقة الاعراب ليست بمانعة احداً من التخاطب بلغة معربة ، فهذه اللاتينية في العصور القديمة ، والالمانية في العصر الحاضر ، يشتمل كل منها على قواعد وإعراب ربما لا يقل في دقته وتنوعه عن إعراب العربية الفصحى . ومع ذلك لا تزال الالمانية لغة تخاطب بين الالمان ، وظلت اللاتينية مدة طويلة لغة تخاطب بين الرومان (١) .

١٢ ـ اما دعوى ان العاميات خالية من ظاهرة الاعراب ، واتخاذ

---

١ ـ حدثني صديق لي كان يدرس الهندسة في تشيكوسلوفاكيا أن حالات الاسم تبلغ في اللغة التشيكية في بعض الاحيان الثلاثين ، ومع ذلك لا يشعر القوم هناك بشيء من الصعوبة في التحدث بلغتهم على ما تقتضيه قواعدها .

ذلك دليلاً على خلو الفصحى القديمة منه ايضاً فمردود ، لان اللهجـات العربية الحديثة لم تتجرد كلها من آثار الاعراب ، فما تبرح هـذه الآثار ظاهرة في اقوال البداة في مواطن متفرقة من العـالم العربي ، كأنها تجميد لبقايا يستحيل عليها العدم التـام ، والاضمحلال المطلق ، أو كأن طبيعـة هذه اللغة العربية تأبى عليها ان تفقد ظاهرة الاعراب الى الابـد ، ويروي أحد الرحالة الانكليز ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، انه سمع الحركات الاعرابية تلتزم في وسط الجزيرة على السنة الناس في المدن .

١٣ ـ اما الادعاء بان العامي يفهم الخبر الذي نقرؤه عليه مهما تعمدنا الخطأ في اعراب كلماته ، واتخاذ ذلك حجة على ان علامات الاعراب ليست دوال على معـان نحوية ، فتلك مغالطة لا تحتمل ، لان الشخص المذكور عندما نفسد عليه اعراب الكلمات سيجد نفسه امام خليط من الالفاظ والتعابير ليس عاميا كله فيفهمه فهم العامة ، ولا فصيحـاً كله ، فيفهم منه بعضه على قدر استعداده ، وانما سيفهم الفكرة فهماً سقيمـاً مشوهاً ، فهو ـ على جهله التام بقواعد الاعراب ـ لا يستوعب جزئيات الفكرة ، ولا يلمح الترابط بين اجزائها إلا اذا قرئت عليه قراءة نحوية صحيحة ، ولذلك يسلك هذا الشخص في السمعيين لا البصريين ، فهـو يفهم الخبر الذي يتلوه المذيـع وهو يستمع اليه اكثر ممـا يفهمه إذا قرأه بنفسه وهو ينظر في الصحيفـة ، لان المذيـع يراعي احكام الاعراب فيفصح ويبين ، اما قارىء الصحيفة فيفقد الروابط الحقيقية بين الفاظ يعرف بعضهـا عن طريق الالف والعادة ، ويجهل بعضها الآخر لانها لم تطرق سمعه ، فهـذا القدر المحدود من الفهم ـ الذي يتفـاوت بتفاوت الاشخاص والثقافات ـ ليس مصدره فقدان الحركات الاعرابيـة ، وإلا

لكان يجب ان يكون فهماً تاماً من كل وجه ، وهـو ما ينكره الواقع ويأباه.

★ ★ ★

انتهت حجج الفريق الثاني وردوده على الفريق الاول . وهي - كما ترى - حجج وردود كافية وافية شافية . ومع ذلك ، نحب ان نقول شيئاً في الموضوع :

١ - إن دعوى التعقيد في القواعد العربية وصعوبة تطبيقها دعوى باطلة من جهتين : اولاهما ان بعض الالسن تبلغ من التعقيد ما يجعل العربية تبدو بازائه لساناً في غاية البساطة والسهولة (١) ، وثانيتهما ان الفعل اللغوي فعل يأتيه الانسان بالسليقة والغريزة من غير ان يشعر بما يشتمل عليه من تعقيد . شأنه في ذلك كشأنه في اكله وشربه ومشيه . التحليل وحده هو الذي يكشف عما في الافعال الانسانية من تعقيد عجيب ، أما الانسان نفسه فانه يقوم بهذه الافعال وكأنها امـور في غايـة البساطة والسهولة . حدثني احد اصدقائي - وهو من المختصين فى علوم الرياضة - ان في خطوة واحدة يخطوها الانسان من التعقيد الهائل ما يعجز علم الميكانيك عن وضع معادلة لها ، على الرغم من التقدم الكبير الذي احرزه هذا العلم اخيراً . فاذا صح هذا ! - وهو صحيـح - فهل يمكننا ان نتخذه حجة لنقول : إن الناس لا يمشون لصعوبة المشي وتعذر تطبيق ميكانيكيته ؟ .

٢ - إن الاخبار قد كثرت عن حوادث سوء التفاهم التي كانت تحدث بسبب خطأ احد المتخاطبين في قواعد الاعراب ، فمن ذلك ما ورد

---

١ - انظر الحاشية السابقة

في العقد الفريد [1] من انه « دخل على الوليد بن عبد الملك [2] رجل من اشراف قريش ، فقال له الوليد : من خَتَنَكَ ؟ [بفتح النون] قال له : فلانٌ اليهودي ، فقال : ما تقول ؟ ويحك ! قال : املك إنما تسأل عن خَتَني يا امير المؤمنين ؟ هو فلان ابن فلان [3] » .

فهذا الخبر وامثاله إن دلت على شيء ، فانما تدل على ان حركات الاعراب كانت هي المحددة للمعاني التي يقصد اليها المتكلم . ولو لم تكن كذلك لما حدث سوء تفاهم عند التخليط فيما بينها .

٣ ـ ان الاخبار كثرت ايضاً عن ان العرب كانت تدرك ان الاختلاف في حركات الاعراب يؤدي الى اختلاف المعاني ، وان لم يكن هذا الادراك من نوع الادراك العلمي التحليلي .

قال ابن جني [4] : « وسألت الشجري [5] يوماً فقلت : يا ابا عبدالله،

---

١ ـ ج ٢ ص ٤٨٠ تحقيق احمد امين وزميليه . القاهرة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م .

٢ ـ وقد عرف الوليد باللحن .

٣ ـ ختن : فعل ماض ، ومعناه معروف . أما الختن (بفتحتين) فهو الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كالاب والاخ . والجمع أختان (عن القاموس المحيط) . وظاهر من الخبر ان القرشي فهم من قول الوليد : (من ختنك) الفعل ، أي فعل الختان ، على حين كان الوليد يقصد الصهر ، ولكنه لفساد لسانه فتح حيث يجب ان يرفع فأفهم سامعه غير ما كان يقصد اليه .

٤ ـ الخصائص ج ١ ص ٢٥٠ . وورد الخبر نفسه في صفحة ٧٦ من الجزء نفسه ، ولكن في عبارة تختلف اختلافاً يسيراً .

٥ ـ هو ابو عبدالله محمد بن العساف العقيلي التميمي ، اعرابي وفد الموصل ، اخذ عنه ابن جني ، وكثيراً ما كان يتخذ منه مساعداً أو موضوعاً لتجارب لغوية كما ترى في الخبر أعلاه .

كيف تقول : (ضربت أخاك) ؟ فقال : كذاك . فقلت : أفتقـــول : (ضربت أخوك) ؟ فقال : لا أقول (اخوك) ابداً . قلت : فكيف تقول : (ضربني أخوك) ؟ فقال : كذاك . فقلت : الستَ زعمتَ انك لا تقول (اخوك) ابداً ؟ فقال : أيْشٍ ذا ؟! اختلفت جهتا الكلام . فهل هذا في معناه إلا كقولنا نحن : صار المفعول فاعلاً ، وان لم يكن بهذا اللفظ البتة فانه هو لا محالة ، انتهى كلام ابن جني .

فهل بعد هذا شك في ان حركات الأعراب كانت مورفيمات تدل على مقولات نحوية ؟!

٤ ـ إن وجود الاقواء في القافية لأكبر دليل على أن العرب كانت تستعمل حركات الاعراب للدلالة على المعاني النحوية المختلفة ، فكانوا لحرصهم على المعنى الذي يريدون يثبتون الحركة الدالة عليه وإن خالفـــت حركة الروي لسائر أبيات القصيدة ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما ضحوا بالموسيقا التي تنتج من وحدة الحركة في كل الأبيات .

ولا بأس ههنا ايضاً من ايراد هذا الخبر الذي يدل على ان العرب كانوا حتى نهاية القرن الرابع يحرصون على حركات الاعراب ، ويلتزمونها للدلالة على ما تدل عليه ولو أدت الى الاقواء في الشعر وضياع موسيقاه :

قال ابن جني (١) :

وانشدنا ابو عبد الله الشجري يوماً لنفسه شعراً مرفوعـــاً (٢) ، وهو قوله :

---

١ ـ الخصائص . ج ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

٢ ـ أي مضموم حركة الروي .

نظرت بسنجارٍ كنظرة ذي هوىً رأى وطناً فانهلّ بالماء غالبُهْ
لأونس[1] من أبناء سعد ظعائناً يزن الذي من نحوهن مناسبُهْ

يقول فيها يصف البعير :

فقامت اليه خَدْلَةُ الساق أعلقت به منه مسموماً دوينةَ حاجبِهِ[2]

فقلت : يا أبا عبدالله ، أتقول (دوينة حاجبِهْ) مع قولك (مناسبُهْ) و (أشانبُه) ! فلم يفهم ما أردتُ ، فقال : فكيف أصنعُ ؟ أليس ههنا تضعُ الجَرير على القَرمة ، على الجَرفةِ[3] ! وأومأ الى انفه ، فقلت : صدقتَ ، غير انك قلت (أشانبُه) و (غالبُه) ، فلم يفهم ، واعاد اعتذاره الأول . فلما طال هذا قلت له : أيحسن ان يقول الشاعر :

آذنتنا ببينها أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ

ـ ومطلت الصوت ومكنته ـ ثم يقول مع ذلك :

مَلَكَ المنذرُ بن ماء السمائي ؟

فأحسَّ حينئذ ، وقال : أهذا !! اين هذا من ذاك ! ان هذا طويل ، وذاك قصير » .

---

١ ـ أونس : أبصر .

٢ ـ خدلة الساق : ممتلئتها ، وكأنه يريد بالمسموم الخطام تشده في أنفه . و (دوينة) تصغير (دون) .

٣ ـ الجرير : سير من جلد يجعل على انف البعير ليذله . و (القرمة) ـ بفتح القاف وكسرها ـ من سمات الابل ، تكون فوق الانف ، وكذا الجرفة ، إلا انها دون الانف . ولعل القاريء لاحظ ان الاعرابي أبا عبدالله الشجري ظن ان ابن جني يعترض عليه لجعل الخطام ، أي الجرير ، على الانف تحت الحاجب ، ولم يتنبه ان ابن جني يعترض على الاقواء الذي جاء في (دوينة حاجبه).

المقولات النحوية

يراد بمصطلح المقولات النحوية المعاني التي يعبر عنها بواسطة المورفيمات. فالنوع والعدد والشخص والزمن والحالة الفعلية والتبعية والغاية والآلة ..الخ، كلها مقولات نحوية في الألسن تسعى المورفيمات الى التعبير عنها. ويستطيع كل منا أن يتصور ضخامة عددها، وتنوع مذاهبها بالرجوع الى معارفه اللغوية. وكما يختلف عدد المورفيمات تبعاً للألسن، كذلك يختلف بطبيعة الحال عدد المقولات، وكلما ضؤل نحو اللسان، قلت المقولات فيه. ولكن بعض الألسن فيها عدد كبير منها (١).

ان دراسة النحو العربي عن طريق المقولات النحوية ليس شيئاً جديداً، فقد عرفه القدماء ومارسوه في كثير من ابواب النحو، كالشرط والاستفهام وغيرها، كما نجد في علم المعاني مقولات اخرى درست على هذه الطريقة، كمقولة النفي والتوكيد وغيرها. غير ان بقية المقولات النحوية ـ وهي كثيرة ـ لم تحظ بهذا النوع من الدراسة، وذلك إما لأنها لم تكن، في رأي اللغويين القدماء ذات علاقة (بمقتضى الحال) الذي

---

١ ـ فندريس : اللغة ص ١٢٥

كان محور الدراسة في علم المعاني ، وإما لأن مورفيمات - أو أدوات - كل مقولة ذات آثار اعرابية مختلفة ، أدى اختلافها في الاثر الاعرابي الى تفريقها على الابواب النحوية المختلفة ، وذلك هو شأن النفي وبيان السبب وغيرهما .

وقد كان للباحثين المحدثين محاولات لدراسة النحـو العربي كله على هذا المنهج الحديث في الدراسة ، ولكنها ظلت محاولات محدودة ، يمكن فقط ان تعد نماذج أو خطوات أولى في هذا الدرب الطويل (١) .

وسنقدم للقارىء دراستين لمقولتين نحويتين اثنتين فقط : اولاهما من فقه اللغة الوصفي ، وسننهج فيها المنهج الوصفي ، وسنتناول فيها مقـــولة خاصة باللسان العربي هي مقولة التوكيد . والغاية من هذه الدراسة اطلاع القارىء على هذا النمط من الدراسة اللغوية الذي يفضل اليوم . أما الثانية فهي من فقه اللغة العام وستجري على المنهج القارن ، وسنتناول فيها مقولة من اكثر المقولات النحوية شيوعاً في الالسن ، وهي مقولة الجنس . والغاية من هـــذه الدراسة اظهار ما بين المنطق العقلي والمنطق اللغوي من فروق جسيمة تجعل كل محاولة لتطبيق المنطق العقلي على الامور اللغوية محاولة عقيمة مصيرها الاخفاق الذريع .

---

١ - من ذلك مثلاً رسالة جامعية للمؤلف تحت عنوان (فصيلة الزمن في العربية) الجامعة السورية ١٩٥٦. ومنه أيضاً محاولة أوسع وأشمل قام بها الدكتور مهدي المخزومي في كتابه (في النحو العربي - نقد وتوجيه) بيروت ١٩٦٤ .

مقولة التوكيد في العربية

التوكيد : تثبيت الشيء في النفس ، وتقوية امره .

والغرض منه : إزالة ما علق في نفس المخاطب من شكوك ، وإماطة ما خالجه من شبهات [1] .

وقد اولعت العربية بهذه المقولة النحوية ولوعاً زائداً ، حتى لا تكاد جملة من جملها تخلو من أداة من ادواتها ، أو صورة من صورها .

وللعربية في التوكيد طرائق مختلفة ، واساليب متعددة : فقد تؤكد الاسم وحده ، وقد تؤكد الفعل وحده ، وقد تؤكد مضمون الجملة كلها . ولها في كل ذلك سبل متنوعة : فقد تستعمل الاداة ، وقد تستعمل التكرار ، وقد تستعمل القسم ، وقد تستعمل غير ذلك .

وإليك تفصيل ما تقدم :

١ ـ التوكيد بالتكرار اللفظي :

ويكون بتكرار اللفظ الذي ظن المتكلم أن سامعه في غفلة عنه أو في شك من امره .

---

١ ـ مهدي المخزومي : في النحو العربي ص ٢٣٤ .

فان ظننتَ بسامعك الغفلة عمن سافر قلت : سافر زيد زيد وكذا ان لاحظت في سامعك الشك فيمن سافر .

أما اذا ظننت بسامعك الغفلة عما فعل زيد ، او الشك فيا فعله زيد ، قلت له : سافر سافر زيد .

أما اذا ظننت بسامعك الغفلة عن كل ما قلته له ، كررت الجملة كلها ، فقلت له : سافر زيد سافر زيد .

٢ ـ التوكيد بالتكرار المعنوي :

ويكون بأحد طريقين : أولهما ان تكرر مفرداً من مفردات الجملة بلفظ آخر يؤدي معناه ، ويحصل ذلك باستعمال الكلمات الآتية : النفس ، والذات ، والعين ، وكلا ، وكلتا ، وكل ، وجميع ، وأجمع ، واكتع ، وأبصع ، تقول : جاء زيد نفسُه ، ورأيت عمراً ذاتَه ، ومررت بخالد عينِه ، وجاء الزيدان كلاهما ، ورأيت البنتين كلتيهما ، وسافر القوم كلهم ، أو جميعهم ، او اجمعهم ، او أجمعون ، او اكتعون ، او أبصعون .

ومن هذا النوع ان تؤكد الضمير المستتر بضمير منفصل ، فتقول: إحفظ انت درسك ، او ان تؤكد الضمير المتصل بآخر منفصل ، فتقول : حفظتَ انت درسك .

وظاهر ان هذا النوع من التوكيد هو مثل التوكيد بالتكرار اللفظي ، ففي كليهما وجدنا اللفظ المؤكِّد (بكسر الكاف) يدل على ما دل عليه اللفظ المؤكَّد (بفتح الكاف) ، فألفاظ النفس والذات والعين رموز للذات المذكورة ، شخصاً كانت ام شيئاً ، اما ألفاظ كلا وكلتا وكل وجميع واجمع واكتع وابصع ، فهي الفاظ تدل على شمول

الذات كلها ، ولا شك أن الشيء او الشخص يساوي بمجموعه ، والامر واضح فيما يتعلق بالضمائر . فكل من الضمير المنفصل المؤكِّد ، وما يؤكده من ضمير مستتر او بارز متصل ، يدل على ذات واحدة .

الفرق إذن بين نوعي التكرار ان التكرار اللفظي هو اعادة ذكر المفرد بلفظه ، وان التكرار المعنوي هو اعادة المفرد بلفظ آخر دال عليه . وهناك فرق آخر : التكرار اللفظي يمكن تطبيقه في مجال الافعال والحروف والظروف ، فتقول : جاء جاء زيد ، وجلس زيد في البيت في البيت ، واجلس بين رفاقك بين رفاقك .. الخ . ولا يمكن ذلك في التكرار المعنوي ، لان الفاظ هذا النوع اسماء تدل على ذوات فقط ، لا على افعال ، ولا على حروف .

الطريق الثاني من التوكيد بالتكرار المعنوي هو ما كان قائماً على تكرار مضمون الجملة الاولى بجملة اخرى ذات لفظ مختلف . ومن ذلك قوله تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » . ففي قوله تعالى : (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) تكرار المعنى المتحصل من قوله تعالى : (يدعون الى الخير) .

ويشترط في هذا النوع من التوكيد ان يفصل بين الجملة المؤكَّدة ، والجملة المؤكِّدة بالواو كما جاء في الآية اعلاه ، وإلا كانت الجملة الثانية في موقع التفسير للجملة الاولى ، او موقع البدلية ، او البيان .

وعلى كل فان هذا النوع من التوكيد لا يدخل في الدراسة النحوية ، لعدم وجود علاقة له بنظم الجملة وتركيبها ، ذلك النظم الذي هو الموضوع الوحيد للنحو . وانما يدخل في علم الاساليب (الستلستيك) .

وقد فطن الى ذلك علماؤنا القدماء فجعلوه في علم المعاني لا في علم النحو ، وافاضوا فيه هناك افاضة زائدة .

٣ ـ التوكيد بالفصل :

ويقوم على الفصل بين المبتدأ وخبره بضمير يدعى ضمير الفصل ، نحو : زيد هو المسافر . والتوكيد ههنا ـ كما هو ظاهر ـ للمبتدأ فقط .

ويمكن ضم هذا النوع من التوكيد الى النوع السابق ، وهو التوكيد بالتكرار المعنوي ، اذ واضح ان ضمير الفصل يعود على المبتدأ وهو هو نفسه .

٤ ـ التوكيد بالتقديم :

ويقوم على تقديم ما حقه التأخير لزيادة تثبيته في نفس السامع ، وإثارة الانتباه إليه . وينبني هذا النوع من التوكيد على قضية نفسانية توجد عند كل الشعوب ، فلا شيء يثير الاهتمام والانتباه مثل مخالفة المألوف وما جرت عليه العادة .

ومن امثلة ذلك ان تقدم المفعول على الفعل والفاعل ، فتقول : زيداً ضربت ، أو ان تقدم الظرف على متعلقه ، فتقول : في الغرفة اجلس .

هذا ويحسن التنبيه الى ما ورد في صدر هذه الفقرة من ان التقديم الذي يراد منه التوكيد هو تقديم ما حقه التأخير في نظام الجملة العربية ، فأما اذا قدم ما حقه ان تكون له الصدارة ، لم يكن في ذلك شيء من توكيد ، وذلك كتقديمك أدوات الشرط والاستفهام التي لها دائماً الصدارة في الكلام ، مثل : من جاء ؟ وابن أخوك ؟ وأيّكم مسافرٌ ؟ وماذا قرأت ؟ ومهما تقرأ تستفد ، واينما تجلس ترتح .. الخ ، وكتقديمك الخبر

الظرف على مبتدئه النكرة ، نحو : في الحديقة ازهار جميلة ، وكتقديمك المبتدأ ، نحو : زيد عالم ، والفعل ، نحو : جاء زيد .

فكل ما تقدم في هذه الأمثلة إما انه واجب التقديم كأدوات الشرط والاستفهام ، وإما ان حقه التقديم كما تنص على ذلك قواعد نظم الجملة العربية ، واذن فليس في كل ذلك توكيد ، لأنه جاء على مألوف العادة فلم يثر لدى السامع انتباهاً .

٥ ـ التوكيد بالتعريف :

ويقوم على تعريف ما حقه أن يكون نكرة . ويجري ذلك في الخبر ، فتقول : زيد العالم . وأصل الكلام (زيد عالم) إلا انك أردت التوكيد ، وبيان ان زيداً هو العالم وحده دون غيره ، فعرفت الخبر لتصل الى ما تريد .

ويكثر في هذا الموطن حشر ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر لزيادة التوكيد من جهة ، ولدفع التباس الاخبار بالوصف ، فتقول : زيد هو العالم .

ويمكن رد هذا النوع من التوكيد الى النوع الذي سبقه ، أي التوكيد بالتقديم ، وذلك اذا اعتبرنا (العالم) هو المبتدأ المؤخر ، و (زيد) هو الخبر المتقدم . والمعنى واحد في كلا وجهي الاعراب الجائزين .

٦ ـ التوكيد بالمصدر :

وهو ما يسمى بالمصدر المؤكد لفعله (نوع من أنواع المفعول المطلق) ، نحو : مزّقت الكتاب تمزيقاً .

ويكثر في أمثال هذه الجملة ان يوصف المصدر المؤكد بوصف

دال على الشدة ، نحو : مزقت الكتاب تمزيقاً شديداً ، أو قوياً ، او عنيفاً .. الخ .

ويمكن رد هذا النوع من التوكيد الى نوع التوكيد بالتكرار اللفظي ، على اعتبار ان لفظ المصدر المؤكِد هو من لفظ الفعل المؤكَّد إلا ان صيغة الأول اسمية ، وصيغة الثاني فعلية .

٧ ـ التوكيد بالتضعيف :

ويقوم على تشديد حرف من حروف الكلمة او على تكراره . ومنه (كسّر) و (احمرَّ) و (احمارَّ) و (اعشوشب) و (ادلهمَّ) و (علاّم) و (سكّير) ... الخ . وهذا ما يسمي في الصرف بالمبالغة . وليست المبالغة إلا نوعاً من التوكيد وتقوية المعنى .

ويمكن ان نرد هذا النوع الى نوع التوكيد بتكرار اللفظ ، ولكنه ليس تكراراً للفظ كله ، بل هو تكرار لحرف واحد من حروفه .

٨ ـ التوكيد بالنفي :

ويقوم على ان تنزع من حكمك كل ما تخشى على السامع ان يشركه فيه ، فمن ذلك العطف بالنفي في قولك : اقرأ الكتابَ لا الجريدةَ . فأنت حين خفت ان يشرك السامع الجريدة في حكم القراءة نزعتها من هذا الحكم بوساطة النفي . وحصرت حكم القراءة في الكتاب وحده . فهذا إذن حصر ، وليس الحصر في واقعه إلا نوعاً من انواع التوكيد .

ويمكن أن نعد من هذا النوع كل الجمل الاعتراضية التي تأتي لتقوية الكلام ، نحو : أنت ـ وليس غيرك ـ من يعرف الواجب .

هذا ويمكن رد هذا النوع من التوكيد إلى نوع التوكيد بالتكرار المعنوي . إذ هو تكرار للشيء نفسه عن طريق السلب لا الايجاب .

٩ ـ التوكيد بالقسم :

وهذا لا يكون إلا بجملة تدعى جملة القسم . وتدعى الجملة التي تليها والتي هي موضوع التوكيد بجملة جواب القسم .

وجملة القسم على نوعين : فعلية ، واسمية .

والفعلية على اشكال : فاما ان يكتفي بفعل القسم وحده مع فاعله ، مثل قول النابغة :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبةً … وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بُلغتَ عني وشايةً … لمبلغك الواشي أغش واكذب

وإما ان يلحق بالجملة المقسم به مجروراً بالباء ، مثل : أقسم بالله لأحفظن العهـــد .

وقد يكتفى بالمقسم مجروراً بأحد الحروف الثلاثة : الباء ، والواو والتاء ، مثل : بالله لاسافرن ـ والله لاسافرن ـ تالله لاسافرن . فأما الباء فيحذف معها فعل القسم جوازاً ، وأما الواو والتـاء فحذف فعل القسم معها واجب ، اذ لم يسمع عن العرب انهم قالوا : اقسم والله ، أو أقسم تالله .

واما جملة القسم الاسمية فعلى ضربين : إما أن يذكر المبتدأ فيجب حينئذٍ حذف الخبر ، واما ان يذكر الخبر فيجب عندئذ حذف المبتدأ . فمن الضرب الأول قول طرفة :

لعمرك إن الموت ـ ما أخطأ الفتى ـ … لكالطولِ المرخى وثنياه في اليد

ومن الضرب الثاني قولك : في ذمتي لأكافئنك .

فتقدير الأول (عمرك قسمي) ، وتقدير الثاني (عهد في ذمتي) .

هذا ، وجملة جواب القسم تلحقها بعض ادوات التوكيد في حالات خاصة مما سيأتي ذكره بعد قليل .

١٠ - التوكيـد بالأداة :

وادوات التوكيد في العربية كثيرة ، منها ما يباشر الاسم ، ومنها ما يباشر الفعل ، ومنها ما لا يختص بأحدهما .

(**إنّ**) : حرف يستعمل للتوكيد ، مختص بالجمل الاسمية ، فلا يرى في الفعلية اطلاقاً . واذا دخل على الجملة الاسمية انتصب المبتدأ ، وبقي الخبر مرفوعاً . مثل : إن زيداً شاعر .

لا يباشر هذا الحرف إلا المبتدأ ، فتقول : ان زيداً شاعرٌ ، ولا يجوز ان تقول : إن شاعرٌ زيداً ، إلا اذا وقع الخبر ظرفاً ، فعندئذ يجوز تقدمه على المبتدأ ، فتقول : إن في الدار زيداً [١] .

لهذا الحرف الصدارة في جملتـه . ووظيفته تثبيت الشيء حين يكون المخاطب طالباً ذلك . كما يخفف في بعض الاحيان فتقول : إنْ زيدٌ لشاعرٌ .

(**أنّ**) : وهم القدماء فعدوها حرف توكيد وهي ليست كذلك . انما هي حرف وصل مثل (أنْ) الداخلة على المضارع والماضي ، والتفسيرية الداخلة على الأمر . فكل هذه في الواقع حرف وصل واحد يشدد ان دخل على الجملة الاسمية ، ويخفف ان دخل على الجمل الفعلية ، تقول :

١ - نقول هذا بمقتضى المنهج الوصفي الذي اصطنعناه في هذه الدراسة . لكن للنحاة رأياً آخر ، فهم يعلقون الظرف بخبر محذوف ، هو كون عام يقع في الرتبة بعد الاسم ، والتقدير عندهم : ان في الدار زيداً كائن . وهو تكلف ظاهر كما ترى ، ساقهم إليه حرصهم على طرد القاعدة القائلة : إن الخبر لا يتقدم المبتدأ في باب (إن) .

علمت أنّك مسافر

أريد أن تذهب معي

سافر زيد بعد أن غربت الشمس

كتبتُ إلى أبي أن أرسلْ لي مالاً[1]

ففي كل عبارة جملتان : اولاها ابتدائية ، والأخرى معمولة ربطت بالابتدائية باداة الوصل (أنْ) أو (أنّ) .

(ل) : حرف للتوكيد . وله مواقع كثيرة : فيدخل على المبتدأ ، نحو : لانتم أشد قوة ، ويباشر المضـــارع المؤكد بالنون في جملة جواب القسم ، نحو قولك : والله لاكافئنك ، وقد يأتي في جواب قسم مقدر ، مثـــل :

لاستسهلن الصعب أو أدرك المنى   فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقد يأتي مع قد لتوكيد الماضي كقوله : تالله لقد آثرك الله علينا . وقـد يقع في جواب (لو) و (لولا) ، مثـل : لو جئتني لأكرمتك ، ولولا المطر لهلك الزرع . وان دخلت على جملة اسمية مؤكدة بـ (إن) تأخرت عنها ولحقت الطرف الثـاني من الجملة ، فان كانت (إن) في المبتدأ كانت اللام في الخبر ، والعكس بالعكس ، مثل : إن الله لغفور رحيم ، وإن علينا للهدى ، وان لنا للآخرة والأولى .

ولهذه اللام في كتب النحو أسماء كثيرة : فهي لام الابتداء إن

---

١ ـ انظر كتابنا : المنهاج في القواعـد والاعراب (حرف أن) ، وكتاب مهدي المخزومي : في النحو العربي . ص ٣١٧

دخلت على المبتدأ ، وهي المزحلقة إن كانت مع (إنْ) المشددة ، وهي الفارقة ان كانت مع (إنْ) المخففة ، وهي الواقعة في جواب القسم ، وهي الواقعة في جواب (لو) و (لولا) وهي الموطئة للقسم مع (إنْ) الشرطية .

(قد) : حرف توكيد يكثر دخوله على الماضي ، مثل :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وان كذباً فما اعتذارك من قول إذا قيلا

ويقل دخوله على المضارع لافادة التوكيد ، مثل : قد يعلم الله السرائر .

(هل) : حرف توكيد بمعنى (قد) . يدخل على الماضي لتوكيده ، نحو قوله تعالى : هل أتى على الانسان حين من الدهر ، ونحو قول زهير :

ألا ابلغ الأحلاف عني رسالة وذبيانَ هل أقسمتمُ كلَّ مُقسَمِ

(ن) التوكيد : وهي على ضربين : مشددة ومخففة ، فان اردت التوكيد الأقوى شددتها ، وان اردت غير ذلك خففتها .

هذه النون مختصة بالأفعال : فاما دخولها على الامر فجائز ، مثل : أكتبن درسك . واما دخولها على الماضي فشاذ ، مثل : دامنّ فضلك ، واما دخولها على المضارع فله ثلاثة احكام : الوجوب والجواز والامتناع .

فأما الوجوب فيكون اذا وقع المضارع جواباً لقسم متصلاً بلامه مثبتاً مستقبلاً مثل : والله لاحافظن على العهد . واما الامتناع فيكون اذا وقع المضارع جواباً لقسم واختل شرط من الشروط الثلاثة الباقيـــة ، وهي الاتصال باللام ، والثبوت ، والاستقبال ، فتقول : والله لسوف أكافئك ، ووالله لن تجد عندي ما يسؤوك ، ووالله لاسافر الآن . ففي كل هذه الامثلة لا يجوز دخول نون التوكيد على المضارع . واما الجواز فيكون اذا سبق

المضارع باداة من أدوات الطلب ، مثل لام الامر ، و (لا) الناهية ، و (ألا) و (هلاّ) و (هل) ، وما شابهها ، أو اذا سبق بـ (إنْ) الشرطية التي ادغمت بها (ما) الزائدة ، نحو قوله : فاما ترينّ من البشر أحداً فقولي . . .

(ل) الجحود : هي حرف لتوكيد النفي الواقع على كان في حال مجيء الخبر فعلاً مضارعاً ، مثل ما كنت لاخونَ العهد . وهذا هو سبب تسميتها بلام الجحود ، لان الجحود هو النفي نفسه .

(إنما) : حرف لتوكيد مؤلف من (إنّ) و (ما) الزائدة .

يدخل هذا الحرف على الجمل الفعلية والاسمية على حد سواء ، نحو : إنما المؤمنون اخوة ، وانما حرّم عليكم الميتة .

(ما + إلا) : حرفان يستعملان في نوع من التوكيد يسمى القصر . مثل ما زيد إلا شاعر . ويجوز أن يحل محل (ما) أي اداةمنادوات النفي الاخرى ، مثل : إن هذا الا ملك كريم ، وليس الطيب إلا المسك ، ولن اكتب إلا درسي ، وهل جزاء الاحسان إلا الاحسان .

(ب) : هو حرف يزاد في سياق النفي لتوكيده وتقويته . ويكثر دخوله على الخبر المنفي ، كقوله : لست عليهم بمسيطر . ويقل فيما سوى ذلك ، كدخوله على الحال المنفية ، نحو قول الشاعر :

فما رجعت بخائبة ركاب   حكيم بن المسيّب منتهاها

ويمكن ان نلحظ هنا ان (خائبة) شبيه بالخبر ، لان فعل (رجعت) فيه شيء من رائحة الفعل الناقص .

هذا وتزاد الباء بعد اذا الفجائية ، نحو : خرجت فاذا بزيد ، وبعد (كيف) نحو : كيف بك اذا كان كذا وكذا .

(من) : حرف يزاد للتوكيد في سياقين : سياق النفي ، وسياق الاستفهام . ويكون دخوله على المبتدأ أو الفاعل أو المفعول ، مثل : ماجاء من أحد ، وهل جاء من احد ؟ ومارأيت من احدٍ ، وهل رأيتَ من أحد ؟ وما من أحد عندنا ، وهل من احد عندكم ؟

(إنْ) : حرف يزاد للتوكيد . واكثر مايأتي بعد (ما) النافية ، سواء أوليتها جملة فعلية ، كقوله :

ما إن اتيت بشيء انت تكرهه إذن فلا رفعت سوطي إليّ يدي

ام جملة اسمية ، كقوله :

فما ان طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا

وتقل زيادتها بعد (ما) المصدرية ، كقوله :

ورجّ الفتى للخير ما ان رأيته على السن خيراً لايزال يزيد

(أمّا) : حرف شرط وتفصيل وتوكيد ، نحو : أما زيد فشاعر ، ولم يشر الى معنى التوكيد فيها من القدماء سوى اثنين هما ابن جني وابن هشام .

★ ★ ★

هذا ملخص سريع للمورفيمات الكثيرة التي تستخدمها العربية للتعبير عن مقولة واحدة ، هي مقولة التوكيد . ولم نشأ التفصيل لان مكانه ليس هـذا الكتاب . انما أردنا من هـذه الدراسة ان تكون مثالاً فقط لنوع من الدراسة النحوية يعده اللغويون المحدثون هو الامثل .

ولابد أنه قد وضح لك مما تقدم اننا لم نأت بشيء جديد لم يسبقنا النحاة القدماء اليه . بل كررنا ماقالوه ، ولكن في شكل آخر . نحن نظرنا الى المعنى فحشرنا كل مورفيمات التوكيد في باب واحد قصرناه على مقولة التوكيد ، وهم نظروا الى الاثر الاعرابي ففرقوا هـذه المورفيمات على الابواب المختلفة : فلام الجحود في نواصب المضارع . والتوكيد اللفظي والمعنوي في التوابع ، ونون التوكيد في بناء المضارع ... وهكذا[1] .

---

١ ـ للتوسع في الادوات راجع كتاب المغني لابن هشام ، اما فيما يتعلق بالتوكيد بالقصر وبالتقديم فراجع كتب علوم البلاغة (علم المعاني) . وقارن هذا الفصل بما جاء في كتاب مهدي المخزومي : في النحو العربي ص ٢٣٤ ـ ٢٤٥ .

مقولة الجنس

تعد مقولة الجنس من اكثر المقولات النحوية شيوعاً في الالسن السامية والهندية الاوروبية . وهي في هذه الالسن قديمة جداً بحيث يعسر على الباحثين تعيين الزمن الذي نشأت فيه . وفي أقدم ماوصل الينا من نصوص نجد مقولة الجنس تفرض نفسها بدرجة من الصرامة تجعل العقل لايكاد يستحضر اسماً حتى يبدو الاسم أمامه مزوداً بجنسه الذي يميزه بجلاء . بل كثيراً ماتكون علامة الجنس هي المميز الوحيد الذي يملكه هذا الاسم ، بحيث اذا سقطت هذه العلامة فقد الاسم معناه تماماً ، أو تحول الى معنى آخر ، انظر الى الكلمات الآتية : (داهية – مصيبة – نازلة – نائبة ...) تجدها كلها تحمل علامة التأنيث ، وتجدها كلها بمعنى البلاء . حاول الآن ان تنزع علامة التأنيث من كل منها ، وستجد انها فقدت معناها وتحولت الى معنى آخر : فالداهي هو الرجل المتصف بالدهاء ، والمصيب هو ضد المخطىء ، والنازل ضد الصاعد ، والنائب كل من ينوب عن غيره في امر من الامور . هذه الظاهرة ليست قاصرة على العربية الفصحى ، بل هي موجودة في كثير من الالسن ، فبالجنس وحده نميز في العامية بين (الفرد) بمعنى الواحد او المسدس ، وبين (الفردة) بمعنى الكيس الضخم الممتلىء بالبضاعة ، وبالجنس وحده ايضاً نستطيع ان نميز في

الفرنسية بين (le poids) بمعنى الوزن ، وبين (la poix) بمعنى القار ، وبين (le pére) بمعنى الاب ، و (la paire) بمعنى الزوج والشفع ، وبين (le livre) الكتاب ، و (la livre) بمعنى الواحدة القياسية في الوزن او الورقة النقدية ، وبين (le poêle) بمعنى بساط الرحمة ، و (la poêle) بمعنى الموقد او المقلاة .

وهكذا نرى ان علامة الجنس لاتكتفي بأن تفرض نفسها بشكل صارم على جميع كلمات اللسان ، بل تكـــون في بعض الاحيان الوسيلة الوحيدة لتحديد معنى الكلمة وتمييزها عن غيرها من الكلمات التي تشترك معها في اللفظ . وليس هذا فحسب ، فان سيطرة مقـــولة الجنس على الالسن التي توجد فيها تبدو بشكل آخر عندما نسمع احد الاجانب يخلط بين المذكـــر والمؤنث . هنالك نشعر ان غلط الاجنبي في الجنس اشنع الاغلاط التي يمكن ان يرتكبها ، ونحس من ذلك بنفور مابعده نفور ، بل ان التفاهم بيننا وبينه قد يصل الى درجة الانقطاع اذا ماتكررت اخطاؤه في موضوع الجنس النحوي .

ومع كل هذا تبدو مقولة الجنس ابعد المقولات النحوية عن المنطق العقلي ، فقد افهم ان تكون (الاتان) مؤنثة ، وان يكون (الحمار) مذكراً ، ولكني لااستطيع ان افهم لِمَ كانت (الشمس) مؤنثة ، وكان القمر مذكرا ؟ اذ لاشيء يميز احد هذين الجرمين السماويين عن صاحبه . ويزداد عجبك من أمر هذه المقولة النحوية عندما ترى شيئاً واحداً ينسب الى جنسين مختلفين في لسانين اثنين : فنحن في العربية نعـــد كلاً من (الباب) و (القمر) مذكرين ، في حين تنظر الفرنسية اليها على انها مؤنثان : (la porte , la lune) . و (الشمس) في العربية مؤنثة ،

ولكنها في الفرنسية مذكرة : (le soleil) . ولو امسكت بمعجم فرنسي عربي ، او فرنسي الماني ، او الماني عربي ، ثم رحت تتبع هذا التناقض في مقولة الجنس بين هذه الالسن لما انقضى عجبك .

واغرب من كل هذا وذاك ان يطلق لسان واحد على شيء واحد اسمين مختلفين في الجنس ، فهل نستطيع ان نفسر لم كان (الشباك) مذكراً و(النافذة) مؤنثة ، مع ان الاثنين لايعنيان الا شيئاً واحدا ؟

يضاف الى هذا ان الجنس غير ثابت في اللغة . وقد لاحظ اللغويون الغربيون ان تغيرات الجنس خلال العصور كانت عديدة في تاريخ الالسن الرومانية والجرمانية والكلتية . ونحن في العربية نستطيع ان نجد كلمات كثيرة خضعت لظاهرة تغير الجنس ، (فالحرب) تعد في العامية مذكرة بعد ان كانت في الفصحى مؤنثة ، على الرغم من كثرة ورود هذه الكلمة في الصحف والنشرات الاخبارية الاذاعية موصوفة دائماً بصفات مؤنثة . و (الحمام)(١) اصبحت مؤنثة في العامية رغم ان الكلمة لاتحمل اي علامة تأنيث .

حاول اللغويون ان يفسروا ظاهرة تغير الجنس بأن الكلمة التي تحمل علامة جنسية مخالفة لجنسها ينتهي الامر بها الى ان تسلك في الجنس الذي تحمل علامته . بهذا فسروا لماذا تستعمل العامية الفرنسية كلمات : exercice (تمرين) و orage (عاصفة) ouvrage (عمل) ... الخ على انها مؤنثات مع ان الفرنسية الصحيحة تعدها في المذكرات(٢).

---

١ ـ عندما نطلق كلمة (العامية) بغير تخصيص نكون نعني بها عامية حلب .

٢ ـ علامة التأنيث في الفرنسية هي حرف (e) في نهاية الكلمه .

وبه فسروا ايضاً سبب استعمال الكلمتين profête (نبي) و pape (بابا) مؤنثين في العصور الوسطى ، على الرغم من دلالتها الواضحة على اشخاص ذكور . لكن هـذا التفسير لايشمل جميـع الحالات . نعم نستطيع ان نفسر به سبب تذبذب الكلمات العربية (سِلْم ـ سوق ـ طريق) بين الجنسين[1] ، ثم صيرورتها الى التذكير واستقرارها عليه في العامية ، كما نستطيع ان نفسر به سبب انتقال كثير من الكلمات من التأنيث الى التذكير في العامية ، مثل : قـوس ، دلو ، بـئر ، ضلع ... الخ فـكل هـذه الكلمات تحمل علامة التذكير التي هي الصفر في العربية[2] ، ولعلنا نستطيع ان نفسر بـه لِمَ انتقلت كلمـة (ماء) من التذكـير في الفصحى الى التأنيـث العاميـة ، فلعل النهاية التأنيثية (اء) هي التي جرتها الى ذلك ، ولـكننـا لانستطيع ان نفسر لم انتقلت كلمة (حمام) من التذكـير الى التأنيث في لهجة حلب على الرغم من عـدم وجود اي مورفـيم تأنيثي في الكلمة .

من مظاهر التناقض بين مقولة الجنس النحوى وبين منطق العقل والواقع ، أننا نطلق كلمات مؤنثة نحوياً على أشخاص ذكور ، واننا نطلق كلمات مـذكرة نحويـاً على اشخاص اناث ، فكلمات (رحالة ـ علامـة ـ فهامـة) لانقصـد منهـا الا رجالاً ، كما ان كلمات (ظئر ـ مرضع ـ حامل ـ حائـض ـ طالـق) لانعني بهـا الا نساءً . قد تقول : ولـكن التأنيث الذى لحق الطائفـة الاولى من الكلمات كان القصد منه المبالغة لاالتأنيث الحقيقي ، وان التذكير اللفظي الذي في كلمات الطائفة الثانية سببه

---

١ ـ التذبذب بين الجنسين ، اى جواز التذكير والتأنيث في كلة ما ، مرحلة متوسطة في انتقال الكلمة من جنس الى جنس آخر .

٢ ـ انظر معنى المورفيم الصفري في فصل المورفيمات .

عدم الحاجة الى تأنيث كلمات لايمكن ان يفهم منها الا النساء بالضرورة ، اذ لايمكن للرجل ان يحيض او ان يحبل ويحمل . هذا صحيح ، ولكنه لاينقض مما قلناه شيئاً ، فنحن لم ندع بان اللغة تحول النساء الى رجال ، والرجال الى نساء كما يفعل بعض الجراحين اليوم ، وانما قلنا ان اللغة تطلق على ذكور حقيقيين اسماءً هي مؤنثة في مقاييسها اللغوية ، وانها تطلق على اناث حقيقيات كلمات هي مذكرة في عرفها النحوي . أما لماذا تفعل ذلك مخالفة للواقع فهذا ليس من شأننا . ثم ان الادعاء بأن تذكير (المرضع والحائض) كان لعدم الاشتراك بين ارجال والنساء في هذه الصفات ، وبالتالي لعدم الحاجة الى التفريق ، غير مقبول ، اذ هناك صفات كثيرة مما يشترك فيه الرجال والنساء ، ومع ذلك لاتحاول اللغة ان تفرق بينها في التأنيث والتذكير ، من ذلك مانعرفه في العربية من ان كل ماجاء على (فعول) بمعنى فاعل ، او على (فعيل) بمعنى (مفعول) استوى فيه المذكر والمؤنث ، مثل : (عجوز - غفور - قتول - ذمول - طموح - قتيل - جريح - ... الخ) ، واذا قلت ان التاء المربوطة في (رحالة وعلامة وفهامة) للمبالغة لاللتأنيث ، فماذا تقول في الالف الممدودة في كلمة (حرباء) التي تعامل معاملة المذكر ؟

الجنس النحوي عاجز في بعض الاحيان عن التعبير عن الجنس الطبيعي فاذا طلبت من النحو ان يؤنث لي كلمة (طيار) لأطلقها على المرأة التي تقود الطائرات لم يستطع ذلك ، لان كلمة (طيارة) التي هي المؤنث النحوي لكلمة (طيار) لاتعني المرأة التي تعمل في الطيران ، بل تعني الآلة التي تطير ، وكذا الشأن في السن أخرى غير العربية ، فكلمة (médecin) المذكرة تعني الطبيب ، لكن مؤنثها النحوي

(médecine) لايعني المرأة التي تزاول الطب ، بل يعني فن الطب نفسه ، اي الطبابة .

قد تقول : ولكن عجز النحو هنا عن ان يعبر بمؤنثاته عن مؤنثات حقيقية طبيعية سببه ان هذه المؤنثات موجودة في اللغة لمعان اخرى .

وهذا حق . ولكن ماذا تقول في مذكرات ليست لها مؤنثات تطلق على معانٍ اخرى ومع ذلك لانستطيع تأنيثها للدلالة على المؤنث الطبيعي ؟ هل نستطيع في العربية ان نؤنث كلمات (صقر ـ نسر ـ غراب ...) فنقول (صقرة ـ نسرة ـ غرابة) ؟ لا . وكذا الامر في الفرنسية ، فأنت لاتستطيع ان تؤنث كلمة (professeur) = استاذ فتقول : (professeuse) = (استاذة) .

في مثل هذه الحالة تلجأ اللغة الى حيلة بارعة للتعبير عن المؤنث الطبيعي ، فتقول العربية : (انثى الصقر ـ انثى النسر ـ أنثى الغراب) جاعلة من كلمة (انثى) مورفيماً جديداً للتعبير عن مقولة الجنس المؤنث ، وتقول الفرنسية : (la femme professeur - la femme médecin) = (المرأة الاستاذ ـ المرأة الطبيب) جاعلة ايضاً من كلمة (femme) مورفيماً جديدا للتعبير عن المؤنث . وهذا هو عينه ماتفعله الانكليزية ، لكنها لاتستعمل كلمة (المرأة) او (الانثى) كما تفعل العربية والفرنسية ، بل تستعمل للتفريق بين الجنسين ضميري المذكر والمؤنث ، فتقول للتعبير عن (الجدي) الذي هو الذكر من المعز : he - goat اي(هو عنز) ، وللتعبير عن المعزة التي هي المؤنث من المعز : she - goat اي (هي عنز) . وهذا يذكرنا بما نفعله في العربية عندما يعجز التذكير النحوي

عن التعبير عن الذكر الطبيعي في مثل : (اوزة ـ بطة ـ حدأة ...الخ) فنقول : (ذكر البط ـ ذكر الاوز ـ ذكر الحدأ ... الخ) .

ليس المذكر والمؤنث الطرفين الوحيدين في مقولة الجنس ، ففي بعض الالسن طرف ثالث يسمى المحايد ، له معاملة خاصة تختلف عن معاملة كل من قسيميه الآخرين . وقد يظن القارىء ان المحايد في تلك الالسن مخصوص بما هو جامد ، او انه وضع ليحشر فيه كل اسم لايدل على مذكر حقيقي أومؤنث حقيقي. وليس الامر كذلك، اذ تجد في قسم المحايد اسماء تدل على جوامد ، مثل (معبد وبحر وجسم وقرن) في اللاتينية ، كما تجد فيه ايضاً اسماء تدل على احياء ، مثل (طفل) في الاغريقية . ومن جهة ثانية ، تجد الجوامد نفسها قد وزعت اسماؤها على الاقسام الثلاثة : المذكر والمؤنث والمحايد . على ان حصة المحايد من هذه الاسماء اقل من حصة كل من قسيميه المذكر والمؤنث . ويظهر ان هذا يشير الى كونه من فصيلة في سبيل الانقراض . وليس لها في هيكل النظام استقلال تام ، ويلعب في مقابلة الجنسين الآخرين دوراً تكميلياً من حيث انه يعبر عن بعض المعاني المستقلة في التقابل بين المذكر والمؤنث ، فهو مثلاً يدل في غالب الامر على اشياء تعتبر غير فاعلة ولاقابلة لان تزود بقدرة شخصية . ويظهر انه في بعض الاحيان يعبر عن معنى جمعي[1] .

حاول بعض اللغويين البحث عن اصل الجنس النحوي في الهندية الاوروبية ، لكن محاولتهم لم تصل الى نتيجة مرضية ، « ذلك بأن المسألة تتعدى نطاق النحو الهندي الاوروبي ؛ إذ انها مسألة من مسائل علم

١ ـ فندريس : اللغة ص ١٢٩ . أقول : ومن الممكن ان نعد الكلمات العربية (نمل ـ بط ـ ذباب ... الخ) من المحايد المعبر عن المعنى الجمعي .

اللغة العام ، وتتطلب البحث في مجموعات اخري من اللغات . ومن علماء الانثروبولوجيا من زعم ، مثل فريزر ، بأنه حل المسألة بتصوره ان الخلاف بين الجنسين يتصل بلغة النساء الخاصة ؛ فعند هؤلاء العلماء ان الاسم كان على صيغتين : صيغة تتكلمها المرأة [صارت فيما بعد الصيغة المؤنثة] ، وصيغة يتكلمها الرجل [صارت فيما بعد الصيغة المذكرة] . وهذا تبسيط ساذج للمسألة : فالاجناس لاتنحصر في المقابلة بين المذكر والمؤنث فحسب ، اذ ان الهندية الاوروبية فيها جنس ثالث ، هو المحايد »(١) .

بعض الالسن لايقسم اسماءه بين مذكر ومؤنث ، بل يقسمها الى جنس حي ، وجنس غير حي . من هذا النوع بعض السن افريقية وامريكة . وهنا ايضاً يجب ان لانتوهم ان الاحياء الحقيقية وحدها هي التي تكون اسماؤها في الجنس الحي ، فالواقع اللغوي يرينا ان هذه الالسن تدخل في الجنس الحي اسماء تدل على أحياء واخرى تدل على جمادات ، فلغة الألجونكين تضع بين الاشياء المدلول عليها بالجنس الحي : الاشجار والاحجار والشمس والقمر والنجوم والرعد والثلج والجليد والقمح والخبز والطباق والزحافة والولاعة ... الخ .

والظاهر ان التمييز بين ماهو حي وغير حي موجود في السن كثيرة ، فالعلماء يذكرون ان في السلافية جنساً خاصاً بالاحياء ، وان في الارمنية اتجاهاً الى مقابلة المادة الحية بالمادة غير الحية ، وان الاسبانية تميز بعد الفعل بين ماهو حي وماهو غير حي ، وان الفرنسية القديمة

١ - المرجع نفسه . ص ١٣١

كانت تفعل الشيء نفسه بعد الاسم ، فكانت هذه الفرنسية اذا ارادت اضافة اسم الى آخر نظرت في المضاف اليه : فان كان مما يدل على حي ، جعلت الاضافة بغير أداة ، فقالت : le bourg le roi ، وان كان مما يدل على غير حي ، جعلت الاضافة بأداة ، فقالت : les maisons du bourg .

* * *

وبعد ، فما معنى هذا ؟ لماذا تنظر اللغة الى هذه الجمادات فتؤنث بعضها وتذكر بعضها الآخر ، وليست هي مذكرة ولا مؤنثة في الواقع ؟ لماذا تنظر الى بعض الاشياء على انها حية ، والى بعضها الآخر على انها ليست بذات حياة ؟

يجيب عن ذلك فندريس بقوله[1] : « اغلب الظن ان هذا التصنيف يقوم على التصور الذي كان في ذهن اسلافنا الغابرين عن العالم ، وقد ساعدت عليه بواعث غيبية ودينية . وقد احتفظ بهذا التقليد حتى بعد ان عجز من يستعملونه عن فهم علته »[2]

---

١ ـ المرجع نفسه ص ١٣٣

٢ ـ الأمثلة من الالسن الأجنبية التي وردت في هـذا الفصل منقولة في اكثرها عن كتاب فندريس . قارن هذا الفصل بما جاء في كتابه : اللغة ص ١٢٦ ـ ١٣٣

التبدلات النحوية

النظام النحوي في كل لسان حي ، هو مثل النظام الصوتي لايثبت على حال . ونظرة سريعة الى العربية في حالتها الفصحى وحالتها العامية تقفنا على التطور الكبير الذي أصاب نظامها النحوي خلال العصور . فما اكثر المورفيات التي ماتت (كالسين وسوف ولماذا وماذا ... وهلم جراً) ، وما اكثر المورفيات التي خلقت (مثل الحاء الدالة على الاستقبال في المصرية والشين الدالة على النفي ... الخ) وما اكثر المقولات التي اختفت (كمقولة التعجب) وما اكثر المقولات التي استحدثت (كمقولة الاستمرار في الحال وغيرها) .

غير ان الطريقة التي يتم بها التبدل في النظام النحوي تختلف عن تلك التي يتم بها تبدل النظام الصوتي : التطور الصوتي عام شامل ، اذا اصاب صوتاً من اصوات النظام لم يصبه في كلمة ويتركه في أخرى ، بل هو يصيبه في كل كلمات اللسان ، اما التطور النحوي فيندر ان يشمل جميع الحالات التي يؤثر فيها ، فهو يدع الى جانب الصيغ الجديدة التي يستحدثها عدداً كبيراً من الصيغ القديمة التي تستمر في الاستعمال ، وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفي بقايا لها . يتضح مانعنيه

بالامثلة الآتيـة : فكلمة (مشروع) كانت لاتجمع الا على (مشروعات) قياساً لها على مصنوع ومصنوعات ومرفوع ومرفوعات ومنصوب ومنصوبات، لكن التطور النحوي أصابهـا فأجاز لهـا ان تجمع على (مشاريع) مثل (عصفور وعصافير) . هذا التبدل أصاب كلمة (مشروع) وحدهـا ، ولم يصب كل كلمة على وزن (مفعول) . فلا نزال حتى اليوم نجمع الكلمات التي من وزن (مفعول) على (مفعولات) لاعلى (مفاعيل) ، كذلك اصاب التبدل كلمة (مدير) فصرنا اليوم نجمعهـا على (مدراء) قائسين اياهـا على (عليم) و (علماء) ، ولكن هـــذا لانفعله بكل الكلمات التي من نوعهـا ، فـــلا نزال نجمـــع (معيد) على (معيدين) لاعلى (معداء) .

يسود التغيرات النحوية اتجاهان عامان : الاول مبعثه الحاجة الى التوحيد ، ويميل الى اقصاء العناصر النحوية التي أصبحت شاذة ، والآخر مبعثه الحاجة الى التعبير ، ويميل الى خلق عناصر نحوية جديدة[1]

إقصاء العناصر النحوية الشاذة يكون بردهـا الى القاعـدة ، اي ان الحاجة الى التوحيد تقنع بطريقة القياس . ويطلق القياس على العملية التي بهـا يخلق الذهن صيغة او كلمة أو تركيباً تبعاً لانموذج معروف[2] . فالطفل الذي يقول لامه : (إجو مرات) ، بدلاً من (جاءت نساء) انمـا يخلق جمعاً جديداً لكلمة (امرأة) لاتعرفـه العربية . قـد تكون هذه غلطة طفل لاتلبث ان تصحح ، لكن كثيراً من التبدلات التي تصيب

---

١ ـ فندريس : اللغة ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥
٢ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٠٥

الصيغ لاتجري الا على هذه الطريقة من الخطأ والا فبأي طريقة رددنا كلمة (مسكن) بالفتح الى القياس ، وقد جاء السماع بكسرها ؟

القياس لايستطيع ان يمارس سلطته إلا على الكلمات القليلة الاستعمال ، اما تلك التي يكثر ورودها في الكلام ، فلها من شيوعها وترددها قوة وحصانة ضد كل محاولة لردها الى القاعدة : لقد استطاع القياس كما رأينا ان يرد كلمة (مسكن) الى القاعدة ، ولكنه لم يستطع شيئاً مع كلمة (مسجد) التي ورد السماع بكسر عينها خلافاً للقاعدة .

★ ★ ★

الحاجة الى التعبيرية كالحاجة الى التوحيد من الحاجات التي لاتسد . ولكن العقل بسعيه الى سدها يصلح من البلى الذي يلحق بالصيغ ، وبالتالي يغير النحو .

في اثناء التطور الصوتي للسان من الالسن ، تتآكل بعض العناصر النحوية حتى تصبح غير صالحة للاستعمال ، بل قد تبتر في بعض الاحيان بتراً تاماً . وعندئذ يجب ترميمها ، او احلال غيرها محلها . فاذا كان اللسان من الالسن المعربة كالعربية مثلاً ، وكانت الاصابة فيها واقعة على نهاياتها[1] ، وجب التعويض عما فقد ولو بطرق أخرى .

---

١ ـ المرجع نفسه ص ٢١٣

وهكذا عوضت العاميات عن الكسرة التي هي علم الاضافة في الفصحى بكلمات تشير الى الاضافة حشرتها بين المضاف والمضاف اليه ؛ فالمصرية تقول : الكتاب بتاع الولد ، بينما تقول السورية : الكتاب تبع الولد ، وفي بعض قرى حلب تسمع من يقول : الكتاب تاع الولد ، اما الكويتية فلها طريقة أخرى اذ تقول : الكتاب مال الولد .

كل هذه الكلمات (بتاع - تبع - تاع - مال) صارت كلمات فارغة بالمعنى المعروف في الصينية ... ذلك ان النحو يستعيض في الواقع عن خسائره بتحويل الكلمات المليئة الى كلمات فارغة . فالادوات النحوية التي تستعملها اللغات ليست الا بقايا من كلمات مستقلة قديمة ، افرغت من معانيها الحقيقية واستعملت مجرد موضحات ، اي مجرد رموز[1] . فما نسميه بحروف الجر والعطف والوصل والنصب لم تكن في غابر الازمان الا كلمات لها معان حقيقية مثل مالكلمات (باب ، وشجرة ، وأرض وسماء) . واذا كنا اليوم نجهل ما كانت تدل عليه هذه الحروف قبل ان تصير أدوات نحوية اي مورفيمات ، وذلك لبعد العهد بأصولها ، وعدم وجود وثائق قديمة ترينا كيف كانت ، وماذا كانت تعني ، فان عندنا اليوم كلمات مليئة تسير في اتجاه الحرفية . نعني بذلك مانسميه بالافعال الناقصة (كان - صار - أصبح - امسى - بات - زال - انفك ... الخ) فاستعمال هذه الافعال تامة لايزال موجوداً حتى اليوم ، تقول : فلما كان الصبح استيقظت ، وسار الرجل حتى صار الى منزله ، تعني بالاولى (وجد واشرق) ، وتعني بالثانية (وصل وانتهى) . لكن هذا

---

١ - المرجع نفسه ، ص ٢١٦

الاستعمال الذي يحفظ لهذه الافعال معانيهـا الحقيقية نادر جداً ، والاكثر هو ان تفرغ من معاني (الوجود والوصول والدخول في المساء والصباح ، والبيات ، والزوال ، والانفـكاك والانفصال) وتعطي معـــنى الصيرورة والتحول ، ماعدا (كان) الـتي تعطي معـنى الزمن الماضي ، ومازال ومانفك اللتين تعطيان معنى الاستمرار .

تفريغ هذه الكلمات من معانيها واعطاؤها معاني نحوية مرحلة اولى في طريق انتهائها الى ان تصير مجرد رموز نحوية . ويظهر ان (كان) اسرع اخواتها الى هذا المصير الذي ينتظرها . ولعل ذلك راجع الى انها تتضمن معنى زمنياً تبدو العربية في أمس الحاجة اليه لتنويع أزمنة الفعل فيهـا .

* * *

الباب الخامس

المفردات

علوم المفردات

مفردات اللغة هي موضوع الدراسة لكثير من العلوم اللغوية كالمعجم وعلم الدلالة ، وعلم الصرف ، وعلم أصول المفردات :

فأما المعجم فيهتم بالمفردات جمعاً وتحليلاً وشرحا . فأما الجمع فأمره واضح ، وواجب المعجم فيه الا يغادر كلمة الا احصاها ، واما التحليل فهو بيان الفئة التي تنتسب اليها كل كلمة : أهي من الافعال ، أم من الاسماء ، أم من الصفات ، أم من المصادر ؟ . . الخ ، واما الشرح فهو تحديد معناها العام ، وما يمكن ان تحمله من المعاني الفرعية في الاستعمالات المختلفة ، مع ضرب الامثلة وايراد الشواهد .

هذا ولابد في كل معجم من ترتيب تصنف المفردات بوجبه ، والمعاجم في هذا الشأن اسس مختلفة ، فمنها مارتب مفرداته بحسب الموضوعات ، مثل : المثلثات لقطرب ، والنبات والشجر للاصمعي ، واللبأ واللبن لأبي زيد الانصاري ، وتهذيب الالفاظ لابن السكيت ، والمطر والسحاب لابن دريد ، والافعال لابن القوطية ، والمخصص لابن سيده ، وكشاف اصطلاحات العلوم للتهاوني ، وفقه اللغه للثعالبي ، والالفاظ الكتابية للهمذاني ... الخ ؛ ومنها مارتب مفرداته بحسب اللفظ ، مثل :

كتاب العين للخليل ، والجمهرة لابن دريد ، والصحاح للجوهري ، والمحكم والمحيط الاعظم لابن سيده ، والعباب للرضى الصغاني ، واساس البلاغة للزمخشري ، ومقاييس اللغة لابن فارس ، والقاموس المحيط للفيروزابادي ، ولسان العرب لابن منظور المصري ... الخ .

واما الصرف فهو يهتم بصيغة الكلمة : أهي مجردة أم مزيدة ؟ أو هي ثلاثية ام رباعية ام خماسية ؟ وماحروفها الاصلية ؟ وماحروفها الزائدة ؟ وما وزنها ؟ وهل هي جامدة ام هي مشتقة ؟ الى آخر ماهنالك مما يؤلف جزءاً مهماً من علم النحو يدعى بعلم الصرف .

واما علم الدلالة فهو على نوعين : علم دلالة وصفي لايهتم الابالمعنى الاجتماعي للكلمة في مرحلة معينة من تاريخ اللغة ، وعلم دلالة تاريخي يدرس تغير المعنى من عصر الى عصر .

واما علم اصول المفردات - ويدعى ايضاً بالايتيمولوجيا - فهو كعلم الدلالة التاريخي الا انه اعم منه ، اذ لايقصر دراسته على جانب المعنى وحده ، بل يتتبع الكلمات خلال العصور ملاحظاً مايطرأ عليها من تبدلات تصيبها في الفاظها ومعانيها وطرق استعمالها .

ولابد من التنبيه على ان حدود هذه العلوم غير واضحة ، وأن الموضوعات المشتركة بينها كثيرة جداً : فالاشتقاق الذي يدرس في الصرف على انه وضع الكلمة في صيغ مختلفة ، يدرس ايضاً في أصول المفردات باعتباره واحدة من الطرق المختلفة لتوليد الكلمات ، ولهذا السبب اخترنا ان نجمل كل الابحاث التي تتعلق بالمفردات في باب واحد من غير تمييز بين مايتعلق منها بهذا العلم اوبذاك .

عناصر العمل اللغوي

يشتمل كل عمل لغوي ـ أي كل اتصال لغوي بين اثنين ـ على اربعة عناصر ، هي :

١ ـ الوجدان : وهو مايجده المتكلم في نفسه من عواطف وافكار واحاسيس .

٢ ـ اللفظ : وهو المادة الصوتية المنبعثة من فم المتكلم في محاولة للتعبير عن وجدانه .

٣ ـ المعنى : وهو الصورة الذهنية المتحصلة في ذهن السامع من سماعه اللفظ .

٤ ـ المقصود : وهو الحقيقة الخارجية للصورة الذهنية .

فاذا قال رجل لآخر : (احب منزلي) ، كان حب الرجل لمنزله وصورة هذا المنزل كما هي في نفس صاحبه هو ماعبرنا عنه بكلمة (الوجدان) ، اما (اللفظ) فهو الاصوات المتحصلة من قول الرجل : (أحب منزلي) ، واما (المعنى) فهو الصورة الذهنية الحادثة في نفس السامع لحب مخاطبه المنزل ، ثم للمنزل نفسه ، واما (المقصود) فهو حقيقة كل من الحب والمنزل الخارجة عن ذات المتكلم وذات السامع على

حد سواء .

ولقد دار جدل طويل حول طبيعة العلاقات التي تربط هذه العناصر بعضها ببعض ، وحول مدى انطباق بعض هذه العناصر على بعضها الآخر ، جدل اشترك فيه رجال كثيرون من اختصاصات مختلفة ، منهم الفلاسفة ، وعلماء النفس ، وعلماء اللغة ، والادباء .

والمجال أضيق من ان يتسع لذكر كل ماقيل في هـذا الشأن ، لذا سنكتفي بعـرض جانب منه محاولـين التوسع فـيما يتعلق منـه بالعربية خاصة .

ويحسن التنبيه ، قبـل كل شيء ، على ان التميـيز بـين المعـنى والمقصود والوجدان لم يكن معروفاً عند القدماء ، بل كانت كلمة (المعنى) تطلق على هذا العنصر حيناً ، وعلى غيره حيناً آخر ، وفي أحيان أخرى كانوا يفهمون من هذه الكلمة العناصر الثلاثة مجتمعة .

١ ـ بين اللفظ والمقصود :

هل بـين اللفظ والمقصود ، او بعبارة أخـرى ، هل بـين الاسم والمسمى علاقة ، أم لا ؟ واذا كان بينها علاقة ، فما طبيعة هـذه العلاقة ، وما مداها ؟ أهي ذاتية موجبة بحيث اذا ذكـر الاسم أثار ، بالضرورة ، صورة المسمى في اذهان جميع الناس على اختلاف السنتهم ؟ ام هي اصطلاحية اعتباطيـة بحيث اذا ذكـر الاسم لم يـثر صورة المسمى إلا في اذهان المصطلحين وحدهم ؟

قال بالاولى كثـير من الفلاسفة القـدماء ، اولهم هرقليطس الذي

ذهب الى ان بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية ضرورية ، وان الاسماء تستطيع بحروفها ان ترسم جواهر الاشياء المادية ، وان تنطق بماهيات الاشياء بأعيانها . وقد عبر أفلاطون عن هذه النظرية بقوله ، على لسان قراطيلس : يوجد ، بالطبيعة ، اسم صحيح لكل كائن في الحياة . إذ الكلمة ليست تسمية يطلقها البعض على الشيء بعد التواطؤ ... ولكن ثمة ، بالطبيعة (لليونانيين والبرابرة) طريقة صحيحة للتدليل على الاشياء ، هي ذاتها لجميع الناس »[1] .

ويظهر ان هذه النظرية لقيت رواجاً كبيراً عند فلاسفة الاسلام والمسيحية في القرون الوسطى . فهؤلاء ، وقد ذهبوا الى توقيفية اللغة ، وجدوا في نظرية هرقليطس مايؤيد مذهبهم ويدعم شواهدهم المستمدة من النصوص الدينية : (وعلم آدم الاسماء كلها) . ففندريس يقول عن القديس توماس الاكويني إنه « كان يزعم ان الاسماء يجب ان تتفق وطبيعة الاشياء »[2] ، كما يحدثنا السيوطي عن أهل أصول الفقه « انهم نقلوا عن عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة أنه ذهب الى ان بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على ان يضع »[3] .

وقد تلمس هؤلاء براهينهم على صحة نظريتهم بوسائل شتى : فأما عباد هذا فقد قال : إنه اذا لم تكن هناك علاقة ضرورية وطبيعية بين اللفظ والمدلول حملت الواضع على ان يضع هذا الاسم لهذا المسمى لكان

---

١ ـ Cratyl عن فلسفة اللغة .
٢ ـ اللغة ، ص ٢٣٥
٣ ـ المزهر . ج١ ص ٣١

« تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح »[1] ، واما غيره فقد حاول إقامة الحجة بالتجربة العملية ، فالسيوطي يحدثنا ان بعضاً ممن كان يرى رأي عباد كان يقول « إنه يعرف مناسبة الالفاظ لمعانيها ، فسئل : ماسمى (أذغاغ) - وهو بالفارسية (الحجر) - فقال : أجد فيه يبساً شديداً ، واراه الحجر »[2] .

الا ان اكثر الفلاسفة القدماء والمحدثين ، ومعهم علماء اللغة ايضاً ، يذهبون الى عكس ماذهب اليه هرقليطس تماماً ، اذ يرى هؤلاء ان العلاقة بين اللفظ ومدلوله اعتباطية اصطلاحية ، وان اللفظ لايستطيع ان يثير صورة مسماه الا في اذهان من اصطلحوا وتواطئوا على الربط بين هذا الاسم وهذا المسمى فقط . ودليلهم على ذلك « أنه لو كان بين اللفظ ومايدل عليه علاقة ذاتية موجبة لاهتدى كل انسان الى كل لغة ، ولما صح وضع اللفظ للضدين ، كالقرء للحيض والطهر ، والجون للابيض والاسود »[3] ، ولما كان للشيء الواحد أسماء متعددة ، وللاسم الواحد معانٍ كثيرة .

وأول قائل بهذه النظرية هو الفيلسوف اليوناني ديمقريطس . وقد عبر أفلاطون عنها بقوله ، على لسان هرموجينس : ان الاسم الذي نطلقه على الشيء ، هو الاسم الصحيح ، فاذا استعضنا عنه ، اتى الثاني صحيحاً كالاول . نغير اسماء عبيدنا ، بدون ان يكون الاسم الجديد اقل حظاً في الدقة من السابق . ذلك لان الطبيعة لاتأخذ على عاتقها أن تطلق

---

١ - المرجع نفسه والصفحة نفسها .
٢ - المرجع نفسه والصفحة نفسها .
٣ - المرجع نفسه والصفحة نفسها .

أسماء خاصة . التسمية وليدة التكرار والمادة عند الذين زاولوا فعلها »[1].

وبين هؤلاء وأولئك نجد طائفة من علماء اللغة ، ولاسيما القائلون منهم بنظرية المحاكاة في اصل اللغة ، يذهبون مذهباً وسطاً : فلا يقولون بالعلاقة الذاتية الموجبة كما قال هرقليطس والصيمري ، ولايسلمون بالعلاقة التواطؤية الاعتباطية التي قال بها ديمقريطس ، بل يذهبون الى ان بين اللفظ ومدلوله مناسبة الا انها ليست ذاتية ولاموجبة [2] . ويستمدون شواهدهم على ذلك من كلمات كثيرة في السن مختلفة ، وكلها تشير بوضوح الى مناسبة طبيعية بين اللفظ ومايدل عليه . يقولون : ان الكلمات الفرنسية (vif = حي ، نشيط ، fin = دقيق ، ناعم ، net = واضح ، aigu = حاد ...) تناسب الاحساس بالخفة والنعومة الذي توقظه في السامع ؛ وان الكلمات (sourd = اصم ، lourd = ثقيل ، gros = ضخم ...) توقظ احساساً مخالفاً[3] ؛ وان الكلمات العربية (قطع ، قص قصف ، قصم ، قضم) تناسب بأصواتها معنى القطع والاحساس بالقسوة ... الخ .

واول من أشار الى هذه المناسبة بين الالفاظ ومدلولاتها من علماء العربية هو الخليل بن احمد الفراهيدي ، ثم تلميذه سيبويه . يقول ابن جني : « إعلم ان هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته ، قال الخليل :

---

١ ــ Cratyle . ص ٥٠ عن فلسفة اللغة .
٢ ــ انظر المزهر ج١ ص ٣١
٣ ــ انظر Marouzeau : La Linguistique , P . 28

كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا : صرّ ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر . وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان : إنها تأتي للاضطراب والحركة ؛ نحو النقزان ، والغليان ، والغثيان . فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الافعال »[1] .

وقد تحمس ابن جني لهذه النظرية حماسة بالغة ، فعقد في كتابه (الخصائص) ثلاثة أبواب تنطلق كل افكارها من مبدأ واحد ، وهو : أن أصواتاً معينة تدل على معانٍ معينة ، وان بين ترتيب الاصوات ومراحل ماتدل عليه ، ان كان ماتدل عليه حدثاً ، مناسبة طبيعية ظاهرة . وقد سمى الباب الاول (الاشتقاق الاكبر) ، وسمى الثاني (تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني) ، ودعا الثالث (امساس الالفاظ اشباه المعاني) .

ويمكن تلخيص ماجاء في هذه الابواب بما يلي :

١ ـ ان اصواتاً معينة تأتي لمعانٍ معينة في العربية مهما غيرت وبدلت في ترتيبها . « فمن ذلك تقليب (ج ب ر) فهي ـ اين وقعت ـ للقوة والشدة . منها (جبرت العظم ، والفقير) اذا قويتهما وشددت منهما ، و (الجبر) : الملك ، لقوته وتقويته لغيره . ومنها (رجل مجرَّب) إذا جرَّسته الامور ونجَّذته[2] ، فقويت مُنَّته[3] ،

---

١ ـ الخصائص . ج٢ ص ١٥٢

٢ ـ نجذه الدهر ونجده : عرفه وعلمه

٣ ـ المنة : الشدة

واشتدت شكيمته . ومنه (الجراب) لانـــه يحفظ مافيه ، واذا حفظ الشيء وروعي اشتد وقوي ، واذا أُغفل وأهمل تساقط ورذي[1] ، ومنها (الابجر والبجرة) ، وهو القوي السرة ... الخ[2] .

٢ ـ اذا تقاربت المعاني تقاربت الاصوات الدالة عليهـا . « من ذلك قول الله سبحانه : « ألم تر أنـا أرسلنا الشياطـين على الـكافـرين تؤزّهم أزّا »[3] اي تزعجهم وتقلقهم . فهذا في معــــنى تهزّهم هزّا ، والهمزة أخت الهـاء ؛ فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين . وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لانها أقوى من الهاء ، وهذا المعـنى أعظم في النفوس من الهز ؛ لانك قد تهز مالابال له ؛ كالجذع ، وساق الشجرة ، وغـير ذلك »[4] .

٣ ـ إن الاصوات بصفاتهـا الطبيعية تناسب ماتـدل عليه من أحداث ؛ « من ذلك قولهم : خَضِمَ ، وقَضِمَ . فالخضم لا كل الرطب كالبطيـخ والقثّاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب . والقضم للصلب اليابس ؛ نحو : قضمت الدابة شعيرها ، ونحـو ذلك ... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، والقـاف لصلابتها لليابس ؛ حـذواً لمسموع الاصوات على محسوس الاحداث »[5] .

٤ ـ انهم قد يضيفون الى اختيار الحروف وتشبيه اصواتها بالاحداث

---

١ ـ رذي : اثقله المرض .
٢ ـ ج٢ ص ١٣٥
٣ ـ سورة مريم . آية ٨٣
٤ ـ ج٢ ص ١٤٦
٥ ـ ج٢ ص ١٥٧ـ١٥٨

المعبَّر عنها بهـا ترتيبها ، وتقديم مايضاهي اول الحدث ، وتاخير مايضاهي آخـره ، وتوسيط مايضاهي أوسطه ؛ سوقاً للحروف على سمت المعـنى المقصود ، والغرض المطلوب . وذلك قولهم : بحث . فالبـاء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الارض ، والحاء لصحلها[1] تشبه مخالب الاسد وبراثن الذئب ونحوهمـا اذا غارت في الارض ، والثاء للنفث ، والبـث للتراب »[2] .

وفي العصر الحاضر ذهب مذهب الخليل وسيبويه وابن جني طائفة من علماء العربية نذكر منهم على سبيل المثـال لاالحصر الاستاذ محمـد المبـارك ، والدكتور صبحي الصالـح ، والاب مرمرجي الدومينيكي ، وجرجي زيدان ، وخير الدين الاسدي[3] .

وكان من نتيجة الاستقراء الواسع نسبياً الذي قام بـه هؤلاء البـاحثون ان كشفوا عن ظواهر في العربية غريبـة لافتة للنظر ، لايستطيع الباحث ان يمر بهـا من غـير ان يقف عندهـا ويتساءل ، فمن ذلك انهم وجدوا ان صوت الغين اذا جاء في اول الثلاثي العربي دل على الغموض والاستتار ، مثل : غاب ، غار ، غاص ، غام ، غمض ، غمر ، غمس ، غم ، غفل ، غرب ، غرق ، ، غدر ، ، غبر ، غص غبش ، غشي ، غش ... الخ ، وان صوت النون اذا جاء في اول

---

١ ــ الصحل : البحة في الصوت .

٢ ــ ج٢ ص ١٦٢ ــ ١٦٣

٣ ــ انظر مؤلفاتهم بحسب الترتيب : فقه اللغة وخصائص العربية ، دراسات في فقه اللغة ، اعجمية العربية على ضوء الثنائية الالسنية ، الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية، المحاضرات اللغوية : محاضرة (السماء) .

الثلاثي دل على الظهور ، مثل : نبع ، نبش ، نبز ، نفر ، نز ، نما ، نشر ، نهز ... الخ ، وان صوت الراء اذا جاء في اول الثلاثي دل على الحركة ، مثل : ركب ، رجع ، راح ، ركض ، رفع ، رجع ، راح ، ركض ، رفع ، رحل ، رقص ، ربا ... الخ ، وان الفاء يدل على الفصل والفتح ، مثل : فصل ، فتح ، فرق ، فرد ، فرج ، فرم ، فاح ، فسق ، فسر ، فقس ، فلق ، فلح ، فجر ، فاه ، فر ، فصم ، فضح ... الخ .

بل ان بعضهم زاد على ذلك فقال : إن هذه الاصوات تدل على معانيها مهما يكن موضعها من الثلاثي ، وعلى هذا مضوا يناقشون الثلاثيات العربية كما فعل ابن جني من قبلهم في فعل (بحث) ، فقالوا في (غرف) : ان الغين تدل على الغموض ، وهي بذلك تناسب أول مرحلة من مراحل حدث (الغرف) عندما يغيّب الغارف يده أو مغرفته في السائل ، وان الراء تدل على الحركة ، وهي تناسب المرحلة الثانية من الحدث عندما يحرك الغارف مغرفته في السائل قبل ان يرفعها ، وان الفاء تدل على الظهور والانفتاح والفصل ، وهذا يناسب آخر مراحل الحدث عندما يرفع الغارف مغرفته فيفصلها عن السائل ويظهرها بعد ان كانت مستترة [1] .

واسرف بعضهم في هذا اسرافاً زائداً أخرجهم من دائرة البحث

---

١ ـ هذا التحليل لفعل (غرف) حدثنيه الاستاذ ناصر الدن من بلدة كفرتخاريم من اعمال حلب وهو احد المهتمين بالدراسات اللغوية ، ومن أكثر المتحمسين لنظرية التناسب بين اللفظ والمعنى .

العلمي المبني على الحقائق الى دائرة الخرافة المبنية على الاوهام . من هؤلاء الاستاذ عبد الله العلايلي الذي يزعم ان كل حرف من حروف الابجدية العربية يدل على معنى خاص ، وانه اذا عرفت معاني الحروف امكن معرفة معنى الكلمة العربية ولو لم تكن معروفة من قبل . ثم يمضي فيجعل لهذه الحروف معاني فلسفية لانظن أنها خطرت يوماً على قلب الانسان العربي القديم . فالهمزة ، كما يزعم ، تدل على الجوفية ، وعلى ماهو وعاء للمعنى ، وتدل على الصفة تصير طبعاً ؛ والباء يدل على بلوغ المعنى في الشيء بلوغاً تاماً ، ويدل على القوام الصلب بالتفعل (..؟ !) ؛ والتاء يدل على الاضطراب في الطبيعة او المُلابس للطبيعة في غير مايكون شديداً ؛ والثاء يدل على التعلق بالشيء تعلقاً له علامته الظاهرة سواء في الحس او المعنى ؛ والجيم يدل على العِظَم مطلقاً ... والواو يدل على الانفعال المؤثر في الظواهر : والياء يدل على الانفعال المؤثر في البواطن[1] .

وعلى هذا راح الاستاذ العلايلي يحلل الكلمات العربية زاعماً أنه يردها الى اشكالها الاولى التي كانت عليها . وإليك مثالاً واحداً لهذه التحليلات يطلعك على مقدار التكلف الذي وقع فيه هذا الباحث :

« عبي ؛ تحلل الى حروفها ، ع : وتدل على الحيوان الزئيري . ب ، وتدل على البيت .

« وكان المعنى الاولي : حيوان البيت القوي ، الذي هو كناية

---

١ ــ الدكتور اسعد علي : تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي . ص ٦٣ ــ ٦٤

عن الرجل ، ثم اشتق منه بعد أطوار من الترقي اللغوي اسم للباس الرجل الخاص به ، العباءة . ثم غاب الاصل في معنى الفرع المشتق ، وأميت معنى الاصل بالنسيان أو بعدم الاحتياج ، حتى صار في معنى الفرع حقيقة وضعية »[1] .

ولكن اذا طرحنا كل هذه الانواع من التكلف الذي وقع فيه العلايلي وغيره ، فانه يبقى لدينا كمية كبيرة من الشواهد لايمكن تجاهلها ، وهي تشير ، بما لايدع مجالاً للشك ، الى وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ والمعنى .

ومع ذلك يصر بعض اللغويين على نفي العلاقة بين اللفظ ومدلوله . يقول فندريس[2] : من الحمق ان نحكم بوجود علاقة ضرورية بين الحرفين (fl = ف ل) مجتمعين وبين فكرة السيلان ، اذ ان الكلمات (ruisseau = سيل = rivière = جدول - و torrent = مجرى - و) التي تعبر أيضاً عن فكرة السيلان بقدر ماتعبر عنها كلمة (fleuve = نهر) لاتحتوي على مثل هذين الصوتين ، وان كلمة (fleur = زهرة) التي لاتكاد تتكون إلا من هذين الحرفين أيضاً لاتوقظ في الذهن اطلاقاً فكرة السيلان .

إلا ان هؤلاء النفاة لم يستطيعوا ان يتجاهلوا هذه الظاهرة تجاهلاً تاماً ، ظاهرة أن بعض الاصوات أقدر من بعضها الآخر على التعبير عن معان معينة . فيعترف فندريس نفسه[3] : بأن من الحق

---

١ - المرجع نفسه . ص ٥٠

٢ - اللغة ص ٢٣٦

٣ - المرجع نفسه ص ٢٣٦ - ٢٣٧

أن كلمة (fleuve = نهر) معبرة ، لان الاصوات التي تكونها صالحة تمام الصلاحية لاثارة الصورة التي تمثلها .

« فالواقع ان هناك بين الاصوات ومركبات الاصوات فروقاً في القدرة التعبيرية ، وهذا هو سر الكلمات التي تعبر بأصواتها عن معناها (onomatopées) ؛ فالكلمة الالمانية (Kladderadatsch = كلادراداتش) تمثل جيداً مجموعة من الآنية بعضها فوق بعض وقد سقطت شظايا ؛ والكلمة الفرنسية (patapouf = باتابوف) تمثل كيساً محشواً بالملابس يسقط على درج السلم ، وكلمة (pan = بن) تشير الصوت الجاف الذي يسمع من طلقة مسدس ، و (poum = بوم) ذلك الصدى الممتد الذي ينبعث من طلقة مدفع . وكل الموسيقيين يعرفون ان النغمات المختلفة تناسب التعبير عن الاحاسيس المختلفة إن قليلاً وان كثيراً ؛ فهذا السلم أليق من غيره ببساطة الحقول ، وذلك بالعذوبة الرقراقة اللذيذة ، وذاك بجهد الرجولة الصارم . ونظرة المؤلف تجعله يختار في كل حالة النغمة اللائقة ، لذلك كان من الحق أن الانتقال بالقطعة من نغمة الى نغمة يشوه طابعها في بعض الاحيان . ولكن لايستطيع انسان ان يقرر ان المؤلف العبقري ليس في وسعه ان يعبر عن العاطفة التي يحسها باية نغمة من النغمات . كذلك فان الشاعر يستطيع ان يحمل اصوات الكلمات كل تعبيرية تروقه ... فالشاعر في وسعه ان يحدث تأثيرات غير منتظرة بكلمات يظنها البعيد عن هذا الفن غير جديرة بمثل هذا الاستعمال ، وذلك بواسطة الوان من الاعداد والمقابلة محكمة التنسيق » .

نلاحظ من كلام فندريس أنه على الرغم من اعترافه بوجود مركبات صوتية أقدر من غيرها على التعبير عن معانٍ مخصوصة يعود

فيصر على ان المعنى الواحد يمكن التعبير عنه تعبيراً جيداً بعدة أنواع من المركبات الصوتية . فكأنه لايريد ان يخرج على رأي دي سوسير « الذي يعد من أشهر المعارضين لاصحاب الصلة بين اللفظ والمدلول . والذي يرى ان هذه الصلة اعتباطية لاتخضع لمنطق او نظام مطرد ، ومع اعترافه بتلك الصلة في الالفاظ التي تعد بمثابة الصدى لاصوات الطبيعة ، والتي تسمى onomatopèes يقرر انها من القلة في اللغات ، ومن الاختلاف والتباين باختلاف اللغات الانسانية ، بحيث لايصح ان نتخذ منها أساساً لظاهرة لغوية مطردة او شبيهة بالمطردة . هي إذن في رأيه مجرد الفاظ قليلة تصادف ان اشبهت اصواتها دلالاتها[1] » .

حاول بعض الباحثين تفسير ظاهرة الكلمات التي هي من نوع onomatopées ، مع الاصرار على نفي العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله ، بان فرقوا بين الصلة الطبيعية الذاتية ، والصلة المكتسبة . فقالوا ان الاصوات ليس لها في ذاتها قدرة على التعبير عن معانٍ معينة ، وانما هي رموز صالحة لأن تطلق على اي معنى من المعاني ، ولكن يحدث أنه اذا اطلقت اصوات لترمز الى معنى معين ، ثم أطلق مايشبهها على معنى يشبه الاول ـ يحدث ان يقوم في ذهن ابناء اللغة ربط بين نوع ما من التركيبات الصوتية ونوع من المعاني المتشابهة . يقول الدكتور ابراهيم انيس في هذا المعنى[2] : انه يجب التفرقة بين الصلة الطبيعية الذاتية والصلة المكتسبة . ففي كثير من الفاظ كل لغة تلحظ تلك الصلة بينها وبين دلالاتها ، ولكن هذه الصلة لم تنشأ مع تلك الالفاظ أو تولد

---

١ ـ الدكتور ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ . ص ٦٦ ـ ٦٧

٢ ـ المرجع نفسه ص ٦٧ ـ ٦٨

بمولدها ، وانما اكتسبتها اكتساباً بمرور الايام وكثرة التداول والاستعمال .

« وهي في بعض الالفاظ اوضح منها في البعض الآخر ، ومرجع هذا الى الظروف الخاصة التي تحيط بكل كلمة في تاريخها ، والى الحالات النفسية المتباينة التي تعرض للمتكلمين والسامعين في اثناء استعمال الكلمات. فاذا تصادف ان عني احد المتكلمين بأصوات لفظ من الالفاظ ، واسترعى انتباهه اكثر من غيره ، لايلبث ان يعقد الصلة الوثيقة بينه وبـــين دلالته ، ويتصور نوعاً من المناسبة بين تلك الاصوات وماتـــدل عليه ، ويحـاول نقل شعوره الى غيره ماستطاع الى ذلك سبيلا . فاذا تصادف ان احس فريق من الناس بنفس الاحساس ، بـدأت عملية ذهنية اخرى هي الربط بين هذه الاصوات واشباهها في الكلمات الاخرى ، لان الذهن الانساني يميل الى التجميع والتعميم . وتلتقي تلك العمليـــة بعملية نفسية أخرى هي التي تسمى بتداعي المعـاني ، اي ان المعنى حـين يخطر في الذهن يدعو مايشبهه او يقاربه . وهنا قد يخطر في الذهن فكرة الربط بين مجموعة من الالفاظ المتشابهة او المتقاربة بمجموعة من المعاني المتشابهة او المتقاربة ، ويترتب على هـذا ان يشيع بـين أبناء اللغة نوع من الوهم يشعرون معه بوثوق الصلة بين الالفاظ والدلالات .

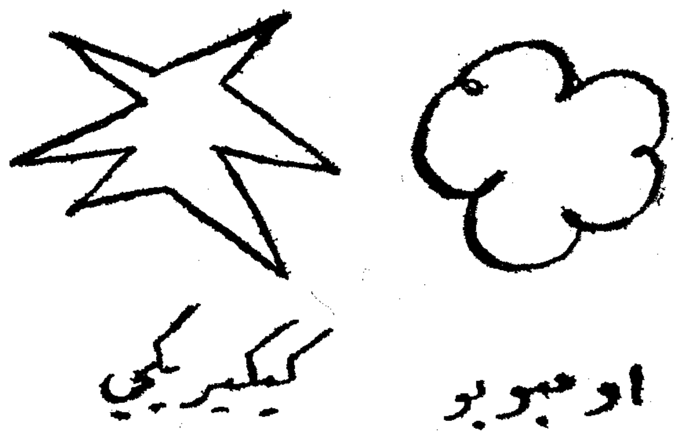
« فالالفاظ لاتعدو في حقيقتها ان تكون بمثابة الرموز على الدلالات، وكل لفظ يصلح ان يتخذ في التعبير عن اي معنى من المعاني ، فما يسمى (بالشجرة) يمكن ان يسمى باي لفظ آخر متى اصطلح الناس عليه ، وتواضعوا على استعمـاله ، فليس في لفظ (الشجرة) مايوحي بفروعهـا وجذورها واوراقها وخضرتها »

والى مثل هذا يشير الاستاذ فيرث في احدى محاضراته . ولكنه

لاينتهي الى ماانتهى اليه انيس من نفي الصلة الطبيعية بين اللفظ والمدلول ، بل على العكس يقرر انه ربما تكون هناك صلة طبيعية بين اللفظ والشكل على الاقل . لان الربط بين اشكال معينة وأصوات معينة يبدو عاماً بين كل الناس على اختلاف قومياتهم والسنتهم ، يقول : وهناك نوع من التقسيم أحس به ، ولا أصر عليه ، ألمحه وراء الكلمات التي تبدأ بالحرفين sl ، مثل :

slink , slim , slight , slide , slick , slice , slince , slither
. slender , sleet , slip , sleek , slit

« ويستطيع المرء ان يسلي نفسه بجمع الكلمات التي تبدأ بالحرفين (el) أو (str) أو (spr) وهلم جراً ، فربما وجد شيئاً شائعاً بينها لايهمني هنا ان انص عليه . وتبدأ تسعون كلمة في الهولندية بالحرفين (sl) كلها للشتم والاهانة ، وقد استعير بعضها في اللغة الجاوية ، فبدأ بالحرفين (se) ، وهـذا يستدعي الى الذهن ان تقسيم الكلمات بحسب اثرها الذهني شائع في اللغات الجرمانية . وربما كان هناك صلة بين الصوت والشكل كما ترى في المثالين الآتيين :



هاتان الكلمتان (اومبوبو وكيكيريكي) لاتدلان على معنى معين في اية لغة على ما اعلم . ولكن الطلبة من جميع الامم ينسبون الاسم الاول الى الشكل الاول ، والاسم الثاني الى الشكل الثاني[1] .

★ ★ ★

يمكننا الآن تلخيص الآراء في هذه المشكلة على الشكل الآتي :

١ ـ ان الاسماء تنطق بماهيات الاشياء عينها .

(الهر قليطيون)

٢ ـ بين اللفظ ومدلوله علاقة ذاتية موجبة حاملة للواضع على ان يضع . والا لكان وضع الاسم المعين المسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح .

(الصيمري وغيره)

٣ ـ ان الاسماء يجب ان تتفق وطبيعة الاشياء .

(القديس توماس الاكويني)

٤ ـ ان الصلة بين اللفظ ومدلوله حاصلة ، ولكنها ليست موجبة .

(اكثر علماء العربية قديماً)

١ ـ عن كتاب : مناهج البحث في اللغة . ص ٢١٧

٥ ـ ان اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الاشياء بوساطة الفاظ أثرها في الآذان يشبه اثر تلك الاشياء في الاذهان . وان الكلمات بدأت واضحة الصلة بين اصواتها ودلالاتها ، ثم تطورت تلك الاصوات او تلك الدلالات ، واصبحت الصلة غامضة علينا .

(همبلت)

٦ ـ ان الصلة وثيقة بين اللفظ والمدلول في الكلمات التي هي من نوع الـ onomatopées . ولكن علينا ان نحذر من المغالاة في هذا الشأن .

(جسبرسن)

٧ ـ ربما كان هناك صلة بين اللفظ والشكل ، لانه ثبت بالتجربة ان الناس على اختلاف السنتهم ينسبون اصواتاً معينة الى اشكال معينة .

(فيرث)

٨ ـ من الحمق أن نحكم بوجود علاقة ضرورية بين الاصوات ومدلولاتها . أما الكلمات التي تعبر بأصواتها عن معانيها ، او تكون اصواتها أقدر من غيرها على التعبير عن معانيها فهي من القلة في اللغات، ومن الاختلاف والتباين باختلاف اللغات الانسانية بحيث لايصح ان نتخذ منها اساساً لظاهرة لغوية مطردة او شبيهة بالمطردة . انها مجرد الفاظ قليلة تصادف ان اشبهت أصواتها دلالاتها .

(دي سوسير ، وفندريس ، ومدفيغ وغيرهم)

٩ ـ ان الصلة بين اللفظ ودلالته واقعة ، ولكنها مكتسبة لاطبيعية ذاتية . ترمز اللغة لمعنى ما بمجموعة من الاصوات بطريقة اعتباطية ، ثم يحدث ان ترمز اللغة الى معنى آخر شبيه بالأول بمجموعة من الاصوات شبيهة بالمجموعة الأولى ، فيظن الناس ان هذه الاصوات ذات علاقة ذاتية طبيعية مع تلك المعاني .

(ابراهيم انيس)

وهكذا نرى ان المشكلة لا تزال بغير حل . إنها ، ككل المشكلات الانسانية الكبرى ، لا تقبل الحل النهائي ، انها حيرت عقول المفكرين منذ قرون سحيقة ، ولا تزال تحيرها حتى الآن ، وستظل تحيرها الى ما شاء الله . (١)

٢ ـ بين اللفظ والوجدان :

المشكلة هنا ليست مشكلة علاقة ذاتية طبيعية أو اعتباطية ، بل هي مشكلة مدى قدرة اللفظ على التعبير بدقة وامانة عن الوجدان . ويمكن توضيح ذلك بالسؤال الآتي : هل بامكان اللفظ ان يصور تصويراً دقيقاً أميناً وجدان المتكلم ؟ اذا قلت لصديقى : (أحب ولدي حباً جماً) فهل تكون هذه العبارة قد نقلت الى صديقي صورة صحيحة غير مشوهة عن حبي لولدي بكل أبعاده وألوانه ، أم لا ؟ وبعبارة أعم ، هل اللغة قادرة على تصوير الوجدان ، أم هي مشوهة له قاصرة عن نقله كما هو الى الآخرين ؟

---

١ ـ قارن مامر في هذا الفصل بالفصل الثالث من كتاب دلالة الالفاظ ص ٥٨ وما بعدها

هنا أيضاً اختلف المفكرون ، فدي بونالد يرى ان الفكر والكلمة جسم واحد . ولهذا لا يمكن ان يحصل فكر بدون ان تحدث لغة . ولا ان تحدث لغة لاتكون ذاتها فكراً(١) .

ويعبر الدكتور ابراهيم انيس عن هـذا الرأي بشكل أوضح حيث يقول(٢) : من المجازفة ان ننظر الى الالفاظ الآن على انها مجرد رموز ، فقـد ارتبطت بالفكر الانساني ارتباطاً وثيقاً ، واصبح من الصعب ان نتصور أي نوع من التفكير بغير هذه الالفاظ . فالانسان يفكر بوساطة هذه الالفـاظ ، والدلالة التي ليس لها لفظ لاوجود لهـا إلا في مخيلة بعض الفلاسفة . بل حـــتى مايسمى بالتفكير الصامت او التأمل لايؤدى الا بعملية نطقية يقوم بها المتأمل ، وان لم يسمعهـا أحد ممن حوله . فعضلات نطقه تقـــوم بنفس الحركات اللسانية التي يقوم بها في الـكلام المسموع . وقد برهنت التجارب الكثيرة على هذه الحقيقة العلمية ، فالمرء قد يشعر بارهاق في عضلات نطقه بعد سماعه لخطيب يخطب امامه لمـــدة طويـــلة ، وذلك لان عضلات نطق السامع تتحرك حركات خافتة تشبه ماتقوم به عضلات نطق الخطيب تمام الشبه .

« بل لقد لوحظ ان لاعب البيانو حين يستمع لعزف غـيره مـدة طويلة ، قد يشعر بعدها بتعب في أنامله او اصابعه ، فـكأنمـا قد مارس هو العزف بنفسه .

« وليس يعترض على هـذا بأن يقال ان الذي يولد أصم يدرك الاشيـاء والحـوادث دون ان يكون له اي نصيب من تلك الالفـاظ

---

١ الحاج : فلسفة اللغة . ص ٢٧
٢ ـ دلالة الالفاظ . ص ٦٨ ـ ٦٩

اللغوية ؛ وذلك لان ادراك الاصم مولدا أدنى كثيراً من ادراك السامع ، فادراكه للامور ادراك ناقص ، ومع هذا لايتم له هـذا الادراك الناقص الا عن طريق رموز اخرى تحل محل الرموز الصوتية كالاشارة ونحوها . بل ان مشاهد السينما الصامتة لم يكن يستطيع ادراك مايراه إلا بعـــد ترجمته في ذهنه الى الفاظ يعرف دلالتهـا . ولو عرض عليه من الاشياء او الحوادث مالايستطيع ترجمته الى الالفـاظ ، لمرت بذهنه مروراً عابراً غامضاً لايترك اثراً ، ولايبعث على تفكير او رغبة في مشاهدتها » .

لكن آخرين يرون غير هذا ، يرون ان اللغـــة قاصرة عن تصوير مواجيد النفس كما هي في النفس ، وان الالفاظ لاتترجم العالم الداخلي الا ترجمة ناقصة مشوهة .

واكثر القائلين بهذا الرأي هم من الادباء ، اولئك الذين مارسوا فن التعبير عن الوجدان فوجدوا اللغة في اكـثر الاحايـين اداة ناقصة لاتمكنهم من التعبير عن كل مكنوناتهم . ويستطيع القارىء ان يتذكـــر الآن كثيراً من الشكايات التي بدرت من الادباء ، والتي انصبت كلها على اللغة وقصورها وعجزها عـــن استيعاب كل ما في النفس من عواطف وافكار . من ذلك قول ميخائيل نعيمة في الغربال(١) : الفكر كائن قبل اللغة ، والعاطفة قبل الفكر . فهـو الجوهـر وهي القشور . ومن تمس البشرية ان تفقد مقـدرة قراءة الافـكار والعواطف كما تنبت وتنمـو في الارواح ، لا كما ينطق بهـا اللسان ، وان تراها في حاجة الى اشارات وعلامات مختلفة تصطلح عليهـا رموزاً لافـكارها وعواطفها ، لان تلك الاشارات والعلامات ، مهـما دقت ، ليست لتأتي الا بأشباح ضئيلة مبهمة

---

١ ـ ص ١٠٢

من عالم الفكر المطلق والعاطفة الحرة . ولم تعرف الانسانية بعد في كل تاريخها من تيسر له ان يسكب كل فكره ، او يجسم كل عاطفته ، في كلام أوخطوط او الوان او الحان . لذلك فهي أبداً تقرأ بين السطور . وما تقرؤه بين السطور هو أفصح وابلغ واعمق وأوسع مما تقرؤه في السطور . وذلك لانها تدرك بالفطرة أنه يستحيل على بشري كائناً من كان - شاعراً ام كاتباً ، رساماً ام نحاتاً ، مهندساً ام ملحناً - تأدية فكر او عاطفة بكل مافيها من تجعد و تلون » .

وليست هذه الشكوى قاصرة على كتاب العربية فقط ، بل هي عامة عند كل الكتاب في كل الالسن ، فهذا لامارتين على الرغم من تمكنه من قياد البيان نراه لايفتأ يردد الشكوى من قصور اللغة عن اداء ما في النفس من وجدان . يقول في كتابه (روفائيل)[1] : ابداً لاينقطع تدفق نفسي ولايبرد . فلو ان السماء كانت صحيفة ، ارادني الله على ان ارقم فوقها حبي ، لما وسعت هذه الصحيفة كل ما اردده في نفسي ، وما أريد ان اقوله ! لقد كنت افرغ من تمنمة الصحائف الاربع ، وكأني لم أقل شيئاً . والحق اني لم اقل شيئاً . ان الاحاطة باللانهاية ، والتعبير عنها ، محال باطل ... لقد كنت اجاهد بلا امل فقر هذه اللغة وجمودها وبرودها ، لاني مضطر الى استعمالها مادمت لااعرف لغة السماء . لقد كانت الجهود الخارقة التي بذلتها في اخضاعها ، وتليينها وبسطها ، ولها ، وتلوينها ... كل هذه الجهود مكنت لهذا القلم الكسير ان يجد احياناً الكلمة ، او الحيلة ، او العبارة ، او الصرخة التي يبحث

---

١ - ترجمة الزيات . ص ٢١١ ومابعدها

عنها ليظهر الخفي ، ويبرز العقلي ، ويصور المستحيل . لذلك اتـذكر اني كنت كلما فرغت من رسالة أنهض من كرسيي كأنّي خارج من معركة شعواء ، خصومي فيهـا الكلمات ، واليراعـة ، والطرس ، فأفتح الشباك واعـرض وجهي لنسيم الشتاء البارد كي يجفف ماارفض عليه من عرق » .

ويقول فولتير : « تعجز اللغة - اي لغـة - عن التعبير الـكامل عن آرائنا ومشاعرنا ، فالفروق بينهـا كثيرة لاتـكاد تلمس ، فتضطرنا اللغة مثلاً ان نعبر بلفظ الحب او البغض عـن آلاف من ضروب الحب والبغض كلها مختلفة . وكذلك الحال في موضع آلامنا وملاذنا »[1] .

على ان اكبر هجوم شنه مفكر على اللغة كان هجوم برغسون الفيلسوف الفرنسي المعروف ، فقد اتهمها بالقصور ، وشنع عليها تشنيعاً لم يأته احـد من قبله ولا من بعـده ، حـــتى نودي به فيلسوفاً للمدرسة الارهابية ضد اللغة .

يرى برغسون ان اللغة (مركّب) ، وان الوجدان (بسيط) ، ولهذا فمن غير الممكن (للمركب) ان يصور (البسيط) بامانة ودقة . ويرى ايضاً ان الوجدان سيلان (متصل) ، وأن اللغة الفاظ (منفصلة) بينهـا فرج وفضاءات ، واذن فليس بمقدور (المنفصل) ان يعبر عـــن (المتصل) . وايضاً فان الوجدان (كيف) ، واللغة (كم) ، واذن فليس بالمستطاع التعبير عن الكيف بالـكم . واخيراً فان الحالات الوجدانية لاتعود ثانية الى الوجـود ، مـتى عـــبرت صارت ماضياً ، فعـالم الباطن

١ ــ عن كتاب فقه اللغة لمحمد المبارك ص ٢٠٤

لايرتكس الى الوراء . ان الحب الذي احس به اليوم هو غير الحب الذي احسست به البارحة ، ومع ذلك لاتملك اللغة الا كلمة واحدة هي كلمة (حب) تقدمها لي لأعبر بها عن حالتين مختلفتين كل الاختلاف . يقول في كتابه (رسالة في معطيات الوجدان البديهية) : نعبر عن انفسنا اضطراراً بالفاظ ، ونفكر في الاغلب تفكيراً فضائياً . وبعبارة اخري : ان اللغة ترغمنا على ان نجعل بين افكارنا الشقوق عينها ، والفوارق الجلية الدقيقة ذاتها التي نقيمها بين الاشياء المادية »[1] ويقول في كتابه (الضحك) : ان الكلمة غير مصقولة ، تختزن من انطباعات البشر كل ما هو ثابت ومشترك ، اي غير شخصي . وتسحق او تغطي على الاقل ، الانطباعات الدقيقة والعابرة من وجداننا الفكري ... ان الالفاظ – عدا الاعلام – تدل كلها على انواع . والكلمة ، وهي لاتسجل من الشيء المسمى الا وظيفته الاكثر اشتراكاً ، ووجهه المبتذل ، تندس بينه وبيننا ... وليست الاشياء الخارجية وحدها هي التي تفلت منا بل حالاتنا النفسية الخاصة بنا في أخص مافيها واكثره شخصية ، ومانحياه حياة ابداع . فنحن لانلتقط من مشاعرنا الا جانبها غير الشخصي ، ذلك الذي استطاعت اللغة تسجيله لمرة واحدة نهائية لانه واحد بالنسبة الى جميع الناس في الاحوال نفسها »[2] .

---

١ – عن كتاب فلسفة اللغة للحاج ص ٤١
٢ – عن كتاب فقة اللغة للمبارك ص ٢٠٤

الاشتراك والترادف

لو كان منطق اللغة كمنطق العقل لوجب الا يكون للفظ الواحد سوى معنى واحد ، وألا يكون للمعنى الواحد سوى لفظ واحد ايضاً . ولكن اللغة ، كما رأينا في كثير من جوانبها ، لها منطق خاص يبدو في اكثر الاحيان على جانب كبير من الغرابة . ويظهر ذلك واضحاً في مجال الالفاظ ودلالاتها حيث تحمل للفظ الواحد اكثر من معنى ، وللمعنى الواحد اكثر من لفظ . ويستطيع القارىء ان ينتزع من ذاكرته أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة العجيبة . خذ مثلاً كلمة (العين) ، وتذكر معي انها تدل على العين الباصرة ، وعلى الجاسوس ، وعلى الذات ، وعلى منبع الماء ، وعلى اشياء أخرى . ثم خذ مثلاً كلمات (معلم ـ مدرس ـ استاذ ـ مربٍ ـ مؤدب) وتذكر معي انها جميعاً تدل على شيء واحد . فاذا اشتركت المعاني المتعددة في لفظ واحد سمي ذلك اشتراكاً ، واذا تعددت الكلمات المعنى الواحد سمي ذلك ترادفاً ، واليك الكلام على كلٍ :

١ ـ الاشتراك :

قلنا ان الاشتراك هو ان تتعدد المعاني للفظ الواحد . ويسمى اللفظ

الذي تعددت معانيه بالمشترك . والسؤال الآن : لماذا يقع الاشتراك في اللغة ؟

يجيب الاستاذ محمد المبارك عن ذلك بقوله[٢] : ان اكثر الاصول التي تشتق منها الالفاظ للدلالة على معانٍ جديدة ذات معانٍ عامة ؛ لذلك فقد تستعمل الدلالة على مسميات مختلفة تشترك في تلك الصفة أو ذلك المعنى العام . فكلمة (دليل) يقصد بها من يدل على الطريق او من يطوف مع السائحين في عصرنا ليدلهم على الاماكن الجديرة بالزيارة ، ويراد بها الكتاب الذي تطبعه دوائر السياحة في كل بلد لدلالة الغريب على معالمه وآثاره ، ويقصد بها كذلك الحجة المنطقية والبرهان ، لان جميع هذه المسميات ينطبق عليها كونها دالة لقاصدها وان كانت هي في ذاتها مختلفة » .

لكن هذا الجواب غير كاف ، فكثير من المشترك ليس فيه عمومية في الدلالة ، ومع ذلك يقصد به أمور متعددة ، بل يقصد به اشياء شديدة الاختلاف ليس بينها رابط ، مثل كلمة (الخال) التي يقصد بها أخو الام ، والشامة في الوجه ، والاكمة الصغيرة ، ومثل كلمة (الارض) التي تعني الكرة الارضية ، كما تعني الزكام .

اكثر العلماء يعللون وجود المشترك في اللغة بالاستعارة والمجاز . فعند هؤلاء ان اللفظ الواحد لم يكن له غير معنى واحد على سبيل الحقيقة ، ثم تضمن معاني أخرى على سبيل الاستعارة والمجاز ، فكلمة (العين لم يكن يقصد بها غير العين الباصرة ، ثم استعملت لمنبع الماء

١ ــ فقه اللغة ص ١٩٨

تشبيهاً له بتلك على سبيل الاستعارة ، ثم اطلقت على الذات وعلى الجاسوس من باب اطلاق الجزء وارادة الكل .

والواقع ان هناك اسباباً كثيرة لوجود المشترك في اللغة ، منها العمومية التي ذكرها الاستاذ مبارك والتي تسمح للغة باطلاق الكلمة الواحدة على اشياء متعددة تشترك كلها في صفة واحدة ، ومنها الاستعارة والمجاز اللذان قال بهما اكثر العلماء ، ومنها امور تعود الى تطور الدلالة بتطور المدلول ، فمن هذا مثلاً كلمة (ريشة) التي تطلق على كل من ريشة الطائر ، وريشة الكتابة . فهذه الكلمة لم يكن لها غير معنى واحد هو ريشة الطائر سواء اكانت على جسم الطائر ام كانت منتزعة منه لاستعمالها في الكتابة ، ثم ان الناس استعاضوا عن ريشة الطائر في الكتابة بآلة معدنية اخترعوها لهذه الغاية ، ولكن كلمة (ريشة) ظلت تطلق على آلة الكتابة أياً كان نوعها ، وهكذا اصبح للكلمة معنيان : ريشة الطائر ، والآلة المعدنية المستعملة في الكتابة .

هذا ، والعلماء مختلفون في امر المشترك توسيعاً وتضييقاً : فالدكتور ابراهيم انيس لايسلم بالمشترك الا اذا دلت النصوص على ان اللفظ الواحد يعبر عن معنيين متباينين كل التباين . « اما اذا اتضح ان أحد المعنيين هو الاصل ، وان الآخر مجاز له ، فلا يصح ان يعد مثل هذا من المشترك اللفظي في حقيقة امره .

ويقول : « لقد كان ابن درستويه محقاً حين انكر معظم تلك الالفاظ التي عدت من المشترك اللفظي ، واعتبرها من المجاز . فكلمة (الهلال) حين تعبر عن هلال السماء ، وعن حديدة الصيد التي تشبه في

شكلها الهلال ، وعن قلامة الظفر التي تشبه في شكلها الهـلال ، وعـن هلال النعل الذي يشبه في شكله الهـلال[1] ، لايصح اذاً ان تعـد من المشترك اللفظي ، لان المعنى واحد في كل هذا ، وقـد لعب المجاز دوره في كل هذه الاستعمالات ، ذلك لان المشترك اللفظي الحقيقي انمـا يكون حين لانلمح اي صلة بين المعنيين ، كأن يقال لنـــا مثلاً ان الارض هي الكرة الارضية ، وهي ايضاً الزكام ، وكأن يقال لنا إن الخال هو أخو الام ، وهو الشامة في الوجه ، وهو الاكمة الصغيرة . ومثل هـــذه الالفاظ التي يختلف فيها المعنى اختلافاً بيناً قليلة جداً ، بل نادرة ولاتكاد تجاوز اصابع اليد عداً »[2] .

اما فندريس فانه يرى ان المجـاز وان كان هـو السبب في خلق جزء كبير من المشترك اللفظي في اللغة ، الا انه سريعاً ماينسى ، ويصبح المعنى الجديد الذي دخل اللفظ عن طريق المجاز لايقل في حقيقيته عن المعنى الاول الذي كان له . ونحن اذا اردنا ان نحـدد معـنى الكلمة أو معـانيها فعلينـا ان ننظـر الى استعمالاتهـا كما هي اليـوم ، لا الى تاريخها . يقول[3] :

« في التسليم بان للكلـمات معـنى اساسياً [حقيقياً] ومعاني ثانوية [مجازية] صادرة عن الاول اثارة لمسألة وجهة النظر التاريخية . ووجهة النظر التاريخية تلك لاقيمة لها هنا . ربما رأى الشخص الذي يشمل اللغة

---

١ ــ انظر المزهر ج١ ص ٢١٩
٢ ــ دلالة الالفاظ . ص ٢٠٩ ــ ٢١٠
٣ ــ اللغة . ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩

باسرها في تطورها واتساعها بنظرة واحدة ان الريشة التي من حديد جاءت من ريشة الاوزة ، فهي عنده كلمة واحدة اخذت دلالتين مختلفتين على مرور الزمن . لذلك يجدر بقاموس يفخر بتتبعه لخط سير المعاني ان يضع تحت كلمة ريشة ، معنى الريشة التي من « حديد » بعد معنى ريشة « الاوزة » . ولكن الفرنسي الذي يتكلم لغته اليوم ، لايرى في هذين الاستعمالين في الواقع الا كلمتين مختلفتين ، ولايوجد شخص واحد يحاول ان يشكو من الغموض عند سماعه جملتين من قبيل « يعيش من كد ريشته » و « اجتث له ريشة » . وكل واحد يفهم دون تردد ان الكلام في الجملة الاولى عن احد الكتاب ، وفي الثانية عن احد الطيور فالكلمتان مختلفتان كجميع المشتركات الاخرى ...

« قد يعترض معترض فيقول : بانه قد مرت لحظة كان يحس خلالها بأن كلمة ريشة استعارة . ولكن هذه اللحظة لم تطل ، فأية كلمة في اللغة الجارية ليس لها الا معنى واحد في الوقت الواحد . اذ لما كانت ريشة الاوزة تستعمل في الكتابة ، كان الذي قال : « آخذ ريشتي لأكتب كلمة » قد استعمل كلمة ريشة بمعنى اداة الكتابة ، ولم يقصد استعمال استعارة ؛ وسامعه لم يقدر هذا التقدير . الاستعارة تشبيه مختزل ؛ تقديرها يحتاج الى مجهود يستطيع الانسان ان يسلم به لمؤلف يقرؤه عندما يتوفر له الوقت ، ولكنه في المحادثة لايملك الوقت الكافي لهذا العمل » .

يمكننا الآن ان نتساءل : اذا كان للكلمة التي هي من نوع

المشترك اللفظي اكثر من معـــنى واحـد ، فكيف يتهيأ لنا ان نفهم المقصود منها ؟

يجيب لروا عن ذلك بان الكلمة المشتركة ليس لها في الوقت الواحد غير معنى واحد هو الذي نفهمه منهـا ، « واننا حينما نقول بأن لاحدى الكلمات اكثر من معنى واحد في وقت واحـــد نكون ضحايا الانخداع الى حـد ما . اذ لايطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تـدل عليهـا إحدى الكلمات إلا المعـــنى الذي يعنيه سياق النص »[1] « اما المعـاني الاخرى جميعها فتمحي وتتبدد ولاتوجد اطلاقاً . فنحن في الحقيقة نستعمل ثلاثة أفعال مختلفة عندما نقول « الخياط يقص الثوب » أو « الخبر الذي يقصه الغلام صحيـح » أو « البدوي خير من يقص الاثر »[2] .

« الذي يعين قيمة الكلمة اذن انما هو السياق . اذ ان الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديـــداً مؤقتاً . والسياق هو الذي يفرض قيمة واحـــدة بعينهـا على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها ان تدل عليها ، والسياق ايضاً هـــو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعهـا الذاكرة تتراكم عليها ، وهو الذي يخلق لها قيمة « حضورية » ولكن الكلمة بكل المعاني الكامنة

---

١ ـ عن المرجع نفسه ص ٢٢٨

٢ ـ المرجع نفسه ص ٢٢٨

توجد في الذهن مستقلة عن جميع الاستعمالات التي تستعمل فيها مستعدة للخروج والتشكل بحسب الظروف التي تدعوها »[١] .

٢ ـ التضاد :

يرى بعضهم ان التضاد ليس الا نوعاً من الاشتراك[٢] ، اذ هو اشتراك المعنيين المتضادين في اللفظ الواحد ، كاشتراك الابيض والاسود في لفظ (الجون) ، والحيض والطهر في لفظ (القرء) ، والقوي والضعيف في لفظ (المقوى) ، والكبير والصغير في لفظ (الجلل) . والرغبة والخوف في لفظ (الرجاء) ، وهلم جراً .

ويرى آخرون ممن لايسلمون بالمشترك الا اذا دل على معنيين لارابط بينهما ـ يرى هؤلاء ان التضاد ليس نوعاً من الاشتراك ، لان المتضادين تجمع بينهما صلة من نوع ما ، فالجامع بين الاسود والابيض أن كلاً منهما لون ، والجامع بين الكبير والصغير ان كلاً منهما حجم ... وهكذا . ولولا هذه الصلة لما كان المتضادان ضدين ، اذ ان الضدين شيئان اشتركا في صفة واختلفا في مقدارها .

ويحدثنا ابن فارس في كتابه (الصاحبي)[٣] أن ناساً انكروا هذا

١ ـ المرجع نفسه ص ٢٣١ ـ ٢٣٢

٢ ـ انظر المبارك : فقه اللغة ص ١٩٨ ، والسيوطي : المزهر ج١ ص ٢٢٨ .

٣ ـ ص ٦٦

المذهب ، وان تأتي العرب باسم واحـد لشيء وضده . وحجة هؤلاء ان ان شرط اللغة الافهام ، وان اطلاق الاسم على الشيء وضده يوقـــع في اللبس والابهام ، وهـذا يتنافى مـع شرط اللغة المذكور ، أما ماورد من الاضداد فيفسرونه على انه من تداخل اللغات ، مثل كلمة (وثب) التي ليس لها غير معنى (قفز) في العربية الشمالية ،وغير معنى (جلس) في العربية الجنوبية . وعلى هذا يقولون : ان كلمة (جون) كانت لاتعني غير (الابيض) في لغة قبيلة ، ولا تعني غير (الاسود) في لغـــة قبيلة أخرى ، فلما جمع العلماء اللغة لم يفرقوا بين لغات القبائل فتوهموا ان لكلمة (جون) معنيين متضادين[1] .

على ان التضاد أمر مسلم به في جميع اللغات ، سواء في ذلك العربية والفرنسية وغيرها . وهذا مايحملنا على ان نتساءل : كيف يتأتى للغة ان تطلق اللفظ الواحد على الشيئين المتضادين ؟

يقول بعض العلمـاء : إنه لما كان يوجد دائماً بين كل ضدين صفة مشتركة فان احد الضدين اذا ذكر دعا ضده الى المثول في الذهن معه . وهذا مايسمى بتداعي الالفاظ الذي يقضي بالتلازم في الذهن بين كل من الليل والنهار ، والكبير والصغير ، والارض والسماء ، والابيض والاسود ... وهلم جراً . وعلى هـذا فانـه من السهل ان يـنزلق اسم احـــد الضدين الى الضد الآخر ليعبر عنه ، فيصبـح اللفظ بذلك من الاضداد .

غير ان هذا لايفسر كل ماجاء من الاضداد في الالسن المختلفة ،

---

١ ـ انظر المزهر . ج ١ ص ٢٣٧

ويبدو انه من الضروري ألا نهمل الناحية النفسية في الموضوع ، فنحن كثيراً مانعبر عن الشيء باسم ضده زيادة في تقوية التعبيرية ، واثارة لاهتمام السامع . ألا ترانا اذا اعجبنا بشخص قلنا عنه « ابن كلب - شيطان - ملعون - قرد اشمط ... الخ » ؟ واذا استحسنا شيئاً قلنا عنه انه « فظيع » ؟ وقد حدثنا التاريخ ان احد خلفاء العرب في الاندلس سمى احدى جواريه (قبيحة) لشدة حسنها وجمالها . ولعل من هذا القبيل ماذكره علماء البلاغة مما سموه بالمدح في معرض الذم كما في قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

بهذا نستطيع أن نفسر كثيراً من الاضداد ، ولاسيما تلك التي تعبر عن صفات لها في نفس المتكلم اهتمام خاص .

ويجب ألا ننسى ان تبدلات المعنى كثيراً ماتنتهي باللفظ الى ان يعبر عن عكس ما كان يعبر عنه من قبل . ويحدث في بعض هذه الحالات ان يحتفظ اللفظ بالدلالتين القديمة والحديثة فيصير من الاضداد . ولنا على ذلك مثالان جيدان أحدهما من العربية والثاني من الفرنسية :

فكلمة (استُهتر) تدل على معنى (أحب) ، كما تدل عند بعضهم اليوم على معنى (استهان) . وتعليل ذلك أن هذه الكلمة كانت لاتقال الا اذا أحب انسان شيئاً او شخصاً حباً لايبالي معه مما يقوله الناس عنه ، فكانوا اذا قالوا « استهتر زيد بالسفر » عنوا أن زيداً مولع بالسفر ولوعاً شديداً يجعله لايبالي مايقوله الناس عنه في هذا الشان ،

ثم انتقل معنى عدم المبالاة هذا من قول الناس الى المحبوب ذاته ، فصرنا اذا قلنا اليوم « استهتر سعيد بالسفر » نفهم من ذلك انـه لايبالي السفر ولا يهتم له .

قد يقال : لكن معنى الاستهانة قد دخل لفظ (استهتر) عن طريق الوهم أو الخطأ ، أو قد يقال : إن المعنيين لكلمة (استهتر) ليسا لها في وقت واحد ، وان احدهما كان لها في زمن ، وكان الثاني لها في زمن آخر ، وهذا من قبيل التبدل في المعنى ، وليس ممـا نحن فيـه من الاضداد ، لان الاضداد لها معان متضادة في عصر واحد .

فمن القول الاول نجيب بأن الوهم هو أحد أهم الاسباب لكثير من التطورات اللغوية ، وما اكثر الاخطاء التي فرضت نفسها وسلم بها حتى المتزمتون من اللغويين . وأما عن القول الثاني فأقول إن بعض الكتاب اليوم يستعمل كلمة (استهتر) للمعنيين معاً ، واذكر اني قرأت مرة كتاباً استعمل فيه صاحبه كلمة (استهتر) للمعنيين كليهما في صفحة واحدة . ومن المؤسف ان الذاكرة لاتسعفني لذكر اسم هذا الكتاب .

واما المثال الفرنسي فيذكره لنا (موريس شون) في كتابه (حياة الكلمات وموتها) حيث يقول ماملخصه(١) :

يؤكد علماء الاصوات اللغوية ان الكلمة الفرنسية (tuer = قتل) هي من الكلمة اللاتينية (tutari) التي معناها (حفظ وصان) . لكن

---

١ ـ Vie et mort des mots , P.P , 15 - 16

علماء الدلالة يحتجون قائلين : كيف يمكن لكلمة تعني (حفظ) ان تأخذ معنى (أمات) ؟ وظل الامر محل أخذ ورد حتى جاء الجواب من أحد علماء اللغة : فقد حدث لهذا العالم انه زار في عطلة له إحدى تلك المقاطعات الفرنسية القديمة حيث لازال يحتفظ الناس بقدر كبير من الكلمات القديمة والاستعمالات القديمة للكلمات ، فمع ربة المنزل تقول ذات مساء « je vais tuer le feu » = « سأقتل النار » فراقبها لترى ماتفعل ، فوجدها تغطي مابقي من الجمرات في الموقد بالرماد ، وهي تقول : « غداً صباحاً ، سأكون لاأزال أملك جمرة حمراء تحت الرماد ، وقليل من الحطب مع بضع نفخات كافية لتعيد ناري إلى اشتعالها الاول » وهنا فكر العالم اللغوي قائلاً في نفسه : إن (tuer) معناها حفظ كما جاء على لسان ربة المنزل هذه ، لكن (حفظ النار) ادت الى معنى (ستر الجمر) ، وهذه انتهت الى معنى (خنق الجمر) ، وهذه الى معنى (خنق وأمات) . وهكذا تصبح كلمة (tuer) عند هذه الفرنسية من الاضداد اذ هي تعني قتل وحفظ .

٣ ـ الترادف :

هو دلالة الالفاظ المختلفة على المعنى الواحد ، مثل : المسكن والمنزل والدار والبيت ، ومثل : ذهب ومضى وانطلق وغدا ... الخ .

والترادف أمر معروف في كل الالسن ، إلا أنه في العربية اكثر منه في غيرها ، لذلك عده بعضهم من أبرز خصائصها . ويبدو ذلك معقولاً اذا تذكرنا ان من علماء العربية من وضع كتباً مخصوصة لأسماء شيء واحد ، فقد ألف ابن خالويه كتاباً في أسماء الاسد ، وكتاباً آخر في اسماء

الحية[1] . كما ألف العلامة مجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس كتاباً سماه « الروض المسلوف فيما له اسمان الى ألوف »[2] وكتاباً آخر سماه « ترقيق الاسل لتصفيق العسل » ذكر فيه للعسل ثمانين اسماً ، ومع ذلك لم يستوفها كلها ، كما يقول السيوطي ، بل فاته منها اثنان ، اولهما الصرخدي الذي ذكره القالي في أماليه ، والثاني السمابيب الذي ذكره الزجاج في أماليه أيضاً[3] .

وكما اختلف العلماء في امر المشترك اللفظي ، فكذلك اختلفوا في أمر الترادف ، فقد أنكره بعضهم ، وأثبته آخرون . ويمكن الاطلاع على دعوى كل من الفريقين وحججه مما ورد في (الصاحبي) لابن فارس حيث يقول في هذا الصدد :

« ويسمى الشيء الواحد بالاسماء المختلفة ، نحو : السيف والمهند والحسام » .

« والذي نقوله في هذا أن الاسم واحد ، وهو (السيف) ومابعده من الالقاب صفات . ومذهبنا ان كل صفة منها فمعناها غير معنى الاخري .

« وقد خالف في ذلك قوم ، فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها ، فانها ترجع الى معنى واحد . وذلك قولنا : سيف وعضب

---

١ ـ المزهر . ج١ ص ٢٤٢
٢ ـ المرجع نفسه ج١ ص ٢٤١
٣ ـ المرجع نفسه ج١ ص ٢٤٢

وحسام .

« وقال آخرون : ليس منها اسم ولاصفة إلا ومعناه غـــير معنى الآخر . قالوا : وكذلك الافعال ، نحـو : مضى وذهب وانطلق ، وقعـد وجلس ، ورقد ونام وهجع . قالوا : ففي « قعد » معنى ليس في «جلس» وكذلك القول فيما سواه .

« وبهـــذا نقول ، وهو مذهب شيخنا أبي العبـاس أحمد بن يحيى ثعلب .

« واحتج أصحاب المقالة بأنه : لو كان لـكل لفظة معنى غـير معنى الاخرى لمـا أمكن ان يعبر عن شيء بغير عبارته . وذلك أنا نقول في « لاريب فيه » : « لاشك فيه » ، فلو كان « الريب » غير « الشك » لـكانت العبارة عن معـــنى الريب بالشك خطأ . فلما عبر عن هذا بهذا علم ان المعنى واحد .

« قالوا : وانما يأتي الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد تأكيداً ومبالغة ، كقولهم :

وهند أتى من دونها النأيُ والبُعْدُ[1]

« فقالوا : فالنأي هو البعد . قالوا : وكذلك قول الآخر : ان الحبس هو الأَسْرُ .

« ونحن نقول : ان في (قعد) معنى ليس في (جلس) . ألا

---

١ ــ البيت للحطيئة . وصدره : ألا حبذا هند وارض بها هند .

ترى انا نقول : (قام ثم قعد) و (أخذ المُقيم والمُقعِدُ) و (قعدت المرأة عن الحيض) ، ونقول لناس من الخوارج (قعَد) ثم نقول : (كان مضطجعاً فجلس) فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس ، لان (الجَلْسَ : المرتفع) . فالجلوس ارتفاع عما هو دونه . وعلى هذا يجري الباب كله .

« واما قولهم : ان المعنيين لو اختلفا لما جاز ان يعبر عن الشيء بالشيء . فانا نقول : إنما عبر عنه من طريق المشاكلة ، ولسنا نقول ان اللفظتين مختلفتان ، فيلزمنا ماقالوه ، وانما نقول ان في كل واحدة منهما معنى ليس في الاخرى »(١) .

ويظهر أن إنكار الترادف ، والقول بالتباين كان مذهب أبي علي الفارسي أيضاً . فقد نقل السيوطي عن العلامة عز الدين بن جماعة ان الشيخ القاضي أبا بكر بن العربي قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه . فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم ابو علي ، وقال : ماأحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف . قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات . وكأن الشيخ لايفرق بين الاسم والصفة »(٢)

وعلى الرغم مما في قول أبي علي وابن فارس من جانب من الحق

---

١ ــ الصاحبي . ص ٦٥ ــ ٦٦
٢ ــ المزهر . ج١ ص ٢٤٠

لايمكن دحضه ، فان إنكار الترادف إنكاراً تاماً مذهب لاتؤيده النصوص والشواهد الكثيرة ، فالترادف شيء ثابت في العربية كما هو ثابت في غيرها من الالسن ، ومحاولة المنكرين إيجاد فروق بين المترادفات هي محاولة مخفقة يبدو عليها التكلف والتعسف ، وذلك كتفريقهم بين الصمم والطرش والصلخ وبين الانسان والبشر ، وبين الخندريس والعقار ... الخ(١) .

وأما ماعناه أبو علي بالصفات فان بعضه وإن كان قد لحظ فيه معنى الصفة أول الامر ، إلا انه ، بكثرة الاستعمال ، نقل من الوصفية إلى الاسمية ، وأصبح لايعني اكثر مما يعني الاسم الصريح للذات . وقد تنبه الى ذلك بعض المتأخرين واقترح ان تسمى (بالمتكافئة) الالفاظ التي كانت صفات في أصل وضعها ، ثم صارت مساوية لاسم الذات في دلالتها على الذات ، مثل : الغفور ، والرحيم ، والقدير التي يفهم منها ذات الله سبحانه وتعالى(٢) .

هذا ، ويقترح الكيا في تعليقه في الاصول تقسيماً غريباً للترادف تكون الالفاظ فيه على نوعين : متواردة . ومترادفة . فالمتواردة كما تسمى الخمر عقاراً وصهباء وقهوة ، والسبع اسداً وليثاً وضرغاماً ، والمترادفة هي التي يقام لفظ مقام لفظ لمعان متقاربة يجمعها معنى واحد ، كما يقال : أصلح الفاسد ، ولمّ الشعث ، ورتق الفتق وشعب الصدع . (٣)

وظاهر كلام الكيا أنه يعني بالتوارد دلالة الالفاظ المختلفة على الذات الواحدة ، وأنه يعني بالترادف دلالة العبارات المختلفة على المعاني المتقاربة .

---

١ ـ انظر المزهر . ج١ ص ٢٣٩ ، ودلالة الالفاظ . ص ٢١٢ ـ ٢١٣

٢ ـ انظر المزهر . ج١ ص ٢٤٠

٣ ـ المرجع نفسه . ج١ ص ٢٤١

وعلى كل حال ، فان للترادف في اللغة سببين : أحدهما ان يكون من واضعين ، وهو الاكثر ، وذلك بأن تضع إحدى القبيلتين احـــد الاسمين ،وتضع الاخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد ، من غير ان تشعر إحداهما بالاخرى ، ثم يشتهر الوضعان ويخفي الواضعان ، او يلتبس وضع احدهما بوضع الآخر .[1] ومن هذا القبيل مايكون من الترادف بين الفاظ عدة لمسمى واحد ، يكون بعضها اصيلاً ، والبعض الآخر دخيلاً ، وهذا كثير في العربية ، كالدلفين والبال ، والدخس والحوت ، فالاولان دخيلان من الرومية ، والثانيان عربيان اصيلان ؛ واما السبب الثاني فهو ان يلحظ في المسمى الواحد صفات متعددة ، فيشتق له اسماء تشير الى صفاته ، ثم تصبح هذه الصفات كأنها اسماء له ، مثل : الدار والمسكن والمـــنزل والمأوى ... الخ .

---

١ ـ المرجع نفسه . ج١ ص ٢٤١

تبدلات المفردات

مما لاحظه علماء اللغة ، حـــتى القدماء منهم ، أن مفردات اللغة لاتثبت على حال واحدة ، بل هي في تبدل وتغير مستمرين ، اذ كثيراً ما تهمل بعض الالفاظ لتتوارى عن الاستعمال ، وتقبع في بطون المعاجم على انها من الغريب ، كما ان بعضها الآخر يظهر بعد خفاء ، ويلتمع نجمه بعد خفوت . بل كثيراً مايحدث أن الفاظاً تموت نهائياً لعدم الحاجة اليها ، وان الفاظاً اخرى تخلق من العدم لان الحاجة دعت الى خلقها . ويمكن التثبت من ذلك بمقارنة سريعة لما نستعمله اليوم من الفاظ العربية الفصحى بما في بطون المعاجم الضخمة القديمة من هذه الالفاظ . ويجب ألا ندهش اذا تبين لنا ان آلافاً من الكلمات قد ماتت فلم تعد مسموعة على الشفاه ، ولاسيما تلك التي تتعلق بمسميات من البيئة البدوية الصحراوية مما ليس له وجود في حياتنا المعاصرة ، مثل اوصاف الابل والخيل ، واسماء النباتات والحيوانات الصحراوية المختلفة ، كما يجب الا ندهش اذا رأينا ان هـذه المعاجم تخلو من آلاف من الكلمات الجديدة التي استحدثناها للتعبير عن المخترعات والافكار الحديثة ، مثل الطيارة والباخرة والدبابـــة والطراد والاشتراكية والديمقراطية وغيرها .

متن اللغة اذن مثل بحيرة نهرية : ترفدها دائماً مياه جديـدة ، كما تفقد دائماً بعضاً من مياهها التي كانت فيها ، وبعبارة اخرى : ان التطور

يصيب متن اللغة مثلما يصيب اصواتها ونحـوها . غير ان هناك فرقاً بـين التطور الذي يصيب الصوتيات والنحو ، وذلك الذي يصيب المفردات :

« فالنظام الصوتي يستقر منذ الطفولة ، ويستمر طول الحياة ؛ فالانسان يحتفظ حتى آخر حياته بمجموعة الحركات التي تعودت عليها اعضاؤه الصوتية منذ طفولته ، اللهم إلا ان يحدث له عارض ناتج من التعليم ، وذلك في حالة ان يتلقن نطقاً أجنبياً يحل محل النطق القومي . والنظام النحوي ثابت ايضاً . نعم ان استقراره يتطلب وقتاً اطول ؛ ولكنه بعد ان يستقر لا يعتريه تغير يذكر . ذلك بأن النحو لايتغير في اثناء جيل واحد ؛ بل هـو ، كالصوتيات ، انما يتغير في الانتقال من جيل الى جيل . فالنظام الصوتي والنظام النحوي اذا ماا كتُسبا مرة بقيا طول العمر ، ويدينان باستقرارهما الى استقرار ذهنية المتكلم .

« اما المفردات فعلى العكس من ذلك لاتستقر على حال ، لانهـا تتبـع الظروف . فـكل متكلم يكون مفرداته من اول حياته الى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به . فالانسان يزيـد من مفرداتـه ، ولكنه ينقص منها ايضاً ، ويغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول والخروج[1]

وهنا يعترضنا سؤالان لابد من الاجابة عنها :

اولهما : لماذا تبدل اللغة مفرداتها ؟

وثانيهما : ما وسائل اللغة في خلق مفرداتها الجديدة ؟

---

١ — فندريس : اللغة ص ٢٤٦ .

أسباب تبدل المفردات
ووسائل توليدها

ان الاسباب التي تحمل اللغة على تبديل مفرداتها معقدة جداً ، واحياناً تند عن كل بحث . ذلك لان حالات الكلمات جد غريبة ، تتوقف على عوارض يستحيل ان نتنبأ بها قبل وقوعها ، كما يستحيل ان نتخيلها بعد وقوعها اذا لم يمدنا التاريخ بما يدل عليها . ومع ذلك فهناك اسباب عامة لتجديد المفردات تستطيع ان تفسر الجزء الاعظم من حالاتها . ويمكننا ان نرد هذه الاسباب الى نوعين : اسباب فردية ترجع الى سيكولوجية المتكلم نفسه ، واسباب اجتماعية ترجع الى تقاليد المجتمع واعرافه .(١)

أ ـ الاسباب الفردية :

١ ـ يحدث لبعض الكلمات ان تصاب بعوارض صوتية تقصّر من طولها . وفي هذه الحالة يميل المتكلم الى التخلص منها ، والاستعاضة عنها

---

١ ـ انظر المرجع نفسه . ص ٢٧١ ـ ٢٧٢

بكلمات اكثر طولاً ، لان الكلمات القصيرة ينقصها التعبير غالباً . لهـــذا السبب لم يعـــد في الفرنسية ولا في أي لسان روماني آخر أثر للكلمة اللاتينية (os = فم) ، ولهـــذا السبب أيضاً أهملت العاميات العربية بعض الكلمات الفصحى التي لم تعد لشدة قصرها وافية بالغرض ، ولا كافية للتعبير عن المعنى الذي نيط بها التعبير عنه .

فمن ذلك (الباء) الجارة التي أهملها السوريون لشدة قصرها ، ولاسيا اذا كان مجـرورها ضميراً متصلاً ، واستعاضوا عنها بكلمـة (جوّاة) ، فقالوا : (جوّاة البيت) بدلاً من (بالبيت) ، و (جوّاتو) بدلاً من (به) . أما المتكلم المصري فالظاهر أن هذا القصر بالباء لايزعجه كثيراً ، لذلك احتفظ بها مع اطالة كسرتها في بعض الاحيان ، أو تضعيف مجرورها ان كان هذا المجرور ياء المتكلم ، فقال : (بيك) في (بك) ، و (بيّ) في (بي) . وانما فعل ذلك للتعويض عن القصر الشديد الذي تتميز به الباء .

ومن ذلك أيضاً كلمة (فو) التي استعاض عنها المصريون بكلمة (بقّ) - بالتشديد - ، وكلمة (حم) التي استعاض عنها الحلبيون بكلمة (عمّ) ، مع احتفاظهم بمؤنثها (حماة) ، لان هذه اطول من تلك بسبب وجود التاء المربوطة فيها .

ومع ذلك ، ينبغي الا نبالغ في اهمية هذا السبب الصوتي . اذ من النادر ان يستطيع وحده تفسير كل شيء في قضية هجر الكلمات القصيرة . فالكلمات التي هجرها الاستعمال لقصرهـا كانت تحتـوي أحياناً على دواعٍ أخرى لهذا الهجر . ثم ان اللغة نفسها كثيراً ماتقاوم ، فتعوض عن

البلى الصوتي الذي يعتري بعض الكلمات بأمور متنوعة في محاولة للاحتفاظ بهذه الكلمات : فقد تضيف الى الكلمات القصيرة عناصر صوتيـة تزيد من طولها ، وهذا ما فعلته العاميات العربية حين شددت الكلمات (يدّ ، أخّ ، أبّ ، دمّ) ، وما فعلته اللبنانية حين أضافت نون الوقاية بين الباء الجارة وياء المتكلم (بني = بي) ، وما فعلته الفرنسية من نطق الـكاف المتطرفة في كلمة (Bourg = بور ، اسم مدينة) فقالت : (بورك) . وقـد تلجأ اللغة في محاولة حمايتها للكلمات القصيرة وتعضيدها إلى اسنادها بكلمات أخرى بصورة دائمة : « فالصفتان الفرنسيتان (Sain = سليم) و (Sauf = معافى) ، لا توجد إحداهما بمعزل عن الأخرى ، بل تتحدان معاً ، وبهـذا تأتـّى لهاتين العاجزتين أن تقويا على المقاومة : فيقال (Sain et Sauf = سـليم معافى)[1] . وفي العربية لا ترى كلمة (شذر) إلا ومعها كلمة (مذر) ، فيقال : (تفرق القوم شذر مذر) . وكذلك يتعذر عليك أن تعثر على عبارة تشتمل على كلمة (حيص) وحدها . وستجدها دائماً متبعة بكلمة (بيص) في قولهم : (وقع القوم في حيص بيص) .

٢ ـ وليس البلى المعنوي أقل خطورة من البلى الصوتي ، فكثرة الاستعمال تبلي الكلمات في معناها . ولا سيما اذا كانت من الكلمات المعبرة ، لأن قيمتها التعبيرية تتضاءل بسرعة في الاستعمال ، فتصبـح الكلمة معتمـة بالية . وفي حالة التعبير عـــن انفعالات النفس مثلاً ، نرى أقوى الكلمات تخطو نحو الخمول شيئاً فشيئاً حتى تنتهي بالاهمال ، لأنهـا لم تعد معبرة . ويمكننا تحقيق هذه الحقيقة في حالة التعبير عن الكمية ولا سـيما الكمية

---

١ ـ فندريس : اللغة . ص ٢٧٣

الكبيرة [١] . فكل الألسن تملك عدداً من الكلمات للدلالة على هذه الكمية ، فتقول العربية (كثير - ووافر - وجم - وغزير - وطيس . . . الخ) ، وتقول الفرنسية (beaucoup = كثير - و un grand nombre = عدد كبير - و une foule = جمهور - و des quantités كميات - و des tas = اكوام - و des flottes = اساطيل . . . الخ) .

٣ - كل الكلمات التي لها قوة تعبيرية أياً كانت ، معرضة لضعف قيمتها ، وهذا بدوره يبعث على التجديد . وكم في كل لسان من عبارات تدل على شيء كريه ثقيل ؟ يقال في الفرنسية وحدها : (ennuyant = مسئم - embêtant = مزعج - fatigant = متعب - crispant = مشنّج - espuintant = خانق - etreintant = مضيّق - assommant = قاتل - tuant = قاتل - rasant = حالق - arbant = قاس - canulant = حاقن [٢] .) ويقال في العربية (كريه - شنيع - سمج - ممجوج - بغيض . . . الخ) .

٤ - إذا كانت الفكرة أو الشيء من الافكار أو الاشياء التي تثير الى جانب قيمتها الاساسية قيماً ثانوية تبعاً للأوساط والظروف ، وجدنا عنها في اللغة عبارات متنوعة . وتدخل النقود في هذه الاشياء ، فلها في كل لسان عبارات عديدة . فيقال عنها في الفرنسية : (de la galette = كعك - de la braise = جمر - du beurre = زبد - de l'os = عظم . . الخ [٣]) . ويقال في العربية : (نقود - فلوس - الابيض والاصفر ... الخ) . وبالطبع يعبر عن فعل (نقد) بصور مختلفة

---

١ - نفسه . ص ٢٧٤
٢ - نفسه . ص ٢٧٥ - ٢٧٦
٣ - نفسه . ص ٢٧٣

تبعاً للاوساط . فتقول العامية السورية : (نقد ـ نقف ـ كبس ـ أدّمى ـ فاول ... الخ) .

قد يحتج بأن الكلمات التي ذكرت هنا ، كلها من العامية ، ولكن هذا احتجاج مردود ، لان العامية تنتج من ظروف طبيعية للغة ؛ والعامية ليس معناها لساناً اصطناعياً بأية حال . فمسالك العامية مسالك طبيعية لاغبار عليها . واذا كانت الحاجة الى التجديد أظهر في العامية منها في غيرها ، فمرجع ذلك الى استعمال هذه العامية لسان تخاطب ، والتعبيرية في الخطاب ضرورة دائمة .(١)

٥ ـ فكرة التكلم ايضاً تختلف بدورها باختلاف المواطف التي تثيرها . والافعال التي معناها « تكلم » تبلى بسرعة . فها نحن نقول : (قال ـ تكلم ـ حدث ـ روى ـ دردش ـ كرى ـ اقش ـ حكى ـ هرتم ـ زعبر ... الخ) .

٦ ـ واحياناً يرجع التجديد الى الرغبة في المخالفة . فهناك اشياء تسلك أزواجاً ويصر الذهن على التفريق بين افرادها الى حد انه اذا تشابه اسما فردين من هذه الاشياء نتيجة مصادفة ما ، اختفى احدهما ، وحل غيره محله ليبقى التمييز بين المسميين واضحاً . هذه هي الحال مع التمييز بين الجنسين في بني الانسان وفي الحيوان . والزوج الاساسي الذي اتخذ مثالاً يحتذى في كل ماعداه ، هو الاب والام اللذان لهما في كل الحالات ، وفي كل الاماكن اسمان مختلفان . ووفقاً لهذا المثال

---

١ ـ انظر فندريس : اللغة . ص ٢٧٦ و ٣٠٩ ـ ٣٢٥

سمي عدد آخر من الازواج بأسماء مختلفة[1] : الاسد واللبوة ، والحمار والأتان ، والجمل والناقة ، والثور والبقرة ، والظليم والنعامة . . الخ . وجرياً على ذلك تميل العربيـــة اليوم الى استبدال الفاظ متنوعة بكلمة « جدة » . فتقول الحلبية « نانة » وتقول غيرها « ست » . وأغلب الظن أن الاحتفاظ بهذه المخالفة على هذا النحو من العناية يرجـــع الى ميل عام في الذهن .

ب - الأسباب الاجتماعية

لا تستطيع السيكولوجية ، حتى في الامثلة السابقة ، ان تفسر لنا كل شيء . فالبلى الذي يصيب الكلمات يرجع دائماً ، ولو بمقدار قليل الى البيئة الاجتماعية التي تستعملها . واذن ، يجدر بنا ان نناقش مسألة تجديد المفردات من الوجهة الاجتماعية .

١ - فالاسباب الاجتماعية واضحـــة جداً في تغير الكلمات مراعاة للباقة . إذ ليس من اللائق أن يتكلم في أحد المجتمعات عن أفعال معروفة بالفظاظة ، أو بأنها مما يجرح الحياء ، وتستبعد الألفاظ التي تعبر عنها من بين المفردات التي يستعملها الأشخاص المهذبون . فللتعبير عن هذه الأفعال عبارات متنوعة تبقى مستعملة حتى تصير بدورها خشنة وجارحة للاذن[2]. ولهذا السبب استعضنا عن « تقيأ » بكلمات كثيرة ، مثل « طشّ » و «راجع» و « استفرغ » ، وعن « نكح » بكلمة « زوج » ، وعن « بال » بكلمتي « شخ » و « فرّ » وغيرهما ، وعن « تغوط » بـ « طلـــع لبرا » . . الخ .

١ - نفسه . ص ٢٧٨

٢ - نفسه . ص ٢٨٠

وقد تنبه الى ذلك علماؤنا القدماء ، وبه فسروا كثرة الألفاظ العربية الدالة على الفعل الجنسي ، وما يتصل به من الأعضاء الجنسية . فقد ذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه (مثالب الوزيرين) ما يلي [١] :

« حدثني ابن فارس : جرى بين يديه [٢] أسماء الفرج وكثرتها ، فقال بعض الحاضرين : ماذا أرادت العرب بتكثيرها مع قبحها ؟ فقال : لما رأوا الشيء قبيحاً جعلوا يكنون عنه ، وكانت الكناية عند فشوها تصير الى حد الاسم الأول ، فينتقلون الى كناية أخرى ، فاذا اتسعت ايضاً رأوا فيها من القبح مثل ما كنّوا عنه من أجله ، وعلى هذا فكثرت الكنايات ، وليس غرضهم تكثيرها » .

٢ ـ شأن الكلمات القاسية الجارحة للعواطف كشأن الكلمات القذرة والجارحة للحياء . لهذا تسعى اللغة دائماً الى استبدال غيرها بها . وعلى هذا استغنينا عن كلمة (اعمى) بكلمات كثيرة ، مثل (بصير) و (كفيف) و (ضرير)، وعن كلة (مات) بكلمات (ارتحم) و (توفي) و (اعطاك عمره).

٣ ـ تلعب الخرافة دوراً مهماً في تغيير المفردات ، ففي المجتمعات التي يسودها الاعتقاد أن ذكر الشيء باسمه الصريح يؤدي الى حضوره ، يتحاشى الناس التلفظ بالكلمات الدالة على أشياء مخوفة مستعيضين عنها بالكنايات ، فالنسوة في حلب يعبرن عن مرض السل بقولهن : (هداك المرض = ذلك المرض) ، وعن الشياطين بقولهن (بسم الله الرحمن الرحيم) .

٤ ـ تقضي الأعراف والمعتقدات الدينية في بعض الاحيان بتحريم بعض الشتائم لصلتها بالاخلاق أو بالدين . وفي هذه الحالة تلجأ اللغة الى تشويه

---

١ ـ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥

٢ ـ أي بين يدي الوزير ابن العميد

لفظ الشتيمة المحرمة لتتحاشى المنع العرفي او الديني ، فيكون من كل ذلك خلق الفاظ جديدة بدلاً من الالفاظ القديمة . من ذلك مثلاً قول العامة عندنا : (يفضح حريشك) بدلاً من (يفضح حريمك) ، وقولهم: (يلعن سبطينك) بدلاً من (يلعن دينك) .

٥ ـ كلما تحقق تقدم في الصناعة الانسانية ترجم عن نفسه باستعمال آلات واجراءات جديدة يقابلها خلق كلمات جديدة بقدرها .

فالتغيرات التي تطرأ على الآلات تنعكس في المفردات بطبيعة الحال ، فالحذاء ، وقد غدا له اشكال مختلفة ، أخذ كلمات مختلفة بقدر هذه الاشكال : فهو (حذاء ، وقندرة ، وبوط ، وشبشب ، وصرماية ، ومشاية ، وسكربينة . وكلاشة ، وصندل ، وشحاطة ، وجزمة ، وغير ذلك) ، و (الرغيف) لا يقال إلا لقطعة الخبز المرقوقة المستديرة ، أما إن كانت متطاولة فهي (شبطية)، فان كانت مستديرة مع سمك فهي(صمنة)، فان تطاولت مع سمك فهي (صندويشة) .

٦ ـ اذا تعددت وجوه الاستعمال لحيوان ما تعددت اسماؤه ، وهذا سبب كثرة اسماء الجمل في العربية . فاذا اريد ذبحه فهو (الجزور) ، واذا أعد لحمل الاثقال فهو (الذلول) ، واذا استخدم المركوب فهو (القعود) . . الخ .

٧ ـ اذا كان للشيء الواحد صلة بطبقات اجتماعية مختلفة ، كانت له اسماء متعددة ، فما يدفع للأجير يدعى (أجرة) ، وما يؤدى للمحامي يسمى (اتعاباً) ، وما يتقاضاه الموظف يسمى (راتباً أومرتباً أو معاشاً) وما يقبضه الطبيب يسمى (كشفية) . أما ما يدفع لمعلم الصبيان في الكتاب

فهو (خميسية) ، وأما الحلاق وصاحب المقهى والحمامي فيتقاضون ما يسمى (شكلة) .

★ ★ ★

حان الوقت للاجابة عن السؤال الثاني ، وهو :

ماالوسائل التي تتوسل بها اللغة لتلبية حاجتها الدائمة الى المفردات ؟

وفي الاجابة عن ذلك يقال :

إن العمليات اللغوية التي بها تتجدد المفردات يمكن ارجاعها بسهولة الى بضعة أنواع عامة ، منها :

١ ـ التركيب :

وهو ان تركب كلمتان من كلمات اللغة ، فيكون لهـــا في حالة التركيب معنى لم يكن لهما في حالة الافراد ، مثل بعلبك وحضرموت .

هذه الوسيلة في توليد المفردات ليست معتمدة بدرجة واحـدة في جميع الالسن ، فعلى حين نجد الهنديات الاوروبيات ـ ولاسيما الالمانية ـ يؤثرنهـا على غـيرها من الوسائل ، نرى الساميات لايلجأن إليها إلا في القليل النادر ، وتبدو العربية بخاصة أزهد اخواتها فيها ، والكلمات العربية التي ولدت بهذه الوسيلة قليلة جداً ، بل لعلها لاتزيد عن اثنتين ، اولاهما

« شَقَحْطَب » على وزن « سفرجل » ، وهي اسم للكبش الذي له قرنان كل منهما يحكي « شقّ حَطَب » ، وثانيتهما : « حَبْقُر » اسمـاً للبَرَد وهي مصنوعة من كلتي (حب) و (قر) بمعنى البرْد .

٢ ـ النحت :

وهو ان تأتي الى كلمتين أو اكثر ، فتنحت من كل واحدة حرفاً او اكثر ، ثم تصنع من هذه الحروف كلمة جديدة ، مثل : « حوقل » المنحوتة من عبارة « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وهذه الوسيلة نادرة الاستعمال في العربية ، الا ان الكلمات العربية التي صنعت بها اكثر نسبياً من الكلمات التي صنعت بطريقة التركيب .

هذا ويعد النحت اليوم من الوسائل المفضلة لصنع الكلمات الكثيرة التي تحتاج اليها الحضارة ، ولاسيما في مجال الادوية والشركات والمؤسسات والمخترعات والمستنبطات الكيماوية وغيرها . ومن الكلمات المشهورة التي صنعت عن هذا الطريق : الرادار والنايلون واليونسكو والسيمكس والنازي ... وغيرها .(١)

---

١ ـ يعد النحاة واللغويون العرب كلا من التركيب والنحت شيئاً واحداً يسمونه (النحت) . إلا اننا فضلنا ان نخص مصطلح (التركيب) بالعملية اللغوية التي ليس فيها إسقاط لشيء من مادة المفردات التي تدخل في تركيب الكلمة الجديدة ، ومصطلح (النحت) بالعملية التي يجري فيها هذا الاسقاط .
هذا ويعد النحاة العرب النحت نوعاً من الاشتقاق كما سترى في الفصل القادم .

٣ ـ النقل من العلمية الى الاسمية :

وهو ان تسمي شيئاً جديداً باسم مخترعه او مروجه او بائعه او الشركة التي اشتهرت بصنعه ، مثل : « شينكو » التي يطلقها أهل حلب على الآنية الحديدية المطلية بالميناء . والاسم كان علماً لشركة اليابانية التي كانت اول من باع هذا النوع من الآنية . ومثل : « بوتاغاز » التي تطلق اليوم على آلة الطهي الغازية المعروفة . وكان الاسم اول الامر علماً لاول شركة لتوزيع الغاز .

٤ ـ النسب :

وهو ان تسمي شيئاً جديداً بأن تنسبه الى مخترعه او الى البلد الذي جاء منه ، مثل : (الكوفية) المنسوبة الى (الكوفة) ، وهي غطاء معروف للرأس ، و (المامونية) المنسوبة الى (المأمون) ، وهي طعام مصنوع من سميذ وسمن وسكر .

٥ ـ المحاكاة :

وهي ان تسمي صوتاً او شيئاً بمحاكاته أو محاكاة مايصدر عنه من اصوات بالاصوات اللغوية ، مثل : (بم) حكاية صوت الانفجار ، و البقبقة اسماً للغليان .

ومن اللغويين من يرى ان المحاكاة كانت الوسيلة الاولى لدى الانسان في انشاء اللغة بجميع مفرداتها(١) .

---

١ ـ من هؤلاء ابن جني . راجع الفصل الخاص بنشأة اللغة من الباب الثاني من الكتاب .

والكلمات العربية المتولدة بهـــذه الطريقة كثيرة ، منها : الخرير والحفيف والنقيق والازيز والشهيق والنهيق والصهيل والمـــواء والمـواء والخوار . . . وغيرها .

٦ ـ الاختراع :

وهو ان تلجأ اللغة الى صنع الكلمات من أساسها بتركيب مجاميـع من الأصوات اللغوية بعضها مع بعض ، مثل gaz « غاز » التي اخترعت في القرن الثامن عشر ، و rococo « نوع من الزخرفـة ». ومن ذلك اسماء بعض المستحضرات والسلع والآلات ، مثل كلمـة Kodak « كوداك » التي خرجت كما هي من دماغ مخترعها ، وكلمة « خنفشار » التي تذكر الأخبار انها كانت من صنع ستة من الاشخاص وضع كل واحـــد منهم حرفاً من حروفهـا .

وأنكر بعضهم طريقة الاختراع ذاهبين الى أنه لا شيء أصعب من صنع كلمة دون الاهتداء بوسائل الاشتقاق والتركيب المعتادة في اللسان الذي يتكلمه الصانع . وردوا الكلمات المخترعة الى وســـائل أخرى في توليد المفردات : فقالوا إن كلمة gaz فيها صدى كلمة geist « روح » ، وعلى هذا نكون امام حالة تشويه لكلمة موجودة بالفعل ، لا أمام حالة اختراع من العدم . اما الكلمات التي من قبيل Kodak و rococo فلها قيمة تعبيرية لا تنكر ، ذلك انها كلمات أشبه باسماء الأصوات . فكلمة « كوداك » تصور لنا صورة ، هي صورة سمعيـة ، حتى كأننا نسمع صوت المفتاح الذي يفتح الآلة لالتقاط الصورة ويغلقها . فهل أحس مخترع الكلمة هذه القيمة واراد التعبير عنها ؟ إن هذا لجائز ، ولكنـه غير ضروري . غير ان هناك دائماً اتفـاقاً غير شعوري يقوم بين الأصوات والأشياء . فالانطباع الذي تحدثـه كلمة غير

معروفة يمكن ان يختلف من سامع إلى آخر ، ولكن هنـاك انطباعاً على كل حال ، إن قليلاً وان كثيراً . وانما يقـاس الفرق بدرجة حسـاسية السامع ، أو خياله ، أو بمجرد حالته العصبية . فالذي يطلق اسماً مصنوعاً من اوله الى آخره على شيء ، أياً كان ، قد يكون مستهدياً بتوافق نفسي بين الاصوات والشيء نفسه . هذا الى ان كلمة (كوداك) متمشية مع قواعـد اللغة التصويرية : فالجبيسات تحتوي على نفس الحـركة الصوتية ، والطليقات فيها نفس الجرس الذي قرره الاستاذ غرامون . وهذه الكلمة تعد على درجة من حسن الصياغة تجعلنا نتساءل عما اذا كان في الامكان صياغتها على غير ماهي عليه .

والعمل القدرة على خلق الكلمات ليست الا نوعاً من الخداع . وهذه النتيجة تؤدي بنا الى القاعدة اللغوية الكبرى الـتي تقول : ان الالسن تسير على تحوير العناصر الموجودة ، لا على الخلق والاختراع .[1]

٧ - الاشتقاق :

هو نزع لفظ من لفظ آخر بشرط مناسبتها معنى وتركيباً ، وتغايرهما في الصيغة ، كاشتقاق (عالم) من (علم) و (مكتوب) من (كتب) .

والاشتقاق من أهم الوسائل لتوليد المفردات لدى جميع الالسن ، وهو في العربية أهمها على الاطلاق . وله فيها قواعـــد مرسومة وطرائق مخصوصة سنأتي على ذكرها ان شاء الله في الفصل القادم .

٨ - الاقتباس :

ويسمى الاقـــتراض او الاستعارة emprunt أحياناً . ويقوم على

---

١ - فندريس . اللغة ص ٢٩٢ - ٢٩٤

اخذ كلمة من لسان الى لسان آخر . واذا كان هذا الاخذ من غير العربية اليها سمي تعريباً . وسنعقد للتعريب فصلاً خاصاً ان شاء الله .

وتختلف الالسن في أمر الاقتباس اختلافاً كبيراً : فمنها مايقصر اقتباسه على الرطانات ، ومنها مايعتمد على اللهجات الخاصة او الاقليمية ، ومنها مايجعل جل اعتماده على الالسن الاجنبية . وفي هذا الشأن كانت العربيـة خلال عصور عديدة المعين الذي لاينضب لتجديـــد مفردات كل من الفارسية والتركية . وكانت اللاتينية في كل العصور مصدراً لتجديـد المفردات في ألسن اوروبا الغربيـة ، ولاسيما الفرنسية . كما كانت اللاتينية نبعاً فياضاً للانكليزية ، وللالمانية ولكن بصورة مصغرة ، لان الالمانية تكتفي بنفسها ، بفضل مافيها من لهجات عديدة غنية ، وبفضل نظام التركيب الذي يسمح لها بزيادة مفرداتها زيادة واسعة .(١)

والاغريقية كانت معيناً للألسن السلافية ، وخصوصاً الروسية الـتي كان لها معين آخر دائم لتجديد مفرداتها يتمثل في اللهجات السلافية القديمة التي ظلت متصلة بعضها ببعض تحت تأثير الكنيسة .(٢)

---

١ ـ نفسه . ص ٢٩١

٢ ـ نفسه . ص ٢٩٢

الاشتقاق في العربية

يعد الاشتقاق في العربية أهم وسيلة لتوليد الألفاظ . ولهذا عني به لغويو العرب قديماً وحديثاً ، وافردوه بالتأليف في كتب مستقلة ، أو في فصول طوال من مؤلفاتهم ، منهم قديماً : الاصمعي ، وقطرب ، وابو الحسن الأخفش ، وابو نصر الباهلي ، والمفضل بن سلمة ، والمبرد ، وابن دريد ، والزجاج ، وابن السراج ، والرماني ، والنحاس ، وابن خالويه [1] ، وابن جني [2] ومنهم حديثاً : الاستاذ محمد المبارك [3] ، والاستاذ سعيد الافغاني [4] ، والشيخ عبد القادر المغربي [5] .

واليك ملخصاً لما قيل في هذا الموضوع :

١ ـ تعريف الاشتقاق :

هو اخذ لفظ من آخر مع تناسب بينهما في المعنى وتغيير في اللفظ ، كأخذ « عالم » من « علم » و « مكتوب » من « كتب » .

---

١ ـ السيوطي : المزهر . ج ١ ص ٣٥١
٢ ـ انظر كتابه : الخصائص .
٣ ـ انظر كتابه : فقه اللغة وخصائص العربية . ص ٦٩ ـ ١١١
٤ ـ انظر كتابه : في اصول النحو . ص ١٠٤ ـ ١٢١
٥ ـ انظر كتابه : الاشتقاق والتعريب .

٢ ـ أنواع الاشتقاق :

حشر اللغويون العرب عدة اشياء تحت اسم الاشتقاق ، ثم عادوا ففرعوه ، فكان عندهم على اربعة انواع :

آ ـ الاشتقاق الصغير أو الأصغر :

وهو ما في ايدي الناس ، وما ينصرف إليه لفظ الاشتقاق عند اطلاقه ، كاشتقاق (ضارب ومضروب) من (ضرب) و (كاتب ومكتوب وكتاب) من (كتب) . . وهلم جرا .

ويشترط في هذا النوع من الاشتقاق ان يتفق المشتق والمشتق منه في الاحرف الاصلية وفي ترتيبها . وفصائل الكلمات الناتجة منه عشر : الفعل الماضي ، والفعل المضارع ، وفعل الأمر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة باسم الفاعل ، واسم التفضيل ، واسم الزمان ، واسم المكان ، واسم الآلة .

وقواعد هذا النوع وشروطه مشروحة شرحاً وافياً في كل كتب النحو والصرف .

ب ـ الاشتقاق الكبير :

ويسمى بالقلب ايضاً . وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المعنى ، واتفاق في الأحرف الاصلية دون ترتيبها ، مثل : (جذب وجبذ)[1] . فان الحروف في المشتق هي عينها في المشتق منه ، والمعنى

---

١ ـ قال ابن فارس : ومن سنن العرب القلب . . . كقولهم (جذب وجبذ) و (بكل ولبك) وهو كثير وقد صنفه علماء اللغة . الصاحبي . ص ١٧٢

فيهما متناسب ، وانما الفرق بينهما ان الباء في الاول بعد الذال ، على عكس الثاني . وهذا ماعنوه بالقلب في هذا المقام .

ولما لم يكن معروفاً على جهة اليقين أي اللفظين أسبق على صاحبه في هذا النوع من الاشتقاق ، ليكون السابق هو المشتق منه ، واللاحق هو المشتق ، فقد اصطلحوا على ان الكلمة الاكثر شيوعاً وتداولاً تجعل الاصل المشتق منه ، والاخرى الاقل شيوعاً تجعل مشتقاً : فمن ثمة كان الجذب هو الاصل ، وجبذ هو الفرع المشتق ، لان (جذب) دائر على السنتهم اكثر من (جبذ)[1] .

وامثلة هذا النوع في العربية كثيرة . منها :

(الشوب) اي الخلط . يقولون : شاب الرجل اللبن بالماء ، اذا خلطه به .

فاذا قدمت الواو على الشين وقلت : (وشْب) ، ثم جمعتها ، صارت : (اوشاب) ، وهم الاخلاط من الناس ، واذا قلت : (وبش) ، ثم جمعتها ، صارت : (اوباش) ، وهم الاخلاط من الناس ايضاً . و (اوبشت الارض) : انبتت واختلط نباتها . واذا قلت : (بوش) ـ مقلوب ماتقدم ـ كان معناها القوم المختلطين من قبائل شتى . (والبوش) ايضاً طعام بعصر من حنطة وعدس يجمع ويغسل في زبّيل ويجعل في جرة ويطيَّن ويجعل في التنور ، وقد سمي بذلك لما فيه من الاختلاط . وتركتهم

---

١ ـ المغربي : الاشتقاق والتعريب . ص ١٠

(هوشاً بوشاً) : مختلطين . و (بوّشوا تبويشاً) : اختلطوا .

ومن ذلك :

(خرشب عمله) : اذا لم يحكمه . فاذا قدمت الشين على الراء وقلت : (خشرب عمله) ، كان معناه ايضاً أنه لم يحكم العمل .

ومنه ايضاً :

(طفا) فوق الماء : علا عليه . فاذا قدمت الالف على الفاء صارت : (طاف) . فطاف مقلوب طفا ، ومعناهما متناسب متقارب ، وذلك لان من طفا على وجه الماء قلما يثبت في موضع ، وانما هو طائف متنقل على سطحه . ومنه (الطوف) : وهو قِرَبٌ تُنفخ ويشد بعضها الى بعض ، ثم تركب ويحمل عليها في البحر(١) .

لعلم اللغة الحديث في هذا النوع من الاشتقاق رأي يخالف رأي اللغويين العرب القدماء . فهذا العلم لايرى بين (جذب وجبذ) علاقة اشتقاقية ، بل يرى ظاهرة صوتية يسميها بظاهرة الانتقال المكاني ، حيث تتبادل الاصوات امكنتها في الكلمة الواحدة . وهي احدى ثلاث ظواهر في التبدلات الصوتية : (التماثل ، والتخالف ، والانتقال)(٢) لكنه من الانصاف للغويين العرب ايضاً ان نقول : ان علم اللغة الحديث اذا نجح في تفسير مجموعة مثل (جبذ - جذب) بظاهرة الانتقال المكاني ، فانه يعجز عن تفسير مجموعات كثيرة من مثل (طاف - طفا) و (خرشب

١ - انظر المرجع نفسه . ص ١١ - ١٢
٢ - راجع باب الاصوات .

ـ خشرب ـ خربش) بهذه الظاهرة . فالمعروف ان الانتقال المكاني بين اصوات الكلمة لا يؤدي الى تغيير أو تحوير لمعنى الكلمة كما يفعل الاشتقاق . وإذن ، فان العلاقة بين (طاف وطفا) هي علاقة اشتقاقية لانهما ليسا بمعنى واحد ، بل هما بمعنيين متناسبين متقاربين ، خلافاً للحال مع مجموعة (جبذ ـ جذب) .

بل لقد ذهب ابن جني الى ابعد مما ذهب اليه غيره من اللغويين العرب ، فقرر وجود معنى مشترك بين تقاليب الفعل الثلاثي الستة ، وسمى ذلك بالاشتقاق الاكبر .

يقـــول (١) :

« هذا موضع لم يسمه أحد من اصحابنا (٢) ، غير ان أبا علي رحمه الله كان يستعين به ، ويخلد إليـــه مع اعواز الاشتقاق الأصغر ، لكنه مع هذا لم يسمّه ، وانما كان يعتاده ويستروح إليه ويتعلل به ، وانما هذا التلقيب لنا نحن ، وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن ، وذلك ان الاشتقاق عندي على ضربين : كبير وصغير . فالصغير ما في ايدي الناس وكتبهم : كأن تأخذ أصلاً من الاصول فتقرأه فتجمع بين معانيـــه وان اختلفت صيغه ومبانيه . وذلك كتركيب (س ل م) فانك تأخذ منه معنى الســلامة

---

١ ـ انظر باب الاشتقاق الاكبر من كتابه : الخصائص .

٢ ـ نقل الاستاذ سعيد الافغاني عن كتـــاب الفهرست لابن النديم ص ٩٥ (المطبعـة الرحمانية بمصر) ان للرماني كتاب : (الاشتقاق الصغير) وكتاب (الاشتقـاق الكبير) . والرماني من اتراب الفارسي واقرانه . وكان الفـــارسي شيخاً لابن جني . ومعنى ذلك ان ابن جني لم يكن السـابق الى القول بالاشتقاق الكبير . انظر حاشية الصفحة ١١٠ من كتاب : في اصول النحو .

في تصريفه ، نحو : سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة والسليم . .

واما الاشتقاق الاكبر فأن تأخذ اصلاً من الأصول الثلاثيـــة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحـــداً تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحـد منها عليه » .

ثم مضى ابن جني يضرب الامثلة على قاعدته . وهذا واحد منها :

(ق و ل) في جميع تراكيبها الستة تدل على الاسراع والحركة :

(ق و ل) وهو القول ، وذلك ان اللسان والفم يخفان له . . وهو بضد السكوت الذي هو داعية الى السكون .

(ق ل و) : القِلْو : حمار الوحش ، وذلك لخفتـــه واسراعه ، ومنه : (قلوت البسر والسـويق) ، وذلك لأن الشيء اذا قلي جف وخف ، وكان اسرع الى الحركة والطف .

(و ق ل) : الوَقْل الوعل ، وذلك لحركته ، وتوقل في الجبل : اذا صعد فيه . وذلك لا يكون إلا مع الحركة والاعتمال .

(و ل ق) : ولق يلق : اذا اسرع .

(ل و ق) : في الحديث : (لا آكل من الطعام إلا ما لُوِّق لي) اي ما خدم واعملت اليد في تحريكـه ، ومنه اللوقـة : الزبدة ، وذلك لخفتها واسراع حركتها وانها ليست لها مسكة الجبن .

(ل ق و) : اللقوة للعقـــاب ، قيل لها ذلك لخفتهـــا وسرعة طيرانهـــا .

لا شك ان القارىء قد لاحظ عظم التـكلف الذي وقع فيه ابن

جني وهو يرد كل هذه التقاليب إلى معنى واحد هو الاسراع والحركة . بل ان ابن جني نفسه كان قد لاحظ ذلك ، لكنه اعتذر منه بان التباعد في المعنى بين المشتق والمشتق منه قد يحصل حتى في الاشتقاق الاصغر ، وانه اذا حصل هذا التباعد عن المعنى المشترك في الاشتقاق الكبير لزم رد التباعد بلطف الصنعة والتأويل اليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد . لكن ابن جني نسي ان هذا التكلف الذي يسميه (لطف الصنعة والتأويل) لايحتاج اليه من اشتقاقيي الاشتقاق الاصغر إلا كل من يتوهم وجود علاقة اشتقاقية بين كل كلمتين اشتركتا في اصول واحدة ، وهو ماحدث لابن جني نفسه عندما توهم وجود اشتقاق بين فعل (امسك) وكلمتي (المَسْك والمِسك) (الاولى بفتح فسكون ، ومعناها الجلد ، والثانية بكسر فسكون ، وهي اسم لعطر معروف) ، فقال : انما سمي الجلد مسكاً لانه يمسك ماتحته من لحم وعظام ، كما سمي المِسك مسكاً لانه يجذب الانسان إليه فكأنه يمسكه (!!) والمعروف ان كلاً من المَسك والمِسك من الدخيل الذي لاعلاقة له بالعربية .

تحمس لنظرية ابن جني كثير من العلماء ، وقاموا بعملية استقراء واسعة في محاولة لجمع اكبر عدد ممكن من الادلة والبراهين على صحتها ، ومع ذلك ، لايزال فيها جوانب ضعف كثيرة ، فهي في اغلب الاحيان تطالبنا بالتسليم بان العرب الاولين ادركوا بالبداهة وحدها مالم يدركه غيرهم بالروية واعمال الفكر : استمع معي الى هذا الفيلسوف وهو يرد كلمة (الجراب) الى معنى (القوة) قائلاً : وانما سمي الجراب جراباً لانه يحفظ مافيه ، والشيء اذا حفظ كان اقوى . والمطلوب منك الآن

ان تصدق ابن جني في ان العرب لحظت هـذه السلسلة من المعاني قبل ان تسمي الجراب جراباً .

وعلى كل حال ، فان ماجاء به ابن جني لايزال في مجال النظريات التي تحتمل الكثير من الاخذ والرد ، ولم يخرج بعد الى مجـال الحقائق العلمية التي لايختلف فيها اثنان .

ج ـ الاشتقاق الا كبر :

ويسمى الابدال ايضاً[1] . وهو ان يكون بـين اللفظين تناسب في المعنى ومخارج الحروف المختلفة ، مثل : (نعق ونهق) ، فالمعنى متقارب اذ هو في كل منهما الصوت المستكره . وليس بينهـما تناسب في اللفظ ، لان في كل من الكلمتين حرفاً لايوجد نظيره في الاخرى . غـير ان الحرفين اللذين اختلفا فيهما (العين في الاولى والهاء في الثانية) متناسبان في المخرج ، فان مخرجها جميعاً الحلق[2] .

وفي هذا النوع من الاشتقاق ـ كما في سابقه ـ لايمكن معرفـة الاصل المشتق منه ، والفرع الذي هو المشتق ، كما ان العلماء لم يقرروا مبدأ يميزون به بين الاثنين كما فعلوا في الاشتقاق الكبير .

هذا والمدققون من علماء اللغة لم يشترطـوا في الاشتقاق الا كـبر وجود التناسب في المخارج بين الاحرف المختلفة ، بل توسعوا في تعريف

---

١ ـ انظر الصاحبي . ص ١٧٣
٢ ـ انظر الاشتقاق والتعريب . ص ١٣

هذا الاشـتقاق ومفهومه ، وجعلوه بحيث يتنـاول ابدال حرف من آخر مطلقاً ، وافقه في المخرج او لم يوافقه فيه بشرط حصول التناسب المعنوي بين اللفظين .

فمن امثلته ولا تناسب في المخارج بين الحروف المختلفة :

(صرير) البكرة و (صريف) الباب والقلم ـ و (الخرق) و (الخرب) و (الخرت)(١) ـ و (هـــديل) الحمام و (هدير) البعير ـ و (الجمجمة) و (الهمهمة) .

ومنه وقد ابدل الحرف الثاني في المضعف حرفاً آخر :

(كدّ وكدح) ـ (رصّ ورصف) ـ (زح وزحـــل) ـ (رج ورجف) ـ (ضم وضمد) ـ (ردّ وردع) .

ومنه وقد ابدلت ألف الناقص حرفاً آخر :

(رسـا ورسب) ـ (سمـــا و سمق) ـ (زجا وزجر) ـ (هذي وهـذر) ـ (محا ومحق) ـ (احتفى واحتفل) ـ (أسـا واسف) ـ (حصا وحصب) .

ومنه وقد حول المضـاعف الى اجوف :

(ضر وضار) ـ (كعّ عن لقياه وكاع) اذا نكص(٢) .

د ـ الاشتقاق الكبار :

---

١ ـ الخرب كل ثقب مستدير . والخرت ثقب الاذن وغيرها .
٢ ـ انظر المرجع السابق . ص ١٢ ـ ١٣

وجمهور العلماء يسمونه النحت[1] . وهو ان تعمد الى كلمتين أو جملة فتنزع من مجموع حروف كلماتها كلمة فذة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة نفسها[2] . مثل : حوقل (اى قال : لا حول ولا قوة إلا بالله).

وقد ارجع العلماء النحت الى اربعة اقسام : فعلي ، ووصفي ، واسمي ، ونسبي .

(فالنحت الفعلي) ان تنحت من الجملة فعلاً يدل على النطق بها ، او على حدوث مضمونها . مثل بأبأ (قال : بأبي أنت) ـ جعفل (قال : جعلت فداك) ـ سبحل (قال : سبحان الله) ـ حوقل (قال : لا حول ولا قوة إلا بالله) ـ دمعز (قال : ادام الله عزك) ـ سمعل (قال : السلام عليكم) ـ فذلك (قال : فذلك العدد قد بلغ كذا) ـ لاشى (صيره لا شيء) ـ بعثر (بعث واثار).

(والنحت الوصفي) ان تنحت من الكلمتين كلمة واحدة تدل على صفة بمعناها او بأشد منه . مثل الضبطر (الرجل الشديد ، من ضبط وضبر) ـ الصلدم (الشديد الحافر ، من الصلد والصدم) ـ الصهصلق (الشديد من الاصوات ، من صهل وصلق).

(والنحت الاسمي) ان تنحت من كلمتين اسماً ، مثل : الجلمود (الصخر القاسي ، من جلد وجمد) ـ الشقحطب (الكبش العظيم القرنين ، من شق الحطب) ـ الحبقر (البَرَد ، من حب القر) ـ العقابيل (البثور

---

١ ـ انظر الصاحبي . ص ٢٢٧

٢ ـ الاشتقاق والتعريب . ص ١٣

التي تظهر على الشفة عقبي الحمي ، من عقبى الحمى ، أو عقبى العلة) .

(والنحت النسبي) ان تنسب شيئاً أو شخصاً الى مدينتين او رجلين فتنحت من اسمي المنسوب اليهما اسماً منسوباً واحداً ، مثل : طبرخزي (نسبة الى طبرستان وخوارزم) - شفعنتي (نسبة الى الشافعي وابي حنيفة) - حنفلتي (نسبة الى ابي حنيفة والمعتزلة)[1] . وقد يحدث النحت النسبي عند النسبة الى علم واحد يتألف من كلمتين ، ومنه : عبشمي (نسبة الى عبد شمس) - عبدري (نسبة الى عبد الدار) - مرقسي (نسبة الى امرىء القيس) تيملي (نسبة الى تيم اللات)[2] .

٣ - حول قياسية الاشتقاق :

ذهب بعضهم الى ان الاشتقاق قياسي ، بمعنى أنه يجوز لنا ان نشتق مالم يشتقه العرب من اسم فاعل أو اسم مفعول او اسم مكان او اسم زمان اذا كان هذا الاشتقاق جارياً على سننهم وطرائقهم ، وان ما يتحصل عن هذا الطريق من كلمات هو من كلام العرب ولو لم يكونوا قد تلفظوا به أو عرفوه . قال ابو عثمان المازني : ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب . ألا ترى انك لم تسمع انت ولاغيرك اسم كل فاعل ولامفعول ، وانما سمعت بعضها ، فقست عليه غيره ؟

وقال ابن جني - بعد ان سرد امثلة من اسم المكان والمصدر

---

١ - الاشتقاق والتعريب . ص ١٣ - ١٤
٢ - في اصول النحو . ص ١٠٩

الواردين على اسم المفعول : هذا كله من كلام العرب ، ولم يسمع منهم ولكنك سمعت ماهو مثله وقياسه(١) .

وقال ابن درستويه في شرح الفصيح : إنمـــا اهمل استعمال ودع ووذر لان في اولها واوا ، وهو حرف مستثقل ، فاستغني عنهما بما خـلا منه ، وهو (ترك) . ثم قال : واستعمال مااهملوا من هذا جائز صواب ، وهـــو في الاصل ، وهو في القيـاس الوجه ، وهو في الشعر أحسن منه في الـكلام(٢) .

غير ان ابن فارس يرى في هذا الشأن رأياً مخالفاً ، فقد عقد في كتابه الصاحبي(٣) باباً للقول على لغة العرب هل لها قياس ، وهل يشتق بعض الكلام من بعض ؟ فقال :

اجمع اهل اللغة ـ إلا من شذ منهم ـ ان للغة العرب قياساً ، وان العرب تشتق بعض الـكلام من بعض ، وان اسم الجن مشتق من الاجتنان ، وان الجيم والنون تدلان ابداً على الستر . تقول العرب للدرع : جُنة . واجنه الليل . وهذا جنين ، اي هو في بطن أمـه أو مقبور . وأن الانس من الظهور . يقولون آنست الشيء : ابصرته . وعلى هـذا سائر كلام العرب . علم ذلك من علم ، وجهله من جهل . قلنا : وهذا أيضاً مبني على ما تقدم من قولنا في التوقيف ، فان الذي وقفنا على ان الاجتنان التستر هو الذي وقفنا على ان الجن مشـتق منه . وليس لنـا

---

١ ــ عن كتاب دراسات في العربية وتاريخها لمحمد خضر حسين . ص ٧٠ــ٧١
٢ ــ المزهر . ص ٢٥
٣ ــ ص ٣٣

اليوم ان نخترع ، ولا ان نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لان في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها ، ونكتة الباب ان اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن » انتهى .

ومن المحدثين من حاول التفريق بين نوعين من الالفاظ التي لم يتصرف بها العرب : نوع كثر وروده في كلامهم من غير تصرف ، فدل ذلك على قصدهم لابقائه على هيئته ، واذن فلا يجوز لنا نحن ان نتصرف فيه ، ونوع قل وروده في كلامهم فلم يعرف قصدهم فيه ، فيجوز لنا اذن ان نتصرف فيه :

يقول الاستاذ محمد الخضر حسين[1] :

إن الافعال والمصادر التي لم يسمع لها فروع في الاشتقاق على ضربين :

(احدهما) ما يكثر استعماله في موارد كلام العرب من غير ان يتصرفوا فيه ، مثل : ويل وويح ونعم ويذر وما يماثلها ، وعدم تصريفهم لها مع كثرة ترددها في محاوراتهم ومخاطباتهم دليل على قصدهم لابقائها على هيئتها . فمن تصرف فيها ، فقد أتى بها على وجه قصد العرب الى تركه ، والناطق بما يقصدون الى اهماله ناسج على غير منوالهم ، وناطق بغير لهجتهم . هذا مذهب جمهور اهل العربية .

(ثانيها) ما لا يكثر في مخاطباتهم حتى يستفاد من وروده بهيئة واحدة انهم قصدوا إلى ترك تصريفه . وهذا هو الذي تعمل به على طبق

---

١ – دراسات في العربية وتاريخها . ص ٧٠

القاعدة وان لم يبلغنا أو يبلغ الواضعين للقواعد ان العرب تلفظوا فيه على وفق القاعدة . فيصح لنا ان نجري قاعدة الاشتقاق في هذا النوع وان لم ندر أن العرب تصرفوا فيه على هذا الوجه من الاشتقاق .

٤ ـ مصدر المشتقات :

اختلف النحاة واللغويون قديماً في اصل المشتقات : فذهب الكوفيون إلى ان الاصل هو الفعل ، وذهب البصريون الى ان الأصل هو اسم الحدث ، اي المصدر . وساق كل فريق من الادلة ما ظن انه كاف للتدليل على صحة ما ذهب اليه [١] . ولا نحب ههنا ان نعرض الى هذه الادلة بشيء ، فكلها من النوع الفلسفي المنطقي الذي لا يتفق والمنطق اللغوي في شيء . بل نحب ان نقرر امرين :

(أولهما) ان كل بحث في شأن من شؤون العربية لا يمكن ان يصل الى نتائج يقينية ما لم يصطنع المنهج المقارن ويوسع من دائرته حتى تشمل الألسن السامية كلها . ذلك ان الألسن التي تنتمي الى اسرة لغوية واحدة يلقي بعضها الضوء على بعضها الآخر في مثل هذه الأمور الغامضة .

(ثانيها) ان قضية أصل المشتقات تشبه في اعتياصها قضية نشأة اللغة الانسانية . ويفضل علم اللغة ارجاء الجواب عن هذه المسائل الى

---

١ ـ انظر تفصيل هذه الادلة في كتاب ابن الانباري : الانصاف في مسائل الخلاف ، في المسألة الثامنة والعشرين . هذا وقد ذهب مذهب الكوفيين من المحدثين المستشرق اسرائيل ولفنسون . انظر كتابه : تاريخ اللغات السامية . ص ١٤

وقت نملك فيه من الدلالة ما يمكن الاطمئنان اليه .

هذا ، والثابت ان العرب لم تحجم احياناً عن الاشتقاق من غير الفعل او اسم الحدث (المصدر) :

– فقد اشتقوا من الاعداد ، وهي اسماء معانٍ جامدة ، فقالوا : وحد وتوحد : بقي وحده . وثنيته تثنية : جعلته اثنين ، وثلثتهم : جعلتهم ثلاثة ، وربعتهم ، وخمستهم . . الى عشرتهم .

– واشتقوا من اسماء الازمنة ، وهي ايضاً اسماء معان جامدة ، فقالوا : اخرف القوم : دخلوا في الخريف ، وشتوت بموضع كذا ، وتشتيت : أقمت به في الشتاء ، واربعوا : دخلوا في الربيع ، وتربعوا الموضع : أقاموا فيه بالربيع ، واصافوا : دخلوا في الصيف ، وصافوا بمكان كذا . وأفجروا : دخلوا في الفجر ، ومثلها : اصبحوا واشرقوا : دخلوا في وقت الشروق ، وأظهروا وأعصروا وآصلوا .

– واشتقوا من اسماء الذوات كأعضاء الانسان ، فقالوا : أذنه ورأه وسره ورجله ومعده وصدره ، اي : ضرب أذنه ورئته وسرته ورجله ومعدته وصدره . ومن غير اعضاء الانسان قالوا : أبرته العقرب : لسعته بابرتها ، وأبّل الرجل : كثرت ابله ، وازرته : ألبسته إزاراً ، واستأسد : صار كالأسد ، واستنوق الجمل : صار كالناقة . وقالوا : اورق الشجر ، وعقرب الصدغ ، وفلفل الطعام . . . الخ

– واشتقوا من اسماء الأصوات ، فقالوا : صليل السيوف والكلمة من (َصلْ) التي يحكى بها صوت شيء يابس اذا تحرك . وعلى هذا لا يبعد ان يكون الازيز والطنين والأنين والحفيف والخرير وغيرها مشتقات

من اسماء اصوات أميتت ، هي : (از) و (طن) و (ان) و (حف) و (خر) .

ـ واشتقوا من حروف المعاني افعالاً ومصـــادر ، فقالوا : انعم الرجل : قال : نعم ، وسوّف الحاجة : اذا ماطل وقال مرة بعد مرة : سوف أقضيها ، وقالوا سـألتك حاجة فلوليت لي : قلت لي : لو لا .

ـ واشتقوا من الاعجمي كما يشتقون من كلامهم ، فقالوا : درهمت الخبازى : صارت كالدراهم ، والدرهم اعجمي من الاغريقية .

ـ بل لقد اشتقوا من المشتق نفسه ، فقالوا : تمسكن الرجـــل ، فاشتقوا الفعل من الاسم (مسكين) الذي هو مشتق من السـكون ، ومثل ذلك : تمكن الرجل ، فهي من المكان ، والمكان من الكون[1] .

٥ ـ النظرية الثنائية :

رأيت قبل قليل نوعاً من الاشتقاق يسمى (الاكبر) ، وفيه يتفق طرفا الاشتقاق ـ المشتق والمشتق منـــه ـ في بعض الحروف ، ويختلفان في بعضها الآخر . هذه الظاهرة ، ظاهرة تناسب المعنى بين كلمتين اتفقتا في بعض الحروف ، تنبه إليها عدد كبير من قدماء اللغويين منهم الخليل وسيبويه وابو علي الفارسي وابن جني وغيرهم . إلا ان ملاحظاتهم الكثيرة التي ابدوها حول هذا الموضوع لم تتعد الاشارة إلى وجود التناسب المعنوي فقط .

أما بعض المحدثين من اللغويين فقد ابعـــدوا حتى وصلوا الى حد

---

١ ـ عن كتاب في اصول النحو . ص ١١٦ - ١٢١ بتصرف .

القول بنظرية لغوية مفادها : أن جميع كلم العربية ترجع إلى اصول ثنائية هي في أغلبها حكاية اصوات طبيعية .

اشهر القائلين بهذه النظرية : جرجي زيدان في كتابه (الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية) والاب انستاس الكرملي في كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها) والشيخ عبد الله العلايلي في كتابه (مقدمة لدراسة لغة العرب) والاب مرمرجي الدومينيكي في كتابه (المعجمية العربية على ضوء الثنائية والالسنية السامية) .

واليك ملخصاً لما قالوه في هذا الشأن :

١ – يقرر الصرفيون القدماء ان كلم العربية ترجع في أغلبها الى اصول ثلاثية منها اشتقت ، وعنها صدرت : فـ (أضرب ، وضرَّب وضارَبَ ، واضطرب ، وتضرَّب ، وتضارب ، واستضرب) ترجع كلها الى اصل ثلاثي مؤلف من الحروف الثلاثة (ض . ر . ب) ؛ و (فتَّح ، وفاتَحَ ، وانفتح ، وتفتح ، واستفتح) ترجع كلها إلى أصل ثلاثي مؤلف من الحروف الثلاثة (ف . ت . ح) ؛ وقس على ذلك سائر كلم العربية . وانما حمل الصرفيين القدماء على تقرير ما قرروه أنهم لحظوا بين كلمات كل مجموعة شيئين مشتركين ، أولهما المعنى ، وثانيهما الحروف . اذ إن كلمات المجموعة الأولى تشترك كلها في معنى عام واحد هو معنى الضرب ، وفي حروف ثلاثة هي الضاد والراء والباء ، وكذلك كلمات المجموعة الثانية ، ففيها كلها معنى عام واحد مشترك هو معنى الفتح ، وحروف ثلاثة لا تخلو واحدة منها ، هي الفاء والتاء والحاء .

لكن الصرفيين القدماء وقفوا عند حد الحروف الثلاثة فلم يتجاوزوه . أما نحن – المحدثين – فلو أوغلنا في تطبيق منهج القدماء ، وسرنا في تطبيقه

مسافة أبعد ، لتبين لنا ان هذه الثلاثيات ليست هي الأصول النهائية ، وانها فروع ومشتقات من أصول أبعد يتألف كل واحد منها من حرفين اثنين فقط . إذ يظهر لنا ان كل مجموعة من هذه الثلاثيات إذا اشترك افرادها في حرفين اثنين فقط اشتركت كلها في معنى عام واحد مدلول عليه بالحرفين المشتركين . ومعنى ذلك ونتيجته أن الأصل الاشتقاقي في العربية ثنائي وليس ثلاثياً .

وإليك بعض الأمثلة :

ـ الثلاثيات التي تشترك في النون والفاء تتضمن كلها معنى الخروج والانتقال أو الاخراج :

نفث ، نفج (نفجت الفروجة : خرجت من بيضتها) ، نفح ، نفخ ، نفد ، نفذ ، نفر ، نفز (نفز الظبي : وثب) ، نفس ، نفش ، نفض ، (نفض الكرم : تفتحت عناقيده) ، نفق ، نفى .

ـ والثلاثيات التي تشترك في النون والباء تتضمن كلها معنى الخروج أو الاخراج ، ولكن الى اعلى غالباً :

نبأ (النابىء : المكان المرتفع) ، نب ، نبت ، نبث (نبث : نبش) ، نبح ، نبذ ، نبر ، نبز ، نبس ، نبش ، نبض ، نبع ، نبغ ، نبك (النابك : المرتفع) ، نبه ، نبا .

ـ والثلاثيات التي تشترك في الغين والميم تتضمن كلها معنى الاخفاء : غمر ، غمس ، غمص ، غمض ، غمط ، غم .

ـ وكذا الثلاثيات التي تشترك في الغين والألف : غاب ، غار ، غاص ، غام .

ـ اما الثلاثيات التي تشترك في الفاء واللام فتتضمن كلها معنى

الشق : فلج ، فلح ، فلع ، فلق ، فلّ .

ـ وكذا الثلاثيات التي تشترك في الفاء والراء ، والراء واللام كما نعلم من مخرج واحد :

فرث ، فرج ، فرد ، فر ، فرز ، فرش ، فرص (فرصه : قطعه وخرقه وشقه ، والمفراص : الحديد يقطع به الحديد) فرض ، فرط ، فرع ، فرغ ، فرق ، فرك ، فرم ، فره ، فرى .

ـ والثلاثيات التي تشترك في القاف والطاء تدل كلها على معنى القطع والفصل :

قط ، قطع ، قطف ، قطل (قطله : قطعه . وعنقه : ضربها . ونخلة قطيل : قطعت من اصلها . وكمكنسة : حديدة يقطع بها) .

ـ وكذا الثلاثيات التي تشترك في القاف الصاد ، وكلا الصاد والطاء من مخرج واحد :

قصر ، قصف ، قصم ، قص .

ـ الثلاثيات التي تشترك في الميم والالف تفيد الحركة والاضطراب :
ماج ، ماد ، مار ، ماس ، مال .

ـ والثلاثيات المشتركة في الجيم والميم تدل على معنى الجمع والضم :
جمع ، جمل ، جم ، جمر (تجمر القوم : تجمعوا ، وجاؤوا جمارى أي بإجمعهم . والجمير : مجتمع القوم)(١) .

٢ ـ الثلاثي إذن يرتد الى اصل ثنائي . واما الحرف الثالث فزائد من أجل تنويع المعنى العام المدلول عليه بالحرفين الاصليين .

---

١ ـ نقلت هذه الامثلة كلها من كتاب فقه اللغة لمحمد المبارك ص ٨٨ ـ ٩١

٣ ـ هذا الحرف الثالث الزائد يقع في آخر الكلمة كما رأيت في الامثلة السابقة ، وهذا هو الأغلب . إلا انه قد يكون في الوسـط ، اي بين الحرفين الأصليين ، كشلق من شق ، وفرق من فق ، وقرط من قط ، وقرص من قص ، وقرض من قض ، وشرق من شق ؛ وقد يكون في أول الكلمة كما في المجموعة التالية : ترم ، جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم ، غرم .

٤ ـ الغالب في الحرف المزيد ان يكون واحداً من هذه (ل . م . ن . ر) .

٥ ـ من اين جاء هذا الحرف الثالث المزيد ؟ والجواب عن هذا أحد امرين : فان كان هذا المزيد واحداً من (ل . م . ن . ر) فزيادته اعتباطية ، وربما توهم الواضع في هذه الزيادة شيئاً من المبالغة او تنويع الفعل بمـــا يطابق قصده ، نحو فض ورفض ، وهب ولهب ، وشق وشلق ؛ وان كان غير ذلك فهو بقيه من ثنائي آخر كان مركباً مع الثنائي الاول ، ثم حدث من الاصلين الثنائيين ثلاثي واحد على طريقة النحت ، نحو (قطف) ، ويفيد القطع والجمع ، والاصل فيه (قط لف) : الاولى قطع والثانية جمع ، وبالاستعمال اهملت اللام ونقلت حركتها الى ماقبلها فصارت (قطف) .

٦ ـ ان الاصل الثنائي هو في الغالب حكاية للصوت الطبيعي المقارن للحدث الذي يدل عليه هذا الثنائي : (فالقط) حكاية للصوت المقارن لحدث القطع ، و (القص) حكاية للصوت المقارن لحدث القصم والقصر وغيرها[1] .

٧ ـ هذا ملخص القول في امر الثلاثي . أما مايسمى بالمجرد الرباعي

---

١ ـ لعل القارىء يتذكر ان هذا هو رأي ابن جني ايضاً الذي اوضحه في باب (تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني) من كتابه الخصائص .

فأمر رده الى الثنائي يبدو أيسر اذا كنا بصدد مايدعى بالرباعي المضعف ، مثل : وسوس ، وسقسق ، وزلزل ، وحمحم ، ومصمص ، وصلصل ، وجمجم ، ورجرج ، وهدهد ، ودندن ، وغيرها . اذ من الواضح ان كل واحد من هذه الرباعيات إنما هو ثنائي كرر قصد المبالغة والتوكيد . أما الرباعيات غير المضعفة ، مثل : دحرج ، فهي نحت من ثلاثيين : دحر ، وجرى . ثم ان كل ثلاثي من هذين يمكن رده الى ثنائي هو اصل له(١) .

٨ – ان الاصل الثنائي كان الشكل المستعمل للكلمة العربية في مرحلة من مراحل تطورها التاريخي ، ثم وفي مرحلة تالية ، جاء الحرف الثالث منوعاً للمعنى العام المدلول عليه بالثنائي . فالكلم وضعت في اول امرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لاصوات الطبيعة ، ثم فئمت ، اي زيد فيها حرف او اكثر ، في الصدر ، او القلب ، او الطرف ، فتصرف بها المتكلمون تصرفاً يختلف باختلاف البلاد والقبائل والاهوية(٢) .

غير ان الاستاذ مبارك لايحب ان يذهب الى هذا الحد من الخيال والتصور ، بل يحاول ان يفسر ظاهرة الثنائية في العربية بالقوانين المعروفة في تبدل الاصوات ، وان كان يعترف بان هذه القوانين لاتسعفه في تفسير كل المجموعات الثنائية . يقول : يمكن ان نقول ان الاصل في اللغة هو المجموعات الثلاثية [لاالثنائية] . فالمادة الاصلية في الكلمات العربية تتألف من حروف ثلاثة ، ولكن قد يعتري أحد هذه الحروف تبدل صوتي بتوالي الازمان ، او باختلاف القبائل والبيئات ، ومن ذلك تتكون هذه المجموعات

١ – القول بان مازاد على الثلاثة فهو منحوت قول سبق اليه ابن فارس . انظر معجمه (مقاييس اللغة) ، وكتابه (الصاحبي) ص ٢٢٧

٢ – الكرملي : نشوء اللغة العربية . ص ١

الثنائية ويكون هذا الاشتراك بين المجموعات الثلاثية في حرفين دون الثالث ، ولكن هذا القول لايمكن تعميمه ، فان في الامثلة التي قدمناها وفي غيرها حالات ليس فيها اي تقارب بين الحروف الثوالث في الالفاظ ، ولم يجر التبدل الصوتي في اللغات على هذا السنن ، ولم يقع تبادل بين حروف متباعدة كالفاء والعين في قطع وقطف ، والراء والضاد في غار وغاض . على ان هذا الرأي يمكن ان يقبل بالنسبة لبعض الالفاظ مثل (قد وقط) و (وسم وشم ووضم) و (مت ومد ومط) ، ولكن من العسير تعميمه على جميع الامثلة ، فلا يمكن ان نقيم من هذا التعليل نظرية عامة في اصول الالفاظ العربية(١) .

---

١ ـ فقه اللغة . ص ٩٢

التعريب

كان التعريب يعد في الماضي المصدر الثاني للمفردات التي تحتاج اليها العربية ، اما اليوم ، فيبدو انه غدا المصدر الاول لسد حاجة العربية الى المفردات ، هذه الحاجة التي تتفاقم يوماً بعد يوم .

والتعريب ، كما يدل عليه اسمه ، اقتباس كلمة من لسان اعجمي وادخالها في اللسان العربي . وقد جرى سيبويه على تسميته « إعراباً »[1] كما سمى الخفاجي وغيره الكلمات المعربة بالدخيل .

١ ـ شرط التعريب :

اختلف اهل اللغة قديماً في شرط التعريب : فذهب جمهورهم الى انه لايشترط فيه سوى الاستعمال ، فمتى استعملت العرب الكلمة الاعجمية صارت معربة ، سواء ألحقوها بأوزان كلماتهم ام لم يلحقوها . والى هذا ذهب الشهاب الخفاجي حيث يقول : « واعلم ان التعريب نقل

١ ـ انظر كتاب سيبويه ج٢ ص ٣٤٢

اللفظ من الاعجمية الى العربية »[1] وهو المفهوم ايضاً من عبارة سيبويه حيث يقول : « هذا باب ماعرب من الاعجمية : اعلم انهم مما يغيرون من الحروف الاعجمية ماليس من حروفهم البتة ، فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه »[2] .

أما الجوهري وغيره فقد ذهبوا الى ان التعريب هو ان تتكلم العرب بالكلمة الاعجمية على نهجها واسلوبها[3] .

وقد نتج عن هذا الاختلاف في الشرط اختلاف آخر في اعتبار الكلمات التي ينطق بها العرب : فهذه الكلمات عند سيبويه ومن ذهب مذهبه على رتبتين : عربية اصيلة ، مثل (ضرب وكتب ورجل وفرس) ، ومعربة دخيلة ، مثل (دِرهم وبَهْرَج وفِرِنْد وآجُرْ) ، وهي عند الجوهري والقائلين بمقالته على رتب ثلاث : عربية اصيلة ، مثل (رجل وفرس) ، ومعربة ، وهو مانطقت به العرب من الكلام الاعجمي على نهجها واسلوبها وألحقته بأبنيتها ، مثل (درْهم) الملحق ببناء (هِجْرع)، و (بَهْرج) الملحق ببناء (سَلْهب) ، واعجمية وردت في كلام العرب وهو مانطقت به العرب من غير ان تلحقه بأبنيتها ، مثل (خراسان وإهليلج وآجر) ، إذ ليس في اوزانهم فعالان ولا إفعيلل ولا فاعُلْ .

---

١ ـ شفاء الغليل . ص ٣
٢ ـ الكتاب . ج٢ ص ٣٤٢
٣ ـ انظر مادة (عرب) في الصحاح .

٢ - اقسام الدخيل :

قسموه الى ثلاثة أقسام :

١ - معرب : وهـــو مانطق به الجاهليون ومن يحتج بلغتهم من الكلام الاعجمي . وهـو أصغر الاقسام جميعاً ، بسبب عزلة العـرب في الجاهلية وعـــدم احتكاكهم بالامم المجاورة ، اللهم الا ما كان من اتصال القرشيين بالروم في الشام في رحلة الصيف ، وما كان من اتصال اهـل اليمن بالاحباش والفرس في مناسبات عسكرية وتجارية ، ثم ما كان من اتصـال عرب الخليج ومشارف العراق مع الفرس والهنود في علاقات اكثرها تجاري واقلها عسكري .

واكثر مانقله العرب الجاهليون ينحصر في اسماء المقاقير اوالادوات او المصنوعات او المعـادن او نحـوها ممـا كان يحمل الى بلاد العرب من بلاد الفرس او الروم او الهند اوغيرها ولم يكن للعرب معرفة به من قبل ، أو في بعض الاصطلاحات الدينية او الادبية ، واكثر ذلك منقول عن العبرانية او الحبشية لان اليهود والاحباش من أهل الكتاب[1] .

واكثر مانقله العرب في هذه الفترة كان من الفارسية ، وأقله كان من الرومية ، وأقل من ذلك كان من الحبشية :

فمـــا اقتبسوه من الفارسية (الكوز والجرة والابريق والطشت والخوان والطبق والقصعة والسكرجة والسمور والسنجاب والقاقم والفنك

---

١ - جرجي زيدان : تاريخ اللغة العربية . ص ٦

والدلق والخز والديباج والتاختج والسندس والياقوت والفيروزج والبلور والكمك والدرمك والجردق والسميد والسكباج والزيرباج والاسفيذاج والطياهج والفالوذج واللوزينج والجوزينج والبغربنج والجلاب والسكنجبين والخلنجين والدارصيني والفلفل والكرويا والزنجبيل والخولنجان والقرفة والنرجس والبنفسج والنسرين والخيري والسوسن والمزنجوش والياسمين والجلنار والمسك والعنبر والكافور والصندل والقرنفل) .

ومما اقتبسوه من الرومية (الفردوس والقسطاس والبطاقة والقرسطون والقبان والاسطرلاب والقسطل والقنطار والبطريق والترياق والقنطرة وغيرها) .

واما مانقلوه عن الحبشية فينحصر ، كما هو معروف عند جمهور اهل العربية ، في ثلاثة ألفاظ ، هي (كفلين ، والمشكاة ، والهرج) . إلا ان جرجي زيدان يرى ان « منبر » أيضاً معربة « ومبر » الحبشية بمعنى كرسي او مجلس او عرش . وان « النفاق » هو من الحبشية باللفظ نفسه وبمعنى الهرتقة او البدعة او الضلال في الدين ، ومثل ذلك « الحواري » بمعنى الرسول ، و « البرهان » بمعنى النور او الايضاح مشتقة من « بره » الحبشية بمعنى اضاء واتضح .

كما يرى هذا الباحث ان كلمات (الحج والكاهن والعاشوراء وغيرها) منقولة عن العبرانية ، وان (الصبح والبهاء والسفينة) منقولة عن السنسكريتية[1] .

---

١ ـ المرجع نفسه . ص ٧ ـ ٨

٢ ـ مولد : وهو ما عربه المولودون الذين لايحتج بالفاظهم[١] . والمولدون هم الاجيال الاولى التي ولدت في صدر الاسلام .

هذا ، والمولد في العربية اكثر كثيراً من المعرب ، وذلك بسبب اختلاط العرب بشتى الامم بعد الاسلام ، واخذهم عنهم الكثير من العلوم والفنون والآداب والعادات وغيرها .

فمما اقتبسوه من اسماء العقاقير (الافسنتين والبقدونس والزيزفون والسقمونيا والقنطاريون والمصطكي) من الرومية .

و (البابونج والبورق والبنج وخيارشنبر والراتنج والزرجون والزرنيخ والزاج واالسرقين والاسفيداج والشاهترج والشيرج والمرداسنج) من الفارسية .

ومن اسماء الامراض ونحوها من الاستعمالات الطبية (القولنج والترياق والكيموس والكيلوس وقيفال ولومان وملنخوليا) من الرومية و (سرسام ومارستان) من الفارسية .

ومن المصنوعات والادوات (الاسطرلاب والانبيق والصابون) من الرومية ، و (البركار والبوتقة والجنزار والدسكرة والاسطوانة) من الفارسية .

---

١ ـ انظر المزهر : ج١ ص ١٧٧ ومابعدها . هذا وللمولد معنى اعم مما ذكرنا فهم يعنون به كل مااحدثه المولدون في اللغة مما لم يعرفه العرب ، سواء في الاشتقاق والتعريب والمجاز . انظر كتاب « الاشتقاق والتعريب » ص ٦٢ ومابعدها .

ومن الاصطلاحات الفلسفية ونحوها (الهيولى والاسطقس والفلسفة والطلسم والمغنطيس والاقليم والقاموس والقانون) من الرومية .

ويضيق المقام عن استيفاء آلاف الكلمات التي نقلها المولدون الى العربية وأغلبها من الفارسية وهي تتعلق في اكثرها بأنواع الاطعمة والاشربة والالبسة والادوات والنباتات مما لم يكن للعرب عهد به من قبل .

٣ ـ محدث أو عامي : المحدثون هم من عاشوا بعد المولدين الى ايامنا هذه . ويسمى الكلام الذي عربه هؤلاء « بالمحدث » تمييزاً له من المولد ، ونسميه نحن اليوم « عامياً » . غير ان تمييز المولد من المحدث يبدو في اكثر الاحيان على جانب من الصعوبة ، اولاً لعدم الاتفاق على سنة معينة ينتهي عندها عصر المولدين ويبدأ بها عصر المحدثين ، وثانياً لصعوبة معرفة الوقت الذي ظهرت فيه الكلمة المولدة او المحدثة .

ومع ذلك فهناك الفاظ كثيرة لاشك في كونها من المحدث ، وذلك لتثبتنا من الزمن الذي ظهرت فيه ، وهو عصر الانحطاط المتفق على حداثته .

واكثر الالفاظ المحدثة هي من الفارسية او التركية او الكردية . وكلها ادارية من اصطلاحات الحكومة . واليك امثلة منها :

(الاستادار) هو من يتولى قبض مال السلطان أو الامير وصرفه . ويمتثل اوامره فيه .

(الجوكاندار) لقب من يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة

(الطبردار) الذي يحمل الطبر .

(السنجقدار) الذي يحمل السنجق وهو العلم .

(البندقدار) وهو من يحمل جـراوة البندق خلف السلطان او الأمير .

(الجمدار) الذي يتصدى لالباس السلطان او الامير ثيابه . واصله « جامادار » .

(البشمقدار) من يعمل نعل السلطان .

(المهمندار) الذي يهـتم بالرسل والعربان الواردين على السلطان ، وينزلهم الضيافة .

(الزنان دار) وهو « الزمام دار » ، من يتحدث مع السلطان وهو من الخدم او الخصيان .

(الجاشنيـكر) من يتصدى لذوق المأكول خوف التسمم .

(السرآخور) المتحدث عن علف الدواب .

(أمير آخور) صاحب الاسطبل[1] .

٣ - حكم الدخيل :

قال ابو منصور الجواليقي في المعرب[2] : وهـذه الحروف [يعني الكلمات المعربة] بغير لسان العرب في الأصل .... ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته فصار عربياً بتعريبها إياه » .

---

١ - عن كتاب : تاريخ اللغة العربية لجرجي زيدان . ص ٤٧ .
٢ - ص ٥

وقد تبع الجواليقي الامام ابن الجوزي وغيره ، وصرحوا بأن الكلمات الأعجمية إذا عربت صارت عربية ، وجرى عليها من الاحكام ما يجري على الكلمات العربية الأصيلة : فتتوارد عليها علامات الاعراب إلا في بعض الأحوال ، وتعرف بأل ، وتضاف ويضاف إليها ، وتثنى ، وتجمع ، وتذكر وتؤنث ، بل قد يشتق منها كما يشتق من الاصول العربية ، فقد اشتقوا من « فيلسوف » فلسفة ، وتفلسف ؛ ومن « سوفسطائي » سفسط وسفسطة ؛ ومن « طراز » تطرز تطريزاً ، وهو مطرِّز ، والثوب مطرَّز ؛ ومن « ديوان » دوّن تدويناً ؛ ومن « دهقان » دهقنوه دهقنةً ، وتدهقن ؛ ومن « خاقان » خقنوه على أنفسهم ، أي ملّكوه ؛ ومن «اسقف » أسقفوه على ابناء طائفته اذا جعلوه اسقفاً عليهم . واهدي الى علي رضي الله عنه خبيص في النوروز فقال : نورزوا لنا كل يوم .

وقال الشاعر :

نورز الناس ونورز ت ، ولكن بدموعي
وذكت نارهمو والنـــار ما بين ضلوعي

وذلك انهم في يوم النوروز كانوا يشعلون النيران ، ويرشون المياه أمام بيوتهم . ذكر ذلك المقريزي وغيره [1] .

٤ ـ طرائقهم في التعريب :

١ ـ ربما تركوا الاسم المعرب على حاله في لغته اذا كانت حروفه من حروفهم ، سواء اكان على بناء من ابنية كلامهم أم لم يكن ، نحو :

---

١ ـ عن كتاب الاشتقاق والتعريب . ص ٤٨ ـ ٤٩

خراسان ، وخرَّم .

٢ ـ وربما الحقوا الاسم المعرب بابنيتهم ، نحو : درهم ، ودينار .

٣ ـ وربما غيروا الحرف الذي ليس من حروفهم ، نحو : فِرِنْد وآجر .

وقد اطرد ابدالهم في الالفاظ الفارسية على الشكل الآتي :

١ ـ ابدلوا من صوت الـ (g) الفارسي جيماً عربية لقربها منه ، فقالوا : الجربز ، مكان gurbuz . وربما ابدلوا القاف لأنها قريبة أيضاً ، فقالوا : قربز ، بل ربما ابدلوا الكاف ايضاً فقالوا : كُربَقٌ ، مكان gurbah .

٢ ـ وابدلوا من الهاء الفارسية المتطرفة جيماً عربية ، فقالوا : كوسج ، مكان كوسه ، وذلك ان هذه الهاء لا تثبت في كلام الفرس اذا وصلوا ، بل تبدل وتحذف همزة مرة ، وياء مرة أخرى(١) ، ولما كانت الجيم العربية أقرب الاصوات الى الياء جعلوها مكانها . وربما ابدلوا من هذه الهاء المتطرفة قافاً ، وقد قالوا : كوسق ، مكان كوسه .

٣ ـ وأبدلوا من صوت الـ (P) الفارسي فاءً مرة وباء مرة أخرى لانها قريبتان منها ، اذ من المعروف ان لا فرق بين الـ (P) والباء سوى ان الأول مهموس والثاني مجهور ، كما ان كلا الـ (P) والفاء حرف شفوي ، سوى او الأول انفجاري ، والثاني احتكاكي .

---

١ ـ انظر كتاب سيبويه : ج ٢ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣

ولهذا كله قالوا مكان (Pirind) : فرنداً مرة وبرنداً مرة أخرى .

٤ ـ وابدلوا من صوت (O) ضمةً عربية صريحة ، فقالوا : زور ، وآشوب ، مكان Zor و ashob .

هذا ومن عادة العرب ان يفخموا اصوات ما يعربونه من الكلمات ، فيجعلون مكان السين صاداً ، ومكان الكاف قافاً ، ومكان التاء طاءً . . وهلم جرا ، نحو :قسطنطين ،وافلاطون ، وصراط ، وقرطبة ،وغيرها .

٥ ـ هل كان التعريب عن مجرد الحاجة ؟ :

نعم ، في اكثر الأحيان . لكن العرب كانوا يصطنعون التعريب في أحيان اخرى ولا حاجة تدعوهم الى ذلك ، لوجود مقابلات عربية تغني عما يعربون . وانما كانوا يعربون مع ذلك ايثاراً الالطف من الألفاظ او حباً في التظرف والتأنق .

فمما عربوه وله في العربية مقابل :

البَذَج ـ وعربيته الخروف .
البَرَق ـ وعربيته الحَمَل
الدلفين ـ « الدُخَس .
البال ـ « الحوت العظيم .
الانكليس ـ « جِرِّيث (نوع من السمك يسمى اليوم جري)
البَبْر ـ « الاسد .
الزندفيل ـ « الكلثوم (وهو الفيل العظيم)

الباذنجان ـ وله في العربية عشرة أسماء ، هي : المغد ، والوغد ، والكهكب ، والكهكم ، والأنَب ، والحيصل ، والحَدَق ، والمُقّاح ، والشرجبان ، والانفحة . وقيل إن الثلاثة الاخيرة لثمر يشبه الباذنجان وليس إياه .

اللوبياء ـ وله في العربية اربعة أسماء : الدَجْر ، واللياء ، والحُنبل ، والأحبل .

الاسفناخ ـ وعربيته الرحا .
التوت ـ « الفرصاد .
الخوخ ـ « الفرسك .
الخيار ـ « القَشَد .
الزنزلخت ـ « القيقبان .
الأترج ـ « المَتْك .
البندق ـ « الجلوز على وزن سنور .
السرو ـ « العرعر .
الكزبرة ـ « التِقْدة .
النرجس ـ « القَهة ، والقَهد ، والعبهر .
الآبنوس ـ « السأسم .
البنج ـ « الشيكران .
السكباج ـ « الصمفصة : (لحم يطبخ بخل) .
الرصاص ـ « الصرفان ، والآنك ، والاُسرب .
الهاون ـ « المنحاز ، والمهراس .
السجنجل ـ « المرآة ، والوذيلة .

الصولجان ـ وعربيته الطبطابة ، والميجار .

٦ ـ طريقة تحقيق المعرب :

لتمييز الاصيل من الدخيل طرائق مختلفة إليك أهمها :

١ ـ التحقيق التاريخي ـ وهو أنجع الطرق وأصحها وأهمها .ولكن التاريخ قد لايسعفنا في أغلب الاحيان ، وذلك في الكلمات التي دخلت العربية في أزمنة متقدمة .

٢ ـ الطريقة الصوتية ـ فاذا اجتمع في الكلمة اصوات لاتجمع بينها العربية في كلمتها دل ذلك على انها دخيلة ، وذلك كاجتماع الجيم والقاف في نحو : منجنيق ، والنون والراء ، في نحو : نرجس ... الخ[1] .

٣ ـ الميزان الصرفي ـ اذا كانت الكلمة على غير ابنية العرب دل ذلك على عجمتها ، مثل : خراسان وآجر .

٤ ـ الاشتقاق ـ اذا لم يكن للكلمة أصل اشتقاقي عربي دل ذلك على عجمتها ، مثل : تنور . « قال ابو منصور : وهذا يـدل على ان اسم التنور في الاصل اعجمي فعرّبتها العرب فصار عربياً على بناء فعّول والدليل على ذلك ان اصل بنائه (تنر) . قال : ولانعرفه في كلام العرب لانه مهمل » انتهى تاج .

١ ـ انظر الصفحات الاولى من كتابي : المعرب للجواليقي ، وشفاء الغليل للخفاجي . وراجع باب الاصوات من هذا الكتاب .

٥ ـ دراسة الاجتماع والاقتصاد ـ اذا تنازعت العربية والاعجميات كلمة واحدة نظر الى مدلول الكلمة ، فان دلت على شيء يختص بـه العرب كانت عربية ، وان دلت على شيء يختص بـه الاعاجم كانت دخيلة : فالقهوة والجمل والغزال والزرافة والكندر (نوع من الصمغ) كلها عربية وان وجدت في السن أخرى ، لان هذه الكلمات تدل على محصولات او حيوانات اختص بها العرب واشتهروا بهـا من دون سائر الامم . والمسك والفلفل هنديان ، لانهما يدلان على نوعين من المحصولات التي لاتوجد الا في الهند . والكافور ملقي الاصل لان منشأه من جزيرة ملقا ... وهكذا[1] .

٦ ـ المقارنة ـ اذا تنازعت العربية وغيرها كلمة ما ، ولم تسعفنا الطريقة السابقة في تعيين أصلهـا ، لجأنا الى مقارنـة العربية بأخواتهـا الساميات ، فان وجدت هذه الكلمة فيها دل ذلك على عربيتها ، وإلا فهي دخيلة ، مثل كلمة (بلاط) بمعنى قصر الملك ، فهذه الكلمة تدعيها اللاتينية ، وهي منها لسببين ، لان الرومان يرجعون بأصلها الى تل كان في رومية باسم Palatium نزل عليه أوغسطس قيصر واقام فيـه فسمي قصره به ، ولان هذه هذه الكلمة لاوجود لها في أخـوات العربية من الساميـات[2] .

٧ ـ حول قياسية التعريب :

ليس في كلام اهل اللغة من القـدماء مايشير صراحـة الى سماعية

---

١ ـ انظر تاريخ اللغة العربية : ص ٨ ومابعدها
٢ ـ انظر المرجع نفسه . ص ١٠

التعريب ، بمعنى انه لايجوز لغير العرب من المتكلمين بالعربية ان يعربوا الكلمات الاعجمية ، كذلك ليس في كلامهم ماينص صراحة على قياسيته ، بمعنى انه يجوز لغير العرب المحتج بلغتهم ان يعرب . لكن الاستاذ عبد القادر المغربي يورد في كتابه « الاشتقاق والتعريب » كلاماً متناقضاً حول هذا الموضوع . فبعد ان يقول في الصفحة (٤٤) إنه لم يعثر على رأي للعلماء في التعريب ، ويرجح قياسيته بدليل كثرة الكلمات الاعجمية التي نقلت الى العربية في القرون الاسلامية الاولى واستعملها جمهور الادباء في منثورهم ومنظومهم بلا نكير ، يعود فيقول في الصفحة (٨٣) مانصه : وهل المولدين الذين جاؤوا بعد العرب ممن يتكلم بلغتهم ان يعرب ؟ اي ان يدخل كلمة اعجمية في كلام العرب فتصبح عربية ؟ . قالوا : لا . وانما التعريب خاص بالعرب ، وهو حقهم وملك ألسنتهم ، والكلمات التي يعربونها يجوز لنا نحن المولدين استعمالها كسائر كلمات لغتهم ... الى ان يقول : هذا ملخص مايقوله كتابنا الاقدمون في هذا البحث ، بحث التعريب وفي تحديد موقفه من اللغة الفصحى » .

ومع ذلك فالموضوع لايزال في حاجة الى مزيد بحث وتحقيق .

٨ ـ القرآن والدخيل :

اختلف القدماء في هذه المسألة اختلافاً كبيراً ، فذهب الشافعي وابو عبيدة والقاضي ابوبكر الباقلاني وغيرهم الى انه ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب . فقد روي عن ابي عبيدة أنه قال : من زعم ان في القرآن لساناً سوى العربية فقد اعظم على الله القول . واحتج بقوله تعالى :

إنا جعلناه قرآناً عربياً[1] .

وقال الشافعي في كتاب الرسالة[2] : وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ماتكلم فيه منه لكان الامساك اولى به وأقرب من السلامة له ان شاء الله . فقال منهم قائل إن في القرآن عربياً واعجمياً . والقرآن يدل على ان ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب . ووجد قائل هذا القول مَن قَبِل ذلك منه تقليداً له وتركاً للمسألة له عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه . وبالتقليد أغفل من أغفل منهم . والله يغفر لنا ولهم » .

لكن ابن عباس وعكرمة ومجاهداً وغيرهم خالفوا في ذلك وقالوا باشتمال القرآن على كلمات اعجمية ، مثل : سجيل ، والمشكاة ، واليم ، والطور ، واباريق ، واستبرق ، وغير ذلك .

فأما الجواليقي وابو عبيد وغيرهما فقد حاولوا التوفيق بين المذهبين . قال الجواليقي في المعرب[3] : « قال ابو عبيد : وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في احرف كثيرة أنه من غير لسان العرب مثل : سجيل والمشكاة ... فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ، ولكنهم ذهبوا الى مذهب ، وذهب هذا الى غيره ، وكلاهما مصيب ان شاء الله تعالى . وذلك ان هذه الحروف [الكلمات] بغير لسان العرب في الاصل ،

---

١ ـ المعرب للجواليقي . ص ٤
٢ ـ ص ٤١ ومابعدها .
٣ ـ ص ٥ ، وانظر شفاء الغليل ص ٣

فقال اولئك على الاصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته ، فصار عربياً بتعريبها اياه . فهي عربية في هذه الحال ، اعجمية الاصل . فهذا القول يصدق الفريقين جميعاً » .

٩ ـ مواقف المعاصرين من التعريب :

ان ازمة العربية في المفردات تزداد تفاقماً يوماً بعد يوم ، وذلك بسبب ماتقذفنا به الحضارة الغربية كل يوم من عشرات الاسماء مما يتعلق بالعلوم والفنون والآداب والفلسفة والنظم الاجتماعية والسياسية والآلات والمخترعات والمستحضرات الصناعية والصيدلانية وغيرها وغيرها .

امام هذا الطوفان الهائل من الكلمات كان لابد لاهل اللغة من اتخاذ موقف معين من مسألة التعريب . وقد اختلفوا في ذلك فكانوا على طوائف :

١ ـ المتطرفون : ويذهب هؤلاء الى وجوب تعريب الالفاظ الاعجمية كيفما اتفق ، ثم استعمالها من دون قيد ولاشرط إلا ذوق الكاتب . وقد عبر عن رأيهم واحتج لمذهبهم الاستاذ يعقوب صروف بما جاء في مجلة المقتطف(١) :

س ـ لماذا تستعملون كلمة (مكروسكوب) ولاتستعملون كلمة

---

١ ـ جزء ٤ مجلد ٦٤ في باب الاسئلة والاجوبة تحت عنوان (المكرسكوب والمجهر) .

(مجهر) التي وضعت حديثاً لهذه الآلة ؟

ج ـ اننا نستعمل كلمة (مكروسكوب) للسبب الذي لاجله استعمل فلكيو العرب كلمة (اسطرلاب) واستعمل فلاسفة العرب كلمة (ايساغوجي) واستعمل اطباء العرب كلمة (كيموس) ومئات من الكلمات الطبية اليونانية ، واستعمل نباتيو العرب مئات من اسماء النباتات اليونانية والفارسية . وكان في امكان هؤلاء جميعاً ترجمة هذه الكلمات الاعجمية ، او وضع كلمات عربية لها بالاشتقاق او بالنحت ، ولكنهم اقتبسوها كما هي ، وحسناً فعلوا ، تسهيلاً لنقل العلوم واشتراك العلماء ، وجاراهم الجوهري والفيروزآبادي وابن سينا وغيرهم من جامعي متن اللغة ولم يروا معرة على العربية ان تدخلها كلمات اعجمية . ولانقول إنه يستحيل علينا ان نضع لبعض الكلمات العلمية الفاظاً عربية إما بالنحت او بالاشتقاق كما وضعت كلمة (ماهية) وكما وضعنا كلمة (غواصة) ، ولكننا لانرى من الحكمة ان نحاول ذلك اذا سبقنا غيرنا الى تعريب الكلمة الاعجمية ، او اذا رأينا الكلمة الاعجمية سهلة اللفظ والاستعمال ، مثل كلمة (مكروب) ، او اذا كان للفظ العلمي دلالة معنوية اصطلح عليها علماء الفن ككل المصطلحات الكيماوية والجيولوجية والنباتية والجغرافية ، او اذا كانت خاصة باصحاب فن كأسماء الادوية الجديدة . وهي كثيرة تعد بالمئات كالكينا والانسولين والانتيبرين والفيناتستين والحامض الكاربوليك واليود والاستركينين وماشبه » .

٢ ـ المتعصبون : ويذهب هؤلاء الى عدم جواز التعريب ، وان علينا ان نسد حاجتنا الى المفردات بطرق أخرى كالاشتقاق والنحت

والابدال وغيرها .

منهم الشيخ احمد الاسكندري الذي يقول بوجوب الاعتقاد بخطئنا حين نستعمل لفظاً أعجمياً لامرادف من العربية له ، ووجوب بحثنا عن مرادف عربي له يقوم مقامه(١) .

ومنهم الاستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي ينعى على اصحاب المذهب الجديد في الادب حشوهم كتاباتهم بالالفاظ الاعجمية المستكرهة. يقول : من الخير لانصار المذهب الجديد ان يولدوا من جديد ، وان يتعلموا الادب العربي من جديد ، وليأخذوا منه بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء . ذلك خير لهم من ان ينتحلوا مذهبهم الجديد ، ولغتهم الجديدة ، فيدخلوا في اللغة والادب ماليس في حقهم ان يدخلوه ؛ ذلك لان اللغة موروثة ، وهي ملك الملايين من الاعمار ، ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب ان نتكلمها كما ورثناها دون ان ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا »(٢) .

ومنهم الاستاذ عزالدين التنوخي الذي يرى ان في العربية من اساليب الاشتقاق والابدال مايفي بحاجتنا المتجددة الى المفردات . يقول : وعلى هذا الاسلوب المفيد (اسلوب الابدال) أرى ان نسمي كسارة الجوز Casse - noix (مرضخة) ، وكسارة اللوز Casse - noisette (مرضحة) بالحاء المهملة ، والعكس جائز . وارى ان سلفنا العربي

---

١ ــ الاشتقاق والتعريب . ص ١٤٩
٢ ــ من مناقشة لطه حسين يناقش بها الرافعي . نقلاً عن الاشتقاق والتعريب . ص ١٢٩

الصالح عرف كيف يستعمل لغته فخصص (الغبن) بالثوب ، و (الغبن) بالعروض ، وهما في الاصل بمعنى متشابه . وما كان آباؤنا على عهد الترجمة العباسية بجامدين »[1] .

٣ ـ المتدلون : ويـــذهب هؤلاء الى جواز الاستعانة بالتعريب لسد حاجة العربية الى المفردات بشرط ألا يفسد هـذا المعرب اصـلاً من أصول اللغة أو يخرج بها عن طريقها المألوفة . وهؤلاء كثر نـذكر منهم طه حسين والشيخ محمد الخضري والشيخ عبد القادر المغربي وأحمـد أمين وماري زيادة وأحمد زكي باشا .

---

١ ـ من مقدمة التنوخي في تحقيقه لكتاب (الابدال) لابي الطيب اللغوي الحلبي . ص ٤٢ .

تبدلات الدلالة

دلالة الكلمة ليست ثابتة في كل الازمان ، بل هي في تغير مستمر لايتوقف ، شأنها في ذلك شأن النظام الصوتي والنظام النحوي . ولكي يستوثق القارىء من ذلك يكفيه ان يتصفح احد معاجم العربية ليرى الفروق الكبيرة بين ما كان يفهمه العربي الجاهلي من كلمات لسانه وبين مانفهمه منها الآن . فالقاموس المحيط يقول لنا إن (المجون) هو الصلابة والغلظ ، ولكننا نعلم اليوم ان هذه الكلمة لاتعني في اذهان من يستعملونها او يسمعونها إلا (التهتك وعدم المبالاة بما تواضع الناس عليه) ، وهو المعنى الذي اخذته منذ عهد المولدين . وكلنا اليوم لانفهم من كلمة (انهزم) العدو إلا معنى (فر) ، ولكن القاموس يقول إنها لاتعني إلا (انكسر) فقط ، لان (هزم الرجل فلاناً) معناه ضربه فدخل مابين وركيه وخرجت سرته . بل إن الزمخشري قد وجه كل همه في معجمه (اساس البلاغة) الى ايراد المعاني الحقيقية للمفردات العربية ثم ايراد مادخلها من المعاني المجازية . وبالطبع ، فان المعنى الحقيقي للكلمة هو المعنى السابق الذي كان لها في القديم ، والمعنى المجازي هو المعنى الذي صارت اليه فيما بعد .

قد يقال . ولكن المجاز لايعني تبديلاً في دلالة الكلمة ، وانما يعني إكسابها - فوق معناها الحقيقي - معنى آخر عن طريق التشبيه اوغيره من مسالك المجاز .

هذا القول يظل صحيحاً مابقي المعنى الحقيقي حياً في الاذهان ، وماظل المجاز واضح العلاقة محسوسها ؛ لكن الذي يحدث في اغلب الاحيان هو ان المعنى الحقيقي يتوارى من ساحة الشعور ويترك الميدان للمعنى المجازي وحده ، فاذا بالكلمة وقد فرغت من معناها القديم الذي كان لها لتأخذ المعنى الجديد الذي قد يختلف اختلافاً يسيراً أو كبيراً عن سابقه . ولنا في كلمة (منوال) خير مثال على هذه الظاهرة ، فلو سألت تسعة وتسعين بالمئة من ابناء العربية اليوم عن معنى هذه الكلمة لقالوا لك : (المنوال) هو الطريقة او الاسلوب أو مافي معناها ، ولما خطر ببال أحدهم ان يقول لك ان المنوال هو خشبة الحائك ، لانه في الواقع لايعرف لها هذا المعنى الذي هو معناها الحقيقي ، ولو قلته له لعدك جاهلاً ، ولاستشهد لك على صحة رأيه بعبارة (نسج على منواله) التي تساوي في معناها (سار على طريقته) ، بل لاتعدم من بين الكتاب من يكتب (سار على منواله) ، فكأن هذا الكاتب ، وقد فهم كلمة المنوال على انها الطريقة او المنهاج ، لم يجد كلمة (نسج) مما يأتلف مع المنوال ، فابدل بها كلمة (سار) . وماقلناه عن كلمة (منوال) يقال مثله عن كلمة (نمط) ، فأكاد أجزم بأن كل متكلمي العربية اليوم لايفهمون منها الا (الهيئة والشكل) ، اما معناها الحقيقي ، وهو (البساط) ، فلا يكاد يعرفه إلا المتخصصون بالامور اللغوية .

وههنا اعتراض آخر ، فقد تقول : ولكن تبدل الدلالة لكلمتي المنوال والنمط كان عن خطأ سببه جهلنا بحقائق العربية ومعاني كلماتها . وأقول لك : ان هذا ليس خطأ ، بل هو مسلك لغوى طبيعي ، يجري في العربية كما يجري في غيرها من الالسن . إنه فقط مجرد نسيان للمعنى الحقيقي للكلمة ، واعطائها معنى جديداً لم يكن لها من قبل .

* * *

إن دراسة التطور الدلالي للمفردات جزء من مهمة علم الايتيمولوجيا . وهو فرع من أهم فروع فقه اللغة . وتنحصر مهمته في اخذ الفاظ القاموس كلمة كلمة ، وتزويد كل واحدة منها بما يشبه ان يكون بطاقة شخصية يذكر فيها من اين جاءت ، ومتى ، وكيف صيغت ، والتقلبات التي مرت بها ... من جهة المعنى ، او من جهة الاستعمال(١) .

ولايظنن القارىء من هذا الكلام أننا بسبيل ان نقدم له دراسة ايتمولوجية لالفاظ العربية . ان هذا مخيب للأمل ولاشك . ولكن لابد منه لسببين : أولهما ان مثل هذا العمل ليس في مقدورنا

---

١ ـ فندريس : اللغة ص ٢٢٦

ولا مقدور العشرات من امثالنا . بل حتى المئات من المتبحرين لايستطيعون شيئاً في هذا الشأن قبل ان يطبع وينشر كل ماكتب بالعربية خلال القرون . وكلنا يعلم ان ماطبع من التراث العربي حتى اليوم لايعد شيئاً مذكوراً بالقياس الى مايزال مطوياً في بطون المخطوطات .

وثانيهما اننا في ميدان فقه اللغة العام ـ وهذا الفصل يجري في ميدانه ـ لايهمنا كثيراً ان نعرف تاريخ بضع كلمات قد اخذت على انفراد فايتيمولوجية الالفاظ منفردة لافائدة منها في حد ذاتها . ذلك ان الحالة الخاصة مهما ثبتت علمياً ليست الا ملهاة يتسلى بها اذا لم يستخرج منها مبدأ عام يستطاع تطبيقه على حالات أخرى(١) .

اذن فهمنا هنا ان نبحث عن القوانين العامة التي بمقتضاها تتطور دلالة المفردات ، وسبيلنا الى ذلك ان نجمع اكبر عدد من العمليات المعنوية المتشابهة بقصد ان نستخرج منها القانون الذي يحكمها .

★ ★ ★

وإليك أهم ماوصل اليه فقه اللغة في هذا الشأن :

١ ـ الكلمات في الذهن ليست على شيء من الفوضى ، بل يميل الذهن الى ان يرتبها في نوعين من المجموعات : مجموعات يربط بين افراد كل منها معنى عام واحد ، مثل مجموعة : (كتب ـ كاتب ـ مكتوب ـ

---

١ ـ نفسه : ص ٢٤٩

كتابة ـ مكتب ـ استكتب مكاتبة ...) ، ومجموعات يربط بين افراد كل منها صيغة صرفية معينة ، مثل مجموعة : (كاتب ـ قائل ـ عالم ـ ذاهب ـ راجع ...) . وعلى ذلك يكون لكل كلمة نسبان : نسب يربطها باسرتها المعنوية ، وآخر يربطها باسرتها الصيغية .

والذي يمسك على الكلمة معناها انما هو انتسابها الى اسرة معنوية ، فكلما حاول معناها ان ينحرف ردته بقية افراد الاسرة . فاذا حدث لكلمة ان فقدت افراد اسرتها لم يبق شيء يمنع المعنى من ان يضل الطريق . ويكثر ذلك في حالة الكلمات الدخيلة ، فهذه الكلمات تدخل اللسان الجديد وحدها في العادة ، غير مصحوبة بأفراد اسرتها ، وحينئذ تصبح عرضة لتغير معناها في هذا اللسان . ومن الامثلة الجيدة على ذلك كلمة (آمين) . فنحن نعرف الآن ان هذه الكلمة من السريانية ، وانها تعني هناك (الابد) أو (ابداً) او (الى الابد) ، وهو المعنى الذي لايزال لها في السريانية حتى اليوم ، وانما حفظ معناها ان لها في ذلك اللسان اسرة معنوية تتألف من (امن) بمعنى (خلد) و (آمينوتا) بمعنى الابدية . أما عندما دخلت العربية وحدها فقد تهيأت لها الفرصة لتنحرف بمعناها في هذا اللسان الى معنى (استجب) او (كذلك فليكن) ، وهذا المعنى الاخير ذكره لها القاموس المحيط ، وهو نفس المعنى الذي انتهت اليه في الفرنسية ، فقد جاء في معجم (لاروس) : (Amen : mot qui signifie ainsi soit-il) ، وفي الكنائس السورية التي تجري طقوسها بالعربية اليوم تنتهي الادعية دائماً بعبارة (الى الابد آمين) ، فكأنهم بعد ان ترجموها بمعناها الاصلي ابقوها الى جانب

الترجمة بقصد التبرك .

وماحدث لكلمة (آمين) حـدث مثله لكلمة (أسكي) . فهذه الكلمة لاتعني في لسانها التركي إلا القدم ، لكنها حـين دخلت عامية حلب لم تعد تعني الا المهارة والجودة ، فاذا قيل عندنا (صانع أسكي) او (معلم اسكي) او (قطن اسكي) فهمنـا منها ان المعـلم والصانـع ماهران ، وان القطن جيـد ، ولم نفهم منهـا ان المعلم قـديم وان القطن عتيق رديء .

رأينا في المثالين السابقين ان فقد الاسرة المعنوية كان سببه وجود الكلمة وحدها في لسان غريب عنهـا . ولكن هذا ليس شرطاً لازماً ، فقد يحـدث لكلمة ما ان تفقد افـراد اسرتها وهي لاتزال في لسانها . وحينئذ لاتختلف النتيجة عن سابقتهـا . فحـين فقدت (تقاعس) في عربيتنا الحديثة أختيها (أقعس) و (إقعنسس)[1] ، لم نعد نفهم منهـا الارتفاع والتسامي ، بل معنى التهاون والكسل .

قد يحدث للكلمة ان تنحل أواصر قرباها مع أفراد أسرتها بسبب عوارض صوتية أصابتهـا ، وحينئذ تصبح العلاقة بينها وبـين شقيقاتها غامضة أو مفقودة في ذهـن المتكلم او السامع . والنتيجة لكل ذلك لاتختلف عن نتيجة الكلمة الـتي فقدت افراد اسرتها . هـذه هي حالة الكلمة (سِيْءَ) . فبعد ان فقدت هذه الكلمة علاقتهـا مـع اخواتها

---

١ ـ الاقعس : الرجل الذي برز صـدره ، واقعنسس : ارتفـع ، ومثلهـا تقاعس . قال الراجز : تقاعس العز بنا فاقعنسسا .

(السواء ـ ساوى ـ المساواة ـ التساوي ...) بسبب الاعـلال الذي اصابها (١) ، كانت النتيجة انها فقدت معنى التساوي ، واخذت معنى عدم المبالاة . فما اكثر الاشخاص الذين لايفهمون الآن من عبارة (سيان عندي) إلا معنى (لاأبالي) . بل ان بعضهم لاينتبه الى التثنية في كلمة (سيان) فيفتح نونهـا وكأنها نوع من الظروف أو المفعولات المطلقة ، او كأنها اسم فعل مثل وشكان وسرعان .

٢ ـ وعلى العكس من ذلك تماماً ، فقد يتفق لكلمة ان تتشابـه أصواتها مع أصوات أسرة معنوية لاعلاقة لها بها ، ولكن الذهن ـ وقـد خدعه هذا التشابه ـ يضم الكلمة الى هذه الاسرة ، ويعطيهـا معناها . هذا ماحدث بالضبط لكلمة (خلاق) في قول حافظ ابراهيم :

لاتحسبن العلم ينفع وحده　　　مالم يتوج ربــه بخلاق

فقد اعطاها الشاعر معنى (الاخلاق) في حـين نعلم ان معناهـا الاصلي هو (النصيب من الخير) كما في قوله تعالى : أولئك لاخلاق لهم في الآخرة .

مثل هذا يقال في كلمة (مازن) الـتي يعتقد الكثير من الناس أنها من المزن والمزنـة ومايتصل بها من معاني السحاب الممطر في حـين تقول لنـــا المعاجم ان معناهـا هـو (بيض النمل) أو (المشرق الوجه) .

---

١ ـ الاصل في (سي) (سوي) بكسر فسكون . فلما اجتمعت الواو والياء والاولى ساكنة قلبت الواو ياء وادغمت في الياء .

٣ ـ قلنا قبل قليل إن الكلمات تترتب في الذهن في مجموعات تجمع بين افراد كل منها صيغة صرفية معينة ، مثل (كاتب ـ قارىء ـ ضارب ... الخ) . والواقع ان هذه المجموعات لا ترتبط فيما بينها بهذا الرابط اللفظي وحده ، ذلك ان صيغة (فاعل) تحمل في ذاتها معنى نحوياً هو معنى الفاعلية . وعلى هذا تؤلف الكلمات التي على وزن (فاعل) أسرة صيغية معنوية في الوقت نفسه ، إلا ان المعنى هنا هو معنى نحوي فقط . في مثل هذه الحال ، اذا انصبت كلمة في قالب (فاعل) اعطاها الذهن معنى الفاعلية ولو لم تكن من اسماء الفاعلين ، فمن ثمَّ لا يفهم اغلب الناس من كلمة (نائل) إلا معنى (الآخذ) مع انها لا تعني في المعاجم إلا (العطاء) والشيء (المنول) .

★ ★ ★

رأينا في الامثلة السابقة أثر تجمع الكلمات في الذهن في تطور الدلالة ، لكن هذا ليس هو الأثر الوحيد . ذلك ان الكلمات ليست مكنوزات ذهنية ، بل هي بضاعة للتداول والاستعمال . واثر السياق في تطور الدلالة للكلمات وهي في حاله الاستعمال اقوى من أثر الكلمات بعضها في بعض وهي في الذهن في حالة سكونية .

ويتجلى اثر الاستعمال في تطور الدلالة في صورتين : الاستعمال الثابت، والاستعمال المتكرر :

١ ـ الاستعمال الثابت يبدل دلالة الكلمة .

وما نعنيه بالاستعمال الثابت هو ورود الكلمة دائماً في عبارة مخصوصة . وقبل أن نذكر الأمثلة على ذلك نرى من الأجدى ان نبين كيف يتأتى لهذا النوع من الاستعمال ان يغير معنى الكلمة .

من المعروف ان معنى الكلمة لا يتحدد في الذهن بصورة دقيقة إلا بعد سماع هذه الكلمة في عبـارات مختلفة ، واستعمالات متنوعة . فـكل استعمال يلقي شعاعاً على جانب من جوانب المعنى . وعن طريق المقارنة يتيسر للذهن ان يهتدي الى المعنى الحقيقي الدقيق للكلمة : فانا وانت لم نفهم بالضبط معنى كلمة (الباب) إلا بعد ان سمعناها في عبارات مختلفة مثل : (افتح الباب ـ اغلق الباب ـ صنع النجار باباً ـ ادخلوا البيوت من أبوابها ـ هذا باب خشبي .. الخ الخ) أما لو قدر لنـا ألا نسمع كلمة الباب إلا في عبارة واحدة دائماً ، ولتكن : (هذا الرجل باب الله) ، لسهل علينا ان نخطىء فنفهمها على انها مساوية لكلمة (الولي) .

وفي كل لسـان كلمات محدودة الاستعمال لا تظهر مطلقاً إلا في صحبة بعض الكلمات الأخرى . وفرصة الخطأ في هذه الكلمات أوسـع . لأن الاستعمال لا يقدم لنا الوسيلة لتحديد قيمتها . وفي هذه الحال كثيراً ما تبتعد الكلمة عن دلالتها الأصلية بسبب المعنى الزائف الذي يضـاف إليها [1] .

بسبب هذا الاستعمال الثابت إذن صرنا نفهم من كلمة (المنوال) معنى (الطريقة) ، لا معنى (خشبة الحائك)، وذلك لاننا لم نجدها إلا في عبارة (نسج على منواله) . وبسببه ايضاً صرنا نفهم من كلمة (النمط) معنى (الهيئة) ، لا معنى (البساط) ، لاننا لم نسمعها إلا في عبـارة (هؤلاء على نمط واحد) . وبسببه كذلك غدا العرب حتى الاوائل منهم يفهمون من كلمة (العقيرة) معنى (صوت المغني أو البـاكي) ، لا معنى (الرِجل المقطوعة) ، لانها ثبتت منذ زمن مبكر في عبـارة (رفع

---

١ ـ فندريس : اللغة ص ٢٥٣

عقيرته بالصياح أو الغناء) .

٢ الاستعمال المتكرر يبدل معنى الكلمة .

وعلى العكس مما سبق ، نلاحظ أن الكلمة اذا زاد استعمالها زيادة كبيرة، واعتمدت اللغة عليها في عباراتها المختلفة تعرض معناها للتبدل ، لأن الذهن يوجه في كل استعمال في اتجاه مخالف ، وذلك يوحي إليه بخلق معان جديدة . ومن هنا ينتج ما يسمى بالتأقلم ، اي قدرة بعض الكلمات على على اتخاذ دلالات متنوعة تبعاً للاستعمالات المختلفة التي تستعمل فيها ، وعلى البقاء في اللغة مع هذه الدلالات[1] . وعندنا في العربية مثال جيد على التأقلم في كلمة (فصل) . فهذه الكلمة لم يكن يفهم منها إلا (القطع والعزل) . ثم استعملها المؤلفون القدماء كاشارة الى انتقالهم من موضوع الى موضوع آخر في مؤلفاتهم ، وكانت عندهم في تقاليد كتابتهم تساوي تماماً ما نفعله في تقاليد كتابتنا من بدء من اول السطر أو أول الصفحة. ثم استعملت بمعنى الجزء من اجزاء الكتاب . وفي عصرنا الحاضر اطلقناها على الجزء من المسرحية أو الرواية ، وعلى الفترة الدراسية التي تستغرق ثلاثة اشهر أو اربعة ، وفي مصر يطلقونها على قاعة الدرس . وعامتنا تقول : (هذا فصل من فصولك) أي (هذه خدعة من خدعك) . ويقولون (سمع فلان من فلان فصلاً) اي (تعرض لتقريعه وتوبيخه) ... الخ .

وما قيل في كلمة (فصل) يقال مثله في كلمات اخرى كثيرة ، مثل كلمة (رأس) فهناك الرأس الذي هو جزء من الجسم ، ورأس القوم أي كبيرهم ، والرأس من الماشية اي الواحد منها ، ورأس السنة أي

---

١ ـ انظر المرجع نفسه . ص ٢٠٤

مبدأها ، ورأس العين اي منبعها ، ورأس الحكمة أي جماعها ...الخ الخ.

وفي حالة التأقلم ليس من الضروري ان يقضي المعنى الجديد على ما سبقه من المعاني ، بل يمكن لكل المعاني ان تبقى حية في اللغة . وتصبح الكلمة التي تأقلمت مع كل العبارات من نوع المشترك اللفظي(١) .

★ ★ ★

ترجع اكثر التبدلات التي تصيب الدلالة الى ثلاثة أنواع :

١ ـ التخصيص . ٢ ـ التعميم . ٣ ـ الانتقال

فأما التخصيص فهو الانتقال بالكلمة من معنى عام واسع الى معنى اخص منه وأضيق . وذلك كالتخصيص الذي حدث للكلمات (الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، والوضوء ، وغيرها) . اذ كانت (الصلاة) تعني كل (صلة) بين اثنين ، ثم خصصت بالصلة بين العبد وربه في حركات معلومة مخصوصة . وكذا (الصوم) الذي كان يعني الانقطاع عن كل شيء ، ثم خصص بالانقطاع عن الطعام والشراب والنكاح في اوقات مخصوصة . ومثل ذلك (الحج) ، وكان يعني القصد عامة وإلى كل مكان ، ثم خصص بزيارة مناسك مخصوصة في اوقات مخصوصة . اما (الزكاة) فكانت تعني النماء عامة ، ثم اصبحت لا تعني إلا ضريبة معلومة على المال اذا حال عليه الحول . وكان (الوضوء) يعني النظافة عامة ، ثم اصبح لا يعني إلا غسل اعضاء مخصوصة ... الخ .

واما التعميم فهو انتقال بالكلمة من معنى ضيق الى معنى اوسع منه .

---

١ ـ راجع فصل الاشتراك والترادف من هذا الباب .

وذلك كالتعميم الذي حدث لكلمة (نتج) . اذ المعروف ان هذه الكلمة لم تكن تعني إلا إلقاح الرجل لناقته لتلد له فصيلاً ، ثم استعملت ـ وفي صيغة (انتج) ـ لكل إحداث لشيء ، سواء اكان المحدث من نوع الابل أم كان من غيره .

وأما الانتقال فهو تحول الكلمة من معنى إلى آخر يختلف عنه كل الاختلاف ، فلا هو أضيق منه ولا أوسع ، وذلك كانتقال كلمة (قلب) من معناها المعروف لها في الفصحى الى معنى (البطن) في عامية حلب .

تجري عمليات التخصيص والتعميم والانتقال بصورتين : شعورية ، وغير شعورية .

فأما الشعورية فتقع من العلماء والمشرعين والمخترعين وغيرهم عند حاجتهم الى التعبير عن اشياء جديدة في القانون او العلوم او الفنون او الصناعات المختلفة . وهذا النوع من العمليات لا يهتم له فقه اللغة كثيراً ، اذ هو تابع لنزوات الأفراد ، وليس حالة عامة .

وأما غير الشعورية فتقع من الناس جميعاً لدواع نفسية لا سلطان لنزوات الافراد عليها . وهذه هي التي يهتم لها فقه اللغة محاولاً الكشف عن الاسباب التي تؤدي إليها :

١ ـ حالة التخصيص :

في كل لسان كلمات عامة ذات دلالة عامة مثل : عملية ، وموسم ، ودابة ، وغيرها . ولكن الناس لا يستعملون هذه الكلمات بمعانيها العامة ـ إلا اذا استثنينا الفلاسفة منهم ـ بل يفهم منها كل امرىء ما يتعلق به وحده . فالموسم عند مربي الماشية هو زمن ولادة الاناث منها ، والموسم عند بائع

العاطف هو الشتاء ، والموسم عند المزارع هو وقت الحصاد . واما العملية فهي بالنسبة الى الطبيب قطع عضو من الاعضاء ، وهي بالنسبة الى العسكري معركة من المعارك . وكذا الدابة ايضاً ، فهي لا تعني عنـــد الفلاح إلا البغل أو الكديش ، ولا تعني عند الجزار إلا الواحـــدة من الغنم ... وهكذا . فمن ثم ينشأ التخصيص غير الشعوري .

٢ ـ حالة التعميم :

وهي اندر من حالة التخصيص ، إلا أنها واقعة في كل لسان . وتحدث عندما يخفى على المتكلم الفروق الدقيقة بين النوع والجنس . فيسهل عليـه ان يطلق اسم الجنس الخاص على النوع الذي هو اعم منه . هذا هو الذي يحدث عندما يطلق الناس اليوم كلمة (الورد) على نوع الازهار كلهـا ، ما كان منها ورداً أو فلاً أو قرنفلاً أو غير ذلك .

٣ ـ حالة الانتقال :

وتجري عادة بين الاشياء التي هي من فصيلة معنوية واحـــــدة ، كاسماء الالوان ، واعضـاء الجسم واسماء الحواس وغير ذلك . وهذا يفسر اطلاق العامة عندنا كلمـة (الذقن) على (اللحيـة) و (الجبين) على (الجبهة) و (القلب) على (البطن) و (الساق) على (الفخذ) و (الحس) على (الصوت) وغير ذلك .

فهرس الأعلام

تنبيه : حرف (ح) يشير الى ورود العلم في الحاشية .

الباء

التاء

الثاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

الراء

الزاي

الطـاء

العـين

الغـين

الفـاء

القـاف

المـراجـع بالعربيـة

١ ـ الابدال لابي الطيب اللغوي ، دمشق ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م

٢ ـ الاحكام في اصول الاحكام لسيف الدين الآمدي ، مصر ١٩١٤ م

٣ ـ إحياء النحو لابراهيم مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م

٤ ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب ، لابي حيان النحوي ، مخطوط في الاحمدية بحلب رقم ٨٩٩

٥ ـ الاشباه والنظائر للسيوطي ، الهند ١٣٥٩ ـ ١٣٦١ هـ

٦ ـ الاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربي ، الطبعة الثانية القاهرة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م

٧ ـ الاصوات اللغوية لابراهيم أنيس ، مصر

٨ ـ الانصاف لابن الانباري ، القاهرة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م

٩ ـ البيان والتبيين للجاحظ ، مصر ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ م

١٠ ـ تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري

١١ ـ تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون ، مصر ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م

١٢ ـ تاريخ اللغة العربية لجرجي زيدان ، مصر ١٩٠٤ م

١٣ ـ التطور اللغوي التاريخي لابراهيم السامرائي ، القاهرة ١٩٦٦ م

١٤ ـ تهذيب المقدمة اللغوية لأســـعد علي ، بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م
١٥ ـ الخصائص لابن جني ، القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م
١٦ دراسات في العربية وتاريخها لمحمد الخضر حسين ، الطبعة الثانية دمشق ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م
١٧ ـ دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ، الطبعة الثالثة بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨ م
١٨ ـ دراسات في اللغة لابراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٦١ م
١٩ ـ دلالة الالفاظ لابراهيم انيس ، القاهرة ١٩٥٨ م
٢٠ ـ الرسالة الامام الشافعي ، مصر ١٩٣٨ م
٢١ ـ روفائيل للامرتين ، ترجمة الزيارات . مصر
٢٢ ـ سر صناعة الاعراب لابن جني ، مصر ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م
٢٣ ـ شرح المفصل لابن يعيش ، مصر
٢٤ ـ شفاء الغليل للخفاجي ، مصر ١٣٢٥
٢٥ ـ الصاحبي لابن فارس ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م
٢٦ ـ العربية ليوهان فك ، القاهرة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م
٢٧ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م
٢٨ ـ علم اللغة لعلي عبد الواحد وافي ، مصر ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢م
٢٩ ـ علم اللغة لمحمود السعران ، مصر ١٩٦٢ م
٣٠ ـ الغربال لميخائيل نعيمة ، مصر ١٩٤٦ م
٣١ ـ فقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي ، مصر ١٩٤٤ م
٣٢ ـ فقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك ، الطبعة الثالثة بيروت ١٩٦٨ م

٣٣ ـ فلسفة اللغة لـكمال يوسف الحاج ، الطبعة الأولى بيروت

٣٤ ـ الفلسفة اللغوية لجرجي زيدان ، الطبعة الثالثة مصر

٣٥ ـ في أصول النحو لسعيد الافغاني ، دمشق ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م

٣٦ ـ في النحو العربي لمهدي المخزومي ، صيدا ـ بيروت ١٩٦٤ م

٣٧ ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي ، الطبعة الرابعة مصر ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م

٣٨ ـ الكتاب لسيبويه ، بولاق ١٣١٦ هـ

٣٩ ـ اللغة لفندريس ، القاهرة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠ م

٤٠ ـ اللهجات العربية لابراهيم انيس ، مصر

٤١ ـ مثالب الوزيرين لابي حيان التوحيدي ، دمشق ١٩٦١ م

٤٢ ـ المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، لاغنا طيوس غويدي رومية ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣٠ م

٤٣ ـ المزهر للسيوطي ، مصر ١٣٢٥ هـ

٤٤ ـ المعجمية العربية لمرمرجي الدومينيكي ، القدس ١٩٣٧ م

٤٥ ـ المعرب للجواليقي ، القاهرة ١٣٦١ هـ ـ ١٩٤٢ م

٤٦ ـ مغني اللبيب لابن هشام الانصاري ، القاهرة ١٣٧٢ هـ

٤٧ ـ مقاييس اللغة لابن فارس ، القاهرة ١٣٦٦ هـ

٤٨ ـ من اسرار اللغة لابراهيم انيس مصر ١٩٥١ م

٤٩ ـ مناهج البحث في اللغة لتمام حسان ، القاهرة ١٩٥٥ م

المراجع بالفرنسية

1 — Cantineau (Jean) : Cours de Phonétique Arabe . Paris, 1960 .

2 — Cantineau (Jean) : Etudes de Linguistique Arabe . Paris. 1960 .

3 — Marouzeau (J) : La Linguistique ou Science du Langage. 3e édition. Paris, 1950.

4 — Perrot (Jean) : La Linguistique. Paris, 1953 .

5 — Schöne (Maurice) : Vie et Mort des Mots. Paris, 1951.

فهرس الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦	٧	السيمانيك	السيمانتيك
١٦	٢١	الستيليستيك	الستيليستيك
١٧	١٧	حظوه	حظوة
٢٠	٨	الطبيعية	الطبيعة
٢٣	١٩	اللغة	للغة
٢٥	٢٣	أحنك	احناك
٤٥	٨	المنشأة	النشأة
٥٠	٦	عتد	عند
٥٦	١ حاشية	الفلسفة اللغوية	فلسفة اللغة
٦٠	٦	يكتسب الانسان	يكتسب الانسان اللغة
٦٣	٤	Flexiomelles	Flexionnelles
٦٤	١٥	الجديدة	المختلفة
٧٤	٢١	عاصمة	عاصمته
٧٧	١٣	ب	ف
٩٦	٨	عزالى	غزالى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٤	١ حاشية	الشاوية	السامية
١١٨	١٩	هفملة	هفالة
١١٨	١٩	إفملة	إفالة
١٢٤	١٩	ترنوا	ترنو
١٣٨	٨	اسمة	اسمه
١٣٩	١٥	الأصواب	الأصوات
١٦١	١١	كما كا	كما كان
١٦٢	٨	ما نعرف	مما نعرف
١٧٠	٦	الحديتة	الحديثة
١٧٢	١٠	من بير	من بين
١٨٤	١٠	نصل	فصل
١٨٩	٧	فالمجهورة	فالمجهور
١٩١	١١	يأنه	بأنه
١٩٦	١٢	فاتهموا	فاتها
١٩٩	٣	قراءنا	قرائنا
٢٠١	١٣	Grammaika	Grammatika
٢١٠	٤ حاشية	حديداً كان خشباً	حديدا كان أو خشبا
٢١٦	٥	نقطه	نقطة
٢٩٦	٧	KakIe	Kahle
٢٩٩	١٨	الزجاجي	الزجاج

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣١٣	٦	وأشانه	وأشانبه
٣٢٢	١١	بالمقسم	بالمقسم به
٣٣٢	١٠	التأنيث العامية	التأنيث في العامية .
٣٦٩	٢ حاشية	للممبارك	للمبارك
٣٧٠	١٣	ترداقاً	ترادفاً
٣٧١	٣	بقولة	بقوله
٣٧٢	٢	الجزاء	الجزء
٤٢٠	١١	في القاف الصاد	في القاف والصاد
٤٢٨	٨	البابونخ	البابونج
٤٢٨	٩	واالسرقين	والسرقين
٤٣٠	٥	ئيابه	ثيابه
٤٣٦	١٦	هذه هذه	هذه
٤٤٦	٤	ما يزال	ما لا يزال

فهرس المواد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المطبعة الحديثة - حلب - العبارة الجديدة
هاتف ٢٥٩٦٦ . ص.ب ٤١٥